القاهرة

شحاتة عيسى إبراهيم

الكتاب: القاهرة

الكاتب: شحاتة عيسى إبراهيم

الطبعة: ٢٠٢٣



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

إبراهيم، شحاتة عيسى

القاهرة / شحاتة عيسى إبراهيم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٤٢٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٥ – ٥٩٧ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٧٤٢١ / ٢٠٢٢

القاهرة



مقدمة

دراسة تاريخ القاهرة وتطورها، ودراسة النواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفنية بها، هي في الواقع دراسة تاريخ مصر في العصور الإسلامية المختلفة، منذ الفتح العربي، حتى وقتنا الحالي. وهي دراسة لا يكفيها مثل هذا الكتاب بصفحاته القليلة الحاضرة، وإنما لابد لها من موسوعة يكون لها من الصفحات أضعاف هذا الكتاب، يتوفر عليها بالدرس والبحث جمهرة من الباحثين.

ولكن كان من الضروري مع ذلك أن يكون للقاهرة كتاب، تتركز فيه هذه الدراسة بقدر الاستطاعة، لتغني القارئ عن البحث في شتى المصادر. فإذا ما استهواه جانب منها، وأغراه ذلك على الاستزادة، رجع إلى الأصول والمصادر الأصلية. وهذا هو أحد الأهداف التي قصدت إليها.

ولقد طرق هذا الباب في اللغة العربية قبلي كاتبان فاضلان، كتبا عن القاهرة، أحدهما البكباشي عبد الرحمن زكي، والثاني المهندس فؤاد فرج.

وقد كتب الأول كتابه منذ اثنين وعشرين عامًا، والثاني منذ هذا الوقت تقريبا. وبذا يكون قد تقادم العهد بعض الشيء على الكتابين، ولم يدركا بطبيعة الحال التطور الحديث الذي طرأ على القاهرة. هذا فضلا عن أن لكل منهما منهجه الذي يختلف عن منهج الكتاب الحالي. ومع ذلك فقد كان لهما فضل السبق، والفضل كما يقولون للمتقدم.

وكتبت عن القاهرة في اللغات الأجنبية كتب قليلة، أو وردت عنها إشارات في كتب الرحالة الإفرنج، غير أن هؤلاء الكتَّاب لم يكونوا دائما صادقي التعبير عن القاهرة، فلأغلبهم أهداف خاصة من كتاباتهم، ونواح معينة تستهويهم، عندما يكتبون عن القاهرة، أو عن مصر والمصريين، ليست صادقة تماما. هذا فضلا عن عدم إحاطتهم بالمصادر الأصلية، وجهل أكثرهم باللغة العربية وآدابها.

غير أن للمستشرق الإنجليزي ستانلي لينپول كتابا عن القاهرة هو "The Story of Cairo" كتبه عام ١٩٠٠م، أي أنه مضى على ظهوره قرابة ستين عامًا، وكان يعتبر من أحسن ما كتب عن القاهرة إلى ذلك الحين. وقد نقل إلى اللغة العربية عام ١٩٥٠ بعنوان (سيرة القاهرة). كذلك ظهر عام ١٩٣٣ كتاب بالفرنسية عن القاهرة للأستاذ M.Clerge ، عالج النواحي الاقتصادية للقاهرة بإفاضة وإسهاب.

لذلك كتبت كتاب القاهرة الحالي، وعالجت فيه تطورها التاريخي حتى وقتنا الحاضر. ولهذا كان ضروريا أن أمهد للكلام عن القاهرة بذكر الحواضر التي سبقتها منذ الفتح العربي، وهي الفسطاط والعسكر والقطائع، ثم أتابع تطورها ونموها في العهود اللاحقة بعد إنشائها. وعالجت في كل مرحلة من هذه المراحل النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية.

وبهذا انقسم الكتاب إلى تسعة أبواب هي:

١- الفسطاط ٢- العسكر ٣- القطائع ٤- القاهرة المعزية ٥- قاهرة صلاح الدين ٦- قاهرة المماليك ٧- القاهرة في عهد العثماني ٨- القاهرة في القرن التاسع عشر ٩ - القاهرة في عهد الثورة.

ثم اختتمت البحث بفصل عن قاهرة الغد، أبنت فيه عن عيوب القاهرة والتخطيط المقترح لها. وقد قسمت كل باب إلى فصول، تعالج تطور المدينة، وتشرح نواحيها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية كما ذكرت آنفا.

وهدف آخر حفزني إلى تأليف هذا الكتاب، ذلك هو رغبتي في أن يتسع أفق النظر ودائرة التفكير عند شبابنا، الذين يقتصرون عند درسهم تاريخ مصر الإسلامية على الأحداث التاريخية، دون التوغل قليلا في درس النواحي الاقتصادية والثقافية والفنية، أو الإلمام بصفة خاصة بما خلَّفه الأقدمون من آثار وتحف. وقلَّما يعني هذا الشباب بزيارة للمتحف الإسلامي، القائم بين ظهرانينا، في قلب القاهرة، لاستجلاء مفاتن الفن الإسلامي، وتتبع أدوار تقدمه ورقيه. ونادرا ما يكلف نفسه عناء البحث عن منشئ هذا المسجد أو ذاك، والعصر الذي شيد فيه، ومكانه من الطرز الإسلامية المختلفة، والدور

الذي أداه في عصره والعصور التالية في النواحي الدينية والثقافية والاجتماعية. كما أنه لا يعني كثيرا أو قليلا بالبحث في أحياء القاهرة الحالية، وأسواقها، وشوارعها، وحاراتها، وكيف تطورت، والعادات الحالية، ومتى نشأت، وكيف تسللت إلى عصرنا الراهن.

ومن الغريب أن يعنى بكثير من هذه الأمور السائحون والرحالة الذين يتوافدون على القاهرة، ولا يعيرها التفاتا شبابنا وكثير من المثقفين منا. فلعل هذا الكتاب، مع قصوره عن توضيح هذه النواحي كل الإيضاح، يغري الشباب على البحث والقراءة والملاحظة وتقصِّي الحقائق، والكشف عن آثار السلف الصالح، وإظهار جهود العاملين، من آبائنا الأقدمين، في شتى نواحي الحياة.

وفضلا عن المتعة التي أرجو أن يشعر بها الشباب حينئذ، فلا مشاحة في أن هذه هي سبيل المواطن المستنير، الذي يجب أن يلم بكل ما يتصل ببلاده، ويعرف لها قدرها ومكانها في نشر الحضارة والمدنية قديما، بين أمم العالم، عندما لم تكن حضارة سوى الحضارات الإسلامية، بينما كانت أوروبا تتخبط في ظلمات الجهل، وتضرب في بيداء الهمجية.

ولست أطمع في أن تصادف جميع فصول هذا الكتاب قبولا لدى جميع القراء، ولكني أعتقد أن ما من قارئ إلا وسيجد ناحية فيه تستهويه، ومع ذلك فالمقدمات التاريخية، التي يتقدم بها المؤلف لكل موضوع، يتألف منها تاريخ مركز لمصر، منذ الفتح العربي حتى الوقت الحاضر، يهم القارئ المتعجل. كذلك تطور القاهرة في عصورها المختلفة، وتتبع الأحياء والشوارع الجديدة. وما تخلل ذلك من معلومات طريفة، كلها نواح يحتاج إلى معرفتها والإلمام بها سكان القاهرة بصفة خاصة، والمواطنون أجمعون بصفة عامة.

وأخيرا، لقد شجع كثير من الزملاء المؤلف على المضي في مجهوده المتواضع الحاضر، الشاق في نفس الوقت. ولولا هذا التشجيع، لما قدر له الظهور إلى عالم الوجود، والوصول إلى أيدي القراء، لكثرة الأعباء الملقاة على عاتقه، التي تتطلبها وظيفته، وعمله في التفتيش، متنقلًا عامًا بعد آخر، من إقليم إلى إقليم، ومن بلد إلى بلد.

ويرى المؤلف لزاما عليه أن يقر بفضل هؤلاء الزملاء، والسادة العلماء، الذين نقل عنهم، واستقى من معينهم، وأفاد من علمهم، وترى أسماءهم مسطورة في ثبت المصادر المسجلة في نهاية الكتاب وفي حواشيه، وهو يرجو للأحياء منهم طول العمر، وموفورة القوة، ليتابعوا جهودهم في أداء رسالتهم، نحو العلم والمعرفة، وللذين قضوا، رحمة من الله ورضوانا.

غير أني أود أن أخص بالشكر وعرفان الجميل السيد الأستاذ حسن عبد الوهاب، كبير مفتشي الآثار الإسلامية، لبذله كثيرا من العون لي، طواعية وعن طيب خاطر، وتفضله بمراجعة كثير من فصول هذا الكتاب، وإمدادي بملاحظاته الثمينة، وبكثير من الصور من مجموعته القيمة الحافلة، والزميل الدكتور عبد الرحمن زكي، الذي تفضل بالاطلاع على أصول الكتاب، وكانت له ملاحظات قيمة أفدت منها كثيرا، والزميل الأستاذ عبد العزيز عبد الحق، المدير المساعد بإدارة الثقافة، لتطوعه لقراءة الكتاب قراءة أخيرة، وإفادتي من علمه الغزير ورأيه السديد.

كما أشكر للسيدين الأستاذ صادق فرج فريج، المدرس بمدرسة القربية الإعدادية، لتفضله برسم بعض خرائط الكتاب، والأستاذ محمد إبراهيم سيد أحمد، المدرس الأول بمدارس المعلمين العامة، لتفضله بإمدادي ببعض الصور التي وردت في الكتاب، ومعاونته معاونة مشكورة في عمل الكشاف المسطور في نهاية الكتاب.

والله أرجو، وإليه أبتهل أن يكلأ الكنانة برعايته، والجمهورية العربية المتحدة بعين عنايته، وأن يوفق القائمين على أمرها من نصر إلى نصر ومن خير إلى خير، فيعظم شأنها، وتثبت دعائمها، ويمتد ظلها ويعلو في السماء غرسها، ويرتفع رأسها عاليا بين أمم الأرض، إنه سميع مجيب.

شحاتة عيسى إبراهيم

تمهيد

نشأة القاهرة وتطورها

تتألف القاهرة الحالية من أربع مدن قديمة، كانت كل واحدة منها عاصمة حقبة من الزمان، وتعاقبت في الظهور، الواحدة تلو الأخرى، وتمثل كل منها طورا في حياة العهد الإسلامي بمصر، والنظم السياسية، والحياة الاجتماعية والاقتصادية بها. هذه المدن هي على الترتيب: الفسطاط، والعسكر، والقطائع، والقاهرة المعز. والمشاهد أنها جميعا تقع فيما بين شاطئ النيل الشرقي وتلال المقطم. وكان طبيعيا أن تلي الواحدة الأخرى ناحية الشمال، أو بعبارة أخرى أن يكون نمو القاهرة وامتدادها من الجنوب إلى الشمال، ما دامت تلال المقطم تقف حائلا دون نموها ناحية الشرق، والنيل من ناحية الغرب. هذا إذا استثنينا الأرض التي كان النيل يطرحها على شاطئه الشرقي، بعد أن يتحول ناحية الغرب، إذ المعروف أن النيل كان يحف بجدران جامع عمرو وقت إنشائه، ولكنه ابتعد عنه اليوم مسافة تزيد على خمسمائة متر.

فالفسطاط أول حاضرة لمصر الإسلامية، وأقدم الحواضر الإسلامية بمصر جميعا. أنشأها عمرو بن العاص عقب فتحه لمصر سنة ٢٠ هـ (٦٤١م).

وظلت مركز السيادة طوال عصر الخلفاء الراشدين، والدولة الأموية. فلما أفل نجم الأمويين، ودالت دولتهم، وقامت على أنقاضها دولة بني العباس، أنشأ أبو عون عبد الملك بن يزيد، والي مصر من قبل الخليفة أبي العباس عبد الله السفاح، أول الخلفاء العباسيين مدينة العسكر سنة ١٣٣ هـ (٧٥١م)، واتخذها قصبة لولايته.

ولما آل حكم مصر إلى الأمير أحمد بن طولون، أنشأ له عاصمة جديدة سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠ م)، هي مدينة القطائع، وظلت كذلك طوال عصر الطولونيين والإخشيديين.

فلما غزا الفاطميون مصر، كان أول ما قام به جوهر الصقلي، قائد المعز لدين الله الفاطمي، بعد أن امتلك زمام مصر، وأخضعها لنفوذ الفاطميين، أن أنشأ عاصمة جديدة

سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م). تلك هي القاهرة المعزية، التي انتقلت إليها حاضرة مَلك الفاطميين، ومركز سيادتهم من شمالي أفريقية. وانتشر في الخافقين صيتها، وذاعت شهرتها، حتى فاقت بغداد وقرطبة، وصارت في وقت من الأوقات عاصمة العالم الإسلامي بأسره، ومركز تلاقي شعوبه، ومبعث النشاط والثقافة والعلوم الإسلامية.

فلما قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية، وأنشأ دولته الأيوبية، شرع يجمع العواصم الأربع سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦م) في صعيد واحد، ليتخذ منها عاصمة موحدة، تتفق وجلال إمبراطوريته، وعظمة مُلكه. ولهذا الغرض، ولكي تكون قادرة على رد هجوم الأعداء، والصمود أمام غارات المغيرين، أخذ يحيطها بسور عظيم. ولكنه توفي قبل إتمامه، فأتمه خلفاؤه من بعده. ويمتد من أثر النبي، جنوبي الفسطاط وينتهي عند قلعة المقس.[1]

ظلت القاهرة منذ عهد الفاطميين حتى الوقت الحاضر عاصمة البلاد، وحاضرة المُلك، ومركز السيادة فيها، ولم يقتصر تخطيطها على الحدود التي حددت بها وقت أن أنشأها الفاطميون، بل ظلت تمتد شمالا وغربا مسافات طويلة، ولم يقف النيل عقبة في سبيل امتدادها غربا، بل إنها تزداد مساحة، عاما بعد عام، ويتوالى زحفها باستمرار، حتى تلاقت بحدود مديرتي الجيزة والقليوبية، وذلك بفضل ما أنشئ على النيل من قناطر (كباري) ربطت بين شاطئ النيل، وجعلت امتداد القاهرة ناحية الغرب أمرا ميسورا وضروريا، لمقابلة الزيادة المطردة في عدد السكان.

هذه نظرة عابرة، تصور تاريخ القاهرة، وأدوار تطورها، والآن نتناول ما أجملنا بالشرح والتفصيل.

---

(١) يحدد مكانها المرحوم العلامة محمد بك رمزي بعمارتي الأوقاف وراتب باشا المجاورتين لجامع أولاد عنان، من الجهة البحرية الشرقية بميدان باب الحديد —حاليا ميدان رمسيس— (حاشية رقم ٤ ص ٣٩ ج ٤ من كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي).

الباب الأول

الفسطاط

-١-

لما أتم عمرو بن العاص فتح مصر سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) [١]، وأجلى الروم عن الإسكندرية، آخر معقل لهم بمصر، وانقشع كل أمل لهم[٢] في مزاحمة العرب على امتلاكها، عندئذ انصرف القائد العربي إلى تنظيم البلاد تنظيما يتفق ومقتضيات العهد الجديد، الذي تستقبله البلاد، ألا وهو العهد الإسلامي المبارك. فكان في مقدمة ما عنى به من الأمور تخير مكان يرابط فيه جيشه، وليكون مقرا لحكم البلاد، بعد أن نهاه الخليفة عمر بن الخطاب عن المقام بالإسكندرية، حاضرة الروم في مصر[٣].

اختيار موقع الفسطاط:

والواقع أن الإسكندرية وإن اتفقت مع حكم الروم لمصر، فلم تكن لتتفق بحال من الأحوال مع حكم العرب؛ فوقوعها في أقصى شمال مصر، جعلها أقرب إلى روما أو بيزنطة (القسطنطينية) من أي بلد مصري آخر.

ولكنها أبعد من أي بلد من البلاد المصرية، بالنسبة إلى المدينة المنورة، قصبة الدولة العربية، التي صارت مصر لها تبعا. يضاف إلى ذلك أنها في موضع يشق على الجنود العربية أن تشخص منه إلى أطراف القطر، إذا ما دعا إلى ذلك داع سريع. كذلك الأمر بالنسبة للوالي، فإنه يصعب عليه أن يشمل البلاد جميعها بعين ساهرة، من مكان قصي كالإسكندرية جال عمرو ببصره في أنحاء البلاد، فوقع اختياره على السهل الذي يلي بابليون الحصن الروماني الشهير، من ناحية الشمال، والذي يحده جبل المقطم من شرقيه،

ويقع النيل في غربيه، وهو الذي كان يعسكر فيه بجنوده، إبَّان فتح الحصن. وقد كانت تقوم تجاه هذا الموضع، في الضفة المقابلة للنيل، مدينة منف القديمة، فصار النيل يربط العاصمة القديمة بالعاصمة الحديثة، وإن فرقت بينهما القرون والأجيال.

وقد أطلق على ذلك المكان اسم الفسطاط، وهو الذي صار نواة العاصمة الجديدة. وقبل أن نمضي في تحديد موضع الفسطاط، ووصف خططها ودورها، والحياة بها، يجدر بنا أن نعرض لهذه التسمية ومنشأها، وما أحاط بها من آراء.

تسمية الفسطاط:

يروي المؤرخون العرب في سبب تسمية الفسطاط بهذا الاسم قصة، ملخصها أن عَمْرًا لما أراد التوجه لفتح الإسكندرية، أمر بنزع فسطاطه –أعني خيمته– فإذا فيه يمامة قد فرخت. فقال عمرو: «لقد تحرَّم منا بمتحرَّم» فأمر به فأقر كما هو، وأوصى صاحب القصر به. فلما قفَل المسلمون من الإسكندرية، قالوا: «أين ننزل؟» قالوا: "الفسطاط"، يعنون فسطاط عمرو، الذي خلّفه بمصر، مضروبا لأجل اليمامة، فغلب عليه ذلك.(٤)

ولكن مؤرخي الفرنجة، ومن نحا نحوهم، ينكرون هذه القصة، ويرون أنها من نسج الخيال، ويشكون في تأويل كلمة الفسطاط بالخيمة.(٥)

ومبعث ذلك عنهم أنهم يرتابون في أن العرب استخدموا الخيام في حروبهم في ذلك الوقت(٦)، ويرجعون كلمة الفسطاط إلى اللفظ اليوناني (فساطم) المشتق من اللفظ اللاتيني "Fossatum"، والذي يطلقه الرومان على معسكراتهم الحربية(٧)، أو المدن الحصينة، وقد سمعه العرب من الروم عند فتح الشام، أو عند حصارهم لحصن بابليون.

ورفض قصة اليمامة لمجرد شك من جانب مؤرخي الفرنجة هو تعسف لا يبيحه منطق. بل إن الذي يؤيده التاريخ عكس ما يذهب إليه هؤلاء.

فقليل من المعرفة بحياة البدو وعاداتهم لا تترك شكا في أن العرب اتخذوا الخيام مساكن لهم، وبيوتا يأوون إليها في الصحراء. وتلك ميزة تميز بها سكان البادية عن سكان الحضر "والله جعل لكم من بيوتكم سكنا، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم

ظعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين".

وإذا كانوا قد أفادوا من الخيام في وقت السلم، فأحرى بهم أن يفيدوا منها في حروبهم، لا سيما إذا كانوا يحاربون في قطر غير قطرهم، وبلاد هم غرباء عن أهلها، وليس لهم ما يأوون إليه فيها سوى ما يحملون من خيام. ولا شك أن عَمْرًا كان يتخذ لنفسه واحدة منها، هي التي أفرخت اليمامة فيها.

وهنالك مع ذلك أدلة تاريخية تثبت أن العرب استخدموا الخيام في حروبهم، قبل فتحهم مصر، فقد جاء في السيرة الحلبية في الكلام عن غزوة الطائف ما ننقله بحروفه: "وكان معه – صلى الله عليه وسلم– من نسائه أم سلمة وزينب، رضي الله تعالى عنهما، فضرب لهما قبتين، وكان يصلي بين القبتين الصلاة مقصورة، مدة حصار الطائف، وكانت ثمانية عشر يوما ودخل، – صلى الله عليه وسلم– خيمة أم سلمة، وعندها أخوها عبد الله.. إلخ"(٨).

فالشك في أن العرب استخدموا الخيام في حروبهم، وقت فتحهم مصر، مردود، ولا محل له، وليس ثمة شك في أنه كان لعمرو فسطاط أو خيمة، يقيم فيها في أثناء حصار العرب لحصن بابليون، وبذلك يسقط اعتراض مؤرخي الفرنجة على قصة اليمامة، وهي لا شك صحيحة، ولا يضيرها أن كلمة فسطاط تعني أيضا «مجتمع الناس» أو «المدينة الحصينة»، وأن العرب سمعوا هذه المعاني عند فتحهم الشام، أو عند حصارهم لحصن بابليون، وأن بعض الحروف في كلمة (**Fossatum**) تتفق وحروف كلمة فسطاط، فليس ذلك يمنع من أن تكون قصة اليمامة صحيحة.

ـ ٢ ـ

تحديد موقع الفسطاط

والآن نمضي إلى تحديد موقع العاصمة الجديدة، وذكر كلمة عن خططها، ومبانيها، واتساع رقعتها، وذيوع شأنها، وليس من شك في أنه من الصعوبة بمكان أن يحاول المرء رسم حدود دقيقة، لمدينة انقضى على إنشائها نيف وثلاثمائة وألف سنة، مثل مدينة الفسطاط

لسببين رئيسيين:

أولًا: إن هذه المدينة لم تظل على حالها الأول حين خططت في عهد عمرو بن العاص، فلم يكن يبغي منها سوى أن تكون مقرا لعسكره، ومقاما لقواده وأعوانه. ولم يدر أنه يضع أساس عاصمة جديدة للبلاد، ما لبثت أن صارت مقر الحكومة، ومبعث النشاط الاقتصادي في القطر كله، ومركزا هاما من مراكز الحياة العلمية والفنية في العالم الإسلامي بأسره. فأخذ هذا المعسكر بطبيعة موقعه الجغرافي يمتد شمالا، إذ كان الجبل يحول دون امتداده شرقا، كما يحول النيل كذلك دون امتداده غربا.

ثانيا: اندثار كثير من المعالم التي يمكن الاستدلال بها على تحديد موقعها. فالروايات التاريخية التي تحدد موقع مدينة الفسطاط، وفي مقدمتها رواية المقريزي، إنما تحدد موقعها بعد إنشائها بقرون عدة، تزيد على ستة قرون، وبعد أن وصلت إلى أوج عزها، ثم توالت عليها صروف الزمان ونوائبه، ومع بعد الشقة بين عصر المقريزي والعصر الذي بنيت فيه المدينة، فقد كانت روايته في تحديد موقع الفسطاط وما زالت أساسا لجميع من حاولوا الكشف عن آثارها، وفي مقدمة هؤلاء المرحوم علي بهجت سنة ١٩١٤م(٩).

ويقول المقريزي: "إن مدينة مصر محدودة بحدود أربعة، فحدها الشرقي اليوم –أي سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م)– من قلعة الجبل، وأنت آخذ إلى باب القرافة، فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر إلى كوم الجارح، وتمر من كوم الجارح وتجعل كيمان مصر كلها عن يمينك حتى تنتهي إلى الرصد، حيث أول بركة الحبش(١٠) تحت الرصد، حيث انتهى الحد الشرقي، فهذا عرض مصر من جهة الجنوب حيث ابتدأ الحد الغربي إلى قلعة الجبل، حيث ابتدأ الحد الشرقي، فهذا عرض مصر من جهة الشمال، التي تعرف بمصر بالجهة البحرية. وما بين هذه الجهات الأربع يطلق عليه الآن مصر".

وقد انتهى المرحوم علي (بك) بهجت(١١) بعد تطبيقه رواية المقريزي السابقة على بقايا الفسطاط، ومقارنة المباني التي وجدت في وسطها بتلك التي وجدت في أطرافها، إلى تحديد

الفسطاط على النحو الآتي:

الحد الشمالي: ويقع بين كوم الجارح وقنطرة السد.

الحد القبلي: ويمتد ما بين الرصد(١٢) –وكان قائما على ذروة الشرف المطل على بركة الحبش– وشاطئ النيل غربا.

الحد الغربي: الشاطئ الأيمن للنيل، وهذا الحد كان يتنقل على تتابع السنين مع تنقل الجسر نحو الغرب.

الحد الشرقي: وكان يمتد لما وراء الحد الذي عينه المقريزي، أي إلى حدود القرافة الحالية، ويسير جنوبا حتى الرصد.

ولقد استمرت الفسطاط عاصمة للديار المصرية ودارا للإمارة، ينزل بها أمراء مصر، حتى بنيت العسكر، بظاهر الفسطاط سنة ١٣٣ هـ (٧٥١ م)، فنزل فيها أمراء مصر وسكنوها. فلما شيد أحمد بن طولون مدينة القطائع، سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) وأقام فيها، سكنها أمراء مصر أيضا، وظلوا يسكنونها إلى أن انقرضت دولة بني طولون، فعادوا إلى العسكر، وأقاموا بها إلى أن قدم إلى مصر جوهر الصقلي، قائد المعز لدين الله الفاطمي، وشيد القاهرة. غير أن الرعية استمرت تسكن الفسطاط، التي بلغت من وفرة العمارة وكثرة السكان ما جعلها من أكبر المدن العالمية إذ ذاك.

حريق الفسطاط:

وما زالت الفسطاط في نمو وازدهار حتى قدم إلى مصر أموري ملك الصليبيين، ونزل بجنوده على بركة الحبش، يريد الاستيلاء على الفسطاط والقاهرة، فأمر شاور بن مجير السعدي، وزير العاضد الفاطمي، الناس بإخلاء الفسطاط، واللحاق بالقاهرة. وغلا ثمنه "وبلغ كراء الدابة من مصر إلى القاهرة بضعة عشر دينارا، وكراء الجمل إلى ثلاثين ديناراً، ونزلوا بالقاهرة في المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات".(١٣)

وأمر شاور بإحراق الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م)، وأرسل لذلك "عشرين ألف قارورة نفط، وعشرة آلاف مشعل نار، فرق ذلك فيها، فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى

السماء، فصار منظرا مهولا، واستمرت النار تأتي على مساكن مصر لتمام أربعة وخمسين يوما". [١٤]

فلما رحل أموري عن البلاد أخذ الناس يعودون إلى الفسطاط، ويصلحون ما تلف من أبنيتها شيئا فشيئا. ولكن ذلك كان قاصرا على القسم الغربي من الفسطاط، فيما بين جامع عمرو وشاطئ النيل. أما القسم الشرقي منها فظل خرابا حتى يومنا هذا، وفي ذلك يقول المقريزي: «ولم تزل الفسطاط في نقص وخراب إلى أيامنا هذه»، أي حتى القرن الخامس عشر الميلادي.

تخطيط الفسطاط[١٥]:

وبعد أن وضع عمرو بن العاص أساس جامعه سنة ٢١ هـ (٦٤١ – ٦٤٢ م)، وكَل إلى أربعة من قواده تخطيط الأرض حول الجامع إلى خطط، وإنزال كل قبيلة بخطتها، وهم[١٦]: معاوية بن حدي التجيبي، وشريك بن سُمي العطيفي، وعمرو بن قحزم الخولاني، وحيويل بن ناشرة المعافري.

فأخذت كل قبيلة في بناء مساكنها، وكانت بسيطة في عمارتها وتخطيطها، تتكون كل منها من طابق واحد. وكان لكل قبيلة مسجدها الذي تقام فيه الصلوات الخمس. أما جامع عمرو، فهو المسجد الجامع الذي تقام فيه الصلوات الجامعة، وهي صلاة الجمعة، وصلاة العيدين. كما كان يجتمع فيه الوالي بعماله وقواده للنظر في شئون البلاد، ويفصل في المظالم التي ترفع إليه، ويخطب الناس كلما اقتضى الأمر. وكان يجلس فيه القضاة للقضاء، بعد أن فصلت وظيفة القضاء عن الوالي. ويحضر فيه الناس دروسا في الدين والحديث والفقه عن أعلام المسلمين والمتفقهين في الدين، لتبصير الناس بأمر دينهم ودنياهم.

ومن تلك الخطط خطة مهرة، وخطة تُجيب، وخطط لخم وجذام، وخطة بني بحر وهم قوم من الأزد، وخطة ثقيف، وخطة غافق، وخطة حضرموت، وخطة يَحصب، وخطة المعافر، وخطة سبأ، وخطة بني وائل، وخطة القَبَض، وخطة مَذحج، وخطة بني غُطيف وبني وعلان، وخطة بَلِي، وخطة خَولان، وخطة الصدف، وخطة غَنب، وخطة سلامان، وخطة

السُلف، وخطة رُعَين، وخطة الكَلاع، وخطة نافع، وخطة مراء، وخطط الحمراوات والفارسين.(١٧) وأغلب أصحاب تلك الخطط من عرب الجنوب أو اليمنية. أما عرب الشمال أو قيس فكانوا أقل أقلية ضئيلة. وإنما تكاثروا في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ)، حيث انتقلت إلى مصر بطون كثيرة منها. ولكنهم لم ينزلوا الفسطاط وإنما نزلوا الحوف الشرقي.

وقد عرف من بين تلك الخطط خطة أهل الراية، وهم جماعة من قريش والأنصار وخزاعة، وتمتد من جامع عمرو جنوبا حتى قصر الشمع، وخطة مهرة، وتقع إلى الجنوب الشرقي من خطة أهل الراية، كما كان لها خطة أخرى على جبل يشكر، وخطة تجيب، وتقع إلى الجنوب الشرقي من مهرة، وخطط لخم وهي ثلاث، أهمها تلك التي تقع في الشمال الشرقي من جامع عمرو. وخطة اللفيف، وكانت تلاصق خطة أهل الراية. وخطة وعلان في جنوبي قصر الشمع. وقد أفرد لغير العرب، وهم الذين لقبوا بالحمراء خطط ثلاث، تمتد من جامع عمرو حتى جبل يشكر، الذي سكنته إحدى هذه القبائل، ولذا سمي باسمها، وهذه الخطط الثلاث هي الحمراء العليا والحمراء الوسطى وتقعان داخل حدود الفسطاط، والحمراء الدنيا أو القصوى، وتقع خارج حدود الفسطاط الأصلية، من ناحية الشمال.

ولعله من المفيد أن نشير هنا إلى أن لفظ خُط، الذي ظل مستعملا إلى عهد قريب، هو نفس لفظ خِطة، الذي استعمل وقت الفتح وما تلاه، ولكن بعد ضم أوله وحذف التاء من آخره، فقد كان يقال خُط المغربلين، وخط السيدة نفيسة، وخط الحسينية وهكذا.

تراجع النيل:

ولا يتبادر إلى الذهن أن شاطئ النيل الحالي من جهة الشرق هو نفسه الذي كان موجودا وقت إنشاء مدينة الفسطاط. فالشاطئ الحالي يبعد عن الشاطئ القديم بنحو خمسمائة متر، انتقلها الشاطئ القديم نحو الغرب(١٨). هذه ظاهرة جغرافية تمتاز بها الأنهار في مجاريها الدنيا، إذ يضعف التيار هنا، فينحت في الجانب الغربي، ويبني في الجانب الشرقي، بما يجلبه معه من رواسب وطمي، وبهذا الشكل تزداد مساحة الأرض فيما جاور الساحل

الشرقي، بينما يتسع المجرى في الساحل الغربي. وهذا ما حدث بالفعل للنيل في المنطقة الممتدة حاليا من ساحل أثر النبي بمصر القديمة حتى روض الفرج.

فقد روت المصادر التاريخية أن حصن بابليون وقت الفتح، وجامع عمرو، كانا يشرفان على النيل. كذلك قرية أم دنين، التي كانت تقع في مكان جامع أولاد عنان الحالي، كانت هي الأخرى تشرف على النيل. وأن المقوقس، عندما شارع يفاوض عمرو بن العاص في شروط التسليم، خرج من باب الحصن الغربي، الذي كان يعرف بباب الحديد –وكان مشرفا على النيل– وركب زورقا عبر به النيل إلى جزيرة الروضة على الضفة الغربية. وهذا الباب الذي يوجد اليوم في كنيسة المعلقة، يبعد عن النيل حاليا بنحو خمسمائة متر، كما يبعد جامع عمرو عن النيل بنفس المسافة.

مدينة مصر:

ومن هنا يظهر أن المنطقة ما بين جامع عمرو وسيالة الروضة قد استحدثت منذ الفتح العربي لمصر[١٩]. وأن الفسطاط الأصلية تقع شرقي خط يمتد من جامع عمرو إلى قصر الشمع، الذي تعرف بقاياه اليوم بالكنيسة المعلقة، وقد شمل هذا الاسم أيضا المنطقة المستجدة، الواقعة غربي هذا الخط حتى سيالة الروضة. وقد ظلت هذه التسمية حتى آخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). فلما استولى الخراب على القسم الشرقي، اختفى اسم الفسطاط، وحل محله اسم مدينة مصر، التي تعرف اليوم باسم مصر القديمة[٢٠].

جامع عمرو:

وجامع عمرو، ويسمى تاج الجوامع، أو المسجد العتيق، هو أول مسجد أنشئ في مصر، كانت مساحته وقت إنشائه (٥٠ x ٣٠ ذراعا) أو (٢٩ x ١٧ مترًا). وأرضه يغطيها الحصى، وكان سقفه المنخفض، المصنوع من الجريد، محمولاً على دعامات من جذوع النخل. ولم يكن له صحن أو مئذنة أو محراب. وقد شيد له عمرو منبرا. ولكن الخليفة عُمر أمره بإزالته، قائلا له: «أما بحسبك أن تقوم قائما، والمسلمون جلوس عند عقبيك؟».

وكانت له ستة أبواب، بابان في كل جانب، ما عدا جانب القبلة.

وبلغ الضيق بالمصلين أنهم كانوا يصطفون وقت الصلاة خارج المسجد.

وقد كان يحيط به من الخارج طريق عرضه سبعة أذرع في بعض الجهات. فأنت ترى من وصف جامع عمرو أنه كان بدائيا في تصميمه وبنائه.

وإن البناء الحالي يختلف عن الجامع الأصلي اختلافا تامًّا. فقد هدم عدة مرات، وفي كل مرة يعاد بناؤه، ويزداد في مساحته، ويعدل تخطيطه.

ويضيق المقام هنا عن تتبع المراحل التي مر بها حتى وصل إلى شكله الحاضر. ولكنه مما لا ريب فيه أن من أهم التعديلات تلك التي أدخلت عليه في عهد «قُرَّة بن شريك»، والي مصر من قبل الخليفة الأموي الوليد ابن عبد الملك سنة ٩٣ هـ (٧١٠ م)، إذ هدمه وزاد في مساحته، وأنشأ فيه محرابا مجوفا «مقعرا»، ومنبرا خشبيا، ومقصورة. وصار للجامع أربعة أبواب، في كل من الواجهتين الشرقية والغربية، وثلاثة في الواجهة البحرية. ولم يصل المسجد إلى مساحته الحالية (١٢,٥ x ١٢٠,٥متر) إلا في سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م)، في عهد عبد الله بن طاهر، والي مصر من قبل الخليفة العباسي المأمون، فقد زاد في مساحته إلى الضعف، وكانت هذه الزيادة خاتمة الزيادات.

وقد توالت على هذا المسجد عهود من الرعاية، وأخرى من الإهمال:

ففي عهد كان مكانا لاجتماع الباعة، ولعب الأطفال والمهرجين. وفي آخر ازيِّن، واستكمل زخرفه، وحفل بالمصلين وطلاب العلم، مما استحق معه أن يسمى بتاج الجوامع.

وقد زار ناصر خسرو، الرحالة الفارسي مصر من سنة ٤٣٧ إلى سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٥ - ١٠٤٧ م) في عصر الخليفة المستنصر الفاطمي، وشاهد جامع عمرو. ومما ذكره في وصفه: "أنه قائم على أربعمائة عمود من الرخام، والجدار الذي عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الأبيض، التي كتبت عليها آيات من القرآن بخط جميل. وتحيط بالمسجد الأسواق من جهاته الأربع، وعليها تفتح أبوابه"(٢١).

وقال أيضا: "وكان يوقد في ليالي المواسم أكثر من سبعمائة قنديل، ويفرش بعشر

طبقات من الحصير الملون، بعضها فوق بعض. ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل. وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة. ولا يقل من فيه في أي وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء، والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها"[٢٢]

وفي سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨- ١١٦٩م) لحق بجامع عمرو من جراء حريق الفسطاط أضرار بالغة. فلما آل مُلك مصر إلى صلاح الدين الأيوبي سن ٥٦٨ هـ (١١٧٢م) رمَّمَّ الجامع، وجدد بعض أجزائه، وأعاد بياضه، وفي سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ – ١٣٠٣م) حدث زلزال أضر بكثير من مباني القاهرة، فتشققت جدران جامع عمرو، وانفصلت أعمدته بعضها عن بعض.

فعهد الناصر مُحَمَّد بن قلاوون إلى الأمير سلار، نائب السلطنة في تعمير الجامع تعميرا شاملا. ومن آثار هذه العمارة الشبابيك الجصية بالواجهة الغربية، والمحراب الجصي الخارجي في هذه الواجهة، الحافل بالزخارف والكتابات النسخية.

وفي سنة ١٢١٢هـ (١٧٩٧ م) أمر مراد بك، والي مصر بإصلاح المسجد، إذ كانت أعمدته قد مالت وأواوينه قد سقطت. غير أنه غير اتجاه عقود الأروقة، فجعلها عمودية على جدار القبلة، وبذلك سدت الشبابيك.

والمنارتان الباقيتان إلى اليوم هما من آثار عمارته، التي تمت في أواخر شهر رمضان من هذه السنة، فصلى فيه آخر جمعة من ذلك الشهر، فدرج ولاة مصر منذ ذلك التاريخ، إلى عهد قريب، على صلاة الجمعة الأخيرة من شهر رمضان في هذا الجامع. وقد كان هذا التقليد متبعا أيضا في عهد الفاطميين.

دار عمرو الكبرى وداره الصغرى:

وكان عمرو قد بنى لنفسه دارا شرقي المسجد عرفت باسم دار عمرو الكبرى، وبنى عبد الله بن عمرو لنفسه دارا أخرى، تلاصق دار أبيه من جهة الشمال، وقد عرفت بدار عمرو الصغرى. وفي غربي هذا الدار بنى الزبير بن العوام لنفسه دارا، ولكنها هدمت جميعا ودخلت في مساحة المسجد، عندما ضاعف عبد الله بن طاهر من مساحته.

ظلت الفسطاط عاصمة للديار المصرية منذ نشأتها سنة ٢١ هـ (٦٤١ م)، حتى سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م).

وقد نشأت الفسطاط في أول أمرها بسيطة التخطيط والمباني، ولكنها ما لبثت أن ازداد عمرانها، وكثرت دورها، وحسنت عمارتها، وتعددت شوارعها وطرقاتها، وعمرت أسواقها، وتقدمت صناعاتها، وحفلت بالفقهاء والمحدثين وأهل العلم. وبالجملة فقد أصبحت مدينة عامرة، طار صيتها، وطبقت الخافقين شهرتها، واجتذبت إليها الزائرين والسائحين من مختلف أنحاء العالم.

المباني:

وكانت الدور في أول الأمر تُبنى من اللبِّن، ومن طبقة واحدة، كما هو الحال اليوم في كثير من ريف مصر. ويحكى عن خارجة بن حذافة أنه بنى غرفة فوق داره فنهاه الخليفة عمر بن الخطاب عن ذلك، وكتب إلى عمرو بن العاص يقول: "سلام، أما بعد،

فإنه بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه، فإذا أتاك كتابي هذا فاهدمها إن شاء الله والسلام"[٢٣].

ثم أخذت عمارة الدور في التقدم بالتدريج، متمشية مع مقتضيات الأحوال، وسنة التقدم والرقي، وحاجيات السكان، وقد دلت أعمال التنقيب، التي قام بها المرحوم علي بهجت سنة ١٩١٤ م في حفائر الفسطاط، أن الدور "قوامها الآجر –الطوب المحروق– تتخلله لحامات ثخينة، ومونة متخذة من الجير والقصرمل، أو من الجير والحمرة، وبلاط من الحجر الجيري، وأنابيب مصنوعة من الفخار، وشباك من المجارير المنقورة في الصخر"[٢٤].

وتشتمل بعض هذه الدور على أفنية بوسطها فسقيات تصل إليها المياه، وتنصرف منها في مجار مبلطة. وتحيط بتلك الأفنية أروقة وقاعات وغرف، بعضها لسكنى الحريم، والبعض الآخر للاستقبال. كما يحددها من الجنوب أحواض الزهور، وتظللها من جهة

الغرب الأشجار.[٢٥]

ولكن يجب أن يكون مفهوما أن الدور التي كشفت عنها هذه الحفائر لا يمكن أن ترجع إلى عصر الفتح، وإنما ترجع إلى عصر ازدهار الفسطاط، وبلوغها أوج عزها، حوالي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

وكانت المباني تزخرف بوضع الآجر على هيئات مخصوصة، ومن ألوان مختلفة، فيوضع الحجر الأبيض والآجر الأحمر على هيئة تعاريج ومشبكات وكحلة اللحامات بمونة بيضاء ناصعة، بارزة قليلا من وجه الجدار[٢٦]. ولقد استعيض عن هذه الطريقة في العصرين الطولوني والفاطمي بطلاء الأبنية بالجص من الداخل والخارج. فلما استخدم الحجر بدل الآجر في أبنية القاهرة، منذ أواخر العصر الفاطمي، قضى بطبيعة الحال على هذه الطريقة، وصارت الزخارف تحفر في الأحجار.

وازدانت الفسطاط بكثير من الدور والقصور والبساتين، من ذلك دار عمرو الكبرى، ودار ابنه عبد الله، التي عرفت بدار عمرو الصغرى، وكانتا شرقي جامع عمرو كما أسلفنا، ودار الزبير بن العوام، غربي دار عبد الله بن عمرو. وشيد عبد الله بن سعد بن أبي سرح لنفسه قصرا كبيرا، كان يعرف بقصر الجن، لكبره وضخامته. كما أمر مروان بن الحكم ببناء الدار البيضاء التي سكنها في أثناء إقامته بمصر. كذلك أمر عبد العزيز بن مروان ببناء الدار الذهبية سنة ٦٧ هـ (٦٨٦– ٨٧ م)، غربي المسجد الجامع، وكان يطلق عليها المدينة لعظمها.

ومعروف أن الإسلام قد حض على النظافة، حتى أنه اعتبرها من الإيمان «النظافة من الإيمان»، فأمر بالوضوء قبل كل صلاة خمس مرات في اليوم، والاغتسال، لذلك كثرت بالفسطاط الحمامات، ويذكر المقريزي أنه كان يوجد بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حماما، وكانت حمامات القاهرة في عام ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) ثمانين حماما فقط.[٢٧]

وبلغ عدد الطبقات، في بعض الدور بالفسطاط، وهي في أوج عزها، ثمانيا، فبدت كالمنائر، وأسفل الدور غير مسكون. وربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس، وهذا

يدلك على سعتها، وعظم ارتفاعها.

ويقول ناصر خسرو، الرحالة الفارسي المشهور: "وترى مصر، من بعيد كأنها جبل، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات.. وبها أسواق وشوارع، توقد فيها القناديل، لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها، لأنها مسقوفة"(٢٨).

وكان الحمالون يحملون الماء من النيل إلى المنازل في الروايا (القرب)، ويصعدون الدور، كل طبقة بنصف دانق. ويحكي ناصر خسرو أنه كان بمصر والقاهرة عام ٤٤٠هـ (١٠٤٨ – ٤٩ م) اثنان وخمسون ألف جمل لحمل قرب ماء الشرب، في هاتين المدينتين(٢٩). ومما ذكره أيضا أن ركوب الخيل كان وقفا على الجند والمتصلين بالجيش.

بينما كان سائر الأهلين ينتقلون على حمير ذات سروج جميلة. وكان في الفسطاط والقاهرة نحو خمسين ألف حمار للتأجير، يشاهد المرء عددا كبيرا منها عند مداخل الشوارع والأسواق(٣٠).

الحالة الاقتصادية:

كانت الفسطاط مركزا اقتصاديا عظيما، وسوقا تجاريا كبيرا، بالإضافة إلى أنها قصبة الحكم، وعاصمة البلاد. ولم تفقد شهرتها كسوق تجاري عظيم حتى بعد بناء القطائع والعسكر، بل والقاهرة أيضا. فظلت مركز الحركة التجارية والاقتصادية. ذلك لسهولة اتصالها بداخلية البلاد، وبالعالم الخارجي أيضا.

فقد كانت على اتصال وثيق بداخلية البلاد، بواسطة النيل، فترد إليها الحاصلات والسلع من كل من الوجهين القبلي والبحري. وفي ذلك يقول ابن بطوطة الرحالة المشهور: "وإن بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية، تمر صاعدة إلى الصعيد، ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط، بأنواع الخيرات والمرافق"(٣١). كما ذكر ناصر خسرو أنه "كان للباعة «بالقطاعي» دكاكين بمدينة مصر "الفسطاط" على ساحل النيل، وكانت البضائع على أبوابهم، وكان الازدحام من الشدة بحيث كان يستحيل نقل البضائع على ظهور الدواب"(٣٢).

كانت الفسطاط تغص بالأسواق المليئة بمختلف السلع والمتاجر، فقد بنى عبد العزيز بن مروان قيسارية العسل، وقيسارية الحبال، وقيسارية الكباش، وقيسارية البز (المنسوجات). وقد أسهب ناصر خسرو في الكلام عن الفسطاط وعظمتها، وبيوتها الشاهقة، وجوامعها الكبيرة، وحدائقها الغناء، وصناعاتها الزاهرة، ووصف الثروة في أسواقها، والازدحام فيها. وقال إن الحوانيت مملوءة بالسلع المختلفة، والأقمشة الثمينة، والذهب وسائر الحلى، حتى إن المشتري لا يجد فيها محلا يجلس فيه[٣٣]. وكان شديد الإعجاب بسوق القناديل -بجوار جامع عمرو- فقال إنه لم يعرف مثله في أي بلد آخر، وإن التحف النادرة والثمينة كانت تحمل إليه من أصقاع العالم كله[٣٤]. وترجع هذه التسمية إلى أن سكان هذا الحي كان لكل منهم قنديل على باب مسكنه.

كذلك كانت تفد على الفسطاط السلع والمتاجر من بحر الروم (البحر المتوسط) بواسطة النيل أيضا، ومن بحر القلزم (البحر الأحمر) بواسطة الدواب أو خليج أمير المؤمنين، ومما كانت تشتمل عليه سلع بحر الروم الجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراد والسمور والسيوف.

ومما تشتمل عليه متاجر بحر القلزم المسك والعود والكافور والدارصيني، وغير ذلك مما يحمل من السند والهند والصين[٣٥].

خليج أمير المؤمنين:

وخليج أمير المؤمنين ترعة كان قد أمر بحفرها نخاو فرعون مصر، لتوصيل النيل بالبحر الأحمر، ثم ردمت في أواخر حكم الرومان لمصر. فلما كان الفتح العربي، جدد عمرو بن العاص حفرها سنة ٢٣ هـ (٦٤٣ – ٤٤ م)[٣٦]، بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لهذا أطلق عليها اسم خليج أمير المؤمنين. وكانت هذه الترعة تخرج من فم الخليج، شمالي مصر القديمة، متجهة إلى الشمال حتى نهاية القاهرة. وتمر بعد ذلك في الأراضي الزراعية، حيث مجرى الترعة الإسماعيلية إلى العباسية، بمديرية الشرقية ثم إلى مدينة الإسماعيلية، ومنها إلى القلزم (السويس) على البحر الأحمر[٣٧].

وقد أقيم على هذا الخليج في العهود التالية كثير من القناطر، ليتيسر للناس عبوره، سنورد أسماء أشهرها في مواضعها[٣٨].

وقد كان هذا الخليج عرضة للأهواء السياسية، فيردم إذا أراد أحد الخلفاء الضغط السياسي على مصر، وتجويع سكانها، وتحويل تجارة الهند عنها إلى بغداد ووادي الفرات، كما فعل الخليفة المنصور العباسي.

الحالة العلمية:

اتخذت الحركة العلمية في أوائل عصر الفتح شكلا دينيا، حيث كان الناس بحاجة إلى من يفقههم في أمور دينهم، ويعلمهم أصول الدين الإسلامي، أكثر من حاجتهم إلى العلوم الدنيوية والفلسفية، تلك الأصول التي اجتمعت في القرآن الكريم والحديث والسنة. وكان من حظ مصر أن حضر إليها مع جيش المسلمين عدد كبير من الصحابة، الذين تشربوا الدين خالصا عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، فتلقى عنهم أهل مصر، فصارت الفسطاط معقلا حصينا من معاقل الدين، تنافس المدينة وبغداد والبصرة ودمشق وغيرها من أمهات المدن الإسلامية. ومن هؤلاء الصحابة عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وعبد الله ابن عمر الخطاب، وخارجة بن حذافة العدوي، ومسلمة بن مخلد، وكثير غيرهم ممن وفدوا على مصر بعد الفتح، لكثرة خيراتها، خصب أرضها، وطيب هوائها.

وكانت معظم دروس الفقه والكلام تُعطى في المسجد، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدي المدرس، وكان يتخذ مكانه إلى جانب عمود في المسجد، مستندا بظهره إليه إن أمكن. وقد أحصى المقدسي في المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة مجلس وعشرة من مجالس العلم[٣٩]. وأشهر من علَّم بمصر من الصحابة بعد الفتح عبد الله بن عمرو بن العاص، ويعتبر بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية، إذ أخذ عنه كثير من أهلها، وكانوا يكتبون عنه ما يحدث، وقد بلغ قرابة مائة حديث[٤٠].

وممن اشتهر من علماء مصر وفقهائها الأمير عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي،

والي مصر المُتوفى بحلوان والمدفون بالفسطاط سنة ست وثمانين هجرية (٧٠٥ م)، وقد اشتغل برواية الحديث، وله مناقب كثيرة[٤١].

ويزيد بن حبيب، واسمه سويد الأزدي أبو رجاء المصري، وقد كان فقيه مصر وشيخها ومفتيها، ولد سنة اثنتين وخمسين بمصر، وتوفي بها سنة ثمان وعشرين ومائة[٤٢]. وأبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمي الغافقي، والليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، وكان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر.

وتأثرت مصر بالمذاهب الإسلامية التي ظهرت في العصر العباسي. ففي ذلك العصر امتزجت العقلية العربية بالعقلية الفارسية واليونانية، وارتفع مستوى الثقافة بين العلماء بفضل تشجيع بعض الخلفاء للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، وإقبال نخبة من العلماء على تعريب الكتب الأجنبية ودراستها[٤٣]. وأهم المذاهب التي ذاعت في العصر العباسي المذاهب الأربعة، والتي ما زالت باقية بمصر حتى اليوم. وأقدم هذه المذاهب مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، المولود بالكوفة سنة ثمانين هجرية، والمتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ.

وثاني هذه المذاهب مذهب الإمام مالك ابن أنس، المولود بالمدينة سنة ٩٣ هـ أو سنة ٩٥ هـ، والمتوفى بها سنة ١٧٩ هـ. والثالث مذهب الشافعي، وهو الإمام مُحَمَّد بن إدريس الشافعي، المولود بغزة سنة ١٥٠ هـ، وقد حضر إلى مصر سنة ١٩٨ هـ، وكون بها مذهبه الجديد، وتوفي بها سنة ٢٠٤ هـ. والرابع مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، المولود ببغداد سنة ١٦٤ هـ، والمتوفى بها سنة ٢٤١ هـ.

وظل المصريون يتبعون المذهب المالكي حتى قدم مصر الإمام الشافعي، وأنشأ مذهبه الجديد بها، فاتبعه كثير من المصريين، ولم يمض قرن من الزمان حتى أصبح المذهب الشافعي منافسا للمذهب المالكي في مصر.

ومن أشهر فقهاء الشافعية في ذلك العهد أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي، وقد جلس مكان الشافعي بعد وفاته، وعبد العزيز بن عمران بن أيوب الخزاعي المصري، والربيع بن سليمان بن داود الأزدي الجيزي، نسبة إلى الجيزة.

وكان مركز الحركة العلمية الدينية في مصر جامع عمرو، مثله في ذلك الجامع الأزهر اليوم. فكان جامع عمرو ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة. إليه يلجأ الناس للاستفتاء، وإليه يفد الطلاب لتلقي العلوم التي كانت تدرس في ذلك الحين. وفيه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء. وأصبحت مصر مركزا علميا هاما، خصوصا في أواخر الولاة. فكان يفد إليها الطلاب لتلقي العلم، وخاصة من إفريقية والمغرب والأندلس. وبذلك أثرت مصر على الأندلس والمغرب في المذاهب وفي العلوم الدينية التي كانت تدرس حينذاك[٤٤].

وفي سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٨ م) كان للمالكيين في المسجد الجامع خمس عشرة حلقة، وللشافعيين مثلها، ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات فقط. وفي عهد المقدسي، تولى إمامة مسجد ابن طولون أحد الشافعية لأول مرة، ولم يقدم في محراب هذا المسجد إمام قط قبله إلا وهو يتفقه لمالك. وكان معظم الفقراء بمصر من أصحاب مالك. ويقول السيوطي أن أبا بكر النعالي المتوفى عام ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) كان إمام المالكية بمصر، وكانت حلقته في الجامع تدور على سبعة عشر عمودا، لكثرة من يحضرها[٤٥].

القضاء:

ونشأ القضاء في عهد الولاة بسيطا، ثم ارتقى وتطور تدريجا. فمثلا لم تكن هناك محكمة خاصة للفصل في القضايا، وإنما كانت مجالس القضاء تعقد في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، للفصل في قضايا العرب الفاتحين، أو بين من يسلمون من أهل البلاد، أو بين الذميين الذين يحتكمون في خصوماتهم إلى القضاة المسلمين. ويذكر الكِندي أن القاضي خير بن نعيم الحضرمي (١٢٠ – ١٢٨ هـ) كان يقضي بين المسلمين في المسجد، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر، فيقضي بين النصارى.

وكان القاضي مُحَمَّد بن مسروق الكِندي (١٧٧ – ١٨٤ هـ) يسمح للنصارى المتخاصمين بالدخول في المسجد الجامع كالمسلمين، ليقضي بينهم.

وكان القاضي يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الإسلامي، وهي القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد أو القياس. ولم تكن أحكام القضاة تدون. كذلك لم يكن

للقاضي شيء تصان فيه كتبه وأوراقه، بل كان كاتب القاضي يحضر ومعه الكتب في منديل، ويحمل محبرته (دواته) في حزامه، ولهذا كانت المحابر تصنع من المعدن، ولها يد بحيث يمكن أن ترشد بين طيات الحزام، وبالتدريج سجلت الأحكام في سجلات، وصارت تحفظ في دواليب خاصة[٤٦].

ومن التقاليد التي نشأت في هذه الفترة أيضا خروج القاضي في نفر من أهل الصلاح، لرؤية هلال رمضان، وإثبات الرؤية. وكانوا يخرجون لرؤيته في الجيزة، حتى لا يختلف الناس في شهاداتهم. وبعد ثبوت الرؤية تسير مواكب الناس، حاملة المشاعل، وهي تهتف: «صيام! صيام! حسبما أمر به قاضي الإسلام». وما يزال هذا التقليد متبعا حتى اليوم، حيث يترأس الاحتفال بالرؤية في القاهرة رئيس المحكمة الشرعية العليا. ويهتف الصبية بما هتف به أسلافهم من قبل.

الصناعات والفنون:

لما فتح العرب الأقطار العديدة، وأخضعوا لحكمهم كثيرا من الأمم، أثر العرب في تلك الأمم، فنشروا بينهم لغتهم وآدابها ومختلف فنونها، كما نشروا بينهم دينهم. وأثرت تلك الأمم بدورها في العرب، فقد كانت لهم علوم وفنون توفر عليهم العرب بالدرس والتمحيص، بفضل ما أوتوه من حسّ مرهف، وذوق سليم، واختاروا أصلحها وأكثرها اتفاقا مع تقاليدهم ودينهم، وصاغوا من كل ذلك ثقافة عالية، وفنا إسلاميًا جميلًا، أفاد منهما العالم قرونا طويلة. ولقد كان للعرب في حكم الشعوب أساليب ناجحة، وطرائق قويمة.

ففضلا عن إطلاقهم للناس حرية العبادية وكثيرا من الحريات الأخرى، فقد أبقوا دفة الحكم في أيدي حكام منهم، ما خلا الوظائف الخطيرة والمناصب الرئيسية. كذلك تركوا للناس صناعاتهم وحرفهم، يزاولونها في حرية واطمئنان. بل إنهم أولوهم كثيرا من التشجيع والمؤازرة، واكتفوا بالتوجيه السديد، حسبما تقتضيه الأوضاع الجديدة، والدين الجديد.

فانصرف الناس إلى أعمالهم، يحدوهم الاطمئنان، وتملأهم الثقة، ويحفزهم ذلك إلى الجد والاتقان.

ولقد دخل المصريون في دين الله أفواجا، واعتنق أكثرهم الإسلام، وزاول الصناع صناعتهم، سواء منهم من أسلم ومن لم يسلم. فنرى منتجات الفنون الإسلامية في عصورها الأولى وقد تأثرت بالمنتجات الفنية القبطية، نظرا لاعتماد العرب على الصناع والفنيين القبط، ولأن التطور في أساليبها الصناعية كان بطيئا، بعد أن اجتاز مرحلة انتقال، امتدت منذ الفتح العربي لمصر واشتملت على العصرين الطولوني والإخشيدي، وإن كان قد تأثر في العصر الطولوني بالأساليب العراقية، التي أتى بها أحمد بن طولون من مدينة سامرا، التي نشأ فيها وشب وترعرع.

ولم تقتصر استعانة العرب بالصناع المصريين في صنع كل ما يلزمهم من حاجيات، ومن بناء ما كانوا يحتاجون إليه من أبنية على مصر وحدها، بل إننا نجد في الوثائق التاريخية ما يدل على إرسال العمال والصناع المصريين إلى الشام وبلاد العرب، للعمل في بناء المساجد أو زخرفتها بالفسيفساء والجص وغير ذلك.

وقد زخرت الفسطاط بالمصانع من كل نوع، تنسج المنسوجات وتصنع المصنوعات المعدنية والخشبية والعاجية، والأواني الزجاجية والزخرفية، والأدوات المنزلية. ووجدت في حفائر الفسطاط بقايا من تلك المصنوعات. كما يوجد بالمتحف الإسلامي بالقاهرة نماذج قليلة منها.

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر، تعريب الأستاذ مُحَمَّد فريد أبي حديد، ص ٢٨٩.

(٢) الواقع أن الروم لما تبدد أملهم تماما في استعادة مصر، حاولوا ذلك في عهد عبد الله بن سعد بن أبي سرح في موقعة ذات الصواري التي حدثت بالقرب من الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، والتي منوا فيها بالهزيمة سنة ٣٤ هـ (٦٥٥ م).

(٣) كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص، وهو نازل بمدائن كسرى، وإلى عامله بالبصر، والي عمرو بن العاص وهو نازل بالإسكندرية: «ألا تجعلوا بيني وبينكم ماء، متى لودت أن اركب إليكم رحلتي حتى أقدم عليكم قدمت»، فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة، وتحول صاحب البصرة من المكان الذي كان فيه فنزل البصرة، وتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط – (المقريزي:الخطط، الجزء الثاني ص ٧٦).

(٤) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ١، ص ٦٤. والخطط للمقريزي، ج ٢ ص ٧٥.

(٥) بتلر: فتح العرب لمصر، تعريب الأستاذ مُحَمَّد فريد أبي حديد، ص ٢٩٤٧٥.

(٦) المصدر السابق: هامش ٢ ص ٢٩٥.

(٧) مصر في فجر الإسلام لسيدة إسماعيل كاشف ص ٢٤٤.

(٨) السيرة الحلبية – الجزء الثالث ص ١٣٣.

(٩) انظر كتاب حفائر الفسطاط للمرحوم علي (بك) بهجت.

(١٠) موضع هذه البركة اليوم منطقة الأراضي الزراعية التابعة لزمام قرية دير الطين وزمام قرية البساتين.

(١١) انظر «حفائر الفسطاط» ص ٢٥ – ٢٧.

(١٢) الرصد مكان رصد الكواكب والنجوم على المرتفع المطل على بركة الحبش الذي أمر بتشييده الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي.

(١٣) الخطط للمقريزي، ج ٢ ص ١٤٣.

(١٤) المصدر السابق، ج ٢ ص ١٤٣.

(١٥) تقول بعض المصادر، ومن بينها ابن تغري بردي، أن عمرا وضع أساس الفسطاط أولا ثم أخذ في بناء الجامع بعد ذلك. وتقول مصادر أخرى عكس هذا. ولكن ما دام لا يوجد ما يرجح رواية على أخرى، فالمعقول أن يكون أول ما بدأ به عمرو هو بناء الجامع، إذ هو أول ما يعني به المسلمون: لإقامة الصلاة، ولاجتماع رؤساء الجيش وأمرائه، لتدبير شئون البلاد، وإدارة أمورها.

(١٦) النجوم الزاهرة، ج: ص ٦٥.

(١٧) خطط المقريزي، ج ٢ ص ٧٦ – ٨٠.

(١٨) انظر مقال الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة للمرحوم الأستاذ مُحَمَّد رمزي بمجلة العلوم، السنة التاسعة، المجلد الخامس ص ٦٤٨.

(١٩) وقد استمر تحول النيل نحو الغرب فيما جاور هذه المنطقة منذ سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) حتى قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ م، وتخلف عن ذلك أراض جديدة أضيفت إلى القاهرة، من بينها خطط اللوق، وبولاق، والمنطقة الواقعة حول مستشفى قصر العيني، ومدرسة الطب، والسيدة زينب، وخطة محطة مصر (ميدان رمسيس)، وإنما يصعب تحديد مراحل هذا التحول تحديدا زمنيا دقيقا، كما يصعب تحديد وقت ظهور كل من هذه الخطط.

(٢٠) المقال سالف الذكر للمرحوم الأستاذ مُحَمَّد رمزي.

(٢١) سفرنامة لناصر خسرو وملوي، تعريب الدكتور يحيى الخشاب ص ٥٩.

(٢٢) سفرنامة لناصر خسرو وملوي، تعريب الدكتور يحيى الخشاب ص ٥٩.

(٢٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم، ص ١٠٤.

(٢٤) حفائر الفسطاط، للمرحوم علي بهجت ص ١٣١.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٧٦.

(٢٦) المصدر السابق، ص ١٣٦.

(٢٧) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تأليف آدم متز وتعريب الدكتور مُحَمَّد عبد الهادي أبو

ريدة، ج٢ ص ١٨٦.

(٢٨) سفرنامة لناصر خسرو علوي، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص ٥٨.

(٢٩) المصدر السابق ص ٤٦، والحضارة الإسلامية لآدم متز، ج ٢ ص ٢٢٩.

(٣٠) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، للمرحوم زكي مُحَمَّد حسن ص ٥٩.

(٣١) رحلة ابن بطوطة، ج ١ ص ٦٧ و ٦٩.

(٣٢) سفرنامة لناصر خسرو علوي، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، ص ٦٢.

(٣٣) سفرنامة لناصر خسرو علوي، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، ص ٦٢.

(٣٤) سفرنامة، ص ٥٩.

(٣٥) ابن خرداذبة، ص ١٥٣.

(٣٦) النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ٤٤.

(٣٧) وقد ردم هذا الخليج في المسافة الواقعة بمدينة القاهرة سنة ١٨٦٩م، وحل محله شارع الخليج المصري (شارع بورسعيد حاليا).

(٣٨) من هذه القناطر قنطرة عبد العزيز بن مروان، التي بناها عبد العزيز بن مروان والي مصر في سنة ٦٩ هـ، ومكانها اليوم النقطة الواقعة بشارع الخليج المصري، تجاه مدخل حكر أقبغا بأرض جنينة لاظ. (النجوم الزاهرة)، ج ٧ ص ٣٨٨.

(٣٩) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١ ص ٣٥١.

(٤٠) مصر في فجر الإسلام، لسيدة إسماعيل كاشف ص ٣١٦.

(٤١) الكندي: الولاة والقضاة ص ٥٠، والمقريزي ج ١ ص ٣٠٢ طبعة بولاق.

(٤٢) النجوم الزاهرة ج ١، ص ١٤٣.

(٤٣) مصر في فجر الإسلام، ص ٣٢٠.

(٤٤) مصر في فجر الإسلام، ص ٣٢٨.

(٤٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١ ص ٢٩٧.

(٤٦) مصر في فجر الإسلام، ص ٩٩.

الباب الثاني

العسكر

- ١ -

لمحة تاريخية

مُني مروان الثاني، آخر خلفاء بني أمية، بهزيمة ساحقة، أما جيوش بني العباس، في موقعة الزاب بالقرب من الموصل، فركن إلى الفرار، واتجه صوب دمشق، ثم التجأ إلى مصر، ليتخذ منها قاعدة لمهاجمة العباسيين، واستعادة ملكه المسلوب، وعرشه المتداعي. ولكن أبا عون، وزميله صالح بن علي، القائدين العباسيين، لم يتركا له فرصة لتحقيق أمله، وظلا يطاردانه حتى قبضا عليه في قرية أبي صير، من أعمال الجيزة، حيث قتلاه، وبذلك انقطع آخر خيط في نسيج دولة الأمويين، واندك ملكهم، وقامت على أنقاضه دولة العباسيين، الذين ورثوا حكم مصر، ضمن ما ورثوه من أملاك الدولة البائدة.

وكما نقل العباسيون قصبة الخلافة من دمشق، التي ارتبطت بذكر الأمويين، إلى بلاد العراق، حيث شيدوا لهم حاضرة جديدة، هي بغداد، كذلك شرع القائدان أبو عون وصالح سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) في بناء عاصمة جديدة لمصر، بدل الفسطاط، سمياها العسكر، في الفضاء الذي عسكرت فيه جنودهما وتجمعت، عند مطاردتهما لمروان الثاني، كانت تقع شمالي الفسطاط، فيما يعرف بالحمراء القصوى، ويشرف عليها جبل يشكر، الذي شيد فوقه أحمد بن طولون فيما بعد جامعه المشهور.

-٢-

موقع العسكر:

يؤخذ من وصف المقريزي لموقع العسكر في خطة أنها كانت تمتد بمحاذاة الشاطئ الشرقي للنيل، الذي كان يحف بجدران جامع عمرو إذ ذاك، ويحده جنوبا قناطر المجرى (العيون)[١]، وشمالا شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب، حيث كانت قناطر السباع[٢] أمام المشهد الزينبي، وغربا بين شارع السد والديورة، وشرقا خط وهمي يمتد من مصطبة فرعون بجوار مسجد الجاولي بشارع مراسينا إلى باب السيدة زينب، المعروف قديما بباب المجدم[٣].

امتداد العسكر:

أمر أبو عون أصحابه بالبناء فيها، وشيد صالح بن علي دارا للإمارة، كما شيد الفضل بن صالح بن علي مسجدًا جامعًا، عرف بجامع العسكر.

وما زالت العمارة تزداد فيها حتى اتصلت المباني بالفسطاط، وصارت العسكر مدينة "ذات محال وأسواق ودور عظيمة"[٤].

واستمرت العسكر حاضرة البلاد، إلى أن قدم مصر أحمد بن طولون، فوجدها لا تتسع لجنده وحاشيته، وما اعتزم تشييده من منشآت متعددة.

فاستقر عزمه على تشييد عاصمة أخرى، واختط لهذا الغرض مدينة القطائع التي شغلت حيزا كبيرا من العسكر، بل وتدخلت فيها. ولم يبق من معالم العسكر في أيام المقريزي شيء يذكر. وهنا يقول: "ولم يبق الآن من العسكر ما هو عامر سوى جبل يشكر، الذي عليه جامع ابن طولون، وما حوله من الكبش، وحدرة ابن قميحة إلى خُط السبع سقايات، وخط قناطر السباع إلى جامع ابن طولون"[٥].

(١) المقريزي: الخطط، ج ٢ ص ٨٩.

(٢) هي قناطر بناها الظاهر بيبرس، ووضع فوقها سباعا تمثل رنكه، كما فعل في قناطر أبي المنجا.

(٣) الجامع الطولوني، تأليف محمود عكوش، ص ٨.

(٤) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ٨٩.

(٥) المصدر السابق ص ٩٠.

الباب الثالث

القطائع

ـ ١ ـ

لمحة تاريخية

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس، كما هو معروف. لذا كانت لهم الحظوة عند خلفائها الأولين. فقوي نفوذهم، وعلا شأنهم، وصار منهم الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة، الذين إليهم المرجع في كل صغيرة وكبيرة من شئونها. ولما اشتدت وطأة النفوذ الفارسي، حاول الخلفاء المتأخرون التخلص من ذلك النفوذ، فاستبدلوا بالفرس قوادا وحراسا من الأتراك. وسرعان ما انتشر نفوذ هؤلاء، وصاروا أصحاب الحول والطول في مقر الخلافة، بل وفي أقاليمها وممتلكاتها. فآلت مصر إلى واحد من أولئك الأتراك، هو الأمير بقبق أو بايكباك، ثم إلى الأمير برقوق. وأناب كل منهما عنه في حكم مصر أحمد بن طولون، وهو تركي الأصل مثلهما، من إقليم بخارى، في بلاد ما وراء النهر. وكان الأول زوج أم أحمد، والثاني حماه، أي أبا زوجته.

قدم أحمد بن طولون إلى مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) وبين جنبيه آمال كبار، فهو يريد أن ينشئ من مصر دولة تنافس الخلافة قوة وعظمة، وأن يؤسس لها حاضرة تماثل «سُرَّ من رأى» قصبة الخلافة في عهده، والتي ولد فيها وترعرع، وأعجب بجمال قصورها، ورحابة ميادينها وعظمة مساجدها ومنشآتها. لذلك عوَّل منذ أن وطئت قدماه أرض مصر على إقامة العاصمة المرجوّة، فكان له ما أراد، وأسماها القطائع، ذلك لأنه أقطعها قطعا بين خدمه وحاشيته ورجال دولته. وشيد فيها القصور والمستشفيات والملاجئ، وأقام مسجده الجامع،

الذي ما زال يطاول الزمن ببقائه، درة فريدة بين مساجد مصر، والذي يستحق بلا ريب أن يطلق عليه اليوم اسم "شيخ جوامع القاهرة"، إذ لا يزال تخطيطه ومبانيه على الحال الأولى التي وجد عليها في عهد منشئه.

ـ ٢ ـ

فالقطائع ثالثة العواصم الإسلامية في مصر، كانت تقع شمالي الفسطاط «وكان موقعها من قبة الهواء التي صار مكانها الآن قلعة الجبل، إلى جامع ابن طولون، وهو طول القطائع. وأما عرضها، فإنه كان من أول الرميلة[١] من تحت القلعة، إلى الموضع الذي يعرف الآن بالأرض الصفراء، عند مشهد الرأس الذي يقال له الآن زين العابدين. وكانت مساحة القطائع ميلا في ميل»[٢].

وقد حدد العلامة الأثري المرحوم مُحَمَّد رمزي هذه المدينة كما يلي:

"الحد البحري، ويبدأ من جامع سنجر الجاولي حتى باب العزب بالقلعة، والحد الشرقي سور القلعة، من باب العزب، حتى جامع السلطان الأشرف قانصوه الغوري، عند باب اليسار، المعروف الآن بباب الجبل. والحد القبلي ويبدأ من جامع الغوري المذكور، حتى جامع سيدي علي زين العابدين. والحد الغربي من جامع علي زين العابدين، وينتهي بجامع سنجر الجاولي"[٣].

وقد تدخلت القطائع في العسكر، وشغلت الجزء المعروف الآن بقلعة الكبش، وبتلول زينهم.

قصر أحمد بن طولون:

وقد بدأ ابن طولون في بناء القطائع في شعبان سنة ٢٥٦ (يوليو سنة ٨٧٠) بأن شيد قصره، الذي كان بمثابة نواة للمدينة، وكان يقع في الفضاء المعروف الآن بميدان صلاح الدين، والذي عرف بالرميلة وقرَةَ ميدان والمنشية، والذي كان يمتد إلى ما وراء جامع

السلطان حسن الآن[٤]، تحت المرتفع الذي كانت تقع عليه قبة الهواء، التي في مكانها بنى صلاح الدين قلعته المعروفة بقلعة الجبل.

وقد حوَّل ابن طولون السهل الواقع بين القصر وجبل يشكر إلى ميدان كبير يُضرب فيه بالصوالجة[٥]، فسمي القصر كله الميدان[٦]. وكان للقصر عدة أبواب منها: باب الميدان الكبير، وكان منه دخول الجيش وخروجه، وباب الخاصة، وباب الجبل الذي يلي جبل المقطم، وباب الحرم، وباب الدرمون وباب دغناج، وسميا كذلك نسبة إلى حاجبين بهذين الاسمين كانا يجلسان أمامهما، وباب الساج لأنه كان مصنوعا من خشب الساج، وباب الصلاة الذي يخرج منه ابن طولون للصلاة، وكان على الشارع الأعظم، وكان يعرف أيضا بباب السباع، إذ كانت عليه صورتا سبعين من جبس. وكانت هذه الأبواب لا تفتح كلها إلا في يوم العيد، أو يوم عرض الجيش، أو يوم صدقة.

وما كانت تفتح إلا بترتيب في أوقات معروفة. وكان للقصر شبابيك، تفتح من سائر نواحي الأبواب، تشرف كل جهة على باب[٧]، وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض، ويوم الصدقة، لينظر من أعلاه مَن يخرج ويدخل. وكان على باب السباع مجلس آخر، يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع، ليرى حركات الغلمان وتأهبهم وتصرفهم في حوائجهم[٨].

تخطيط القطائع:

بعدئذ تقدم أحمد بن طولون إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حول القصر والميدان، فاختطوا، وبنوا، حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط. ثم قُطِّعت القطائع، وسميت كل قطيعة باسم من سكنها: فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم، وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم، ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم. وبنى القواد في مواضع متفرقة، فعمرت القطائع عمارة حسنة، وتفرقت فيها السكك والأزقة، وبنيت فيها المساجد الحسان، والطواحين، والحمامات، والأفران، وسميت أسواقها، فقيل سوق العيارين، وكان يجمع العطارين والبزازين، وسوق الفاميين ويجمع

الجزارين والبقالين والشوايين. فكان في دكاكين الفاميين جميع ما في دكاكين نظرائهم في المدينة وأكثر وأحسن، وسوق الطباخين، ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين.

ولكل من الباعة سوق حسن عامر، فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام(٩). وامتدت هذه المباني إلى العسكر والفسطاط، حتى أصبحت المدن الثلاث بلدا واحدا عامرا، لاتصال مبانيها بعضها ببعض.

طلب ابن طولون إلى مهندس، سنعرض بعد قليل إلى جنسيته، أن يشيد له مسجدا لا تأتي عليه النيران، أو تهدمه مياه الفيضان «فإن احترقت مصر بقي، وإن غرقت بقي»، فحقق المهندس رغبته، فبناه جميعه من الآجر الأحمر، ورفعه على دعامات من الآجر أيضا. ولم يدخل في بنائه أعمدة من الرخام، سوى عمودي القبلة، «لأن أساطين الرخام لا صبر لها على النار». ويؤخذ من اللوحة التذكارية، الموجودة بالجامع، أن الفراغ من بنائه كان سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ و٨٧٩ م). وقد استغرق بناؤه عامين وجامع ابن طولون مربع الشكل تقريبا (١٦٢,٥٠ x ١٦١,٧٣متر)، يتوسطه صحن مكشوف، تحيط به من جوانبه الأربعة أروقة مسقوفة، وقد اتبع هذا التخطيط كثيرا بعد ذلك في بناء المساجد في العهود المتوالية.

ويتكون إيوان القبلة من خمسة أروقة. أما الأواوين الثلاثة الأخرى فيتكون كل منها من رواقين، ويحيط بالجامع فيما بين جدرانه والسور الخارجي من جهاته الشمالية الشرقية، والشمالية الغربية، والغربية الجنوبية ثلاثة أروقة خارجية، عرفت بالزيادات. تلك ميزة أخرى انفرد بها جامع ابن طولون بين مساجد القاهرة.

والدعامات التي ترتكز عليها العقود مستطيلة الشكل، محلاة في أركانها الأربعة بأعمدة من نفس مادة الدعامات، أي من الآجر. وتيجانها كورنثية، يطلق على أوراق شوك اليهود. أما العقود فمن الطراز الستيني، ولم تستعمل في مصر قبل ذلك. ويوجد بين كل عقدين، فوق الدعامة، طاقة صغيرة، بقصد التخفيف عن الدعامات، وعقدها ستيني أيضا، كالعقود الكبيرة.

وقد طليت جميع جدران المسجد ودعاماته وعقوده بطبقة من الجص، وزخرفت

واجهات العقود بزخارف نباتية متصلة، كما حليت بواطن العقود حول الصحن بزخارف قوامها خطوط متداخلة، وخطوط لوبي، وأشرط وخطوط منكسرة، كلها معروف في الفن البيزنطي، ومنه تسربت إلى الفن القبطي وفنون العراق(١٠).

ويدور تحت السقف إزار من ألواح خشبية، نقشت عليها بحروف كوفية بارزة، من طراز الكتاب الطولونية التي سادت هذا العصر، سورتا البقرة وآل عمران. وبالجزء العلوي من الجدران صف من الطاقات، مركب عليها شبابيك من الجص مخرمة، يتكون من تخريمها أشكال هندسية، بسيطة جميلة، تنوعت أشكالها، تدور حول جدران المسجد الأربعة، وأربعة فقط من هذه الشبابيك، موجودة بجدار القبلة، زخرفتها معاصرة لإنشاء المسجد(١١).

وللمسجد خمسة محاريب، عدا المحراب الأصلي المجوف، الموجود في جدار القبلة. ولقد أنشئت المحاريب الخمسة في العصور التالية لإنشاء المسجد: اثنان في منتصف حبل الطارات الثاني، مما يلي الحصن، الأيمن عمل في عهد المستنصر الفاطمي، والثاني في عهد حسام الدين لاچين المملوكي. واثنان في النصف الثالث من حبل الطارات بجانبي دكة المبلغ.

ومحراب خامس، وهو في جدار القبلة، على يسار المحراب الكبير. وجميع هذه المحاريب من الجص، ومزينة بالكتابة الكوفية أو النسخية، والزخارف النباتية(١٢).

وكانت توجد وسط الصحن نافورة ماء، أنشأها ابن طولون كي يشرب منها المصلون، وسط حوض من الرخام، تعلوها قبة مذهبة، مقامة على ستة عشر عمودا من الرخام. ولكنها تهدمت وأعيد بناؤها بالعصر الفاطمي، ثم تهدمت ثانيا وأقيم مكانها البناء الحالي، جدده السلطان حسام الدين لاچين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٧ م)، كما يدل على ذلك كتابة على لوح من خشب مثبت في قاعدة القبة، ضمن ما جدده من بناء المسجد وأثاثه، مما سيأتي ذكره بعد. ولكن النافورة خرجت هذه المرة عن الغرض الذي أنشئت من أجله أولا، فقد صارت الآن ميضأة، يتوضأ فيها المصلون.

وكان ابن طولون قد أبى أن تكون مكانا للوضوء، خيفة أن تصبح مصدرا «للنجاسة» والقذارة. فلما أخذ على المسجد خلوه من مكان للوضوء، أقام ميضأة بالزيادة الغربية،

بعيدا عن داخل المسجد. كما أنشأ بهذه الزيادة صيدلية، بها الأدوية، وعليها الخدم، وفيها طبيب يجلس يوم الجمعة لإسعاف من يصاب من المصلين بحادث وقت الصلاة.

ولهذا المسجد مئذنة فريدة في شكلها، لا نظير لها بين مآذن مساجد القاهرة، وهي ميزة أخرى، امتاز بها جامع ابن طولون. فهي مربعة في جزئها الأسفل، أسطوانية في جزئها الأوسط، مثمنة في جزئها العلوي.

وهي بهذا تحمل بعض الشبه لمئذنة جامع المتوكل بسامرا، المعروفة بالملوية ويحيط بالمسجد، بموازاة الأروقة الثلاثة الخارجية، أسوار مبنية من الآجر، الذي بنيت منه جدران المسجد، تعلوها شرافات مخرمة، شبهها بعض بعُرف الديك. وبهذه الأسوار أبواب، يقابل كل منها بابا من أبواب المسجد، وعدة هذه الأبواب جميعا أربعون بابا.

مهندس الجامع:

ولما كان اسم مهندس هذا الجامع مجهولا، فقد أدى ذلك إلى كثير من التكهنات حول جنسيته، فذكر بعض المؤرخين أنه كان بيزنطيا، وقال آخرون إنه كان قبطيا، وقال فريق إنه كان عراقيا. غير أن الشبه الكبير بين هذا المسجد ومسجد المتوكل في سر من رأى يحمل على الاعتقاد بأن مهندسه عراقي، ولا عبرة بأن يكون مسلما أو نصرانيا، قدم إلى مصر معه أساليب العراق وفنونه فاستخدمه ابن طولون في تنفيذ بناء مسجده[١٣].

التجديدات التي أدخلت على هذا المسجد:

وقد أدخلت على هذا المسجد إصلاحات كثيرة، في العهود التالية، يضيق المقام عن حصرها. وأهم هذه الإصلاحات ما قام به حسام الدين لاجين، السلطان المملوكي سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٧ م)، منها: النافورة التي سبق ذكرها، والمنبر الخشبي الجميل، وما زال موجودا حتى اليوم، والقبة التي فوق المحراب الكبير. ولكن أهم ما أدخل عليه من تجديد في العصر الحديث هو ما قامت به لجنة حفظ الآثار العربية منذ سنة ١٨٨٢ م، من جهود في سبيل إعادته إلى حالته الأولى، فهدمت المنازل والعشش التي أطبقت عليه من كل جانب، ورممت المتداعي من جدرانه، وطلتها بالجص، معيدة زخارفه ونقوشه سيرتها الأولى.

قناطر المياه:

ولكي يمد ابن طولون قطائعه بالماء، أمر بحفر بئر في الجنوب الشرقي من القطائع، في الموضع الذي يعرف اليوم بالبساتين، وشيد عليها قناطر يرفع إليها الماء بواسطة ساقية، ومد تلك القناطر حتى القطائع، فصار ينحدر عليها الماء في سهولة ويسر إلى القطائع. وقد بنيت هذه القناطر من نفس الآجر الذي بني منه الجامع فيما بعد، كما أن عقودها ستينية كذلك، لهذا يعتقد أن المهندس الذي شيدها هو نفس المهندس الذي شيد الجامع، ولا تزال بقية منها باقية حتى اليوم.

-٣-

القطائع في عهد خمارويه

توفي أحمد بن طولون عام ٢٧٠ هـ (٨٨٤ م)، وخلفه على مُلك مصر ابنه أبو الجيش خمارويه، وقد كان مسرفا إلى حد السَّفه، ميالا إلى الأبهة والعظمة. ولا أدل على ذلك من تجهيزه ابنته قطر الندى، للخليفة العباسي المعتضد سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) جهازا لم تجهز به عروس من قبل، حتى صار مضرب الأمثال في البذخ والترف، مما أفقر الدولة، وجر عليها الخراب والدمار. فلما قتل سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ م) ترك خزائنها مما أدى إلى زوال دولة بني طولون.

ومما يدل على بذخه وإسرافه، أنه أحال ميدان أبيه الفسيح إلى بستان غرس فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر. "ونقل إليه النخل اللطيف الذي ينال ثمرَه القائمُ، ومنه ما يتناوله الجالس، من أصناف خيار النخل. وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب، وأنواع الورود. وزرع فيه الزعفران، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة، وكتابات مكتوبة يتعهدها البستاني بالمقراض، حتى لا تزيد ورقة على ورقة.

وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر، والجنوي العجيب. وأهدي إليه من

خراسان كل أصل عجيب. وطعَّموا له شجر المشمش باللوز، وأشباه ذلك مما يستظرف ويستحسن. وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا، حسن الصنعة. وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص، وأجرى فيها الماء المدبَّر، فكان يخرج من تضاعيف قوائم النخل عيون الماء، وتنحدر إلى مساق معمولة، ويفيض منها الماء إلى مجار تسقي سائر البستان. وبنى فيه برجا من خشب الساج، فكانت هذه الفوارات والبرك والعيون المائية الصناعية – على طريقة المصريين القدماء في عمل البساتين– إلى جانب أبراج الخشب، مما يزيد البستان جمالا"(١٤). وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش، ونحوها شيئا كثيرا.

وعمل في داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب، وجعل فيه مقدار قامة ونصف، صورا في حيطانه بارزة، من خشب معمول على صورته، وصور حظاياه، والمغنيات اللاتي تغنينه بأحسن تصوير، وأبهج تزويق، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز.

فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا. وجعل بين يدي هذا البيت بركة من زئبق يقال إنها خمسون ذراعا طولا في خمسين ذراعا عرضا، وملأها بالزئبق. وعمل فرشا من أدم (جلد) يُحشى بالريح (بالهواء) حتى ينتفخ، فيحكم حينئذ شده، وينزل خمارويه، فينام عليه، فلا يزال الفراش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق، ما دام عليه، حتى ينام، متغلبا على الأرق الذي كان مصابا به(١٥).

وقد ازدادت عمارة القطائع في عهده، وازينت، ولم تصبح فقط مقر الأمير وبطانته ورجال حكومته، بل اتسع نطاقها وأنشئت فيها المساجد الجميلة، والحمامات، والأفران، والطواحين، والحوانيت، واختطت فيها الشوارع، وصارت مدينة زاهرة عامرة، جديرة بأن تكون عاصمة لدولة بني طولون العظيمة.

وبعد مقتل هارون بن خمارويه، سيَّر المكتفي بالله، الخليفة العباسي، مُحَمَّد بن سليمان الكاتب إلى مصر، فوصلها في سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥م) وانقض على آثار الطولونيين بالهدم

والتخريب، إذ بلغ حقده عليهم مبلغا دفعه إلى محو آثارهم جملة، ولولا حرمة مساجد الله، وقداسة بيوته، لهدم أيضا المسجد الجامع، ولكنَّا فقدنا بذلك أثرا عظيما من أهم الآثار الإسلامية بمصر.

أما القطائع فقد ظلت عامرة إلى نهاية عهد المستنصر الفاطمي، حين وقعت الشدة العظمى[١٦] من ٤٥٧ إلى ٤٦٤ هـ (١٠٦٥ – ١٠٧٢ م)، فخربت هي والعسكر، وتحولت إلى تلال وكيمان فيما بين مصر والقاهرة.

ـ ٤ ـ

الحياة الاقتصادية:

لما قبض أحمد بن طولون على ناصية الأمور في مصر، واستقل بحكمها عن الخلافة العباسية، عنى بشئونها، واهتم بتحسين مواردها، حتى تضاعف دخلها وكثر ثراؤها، وفاقت الخلافة نفسها عمرانا ورخاء، ومنعة وقوة.

ومما يدل على ثروة مصر ورخائها في عهد ابن طولون أن خراجها قد بلغ في أيامه أربعة آلاف ألف وثلاثمائة ألف دينار، هذا مع كثرة صدقاته وإنفاقه على مماليكه وعسكره. وأنفق على البيمارستان ستين ألف دينار، وعلى حصن الجزيرة ثمانين ألف دينار، وعلى الميدان خمسين ألف دينار، وحمل إلى الخليفة المعتمد في مدة أربع سنين ألفي ألف دينار ومائتي ألف دينار[١٧].

وقد وصفنا لك بستان خمارويه، وألمعنا إلى تجهيزه ابنته قطر الندى للخليفة المعتضد العباسي جهازا له تجهز به عروس من قبل، أو من بعد.

ذلك الجهاز الذي تكلف مليون دينار أو ما يقرب من نصف مليون جنيه مصري. ومما اشتمل عليه ذلك الجهاز أربعة آلاف منطقة مرصعة بالجواهر، وعشرة صناديق مملوءة بالجواهر، وألف هاون من الذهب لسحق العطور، وألف تكة بلغت تكاليف الواحدة عشرة

دنانير. كما بنى لها على طول الطريق، بين القطائع وبغداد، وعلى رأس كل مرحلة من مراحل الطريق، منزلا تأوي إليه، أعد فيه من أسباب الراحة والترف ما يصلح لمثلها في حالة الإقامة، فلا تحس بوعثاء السفر، حتى لكأنها لم تتعد أسوار قصر خمارويه في القطائع.

ولقد أولى ابن طولون البلاد كل عنايته، وتعهدها بالإصلاح والتعمير، وعنى بصفة خاصة بأعمال الري، وأصلح مقياس النيل في جزيرة الروضة.

الحياة الاجتماعية:

واتسعت رقعة البلاد، وترامت أطرافها، فعم الرخاء أرجاءها، ويسر العيش بها، وازينت القطائع بالقصور الفاخرة، والدور العامرة.

ولقد تغلب على مشكلة المرض، فأنشأ أول مستشفى في مصر، جنوبي القطائع، فسبق بهذا عصره بأحد عشر قرنا. وقد أنفق على بنائه وتجهيزه ستين ألف دينار. وعنى بالمرضى عناية فائقة، ولم يقتصر على مدهم بالدواء، بل أمدهم أيضا بالغذاء والكساء، وشرط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك، وقصره على أفراد الشعب والفقراء من الناس، وألحق به حمامين: أحدهما للرجال والآخر للنساء.

وقد حبس على مسجده الجامع وقناطره ومارستانه دخل بعض الأبنية، ولعل ذلك كان بدء نظام الوقف، ذلك النظام الذي كان له أخطر أثر في الحياة الاجتماعية في الإسلام بعد ذلك[(١٨)].

الحالة العلمية:

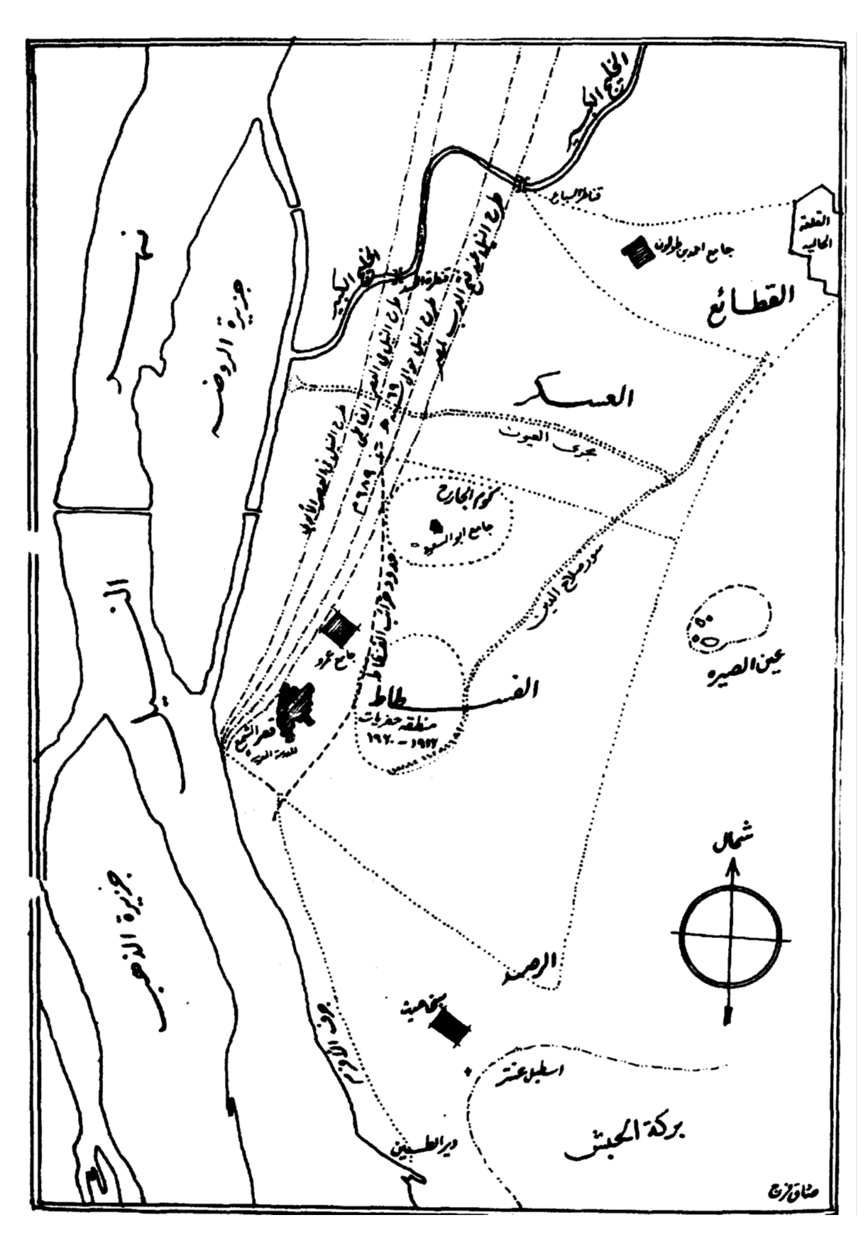
انحصرت الثقافة في علوم القرآن والدين، وما يتصل بها من فنون اللغة، كالنحو والصرف. وكان جامع ابن طولون منتدى العلماء والفقهاء والمحدثين. ومن أشهر المحدثين والفقهاء في العهد الطولوني وقبله، الربيع ابن المرادي بالولاء (١٧٤- ٢٧٠ هـ / ٧٩٠- ٨٨٣ م)، وقد امتاز بسعة الحفظ وجمع الرواية، خصوصا رواية مذهب الشافعي، وقد كان يدرس في جامع الفسطاط، ثم استدعاه أحمد بن طولون إلى التدريس في مسجده لما بناه.

ويروى أن ابن طولون أعطاه في أول درس ألقاه في جامعه كيسا به ألف دينار. وكان المحدثون يفدون على مصر من الأقطار المختلفة ليأخذوا عنه، إذ كان يعتبر إمام الشافعية فيها. كذلك كان أبو جعفر الطحاوي إمام الحنفية فيها (٢٢٩- ٣٢١ ه/ ٨٤٣- ٩٣٣ م). وكان من أسبق المؤلفين المصريين في فنون مختلفة، من بينها علوم القرآن والتاريخ.

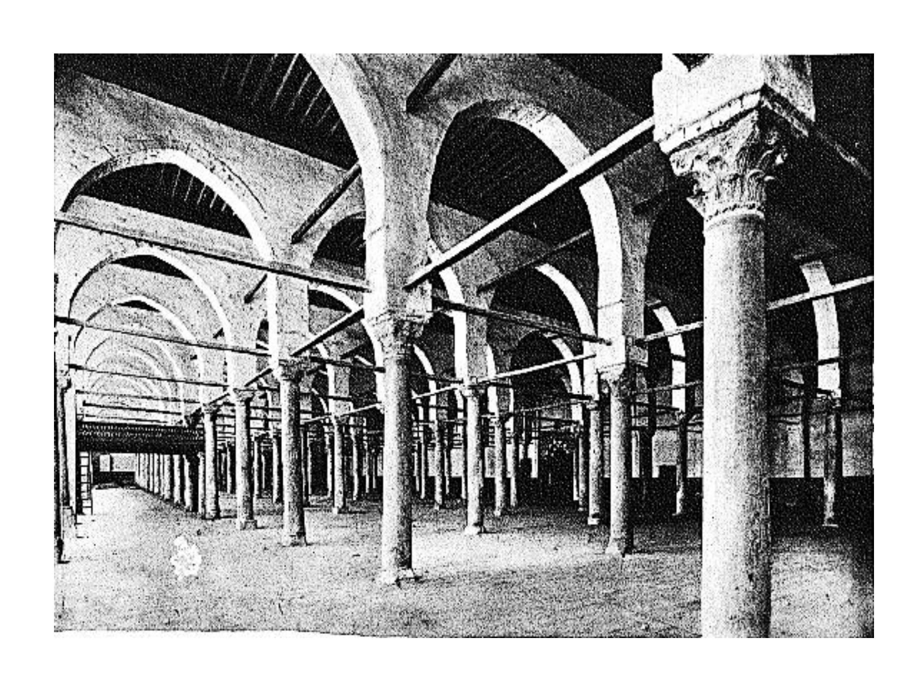
وأكبر من كان يمثل الثقافة الدينية في مصر في هذا العصر أبو بكر الحداد، فقد كان يلقب بفقيه مصر وفصيحها وعابدها، توفي سنة ٣٤٤ ه (٩٥٥ م).

ومن أشهر الفقهاء علما في ذلك العصر «سيبويه المصري»، فقد كان يعلم كثيرا من معاني القرآن، وقراءاته، وغريبه، وإعرابه، وأحكامه، ويعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه سيبويه.

ومن أشهر المؤرخين ابن يونس (٢٨١ - ٣٤٧ ه / ٨٩٤ - ٩٥٨ م)، فقد عنى بنشر مفاخر مصر ورجالها، مع العناية بحوادثها. وقد جمع لها تاريخين: أحدهما وهو الأكبر، ويختص بالمصريين منشأً، والآخر صغير، فيمن ورد على مصر من الغرباء. وكان مُحَمَّد بن يوسف الكندي (٢٨٣ - ٣٥٠ ه / ٨٩٦ - ٩٦١م) من أعلم الناس بتاريخ مصر وأهلها، وأعمالها وثغورها، وهو مصري، نشأ بمصر ومات بها، وهو صاحب كتاب "الولاة والقضاة"، وهو من أهم مصادر تاريخ مصر، وكتاب "فتوح مصر والمغرب والأندلس"، وهو أيضا من أهم المراجع في تاريخ البلاد. ومن أشهر مؤرخي هذا العصر أيضا ابن زولاق الحسن بن إبراهيم الليثي بالولاء.



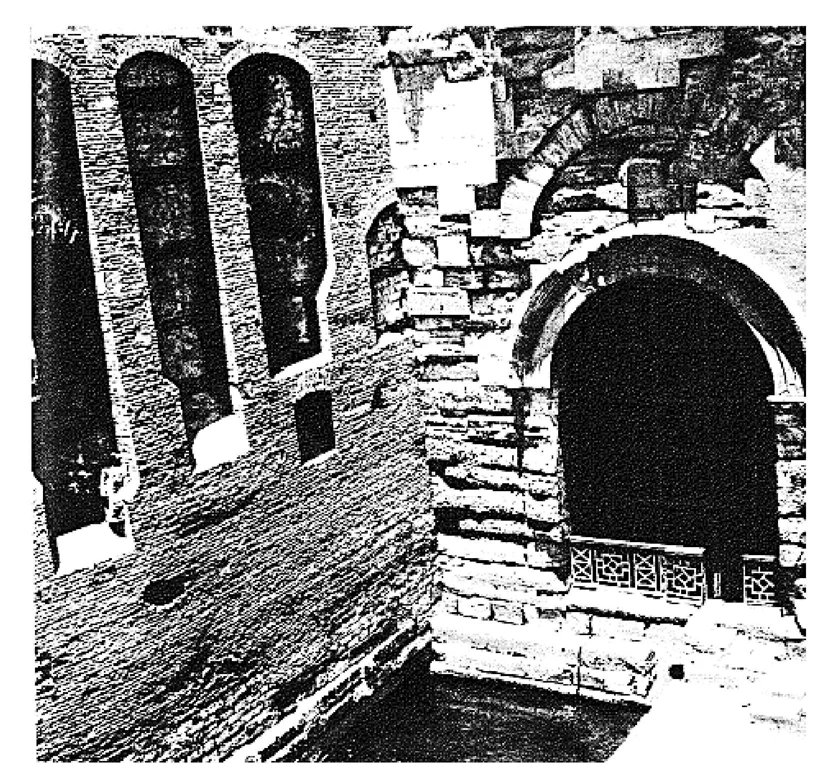
رسم تقريبي يوضح مواقع الفسطاط، والعسكر، والقطائع.. كما يوضح تحول الشاطئ الشرقي للنيل نحو الغرب منذ الفتح العربي حتى الوقت الحالي.



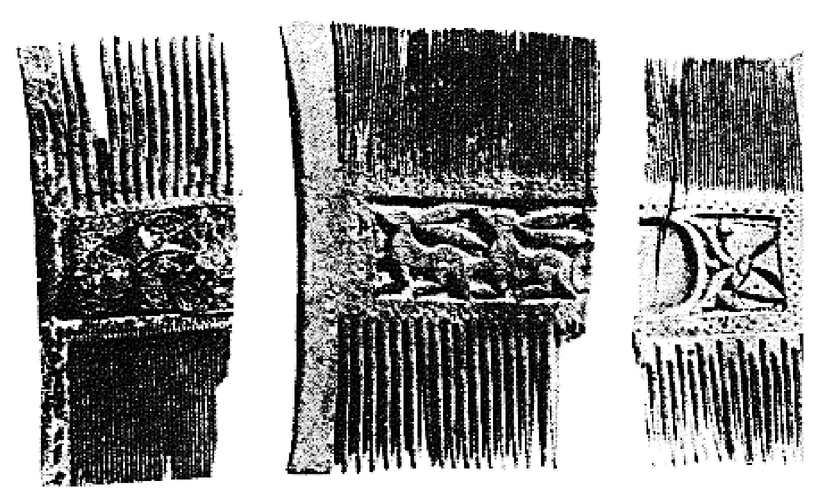
الإيوان الشرقي (إيوان القبلة) بجامع عمرو بن العاص ويرى به عدد كبير من الأعمدة القديمة ذات التيجان المختلفة، ترتكز عليها عقود مدببة.



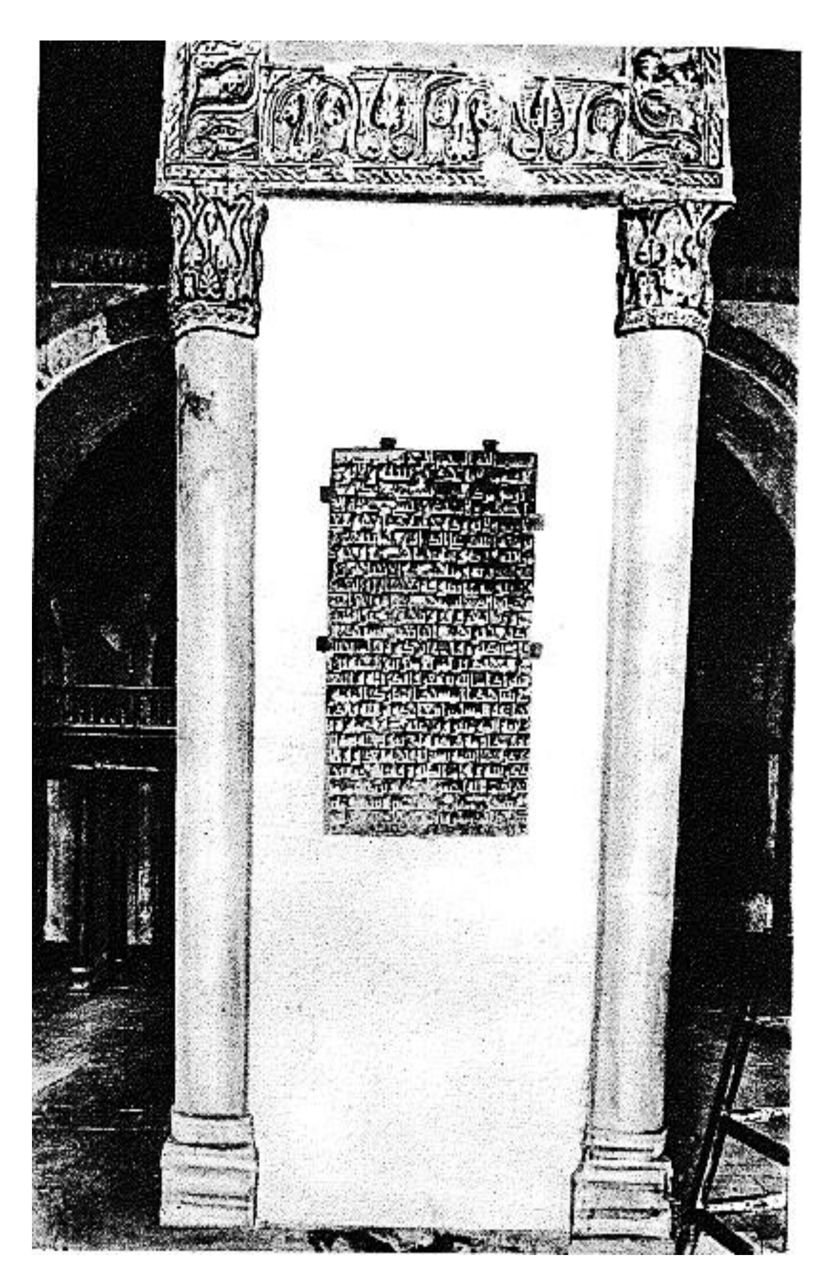
إحدى الدور بمدينة الفسطاط، وقد كشفت عنها حفريات المتحف الإسلامي بالقاهرة (من كتاب حفريات الفسطاط للمرحوم علي بهجت).



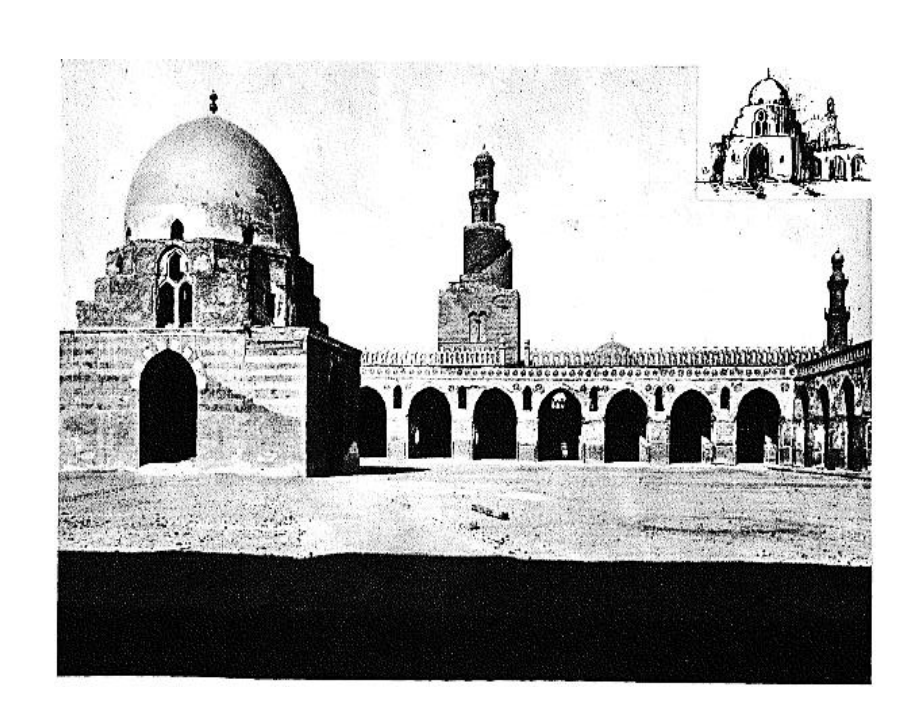
باب حصن بابليون (قصر الشمع) وقدكانت مياه النيل تحف به وقت الفتح.



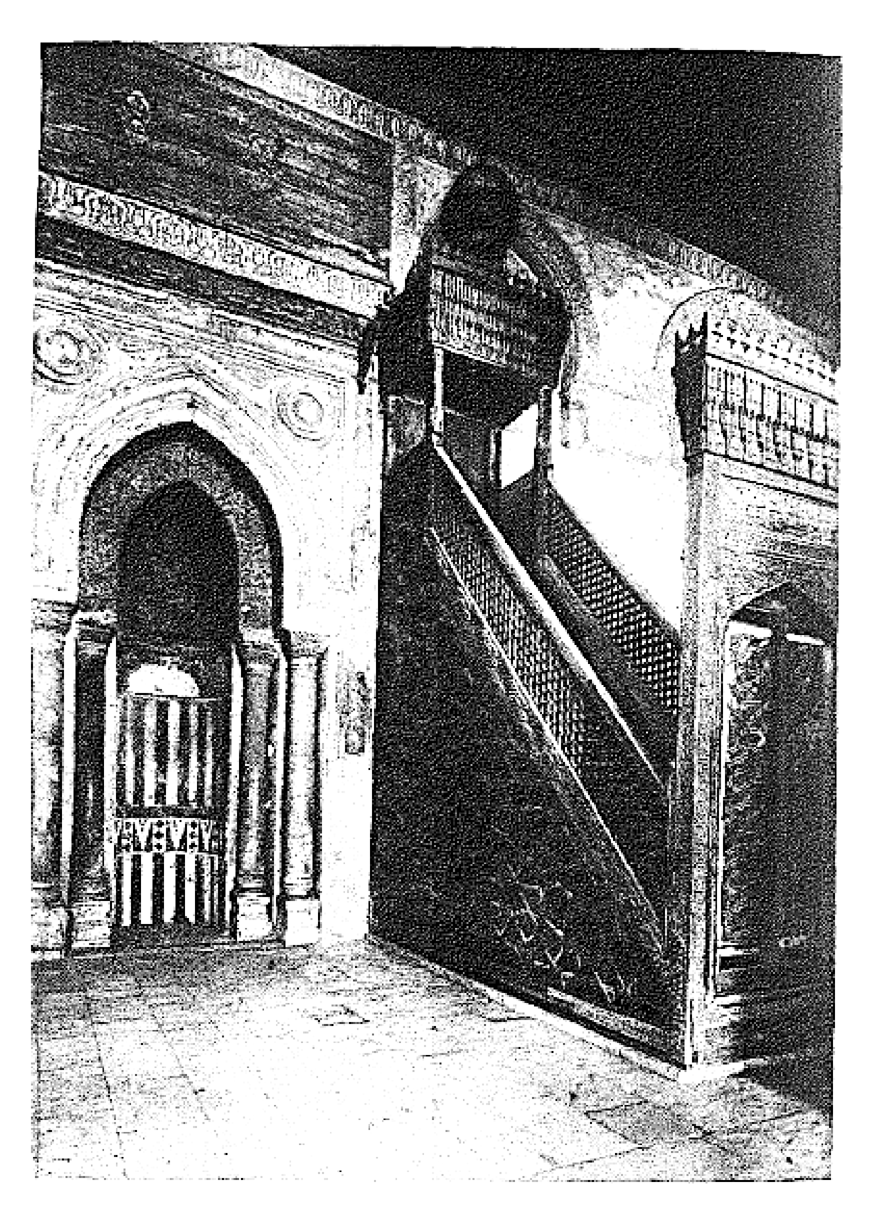
أمشاط مصنوعة من الخشب بها زخارف محفورة وجدت بحفريات الفسطاط (من كتاب حفريات الفسطاط للمرحوم علي بهجت).



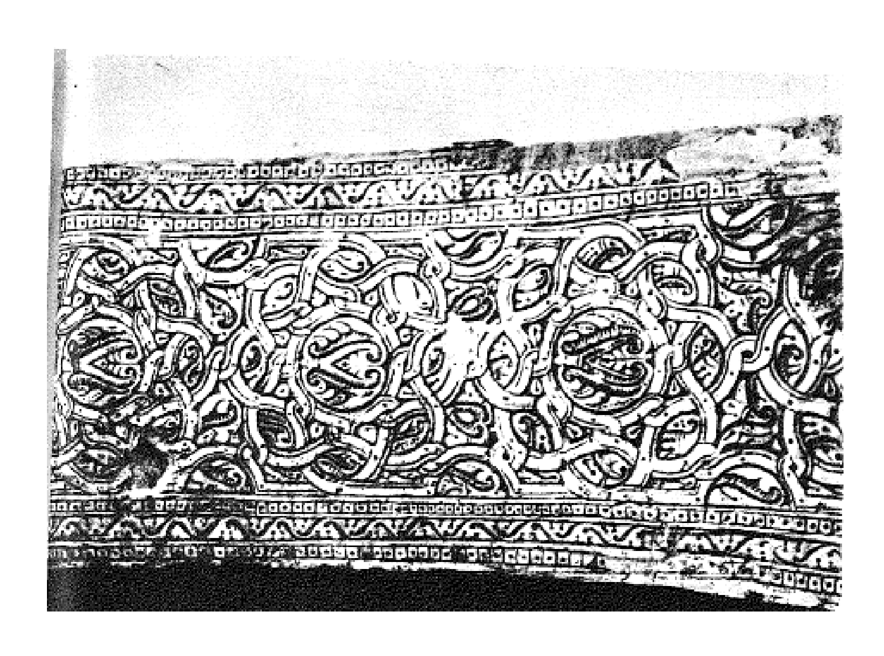
اللوح التذكاري بجامع أحمد بن طولون ويتضمن تاريخ إنشاء المسجد، واسم منشئه، ويوجد على أحد الأكتاف بالمسجد. ويرى على جانبي الكتف عمودان، تاجاهما والإفريز الذي يعلوهما من الزخارف الجصية.



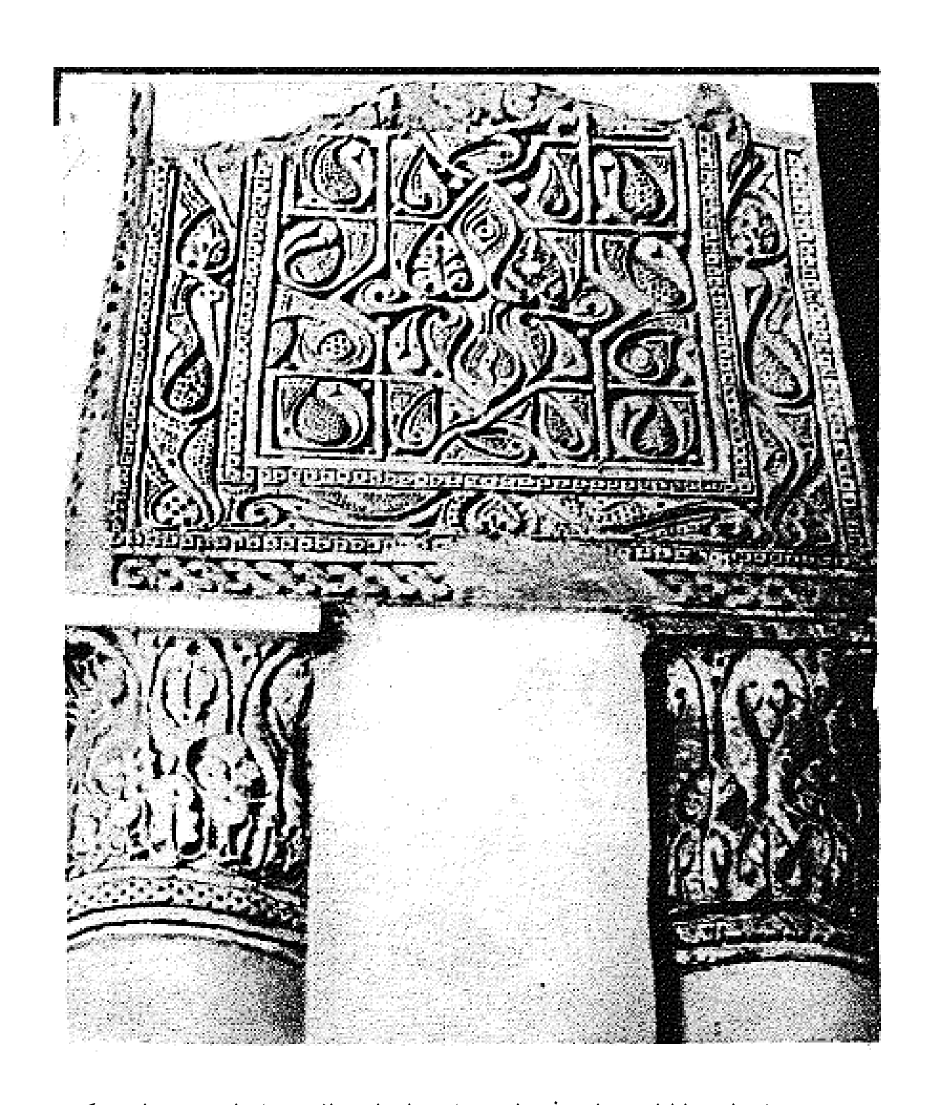
المئذنة والميضأة بالمسجد الطولوني، وكلاهما من العصر المملوكي وتشاهد الدعائم (الأكتاف) والفتحات التي تعلوها، والزخارف.



منبر الجامع الطولوني، وقد صنع في العصر المملوكي، والمحراب القديم وهو معاصر لإنشاء المسجد، ويعلوه إفريز من الخط الكوفي البسيط تقرأ فيه: لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله ﷺ.



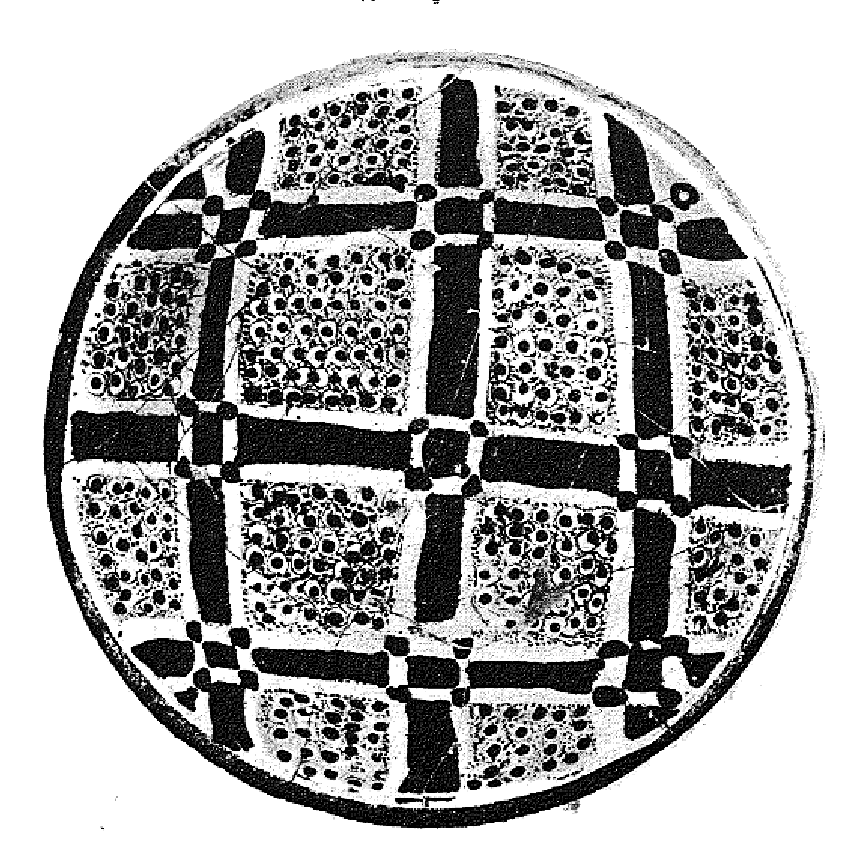
زخارف جصية على باطن أحد العقود في الجامع الطولوني، قوامها خطوط لولبية، ولآلئ، وأشرطة.



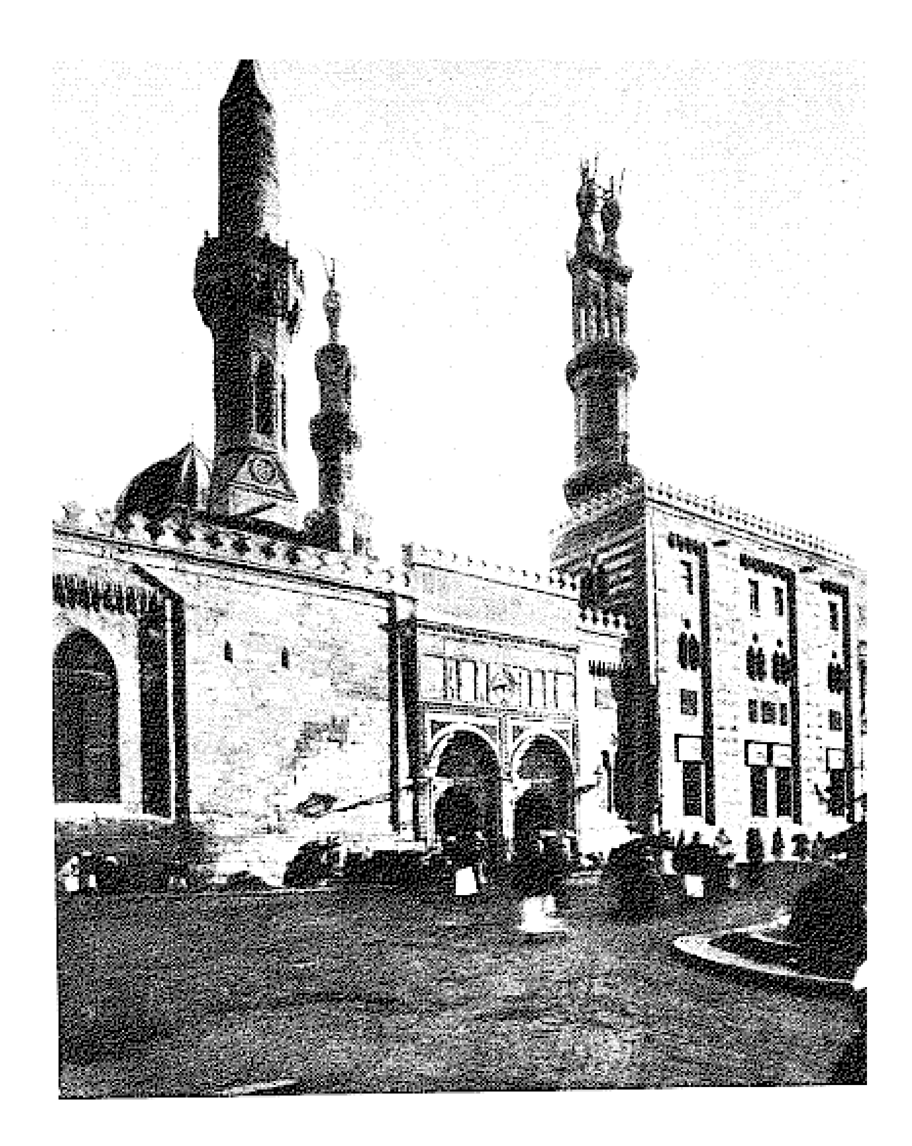
تاجا عمودين في الجامع الطولوني، والزخارف الجصية على باطن العقد الذي يحمله العمودان. والتاجان كما هو مشاهد بسيطان على شكل ناقوسين كالتيجان الكورنثية ذات الورق المسمى شوك اليهود.



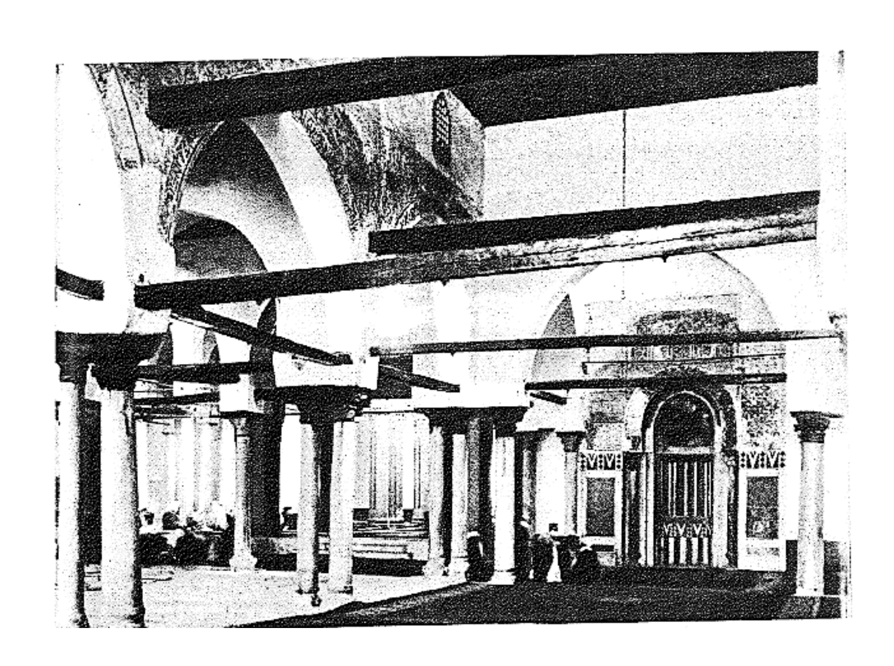
حشوة من الخشب المحفور من العصر الطولوني، قوام الزخرفة فيها عصفوران متقابلان (محفوظة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة)



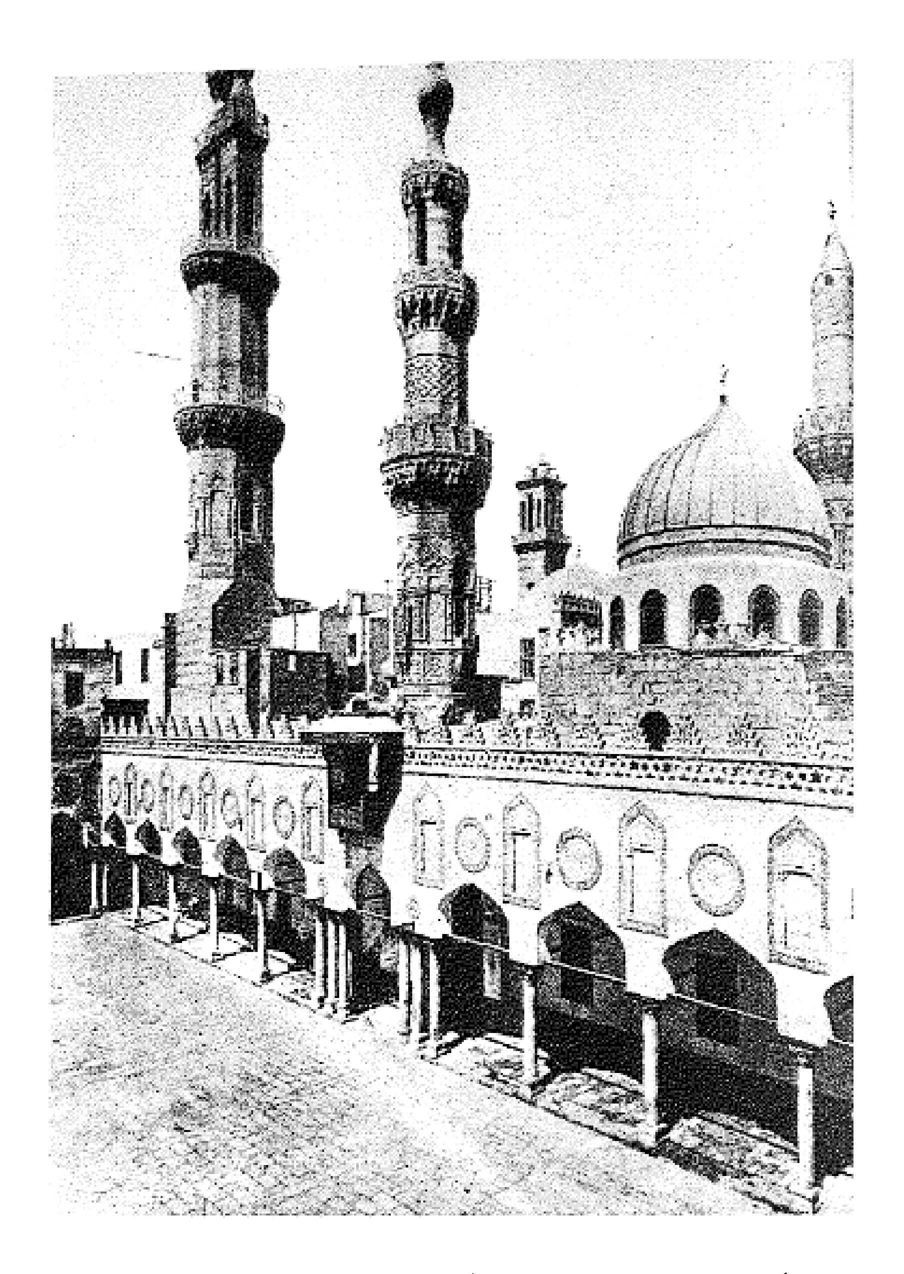
صحن من الخزف ذي البريق المعدني من العصر الطولوني أو العصر العباسي، تتكون زخرفته من خطوط عريضة متقاطعة، تحصر بينها مناطق مملوءة بالدوائر التي تتوسطها نقط حمراء (محفوظة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة)



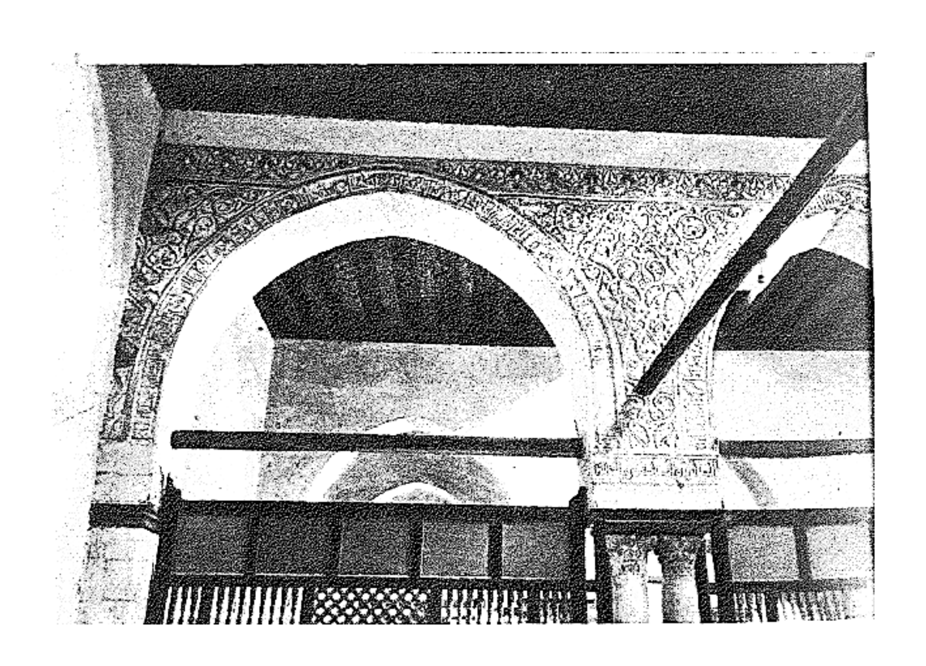
الواجهة الغربية للجامع الأزهر ويرى الباب الغربي الكبير في الواجهة، وقد أنشأه الأمير الرحمن كتخدا سنة ١٦٧



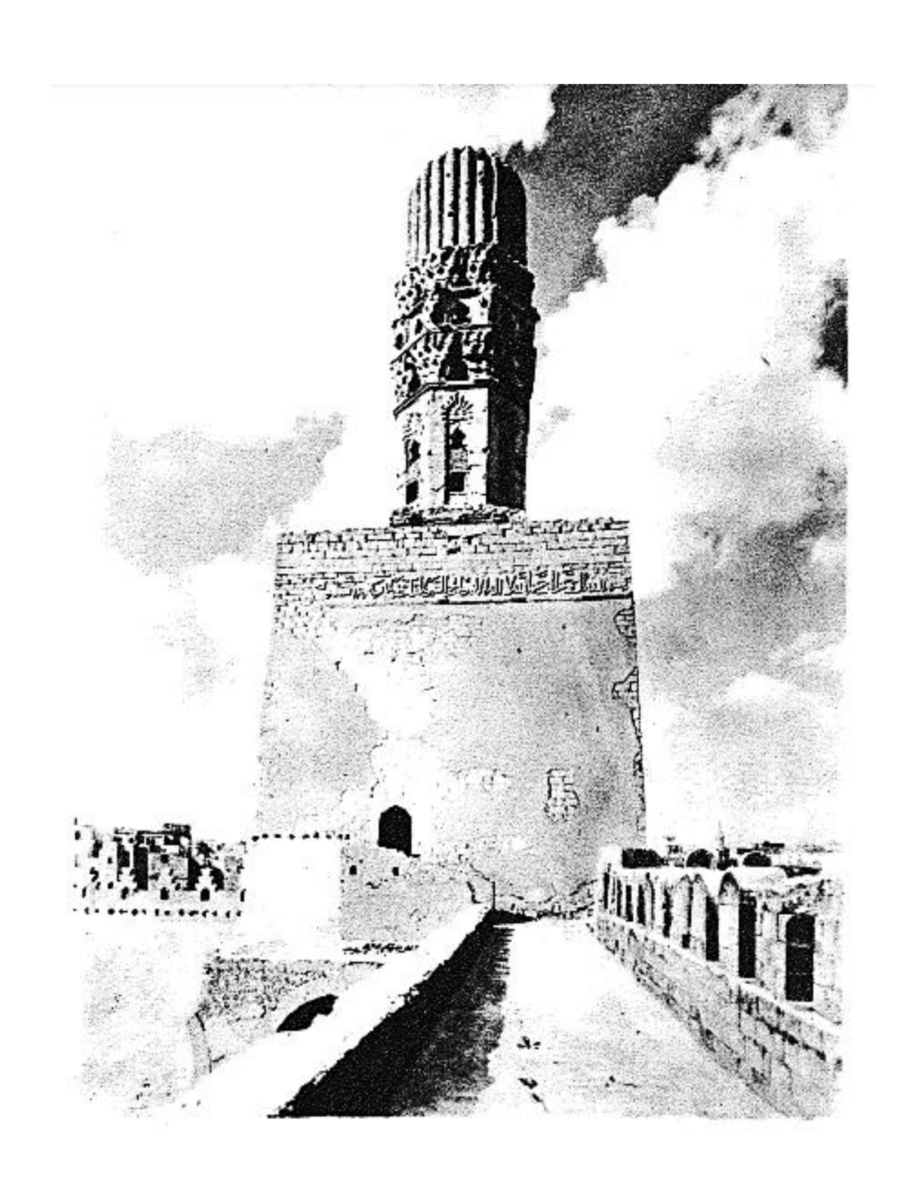
داخل الجامع الأزهر ويظهر به المجاز والمحراب المعزي والعقود والأعمدة القديمة.



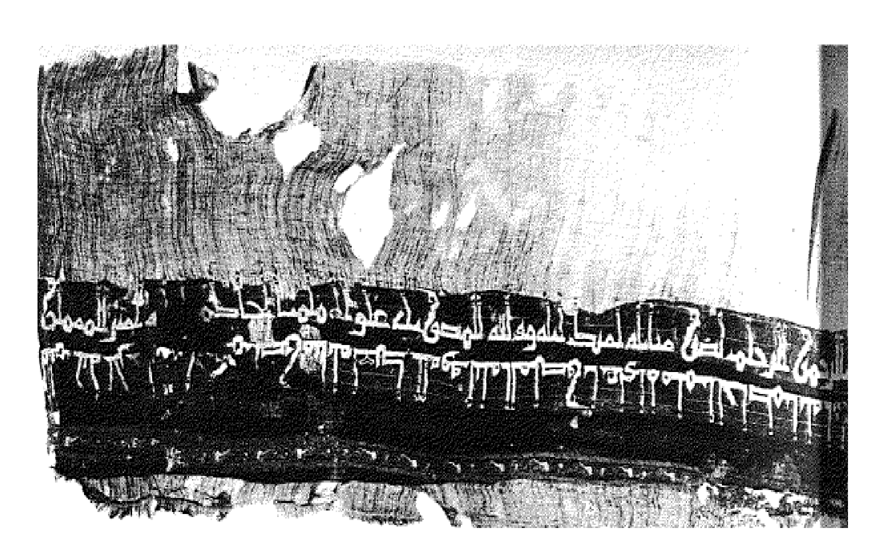
الجامع الأزهر: الصحن، وترى على الجدران زخارف جصية. كذلك ترى مئذنة جامع قايتباي ومئذنة جامع الغوري ذات الرأسين.



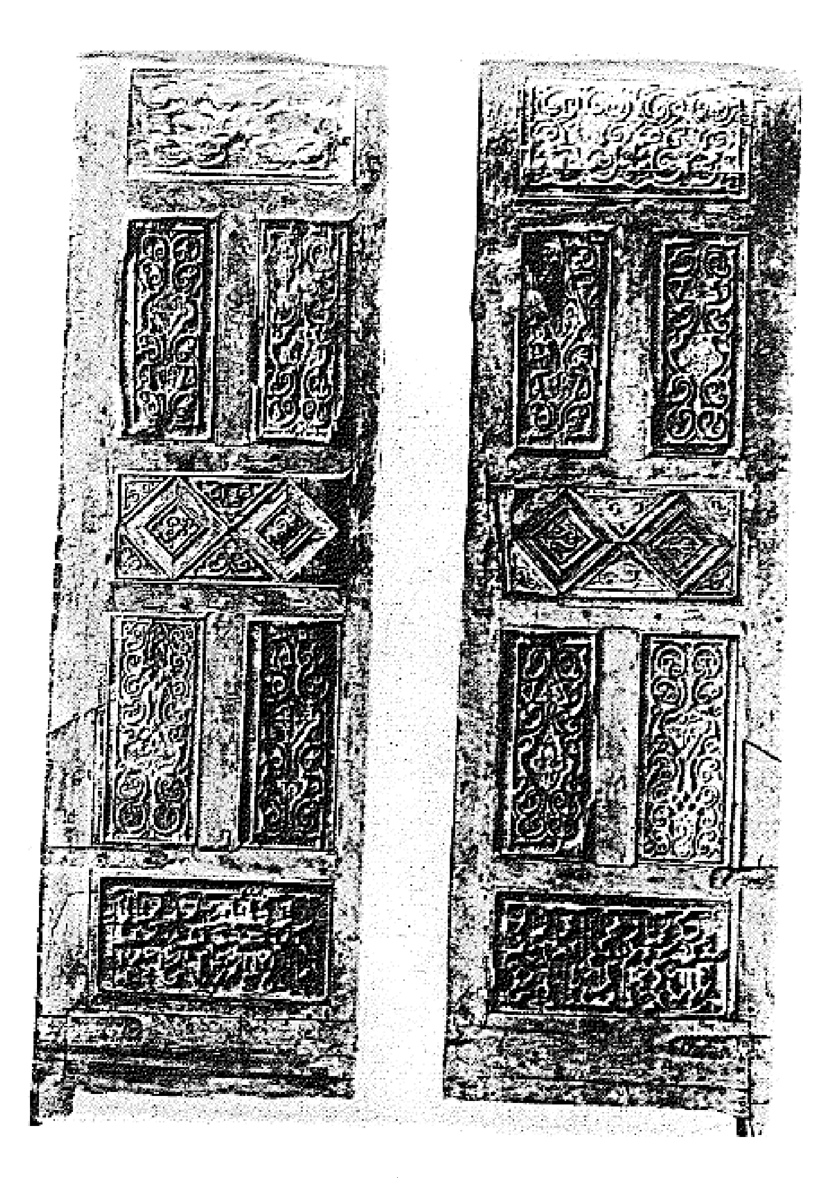
الزخارف الجصية النباتية، والكتابات الكوفية المشجرة، على عقود الجامع الأزهر.



المنارة البحرية لمسجد الحاكم وجزؤها العلوي من الآجر. وترى إلى اليسار بعض الشرافات المسننة التي تعلو الجدران الداخلية، وإلى اليمين جزء من سور بدر الجمالي والطريق الموصل إلى الأبراج.



قطعة من نسيج من الكتان والحرير باسم الخليفة الحاكم بأمر الله (بداية القرن الحادي عشر الميلادي)
محفوظة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.



مصراعا باب من الخشب باسم الخليفة الحاكم بأمر الله (بداية القرن الحادي عشر الميلادي) محفوظان بالمتحف الإسلامي بالقاهرة، أصلهما من الجامع الأزهر وزخارفهما النباتية المحفورة بعمق، متأثرة بالطراز الطولوني أو العباسي.



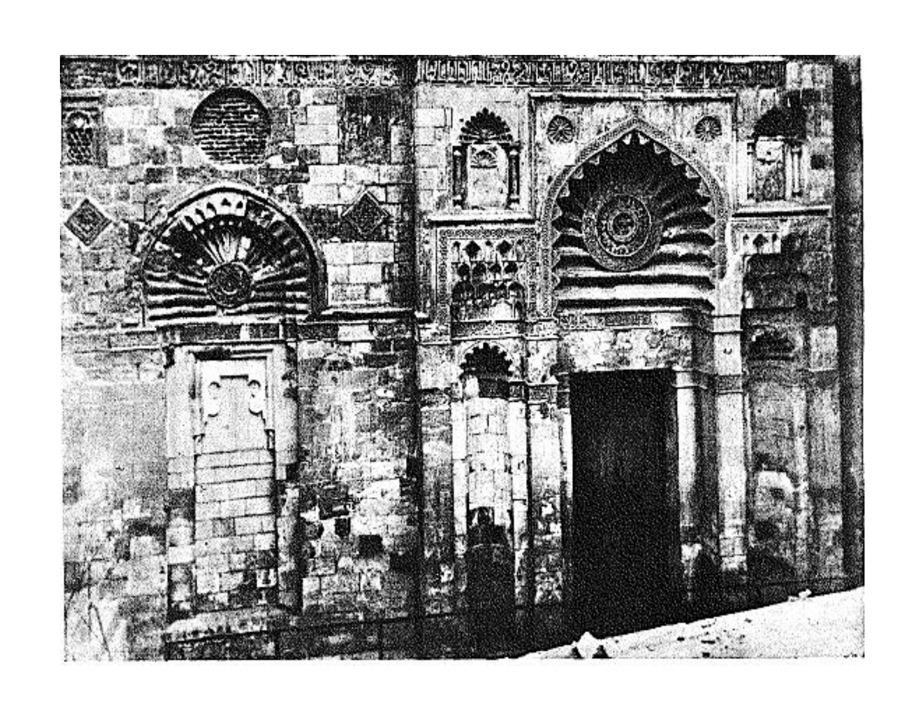
العقود المدببة بمسجد الحاكم، والدعائم وأشباه الأعمدة من الآجر.
وهي شبيهة بالدعائم (الأكتاف) في جامع أحمد بن طولون.



قطعة من ألواح خشبية، أصلها من أحد قصور الفاطميين (من القرن العاشر الميلادي) محفوظة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة، وتمثل الزخرفة المحفورة عليها مناظر طرب أو موسيقى أو صيد أو سفر أو قتال، فوق أرضية من فروع نباتية أقل بروزا.



صحن من الخزف ذي البريق المعدني (القرن الحادي عشر الميلادي) بالمتحف الإسلامي، ويمكن نسبته إلى مدرسة مسلم وعليه زخارف نباتية بالبريق المعدني ذي اللون الذهبي المائل إلى الخضرة في وسطها ديك رافع ذيله ويتدلى من منقاره فرع نباتي.



الواجهة الرئيسية لمسجد الأقمر، وتشاهد فيها التجاويف والمحارات وصفوف المقرفصات الصغيرة.

عنى كذلك بتاريخ مصر، فأكمل أخبار قضاة مصر للكندي، وعنى بخططها، فألَّف فيها، وكانت خطط أساسا لمن أتى من بعده، ومن بينهم المقريزي. ومن أشهر المؤرخين، وإن لم ينتموا إلى العصر الطولوني وإنما ينتمون إلى العصر الإخشيدي، المؤرخ المشهور المسعودي. وقد كان مؤرخا وجغرافيا، ممتازا على من سبقه بدقة نظره وسعة اطلاعه، وكثرة رحلاته ومشاهداته، فقد أضاف إلى الثروة التاريخية كثيرا من الكتب والمراجع النفيسة(١٩)، وتوفي سنة **٣٤٦** هـ (**٩٥٧** م)، ومن أشهر مؤلفاته «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وقد ترجم إلى الفرنسية.

علم الطب:

وسبق أن ذكرنا أن أحمد بن طولون أنشأ بيمارستانا على أرض العسكر، للعناية بالمرضى، ألحق به صيدلية وحمامين، أحدهما للرجال والآخر للنساء، ورتب له الأطباء والصيادلة والخدم، للعناية بالمرضى من مختلف الأديان والأجناس، ويدلك إنشاء هذا المستشفى، وما كان عليه من تنظيم وحسن ترتيب، واهتمام أحمد بن طولون نفسه بالمرضى والعناية بهم على مدى تقدم فن الطب والتمريض في عهده. وفي الواقع أن مصر اشتهرت في هذا العصر بطائفة من الأطباء، ومن هؤلاء سعد بن توفيل، طبيب أحمد بن طولون، وكان نصرانيا، وإبراهيم بن عيسى، والحسن بن زيرك، وكان من أطباء ابن طولون أيضا.

الفنون:

كذلك كان للدولة الطولونية الفضل الأول، منذ الفتح الإسلامي في جعل مصر مركزا مشهورا للفنون، ومقرا لبلاط فخم. ويعتبر الجامع الطولوني ذخيرة للفنون في هذه الحقبة من تاريخ مصر، بما حفل به من نقوش وزخارف، كانت معينا لدارسي الفنون عند الطولونيين. ولو أن يد مُحَمَّد بن سليمان الكاتب امتدت إليه أيضا بالتخريب والتدمير، كما امتدت لقصور القطائع وحماماتها وبساتينها ومستشفاها وسائر أبنيتها، لفقدنا حلقة هامة في سلسلة الفنون الإسلامية في مصر، ولاضطررنا أن نضرب في بيداء الحدس والتخمين تجاه تلك الفنون[٢٠].

الزخارف الجصية:

واتخذ الطولونيون الجص (الجبس) مادة لطلاء أبنيتهم، وزخرفوها بزخارف تستمد كثيرا من عناصرها من الأشكال الهندسية ومن الرسوم النباتية، تلك الرسوم التي قوامها الفروع النباتية، تخرج منها أوراق العنب وعناقيده، كما يرى في واجهات عقود الجامع الطولوني، أو الخطوط المتداخلة والخطوط اللولبية واللآلئ والأشرطة أو الخطوط المنكسرة كما في بواطن العقود[٢١].

الأخشاب المحفورة:

واستخدم الطولونيون الأخشاب في مبانيهم وقصورهم ومساجدهم، ولقد أفادوا من خبرة القبط في صناعة الأخشاب، تلك الصناعة التي توارثوها عن المصريين القدماء، فاستخدموا الخشب في عمل السقوف والأبواب والمنابر والدكك وأشرطة الكتابة التاريخية أو الزخرفية.

وقد وصلت إلينا قطع من الخشب ذي الزخارف الطولونية، مصدرها إما المسجد الجامع أو القصور والأبنية الطولونية البائدة، ويشبه ما عليها من زخارف الزخارف الجصية، وهي محفورة حفرا عميقا، منحرف الجوانب، قوامها الفروع الخطوط الحلزونية التي تغطي الأرضية كلها. وقد يغطي التربيعة من الخشب الطولوني رسم تخطيطي، أو آخر موضوعاته نباتية تحيط به أشرطة من أقراص صغيرة محفورة، أو فروع مستديرة، أو مربعات، أو أشكال مستطيلة.

وذكرنا في وصف بستان خمارويه ما كان يحلي قصر الذهب من تماثيل خشبية له ولحظياته، على مقدار قامة ونصف، وللأسف لم يصل إلينا شيء منها.

أما الزخارف الجصية والأخشاب المحفورة، فبالمتحف الإسلامي بالقاهرة نماذج كثيرة منها. وذكرنا في وصف الجامع الطولوني الإزار الذي يدور تحت سقفه، المصنوع من الألواح الخشبية، والمنقوش في وسطه آيات من القرآن الكريم بحروف كوفية، من طراز الكتابة الكوفية التي سادت العصر الطولوني، وهي المكونة من الحروف المربعة ذات الزوايا القائمة.

الخزف:

وقد وجدت في أطلال الفسطاط قطع من الخزف ذي البريق المعدني، تحمل شبها كبيرا للخزف المصنوع في سامرا، مما يؤدي إلى الظن بأن هذا الخزف نقل إلى مصر بواسطة أحمد بن طولون، وقُلد في المصانع التي أنشأها في الفسطاط لهذا الغرض. ويذهب فريق من الباحثين في دراسة الخزف إلى أن الخزف ذا البريق المعدني نشأ على ضفاف النيل، ثم أخذ ينمو ويترعرع في العصر الإسلامي. وقد ذكر المرحوم علي بهجت في كتابه عن الخزف

الإسلامي في مصر أن الخزف الطولوني أرق طينة من النوع الذي ينسبه إلى ما قبل العصر الطولوني، كما يمتاز بزخارف ذات البريق المعدني ذي اللون الأصفر أو الزيتوني على أرضية بيضاء مشربة بالصفرة أو «كريم».

وفي أكثر القطع الخزفية الطولونية خط يحيط بالزخارف الرئيسية، فيكون منطقة تزين ما يخرج عنها بقع ثلاثية الشكل، أو دوائر صغيرة في وسط كل منها نقطة. وفي المتحف الإسلامي بالقاهرة صحن فيه زخارف هندسية صفراء وسمراء، وعلى أرضيته البيضاء النقط المعروفة في زخرفة الخزف العراقي بسامرا[٢٢].

المنسوجات:

وقد كان لمصر شهرة عظيمة في صناعة المنسوجات قبل الفتح الإسلامي، وظل المصريون يزاولون تلك الصناعة كغيرها من الصناعات الأخرى طوال العصر الإسلامي، ولكنها أخذت تتطور تطورا تدريجيا بما يلائم ذلك العصر والتقاليد الإسلامية.

وتشتمل مجموعة المتحف الإسلامي بالقاهرة على عدد من قطع النسيج بأسماء الخلفاء العباسيين والأمراء الطولونيين. والمعروف أن الجزية التي كانت ترسلها مصر إلى بلاط الخليفة العباسي، ثم الهدايا التي أرسلها أحمد بن طولون إلى الخليفة المعتمد، والتي أرسلها خمارويه من بعده إلى الخليفة المعتضد، كان فيها شيء كثير من الأقمشة الثمينة، والمنسوجات النفيسة.

ولابد أن نشير هنا إلى أن مصانع النسيج كانت على نوعين: مصانع أهلية وهي التي تصنع المنسوجات الشعبية، ويطلق عليها طراز العامة، وتشرف عليها الحكومة. ومصانع حكومية، تصنع بها المنسوجات للخليفة ورجال بلاطه وخاصته وهي التي يطلق عليها طراز الخاصة. وقد كانت أسماء الخلفاء والأمراء على تلك المنسوجات، ويقرن باسم الخليفة ألقابه وبعض عبارات الأدعية، وكثيرا ما كان يذكر فيها اسم المدينة التي فيها الطراز واسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز[٢٣].

صناعات أخرى:

وتذكر المصادر التاريخية أن عدة جيش ابن طولون كانت مائة ألف جندي. فالمعقول أنه كانت توجد في الفسطاط مصانع تصنع ما يحتاج إليه هذا الجيش العظيم من أسلحة وعتاد، وإن لم يصل إلى أيدينا شيء منها. كذلك تروي تلك المصادر أن دنانير ابن طولون كانت من الصفاء بحيث استعملت خاصة للتذهيب(٢٤)، ومعنى ذلك أنه كانت بمصر دار لسك النقود(٢٥)، كما كان بها مصانع للزجاج تصنع الأواني الزجاجية والخواتم والأختام، التي كان يطبع بها على الأواني لبيان أحجامها المختلفة.

---

(١) سوق البغال والحمير بجوار القلعة.
(٢) النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٤.
(٣) الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة للمرحوم الأستاذ مُحَمَّد رمزي.
(٤) تاريخ ووصف الجامع الطولوني للأستاذ محمود عكوش، ص ١٠.
(٥) هي الكرة يلعب بها بالمضرب من فوق ظهور الخيل، تشبه لعبة البولو في الوقت الحاضر.
(٦) المقريزي: الخطط، ج ٢ ص ١٠٦.
(٧) النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٥.
(٨) المقريزي: الخطط، ج٢ ص ١٠٦.
(٩) المقريزي: الخطط، ج ٢ ص ١٠٦.
(١٠) الفن الإسلامي في مصر للمرحوم الدكتور زكي مُحَمَّد حسن، ص ٧٧.
(١١) تاريخ ووصف الجامع الطولوني، للأستاذ محمود عكوش.
(١٢) الفن الإسلامي في مصر، ص ٧٢.
(١٣) انظر تاريخ ووصف الجامع الطولوني، للأستاذ محمود عكوش، ص ٢٦ – ٢٨.
(١٤) المقريزي: الخطط، ج ٢ ص ١٠٨.
(١٥) المقريزي: الخطط، ج ٢ ص ١٠٩.
(١٦) المقريزي: الخطط، ج ٢ ص ١٢٤.
(١٧) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣ ص ١٢.
(١٨) الفن الإسلامي بمصر للمرحوم الدكتور زكي مُحَمَّد حسن، ص ٦٧.

(١٩) كتاب تاريخ آداب اللغة العربية تأليف جرجي زيدان، ج ٢ ص ٣١٤.

(٢٠) انظر كتاب Briggs Moh. Architecture، ص ٦١.

(٢١) انظر كتاب الفن الإسلامي في مصر للدكتور زكي مُحَمَّد حسن ص ٧٧.

(٢٢) الفن الإسلامي في مصر تأليف المرحوم الدكتور زكي مُحَمَّد حسن ص ١٠٧.

(٢٣) الفن الإسلامي للدكتور زكي مُحَمَّد حسن، ص ٨٣ – ٩٠.

(٢٤) المصدر السابق ص ١١٧.

(٢٥) كانت النقود التي تضرب في دار النقود التي أسسها أحمد بن طولون تعرف بالأحمدية، وامتازت بعيارها الجيد.

الباب الرابع

القاهرة المعزية

- ١ -

فتح الفاطميين مصر

استتب الأمر للفاطميين في شمال إفريقية، وصار ملكهم يمتد من حدود مصر شرقا حتى ساحل المحيط الأطلنطي غربا. ورنا الخلفاء الفاطميون ببصرهم إلى مصر، وتمنوا أن تدخل في حوزتهم، وتنطوي تحت سلطانهم، لمَا لها من مكانة ممتازة في العالم الإسلامي. فحاولوا غزوها في عهد القائم بأمر الله سنة **٣٢٤** هـ (**٩٣٥** م)، ولكن حال دون تحقيق هذه الأمنية قوة محمد الإخشيد –حاكم مصر إذ ذاك– ووقوفه لهم بالمرصاد. وظلوا يتربصون بمصر الدوائر، وتسرب الوهن إلى ملكهم، وتولى أمر مصر من ذراريهم حثالة من ضعاف الملوك، لا حول لهم ولا قوة. عندئذ اقتنص الفرصة المعز لدين الله، رابع الخلفاء الفاطميين، فأنفذ إليها سنة **٣٥٨** هـ (**٩٦٨** م) جيشا كبيرا، على رأسه قائده الأول جوهر الصقلي، مجهزا بأحسن العدد والأدوات، ووضع لذلك الخطط المحكمة، والترتيبات الموفقة، ليتحقق الأمل المنشود، هذه المرة.

وكان قد سبق الغزو الفاطمي دعاية للفاطميين واسعة النطاق، واستمالة الفاطميين للمصريين بشتى الوسائل، لذلك لم يجد جوهر في فتحها كبير عناء، وسرعان ما صارت مصر درة في تاج الفاطميين، وانتقل إليها كرسي الخلافة الفاطمية، وعلا قدرها، وذاع صيتها، وطمست بشهرتها الخلافة العباسية في الشرق والأموية في الغرب، وتعالت القاهرة المعزية على بغداد العباسية، وقرطبة الأندلسية، وصارت قلب العالم الإسلامي النابض، ومحور نشاطه الدافق.

- ٢ -

بناء القاهرة:

وكان في مقدمة ما عنى به الفاطميون، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من الأسرات الإسلامية، اتخاذ قاعدة جديدة للحكم، تحمل طابعهم، وتتميز عما سبقها من قصبات الحكم. لذا حرص جوهر ليلة وصوله الفسطاط، في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ (٧ يوليو سنة ٩٦٨)، على إنشاء الحاضرة المرتقبة، ويظهر أنه كان ينفذ رغبة من رغبات سيده المعز.

تسمية القاهرة:

وهنا ينشط القصاص كعادتهم، في نسج قصة طريفة، اقترن بها بناء العاصمة الجديدة، فيروون أن جوهرا نظر إلى السهل الرملي الواقع شمالي الفسطاط، وكان خلوا من المباني إلا القليل الملحق بالبستان الكافوري، ودير فسيح يطلق عليه دير العظام، وحصن صغير يسمى بقصر الشوك، فاختط فيه مدينته، وأحاطها بسياج من الأعمدة الخشبية، وأوصلها جميعا بالحبال، التي تتدلى منها أجراس قصد بها أن تدق جميعا في لحظة واحدة، عندما تعطي الإشارة بذلك، لكي تكون إيذانا بوضع الأساس.

وقد ترقبوا مرور موكب ميمون الطالع، في سماء المدينة الجديدة، ليوضع الأساس عند إشراقه، تفاؤلا بمستقبل سعيد مرموق لها. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ حط فوق أحد الحبال غراب، فدقت الأجراس لفورها، فوضع العمال الأساس، وفقا للتعليمات المعطاة، واتفق أن ظهر في تلك اللحظة كوكب المريخ، قاهر الفلك كما يطلقون عليه، فلما رفع الأمر للخليفة المعز، عند قدومه إلى مصر في ٥ رمضان سنة ٣٦٢ (١٠ يونيو ٩٧٢) وكان عالما في التنجيم، وافق على نسبة المدينة الجديدة إلى كوكب القاهر، الذي كان يعهد فيه يمن الغدوات، وبركة الروحات.

وأضيف إليها اسم المعز، فصارت تعرف باسم القاهرة المعزية أو قاهرة المعز[١].

ومهما يكن من أمر، فليست هذه القصة وأضرابها بالشيء الجديد في عالم العواصم القيمة، فقليل منها من لم يقترن إنشاؤه بقصة طريفة من هذا النوع، لتكسبها روعة وجدة،

على مر العصور والأزمان.

سور القاهرة:

وليس بعجيب أن يكون أول شيء يبدأ به جوهر في بناء العاصمة الجديدة بناء السور، إذ كان المقصود بالمدن في العصور الوسطى أن تكون قلاعا حصينة، يحتمي وراءها السكان ضد الغزاة الفاتحين، ونواة الأبنية في تلك المدن قصور الخلفاء والوزراء وملحقاتها من دور الحكومة والدواوين، ثم المساجد وأماكن العبادة وغيرها. وهذا ما حدا بالمقريزي أن يذكر أن بناء القاهرة إنما قصد به أن تكون "منزل سكني للخليفة وحرمه وجنده وخواصه، ومعقل قتال يتحصن به، ويلجأ إليه"[٢].

وقد شغلت القاهرة أول الأمر قطعة من الأرض مساحتها ٣٤٠ فدانًا على شكل مربع طول ضلعه ١٢٠٠ متر تقريبا[٣]، وكانت تمتد من منارة جامع الحاكم شمالا حتى باب زويلة جنوبا. وأحاطها جوهر بسور من اللَّبن، كما تقدم، بقيت منه بقية إلى عهد المقريزي (أي إلى أوائل القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي) فوصفها بقوله: "وقد أدركت من هذا السور اللَّبن قطعا، وآخر ما رأيت منه قطعة كبيرة، كانت فيما بين باب البرقية ودرب بطوط، هدمها شخص من الناس في سنة ٨٠٣ هـ.

فشاهدت كبر لَبنها ما يتعجب منه في زمننا، حتى أن اللبنة تكون قدر ذراع في ثلثي ذراع. وعرض جدار السور عدة أذرع، يسع أن يمر به فارسان. وكان بعيدا عن السور الحجر الموجود الآن، وبينهما نحو الخمسين ذراعا، وما أحسب أنه بقي الآن من هذا السور اللبن شيء"[٤].

أبواب القاهرة:

ويَحُد المدينة من الشرق تلال المقطم، ومن الغرب الخليج الكبير، ومن الجنوب مدينة القطائع. ويقع في هذا السور ثمانية أبواب هي: باب زويلة وباب الفرج في الجنوب، وباب الفتوح وباب النصر في الشمال، وباب القراطين –الذي عرف فيما بعد بباب المحروق– وباب البرقية في الشرق.

وباب سعادة ويقع في موضعه الآن محكمة الاستئناف العليا، ثم باب القنطرة في الغرب، (وسمي كذلك لأن جوهرا بنى تجاهه على الخليج قنطرة).

وقد جدد هذا السور بدر الجمالي، وزير المستنصر سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م)، ولا تزال ثلاثة من أبوابه باقية حتى اليوم وهي: باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة. وقد بنيت في مواضع قريبة من أبواب جوهر القديمة، ولكنها لم تبن من اللَّبن، وإنما بناها بدر الجمالي من الأحجار الضخمة، كما ترى اليوم في أماكنها الحالية، وكما ترى بقية ضئيلة من سور بدر الجمالي في شارع الجيش، في منتصفه تقريبا.

القصر الشرقي الكبير:

واختط جوهر أيضا، قصرا كبيرا لإقامة المعز عند قدومه إلى مصر، وكان يقع بالقرب من السور الشرقي، ولذا أطلق عليه اسم القصر الشرقي الكبير، وكل ما نعلمه عن ذلك القصر مستمد من المصادر التاريخية، إذ لا أثر له اليوم، وكان يمتد من الموضع الذي يوجد به المشهد الحسيني الآن إلى الجامع الأقمر تقريبا، وكانت له تسعة أبواب:

ففي الناحية الشرقية كانت توجد أبواب العيد، والزمرد وقصر الشوك، وفي الناحية الغربية كانت توجد أبواب البحر والذهب والزهومة، وفي الناحية القبلية كانت توجد أبواب تربة الزعفران والديلم، وفي الناحية البحرية كان يوجد باب واحد هو باب الريح.

وكانت أسماء هذه الأبواب تدل على معان خاصة، فسمي باب العيد كذلك، لأن الخليفة كان يخرج منه في يوم العيد إلى المصلى التي كانت خارج باب النصر. وموضع هذا الباب اليوم بشارع قصر الشوك. وباب الزمرد: كان يتوصل منه إلى قصر الزمرد، وموضعه اليوم بشارع حبس الرحبة بالجمالية. وباب البحر: كان يخرج منه الخليفة عندما يقصد التوجه إلى شاطئ النيل بالمقس، وموضعه اليوم مدخل حارة القاضي تجاه جامع الملك الكامل بشارع بين القصرين. وباب الذهب: كانت تدخل منه المواكب وجميع رجال الدولة، وكان تجاه البيمارستان المنصوري. وباب الزهومة: وسمي كذلك لأنه كان باب مطابخ القصر، فتمر منه اللحوم وحوائج الطعام، فتنبعث منه رائحة اللحوم(٥).

وكان يتوصل من باب قصر الشوك إلى القصر المسمى بهذا الاسم "قصر الشوك"، وموضعه الآن مدخل عطفة القزازين بدرب القزازين. وباب التربة: وكان يتوصل منه إلى مقابر الخلفاء التي كانت بداخل القصر، وموضعه الآن وكالة القطن بسكة البادستان بخان الخليلي. وباب الريح: ويظهر أنه سمي كذلك لهبوب رياح الشمال الرطبة من خلاله، لوقوعه في الواجهة البحرية للقصر، وموضعه الآن وكالة سالم وسعيد بازرعة بشارع التمبكشية بجوار جامع جمال الدين. وباب الديلم: وكان يدخل منه إلى المشهد الحسيني من شرقيه، ويقع اليوم تجاه الباب الأخضر الشرقي للمشهد المذكور[٦].

القصر الغربي الصغير:

وشيد العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله قصرا آخر، غربي القصر الكبير، لذا سمي بالقصر الغربي الصغير. ويشغل مكانه اليوم مستشفى قلاوون للرمد، وكل المساكن التي تجاوره إلى شارع الخليج. لذا عرف أيضا بقصر البحر بالإضافة إلى اسم القصر الغربي. «وكان يشرف على البستان الكافوري، ويتحول إليه الخليفة من البركة التي كان يقال لها بطن البقرة ومن البستان المعروف بالبغدادية، وغيره من البساتين التي كانت تتصل بأرض اللوق وجنان الزهري»[٧].

وكان بين القصر الشرقي والقصر الغربي فضاء متسع، يقف فيه عشرة آلاف من العساكر، ما بين فارس وراجل، يطلق عليه ما بين القصرين، كما كان يصل القصرين سرادب تحت الأرض، يسلكه الخليفة ممتطيا بغلته، عندما ينتقل من القصر الشرقي إلى القصر الغربي، متخفيا عن أعين الناس.

تحف القصر الكبير وطرائفه :

وقد زاد الخلفاء المتعاقبون من قاعات القصر الشرقي وأبهائه، وأفرطوا في تزيينه وزخرفته: فقد وصف هذا القصر في أواخر عهد الدولة الفاطمية، بعض السائحين الأجانب، ممن قدر لهم زيارة القاهرة، وصفا شائقا، فذكروا أن أرضه كانت مرصوفة بالفسيفساء، وأسقفه تزينها الزخارف الذهبية الجميلة. وفي وسط أفنيته النافورات التي يجري منها الماء الصافي أنابيب من

الذهب والفضة، إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام، كما تكثر بحدائقه الطيور البديعة والحيوانات الغريبة. أما الستائر فكانت مصنوعة من الحرير الموشى بالذهب، ومرصعة بالجواهر واليواقيت، وعليها رسوم الحيوان والطيور، وبعض صور آدمية(٨).

وقد حشد الخلفاء الفاطميون في هذا القصر من التحف والطرائف ما لا يكاد يصدقه العقل. وقد جمعوا كل ذلك في خزائن، كان بعضها في داخل القصر، والبعض الآخر في مبان ملحقة به. وكان يقوم على حفظها، والعناية بمحتوياتها خدم وموظفون، اختصوا بهذا العمل وحده. وقد وصف المقريزي في خططه تلك الخزائن ومحتوياتها وصفا مسهبا. ومن هذه الخزائن: خزائن السلاح، وخزانة الكتب، وخزانة الكسوات، وخزائن الجوهر والطيب والطرائف، وخزائن الفرش والأمتعة، وخزائن السروج، وخزائن الخيم، وخزائن الشراب، وخزائن التوابل(٩).

وقد نمت القاهرة، وعلا شأنها، وطار صيتها، وازداد عمرانها، وتعددت أبنيتها، فأعجب بها الرحالة الفارسي ناصر خسرو، الذي زار مصر ما بين سنتي **٤٣٩** و **٤٤١**هـ (١٠٤٧– ١٠٤٩م). فذكر أن حوانيتها لم تقل عن عشرين ألفا، وخاناتها وحماماتها لا يمكن حصرها. وكانت أبنيتها أعلى من الأسوار الحصينة، وفي كل منها خمس أو ست طبقات. وكانت البيوت في المدينة مبنية بناء نظيفا محكما، وكانت مفصولة بعضها عن بعض بحدائق ترويها مياه الآبار.(١٠)

المناظر:

وكان للخلفاء الفاطميين مناظر كثيرة بالقاهرة: مصر والروضة والقرافة وبركة الحبش وظواهر القاهرة، وهي عبارة عن بساتين أشبه شيء باستراحة الملوك في عصرنا الحاضر، أثثت بأفخر الأثاث والرياش، وأحيطت بأجمل المناظر وأبهاها، خصوصا تلك التي كانت تقع على النيل أو الخليج الكبير وكان يقصدها الخلفاء للنزهة والتريض، أو حضور الاحتفالات أيام المواسم والأعياد، أو المناسبات الخاصة، كتوديع الجيش والأسطول أو استقبالهما. وكان في تلك المناظر بناء عال، يرتقيه الخليفة، ليرى ما يدور حوله، دون أن يراه أحد. فإذا كان الوقت ليلا أوقدت فيه النيران ليرى على ضوئها المنظر جميعه. ومن هنا

جاءت تسمية البناء المفرد بالمنظرة، وأهم تلك المناظر:

منظرة الجامع الأزهر: وكانت بجوار الجامع الأزهر من قبليه. وكان يجلس فيها الخليفة لمشاهدة ليالي الوقود. ومنظرة اللؤلؤة: وكانت تقع على الخليج بالقرب من باب القنطرة، ويطلق على القصر المحيط بها قصر اللؤلؤة، ويصفه المقريزي بأنه أحد متنزهات الدنيا، لفخامة بنائه وفاخر أثاثه وميل موقعه، إذ كان يشرف من شرفته على البستان الكافوري، ويطل من غربيه على الخليج وما يشرف عليه من بساتين وبرك، وقد بناه العزيز بالله. ومنظرة الغزالة: وكانت تقع بجوار منظرة اللؤلؤة.

ومنظرة السكرة: وكانت توجد على الشاطئ الغربي للخليج، وكان لها بستان عظيم، وقد بناها العزيز بالله أيضا. "ويجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج هو والوزير، وقد فرشت بالفرش المعدة لها، فتفتح إحدى طاقات المنظرة، ويطل منها الخليفة على الخليج. ومن طاقة تقاربها يتطلع أستاذ من الخواص، ويشير بالفتح، فيفتحه عمال البساتين بالمعاول، فتدق الطبول، وينفخ في الأبواق من البرَّين"[١١]. ومنظرة الدكة: وكان لها بستان عظيم بجوار المقس، فيما بينه وبين أراضي اللوق، وقد عمر البستان بالمباني فيما بعد، وصار يعرف بخط قنطرة الدكة. ومنظرة المقس، ومنظرة التاج، ومنظرة باب الفتوح، ومنظرة الصناعة، ومنظرة بركة الحبش.

-٣-

المساجد الفاطمية

الجامع الأزهر:

اختط جوهر في المدينة الجديدة أيضا مسجدا جامعا، أسوة بجامع عمرو في الفسطاط، وجامع أحمد بن طولون في القطائع، لكي تقام فيه الصلوات الجامعة، ولكي يدرس فيه المذهب الشيعي وتعاليمه. وقد بدأ في بنائه في جمادى الأولى سنة **٣٥٩** (أبريل سنة

٩٧٠) . وكان الانتهاء منه في رمضان سنة ٣٦١ (يونيه سنة ٩٧٢). وربما كان تسميته بالأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء، ابنة النبي -ﷺ-، وزوج علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- والتي تنسب إليها الدولة الفاطمية، أو إلى اللون الأبيض المزهر، الذي طليت به جدران المسجد، كما كانت عادة الفاطميين في دهان مساجدهم بشمال أفريقيا، قبل رحيلهم إلى مصر.

والمسجد الحالي يختلف عن جامع جوهر كل الاختلاف، كما حدث نفس الشيء لجامع عمرو الأصلي، للإضافات والتعديلات التي أدخلت عليه في العصور المتعاقبة، والتي أحالته إلى مسجد يخالف المسجد القديم تمام المخالفة. ولكن لا تزال ثمة بقية من جامع جوهر باقية، فيصبح بذلك أقدم أثر من آثار الفاطميين في مصر.

تخطيط الجامع الأزهر:

كانت مساحة الأزهر عند بنائه نصف مساحته الحالية التي تبلغ الآن ١٢٠٠٠ متر مربع. فتضاعفت على مر العصور، بما أضيف إليه من مبان في العهود المختلفة. وكان يتكون أول الأمر من أربعة أواوين يتوسطها الصحن. وكان الإيوان الشرقي -إيوان القبلة- يتألف من خمسة أروقة أو بائكات، أما الإيوانان القبلي والبحري فيتألف كل منهما من ثلاثة أروقة.

والإيوان الغربي من رواق واحد يدور حول الصحن، أنشأه الحافظ لدين الله وكان الباب يتوسط هذا الرواق.

وترتكز عقود البائكات في إيوان القبلة على أعمدة رخامية، من طرز مختلفة. بينما ترتكز عقود البائكات خلف الرواق المشرف على الصحن على أكتاف مبنية. وجميع العقود مدببة، وليست من النوع المعروف بالعقود الفارسية. وهذه لا توجد إلا في الرواق المحيط بالصحن. ويخطئ بعض الكتاب إذ يظن أن العقد الفارسي ميزة من ميزات العمارة الفاطمية الأولى، نقلت إلى مصر. ولكن الحقيقة هي أن العقد الفارسي ميزة من ميزات العمارة الفاطمية المتأخرة، والعمارة الأيوبية الأولى في مصر. فهو لا يوجد في جامع الحاكم ولا في

جامع الجيوشي(١٢).

ومن أهم ما امتازت به عمارة هذا المسجد المجاز الذي يخترق الصحن إلى المحراب، والذي تنتهي عنده العقود من كلا الجانبين. وهذا المجاز هو الأول من نوعه في مساجد القاهرة.

وقد كانت توجد قبتان في ركني إيوان القبلة، إحداهما في الركن الأيمن عن يمين المحراب والمنبر، وتقابلها قبلة أخرى في الركن الأيسر. وقد اتبع هذا النظام في بناء جامع الحاكم(١٣).

وفتحت بأعلى الجدران شبابيك جصية مفرغة بأشكال هندسية، تتخللها مضاهيات مزخرفة، أحيطت بإفريز مكتوب فيه بالخط الكوفي المزخرف آيات من القرآن(١٤)، وما زالت بقايا من هذه الشبابيك موجودة في جدران إيوان القبلة.

ولا يعرف شيء عن مئذنة الجامع الأصلية، بل ولا يعرف مكانها.

والمحراب الحالي ليس هو المحراب الأصلي. وفي سنة ١٩٣٤ م كشفت إدارة حفظ الآثار العربية عن المحراب الأصلي للجامع، وكان يحجبه محراب من خشب، يظن أنه عمل في عهد الظاهر بيبرس، أصلحت الزخارف الجصية للمحراب القديم(١٥).

هذا هو الجامع الأزهر الذي بناه جوهر، لأداء الصلوات الخمس، والصلوات الجامعة، ولكي تدرس فيه أصول المذهب الشيعي، ومن ثم تنتشر في طول البلاد وعرضها. ولكنه ما لبث في عهد العزيز أن اتخذ طريقه في أن يصبح جامعة كبرى، فابتنى بجواره دارا لجماعة من الفقهاء، عدتهم خمسة وثلاثون، فكانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة، ويقرؤون القرآن إلى صلاة العصر. وقد أجرى عليهم هذا الخليفة الأرزاق، وأغدق عليهم وزيره يعقوب بن كِلس الأموال، ونقل إليه الحاكم نصف ما كان بدار الحكمة من كتب، كما زاد في بنائه، وزاد على ما وقفه عليه أبوه من قبل من أوقاف، وما قدم له من هبات(١٦).

وقد تعطلت صلاة الجمعة في الأزهر في عهد الأيوبيين مدة قرن من الزمان، ثم عاد إليه بهاؤه ورونقه في عهد المماليك، واستأنف نشاطه وأقيمت صلاة الجمعة في عهد الملك الظاهر بيبرس(١٧). ومنذ ذلك الوقت صار ولا يزال حتى اليوم أكبر جامعة إسلامية، يهرع

إليها المسلمون من جميع أركان المعمورة، لينهلوا من معينه، وليتفقهوا في الدين، وليسترشدوا بعلم أئمته وشيوخه الأعلام.

جامع الحاكم:

ثم جاء العزيز بالله نزار فشرع في سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) في بناء مسجد آخر، خارج باب الفتوح، ولكنه توفي قبل إتمامه، فأتمه ابنه الحاكم سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢-١٠١٣ م)، لذا نسب إليه، وصار يعرف بجامع الحاكم.

ويبلغ طوله من الداخل ١٢٠,٥ متر وعرضه ١١٣ مترًا، فمساحته أقل بقليل من مساحة جامع عمرو. وفي نهايتي واجهته البحرية (الشمالية الغربية) توجد المئذنتان، ويحيط بهما قاعدتان عظيمتان هرميتا الشكل.

وتتركب كل قاعدة من مكعبين يعلو أحدهما الآخر. والمكعب العلوي موضوع إلى الخلف قليلا فوق السفلي. ويبلغ ارتفاع الأخير ارتفاع أسوار الجامع. وتبرز من كل من المكعبين العلويين مئذنة، مثمنة الشكل. وفي منتصف هذه الواجهة البحرية، وبين المئذنتين يوجد مدخل الجامع الأثري، وهو أول مدخل بارز بني في جامع القاهرة، يغطيه قبو أسطواني عرضه ٣,٤٨ متر، وطوله ٥,٥٠ متر. وفي نهايته باب عرضه ٢,٢١ متر، ومعقود بعقد أفقي من الحجر. وهذا العقد والحائط الموجود فيه حديثا البناء.

ويوجد في المدخل عن اليمين وعن اليسار بقايا نقوش بديعة ارتفاعها ١,٦٠ متر، تكون طبانا في المدخل.

ويؤدي المدخل إلى صحن الجامع الذي تحيط به أواوين هي على الترتيب الآتي: الإيوان الجنوبي الشرقي (إيوان القبلة)، ويتكون من خمسة أروقة، وبكل رواق ١٧ عقدًا، ويقابله الإيوان الشمالي الغربي، ويتكون من رواقين، وبكل رواق ١٧ عقدًا أيضا، والإيوانان الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي، ويتكون كل منهما من ثلاثة أروقة، وبكل رواق ٩ عقود.

وكل تلك العقود محمولة على أكتاف، تشبه أكتاف الجامع الطولوني، إذ توجد في الأركان الأربعة لكل كتف أعمدة، مثل أعمدة الجامع الطولوني، غير أنها أثخن ولا تيجان

لها. وقد كانت جميع العقود مغطاة بسقف مسطح من الخشب، ويحيط بالسقف من أسفله، فيما بينه وبين العقود، إزار جصي من الكتابة الكوفية البديعة.

وجميع الأكتاف والأعمدة مبنية من طوب أحمر داكن، يشبه الطوب المستخدم في بناء جامع ابن طولون. ويربط الأكتاف، بعضها ببعض، مِيَد (أربطة خشبية) مكسوة بألواح مزخرفة بنقوش محفورة في الخشب، كما كانت تعلو الأعمدة فرشات من الخشب المسطح، مكونة من قطعتين أو ثلاث قطع.

وتوجد في نهايتي حائط القبلة قبتان، محمولتان على مثمن. كما توجد قبة ثالثة فوق المحراب. وقد هدمت القبة الشرقية بسبب إقامة السور الذي بناه بدر الجمالي، ملاصقا للجدار الشرقي للجامع. كما سدت جميع النوافذ في هذا الجدار أيضا لنفس السبب المتقدم.

وقد كان يوجد عن يمين المدخل الحالي بابان، وعن يساره بابان آخران، وقد سدت جميعها. كما كان يوجد بابان في الجانب الشرقي (باب في الوسط، وباب ملاصق للمئذنة)، وباب في منتصف الجانب الغربي، وباب للخطيب بجوار المنبر، فيصير مجموع الأبواب تسعة.

أما الشبابيك في هذا الجامع فموضوعة على محور كل عقد، بخلاف شبابيك الجامع الطولوني، فإنها منحرفة عنه قليلا، وينتج عن ذلك أنه كان يوجد في جامع الحاكم ١٦ شباكًا في كل من الحوائط الجانبية، و١٧ شباكًا في كل من إيوان القبلة والحائط المقابل له. وقد سدت المئذنتان شباكا من كل جهة، فيصبح بذلك عدد الشبابيك ١٦ فقط. ويوجد شباكان في الحائط الخلفي لإيوان القبلة، على يسار المحراب. والزخرفة في هذين الشباكين لا تشتمل على زخرفة هندسية، بل تتكون من زخارف نباتية متداخلة بعضها في بعض.

وكما ذكرنا كان يوجد إزار جصي يحيط بالجامع، من الخط الكوفي البديع، لا تزال آثاره باقية إلى اليوم في إيوان القبلة، كذلك كانت القباب والشبابيك مزينة بزخارف جصية بديعة. وحتى المِيَد الخشبية كانت مزينة بزخارف محفورة في الخشب، ولا يزال بعضها موجودا

في إيوان القبلة وقد توالت صروف الزمان على هذا المسجد، فاعتدى عليه بدر الجمالي. فسد منافذ الجدار الشرقي ببنائه السور ملاصقا لهذا الجدار، كما أصابه زلزال سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) بتلف شديد فتهدم كثير من العقود والأكتاف الحاملة لها، وسقط السقف، كما هو قمتا المئذنتين، وتوالت عليه المصائب حتى تهدمت جميع أواوينه، ما عدا بعض عقود في الإيوانين القبلي والشرقي، فاستخدمته وزارة الأوقاف مخزنا، وحفظت فيه التحف والآثار الإسلامية قبل نقلها إلى الدار الحالية. وتشغله الآن مدرسة السلحدار الابتدائية.

وقد أصلحت إدارة حفظ الآثار العربية أكتاف النصف الغربي من الإيوان القبلي وعقوده، ولكن لا تزال حالة الجامع تبعث على الأسى والأسف، مما لا يتناسب مع مكانته كأثر من الآثار الإسلامية، الجديرة بالعناية والاهتمام.

وقد شيد الحاكم مسجدين آخرين، هما جامع راشدة سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٣ م) الذي اشتق اسمه من الخطة التي بني بها وهي خطة راشدة، وجامع المقس الذي شيده على شاطئ النيل بالمقس، ميناء القاهرة النهري في ذلك الحين، وليس لهما أثر اليوم.

جامع الجيوشي:

يقوم هذا المسجد أو الزاوية، كما يسميه النقش الموجود في أعلى مدخله، على حافة جبل المقطم، خلف القلعة. والذي أمر ببنائه هو الوزير الأمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٧٨ هـ .(١٠٨٥ م).

أما أهمية هذا الجامع الأثرية فترجع إلى أنه:

أولا– أول بناء اشتمل على جامع ومقبرة في نفس الوقت.

ثانيا– أنه أول جامع في القاهرة بني بالحجر[١٨]، وليس ذلك غريبا إذا عرفنا أنه مبني فوق تل المقطم، يحيط به تلال جميعها من الحجر الجيري الجيد.

وهو منحرف نحو الشمال الغربي والجنوب الشرقي. ولكن بناءه منسجم كما يظهر من تخطيطه، بالرغم من عدم انتظامه خارجه. وبحذف الإضافة الخارجية، نجد أن هذا الجامع

مبني على مستطيل مساحته ١٨ x ١٥ متراً. والمدخل في منتصف الواجهة الشمالية الغربية، أسفل المئذنة، وهو عبارة عن باب معقود بعقد مدبب، يؤدي إلى ردهة مسقوفة بقبو نصف أسطواني. وعلى الجانب الأيسر من هذه الردهة، حجرة مربعة مسقوفة بقبو نصف أسطواني أيضا، تحتوي على صهريج ماء. وعلى الجانب الأيمن، حجرة أخرى مربعة مفتوحة إلى السماء، بها سلم يؤدي إلى السقف المسطح.

ويدخل الإنسان من الردهة إلى صحن الجامع بواسطة قبو آخر مدبب. ومساحة الصحن ٦,٤٥ x ٥,٦٠ متر. وعلى كل من جانبيه حجرة مسقوفة بقبو نصف أسطواني. وعلى الضلع الجنوبي الشرقي للصحن توجد واجهة إيوان القبلة، ذات الثلاثة العقود: عقد كبير يكتنفه عقدان صغيران. ويتكئ العقد الأوسط على زوجين من الأعمدة الرخامية، لها تيجان على هيئة ورق اللوتس، وقواعد من ورق اللوتس المقلوب. ويؤدي هذا العقد إلى ردهة طويلة، ذات عقد متقاطع، تنتهي بعقد ثلاثي آخر، يؤدي إلى القبة التي توجد أمام المحراب، والتي يكتنفها من كلٍّ من جانبيها إيوان معقود بعقد متقاطع.

والمحراب الذي يبلغ ارتفاعه ٣,١٥ متر، هو قطعة فخمة من الزخرفة الجصية، كما يزين القبة من أسفلها شريط من الكتابة الكوفية المزخرفة، يجري حول رأس المربع المقامة عليه القبة. وترتكز القبة على مثمن في كل ضلع من أضلاعه شباك. ومنطقة الانتقال بين المربع والمثمن تتخللها حنيات.

أما المئذنة فقائمة في منتصف الضلع الشمالي. وبلغ طولها ٢٠ متراً تقريبا. وتتركب من قاعدة مربعة، تنتهي بمقر نص يعلوه مربع آخر، فمثمن يحمل قبة.

وجميع حوائط الجامع لغاية السقف المسطح مبنية من الحجر، وجميع العقود، وكذا القبة، مبنية من الطوب الأحمر الداكن. وكذا الجزء من المئذنة الذي يعلو السقف المسطح. وتوجد في المباني أربطة من جذوع النخل.

ويؤخذ من النقش الموجود على مدخل الجامع أن أمير الجيوش بدر الجمالي أمر ببنائه سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م).

الجامع الأقمر:

يوجد هذا الجامع في شارع النحاسين. وقد بناه الوزير المأمون بن البطايحي، بأمر من الخليفة الآمر بأحكام الله أبي علي منصور سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م)، وهو أول جامع في القاهرة حوت واجهته تصميما هندسيا بديعا. وهو أول جامع أيضا فيه الواجهة موازية لخط تنظيم الشارع. بدل أن تكون موازية للصحن، ذلك لكي تصير القبلة متخذة وضعها الصحيح. ولهذا نجد أن داخل الجامع منحرف بالنسبة للواجهة.

وهو مكون من صحن صغير مربع، مساحته عشرة أمتار مربعة تقريبا، يحيط به رواق واحد من ثلاثة جوانب، وثلاثة أروقة في الجانب الجنوبي الشرقي، أي في إيوان القبلة. وعقود الأروقة محلاة بكتابات كوفية مزخرفة، ومحمولة على أعمدة رخامية قديمة، ذات قواعد مصبوبة، وتيجان مختلفة تربطها مِيَد خشبية.

وأجمل شيء في هذا الجامع واجهته التي لا يضارعها في زخارفها البديعة واجهة أخرى في جوامع القاهرة. ويرى في مدخله لأول مرة في عمارة المساجد العقد المعشق، الذي انتشر في العمارة المملوكية، في القرن الخامس عشر الميلادي. وفوق هذا العقد، يوجد العقد الفارسي، وهو منشأ على شكل مروحة، تتوسطها دائرة في مركزه. وأهم ميزة في تصميم الجامع استعمال المقرنصات، ولم تستعمل قبل ذلك إلا في مئذنة جامع الجيوشي، كما سبق تفصيله، تلك الزخرفة التي عمَّ انتشارها جميع العمارة الإسلامية تقريبا بعد هذا الجامع.

جامع الصالح طلائع بن رزيك:

يوجد هذا الجامع على رأس تقاطع شارع الدرب الأحمر بقصبة رضوان، وتجاه زاوية فرج بن برقوق. أنشأه الملك الصالح طلائع بن رزيك، وزير الخليفة الفاطمية، والمتوفى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م)، فكان جامعه هذا آخر أثر أنشئ في عهد الدولة الفاطمية. وقيل في سبب بنائه، إنه بني لتلقي رأس الحسين، وقد كانت قبلا مدفونة في عسقلان، التي أصبحت في خطر من مهاجمة الصليبيين لها. ولكن هذا القول مردود، لأن المشهد الحسيني أنشئ سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م)، أي قبل بناء الجامع بنحو ست سنوات.

وهو جامع صغير، بالنسبة لجامعي ابن طولون والأزهر. ويحيط بالصحن أواوين مرتبة على نسق أواوين الجامع الأقمر: فيتكون إيوان القبلة من ثلاثة أروقة، ويتكون كل من الأواوين الثلاثة الأخرى من رواق واحد فقط. وعقود هذه الأروقة محمولة على أعمدة من الرخام. وله أربع واجهات مبنية بالحجر، أهمها الواجهة الغربية، وبوسطها المدخل الرئيسي للمسجد، وقد أقيم أمامه رواق محمول على أربعة أعمدة رخامية، وحليت عقوده بزخارف بديعة، كما حُلي صدر هذا الرواق وجانباه بزخارف على هيئة مروحة، ونقشت بأفاريزه آيات قرآنية كتبت بالقلم الكوفي المزهر.

ويمتاز هذا المسجد بأنه من المساجد المعلقة، إذ أن أرضيته كانت أعلى من مستوى سطح الشارع بمقدار ٣,٨٠ متر، ويرتكز على أقبية، كانت ولا تزال تستعمل كحوانيت. ويوصل إلى الأبواب سلالم عمودية على الواجهات. وإلى عهد قريب كانت هذه الأقبية مختبئة، لارتفاع سطح الشارع عما كان عليه من قبل بنحو ثلاثة أمتار تقريبا، وقد عادت إلى الظهور بعد أن أزيل الردم. وجدرانه الأربعة مبنية من الخارج بالحجر المحلى بزخارف وكتابات كوفية، محفورة في نفس الحجر. وواجهته الغربية الخارجية، لا نظير لها في مساجد القاهرة، من حيث تصميمها. ويزيد في جمالها تلك العقود المملوءة بزخارف على هيئة مروحة.

والمنبر الموجود حاليا بالمسجد صنع بأمر الأمير بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م). وكان قد جدد مئذنته أيضا، عقب سقوط المئذنة الأصلية بسبب زلزال ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ - ١٣٠٣ م).

وبناء الجامع في هذا الموضع، تجاه باب زويلة، خطير من الوجهة الحربية على المدينة. فلو أن عدوا مهاجما استولى عليه، لأمكنه أن يهددها من هذه الناحية، ولاتخذ منه نقطة ارتكاز جيدة لاقتحام باب زويلة نفسه، ثم المدينة بعد ذلك. وقد شعر الصالح طلائع بهذا الخطأ قرب وفاته. لذلك قال: "ما ندمت قط في شيء عملته إلا في ثلاث: الأولى بنائي هذا المسجد على باب القاهرة، فإنه صار عونا عليها.. إلخ".

وظل هذا الجامع حافظا لكيانه حتى سنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٧ م). ثم أخذ يتهدم شيئا

فشيئًا، حتى لم يبق منه سنة ١٩٢٠ م سوى إيوانه الشرقي.

فأخذت لجنة حفظ الآثار العربية منذ سنة ١٩١٥م في تجديده، وإعادته إلى سابق عهده، وبذلت في سبيل ذلك جهدًا كبيرًا، وقد وفقت في مهمتها إلى حد كبير.

- ٤ -

التحصينات الفاطمية لمدينة القاهرة

تكون أبواب النصر والفتوح وزويلة قطعة من أعظم التحصينات الحربية في الإسلام. ولا يوجد لهذه الأبواب مثيل على الإطلاق، ولا للسور أو القلاع التي تعلوه. وقد بلغت أعمال البناء فيها درجة من الكمال لم تصل إليها أعمال البناء ثانية في مصر. ولقد أثارت هذه الأبواب إعجاب رحالة القرن الثامن عشر الأوروبيين، الذين سجلوا إعجابهم بها في كتب رحلاتهم.

وقد بنيت هذه الأبواب الثلاثة في موضعها الحالي بأمر بدر الجمالي، بدل الأبواب القديمة، في المدة ما بين ٤٨٠ و ٤٨٥ ﻫ (١٠٨٧– ١٠٩٢ م).

وقد قام ببنائها ثلاثة إخوة، وفدوا على مصر من مدينة «أذاسا» أو «أرفا»، من أعمال أرمينيا. فقام كل واحد منهم ببناء باب من الأبواب الثلاثة.

باب النصر:

بني سنة ٤٨٠ ﻫ (١٠٨٧م)، ويتكون من برجين مربعين، نقش عليهما في الحجر أشكال تمثل بعض آلات الحرب من سيوف وتروس. ويتوسط البرجين باب شاهق، وجدت به فتحة من أعلاه كي تصب منها المواد الكاوية على من يحاول اقتحام الباب، يطلق عليها سقاطة. ويعلو هذه الفتحة إفريز يحيط بالقلعتين. وبالباب كتابات كوفية تضمنت اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء، وفوق ذلك إفريز تعلوه المزاغل.

والباب الموصل لداخله حديث العهد، وربما كان فتحه في عهد الاحتلال الفرنسي لمصر، أما الباب الأصلي فإنه في الركن القبلي الشرقي، وهو الآن مسدود بالبناء.

والسلم الموصل إلى أعلى مبني بالحجر، وقد عقد بشكل يعد الأول من نوعه في العمارة الإسلامية بمصر. وهو يوصل إلى أبراج وإلى حجرات اشتملت على أهم وأحسن مجموعة من العقود المبنية بالحجر، من مصلبَّة ومعقودة بصناعة فريدة في بابها(١٩).

باب الفتوح:

بني سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م)، وكان موضعه عندما أسسه جوهر قريبا من رأس حارة "بين السيارج". فلما جدد بدر الجمالي سور القاهرة، أنشأ بابي النصر والفتوح في موضعيهما الحاليين، وربطهما بسور يوصل بينهما بطرق وسراديب على ظهر السور، وفي جوفه، بإحكام، وعقود متنوعة.

ويتكون هذا الباب من برجين مستديرين، يتوسطهما المدخل. وفي جانبي البرجين طاقتان كبيرتان تدور حول فتحتيهما حلية مكون من أسطوانات صغيرة. وهو نوع من الزخارف راج فيما بعد تحلية دوائر العقود.

وفي أعلى المدخل كوابيل على هيئة كبش بقرنين. وهذا النموذج لا نظير له في العمارة الإسلامية.

ويتصل باب النصر بباب الفتوح بطريقين: أحدهما من فوق السور، والآخر من تحته، وهو ممر معقود، على جانبيه المزاغل والحجرات المعقودة بحالة متقنة، تعطي فكرة جيدة عن نظام الحصون المصرية في ذلك العصر.

باب زويلة:

كان موضع هذا الباب عندما أسس جوهر مدينة القاهرة عند باب سام ابن نوح وسبيل العقادين، القائم على رأس حارة الروم. ثم بناه في مكانه الحالي بدر الجمالي سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م).

وباب زويلة مثل باب الفتوح، يتركب من بوابة عظيمة معقودة، عرضها ٤,٨٢ متر، وعلى جانبيها برجان عظيمان، ذوا واجهتين مستديرتين مصمنتمين لنحو ثلثي ارتفاعهما، ويشغل الثلث الأخير في كل من البرجين حجرة، تشرف على مدخل البوابة. ويدخل الإنسان من البوابة إلى ممر مُغطى بقية منخفضة، مبنية على مثلثات كرية، تحمل الممر العلوي الذي يصل القلعتين، بعضهما ببعض، من مؤخرتيهما. وفوق هذا الممر ممر آخر، تتوجه شرافات.

ويوجد في أعلى واجهتي البرجين ثلاثة مزاغل، وهي مسدودة، ولكن لا يزال يمكن رؤيتها رغم ذلك وترى أيضا دوائر، هي أطراف الأعمدة الرابطة، كما هو الحال في بابي النصر والفتوح.

ولما شرع الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي في بناء مسجده المجاور للباب من ٨١٨ إلى ٨٢٣ هـ (١٤٠٥ – ١٤١٠م)، انتهز مهندسه فرصة وجود برجي باب زويلة، فهدم أعلاهما، وأقام مئذنتي المسجد عليهما.

باب التوفيق:

أخذت بلدية القاهرة منذ سنة ١٩٥٤ م في إزالة الآكام الموجودة شرقي العاصمة، بمنطقة الدراسة، لتوفير منطقة سكنية جديدة، ولحماية القاهرة من الأتربة التي تنهال عليها في الأيام العاصفة.

وفي أثناء إزالة هذه الآكام، وفق رجال مصلحة الآثار المصرية للكشف عن جزء من سور صلاح الدين، كان مختبئا تحت هذه الآكام، وعثر على بُعد عشرة أمتار غربي سور صلاح الدين على بقية من سور بدر الجمالي، وبه باب رابع كشف عن عقد كامل له. وظهر خلفه عقد آخر تعلوه لوحة تذكارية عليها كتابة بالخط الكوفي الرائع هذا نصها: «بعز الله العزيز الجبار يحاط الإسلام وتنشأ المعاقل والأسوار. رأى إنشاء هذا –باب التوفيق– والسور المحيط بالمعزية، القاهرة المحروسة حماها الله، فتى مولانا وسيدنا معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين –صلوات الله عليه– وعلى آبائه الأئمة الطاهرين، وأبنائه

الأكرمين، السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام، وناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين أبو النجم بدر المستنصري بدر الجمال.. إلخ» وتاريخه ٤٨٠ هـ.

ووجدت بين العقدين فجوة تصب منها المواد الحارقة على العدو كالزفت والقطران المغليين، إذا هاجم أسوار القاهرة وأبوابها، كما هو الحال في بقية الأبواب الثلاثة. ويرجح أن يكون هذا الباب قد أنشئ مكان باب البرية القديم، وسمي كذلك نسبة إلى جماعة من أهل برقة نزلوا في هذه المنطقة.

-٥-

الحالة الاقتصادية في عهد الفاطميين

الاستقرار وأثره في انتعاش الحياة الاقتصادية:

لم تنفذ دولة إلى صميم الشعب، وتتغلغل بين طبقاته، مثل ما فعلت الدولة الفاطمية في مصر. ولم يكن ذلك غريبا، فهي دولة شيعية قبل كل شيء، ولم يكن للمصريين سابق عهد بالتشيع. وقد رأينا كيف تمكنت المذاهب الأربعة، خصوصا المذهب الشافعي في مصر قبل الدولة الفاطمية، فكان حتما على الفاطميين أن يروجوا لمذهبهم بكل الأساليب، ويزينوا للناس الأخذ به، والانضواء تحت لوائه. فأضفوا على الحياة بهجة بما ابتدعوه من أعياد ومواسم، ما يزال أغلبها باقيا حتى اليوم، وقد انقضى على عهدهم نيف وعشرة قرون. فهم مبتدعو الاحتفاء بأول العام الهجري، ومولد النبي -ﷺ-، ويوم عاشوراء، ووفاء النيل، والعيدين: عيد الفطر والعيد الأضحى، وخروج قافلة الحج إلى الحجاز.

بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا، فقد احتفوا أيضا ببعض الأعياد القبطية، مشاركة للقبط في أفراحهم كليلة الغطاس، والنيروز، وخميس العهد.

وكانوا يولمون الولائم، وينثرون الذهب على الناس، وتلبس القاهرة حلة قشيبة من البهجة والزخرف، وترفرف عليها أعلام الفرح والسرور، حتى خيل للفاطمين أنفسهم أن

مصر غدت قلعة من قلاع الشيعة، ومركزا من مراكز نشر دعوتهم، ولكنهم كانوا واهمين، فما دالت دولتهم إلا وطويت معهم تعاليمهم ومبادئهم، وعادت مصر سيرتها الأولى، ورجعت المذاهب الأربعة إلى قواعدها سليمة من غير سوء.

ومهما يكن من أمر، فقد نعمت مصر في عهد الفاطميين بما لم تنعم به من قبل، نعمت لأول مرة منذ عهد الفراعنة بالاستقلال الكامل والحرية التامة. بل إنه دعي للخلفاء الفاطميين في صلاة الجمعة في جميع المساجد، من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر وفي اليمن ومكة ودمشق، وفي ذات مرة في بغداد وفي الموصل. ونعمت بالاستقرار الشامل، والسلام المقيم، اللذين حفلت البلاد في ظلالهما بالرخاء والثراء، وبحبوحة العيش. ولا يغيب عن البال ما كانت تحدثه احتفالات الفاطميين من انتعاش في الحركة الاقتصادية في البلاد عموما وفي القاهرة بصفة خاصة، هذا فضلا عما تضيفه عليها من ألوان البهجة والسرور.

وتقدم القول أنه بالرغم من إنشاء القاهرة فقد ظلت الفسطاط تشغل المركز الأول في الصناعة والتجارة، بها دور الصناعة العديدة، والمتاجر الغنية المتنوعة، وقد حفلت بالمنتجات المحلية، والسلع الشرقية والغربية، ولحظ ناصر خسرو أن التجار في مصر كانوا يبيعون بأثمان محدودة، وإذا ثبت على أحدهم الغش، فإنه يركب جملا، ويوضع في يده جرس يدقه، ويطاف به في البلد، ويرغم على أن يصيح بأعلى صوته: "قد كذبت وها أنذا أعاقب، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب"[٢٠].

اضطراب الحال في عهد الحاكم:

غير أن الحياة لا يمكن أن تسير رغدة ناعمة على طول الخط، ولابد أن يعتورها بين آن وآخر ما يعكر صفوها، ويشوب هناءها. ولكن إذا ما انكشفت الغمة، وزال الكرب، عادت الحياة إلى سابق صفوها. من ذلك ما اعترى البلاد من اضطراب في أثناء ولاية الحاكم بأمر الله، بسبب شذوذه وخبله، واغتياله رؤساء دولته وكبار قواده وعلمائه، وإيقاعه ببعض أحياء القاهرة، وإعماله القتل في سكانها ونهب أموالهم ومتاعهم، وأخيرا إدعاؤه الألوهية. ولم يخلص البلاد من آثامه وشروره سوى اغتياله.

القحط أو الشدة العظمى في عهد المستنصر:

وفي عهد المستنصر أصيبت البلاد بقحط مروع، أتى على الأخضر واليابس، فعمت المسبغة البلاد، وتضور الناس جوعا. وقد أطلق المؤرخون على هذا القحط اسم الشدة العظمى، لفظاعته وهوله. وقد وصفه المقريزي بقوله: "ثم وقع في أيام المستنصر الغلاء الذي فحش أمره، وشنع ذكره، وكان أمده سبع سنين، وسببه ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان، وقصور النيل، وعدم وجود من يزرع ما شمله الري. وكان ابتداء ذلك في سنة سبع وخمسين وأربعمائة[٢١].

فنزع السعر، وتزايد الغلاء، وأعقبه الوباء، حتى تعطلت الأراضي من الزراعة، وشمل الخوف، وخنقت السبل برا وبحرا، وتعذر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة الكثيرة، وركوب القرَرَ –أي الخطر– واستولى الجوع لعدم القوت حتى أبيع رغيف خبز في النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطرف بخمسة دينارا، وأبيع الإردب من القمح بثمانين دينارًا، وأكلت الكلاب والقطط حتى قلت الكلاب، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا، وتحرز الناس، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سَلَب وحبال فيها كلاليب، فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه ونشلوه في أسرع وقت، وشرَّحوا لحمه، وأكلوه".

«ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره، وصار يجلس على حصير، وتعطلت دواوينه، وذهب وقاره. وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن: "الجوع! والجوع!" تردن المسير إلى العراق، فتسقطن عند المصلى، وتمتن جوعا.

واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه، وجاءه الوزير يوما على بغلته، فأكلها العامة، فشنق طائفة منهم، فاجتمع الناس فأكلوهم. وأفضى الأمر إلى أن عدم المستنصر القوت، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث إليه في كل يوم بقعب من فتيت، من جملة ما كان لها من البر والصدقات في تلك الغلوة، حتى أنفقت مالها كله.. وتدارك الله

الخلق وأجرى النيل، وسكنت الفتن، وزرع الناس، وتلاحق الخير، وانكشفت الشدة وفرجت الكربة»[٢٢].

الحالة الفنية

حياة الترف:

ولقد نافست الخلافة الفاطمية في عهد العزيز خلافة بغداد، وامتلأت خزانة الدولة ذهبا ونضارا، ولا أدل على ذلك من حياة الترف والنعيم التي كان يحياها الخلفاء الفاطميون في قصورهم، التي وإن عفت آثارها، واندثرت معالمها، إلا أن كتب الرحالة والتاريخ سجلت لنا وصفا لها ولمحتوياتها، مما تحار منه الألباب، وتدهش له العقول.

شاهد عيان يصف القطر الفاطمي:

ولقد أوفد الملك أموري حاكم بيت المقدس إلى الخليفة العاضد سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) رسولين في قصره، ليعقدا معه باسم سيدهما محالفة يدفع بمقتضاها مائتي ألف دينار معجلة، ومثلها مؤجلة، نظير دفاع الصليبيين عن مصر. ولقد أعجب الرسولان بعظمة ما شاهداه في القصر أيما إعجاب، ووصف غليوم رئيس أساقفة صور زيارة هذين الرسولين، ولخص هذا الوصف الكاتب الفرنسي جوستاف شلمبرچيه والمؤرخ الإنجليزي لين پول.

ونقل المرحوم الأستاذ زكي مُحَمَّد حسن في كتابه «كنوز الفاطميين» إلى العربية تلخيص الكاتب الفرنسي[٢٣]، كما نقله أيضا الأستاذ مُحَمَّد فريد أبو حديد في كتابه «صلاح الدين وعصره» تلخيص المؤرخ الإنجليزي[٢٤]، وننقل إليك ترجمة المرحوم الأستاذ الدكتور زكي مُحَمَّد حسن بنصها فيما يلي: «وسار السفراء الفرنج، يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة عظيمان، وفيه زخارف أنيقة نضيرة. وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثير، دون أن يتطرق إلى نفوسهم أي خوف أو رهبة.

ووجدوا في هذا القصر حراسا عديدين. وسار الحراس في طليعة الموكب، وسيوفهم مسلولة، وقادوا الفرنج في ممرات طويلة وضيقة، وأقبية حالكة مظلمة، لا يستطيع الإنسان

أن يتبين فيها شيئا. وربما كان المقصود بذلك بعث الهيبة إلى قلوبهم، وزيادة التأثير فيهم. فلما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة، كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلمين، الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور، ويحيونه باحترام، ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف، تحيط به أروقة ذات أعمدة، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان، وفيها تذهيب خارق العادة بنضارته وبهائه، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة.

وكان كل ذلك مونقا رائعا، وبهيا رائعا، بحيث لا يملك أشغل الناس بالا، وأكثرهم همًّا إلا أن يقف للإعجاب به. وكان في وسط الفناء نافورة، يجري الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام. وكانت ترفرف في الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة، ذات الألوان المفرطة في الندرة، مجلوبة من شتى أنحاء الشرق. ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجابا بها، ودون أن يقول إن الطبيعة كانت تمرح وتلعب، حين كونت هذه المخلوقات الجميلة. ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة، ومنها ما كان يظل بعيدا عنها، كل بحسب طبيعته، وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه.

وهنا استأذن في الرجوع الحراس الذين كانوا يسيرون في معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت، وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة نفسه.

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين في أفنية جديدة، أشد جمالا وإبداعا، ثم إلى حديقة لطيفة وغناء، لم تكن الحديقة الأولى شيئا بجانبها. ورأوا في هذه الحديقة أنواعا من الحيوانات ذوات الأربع، غريبة بحيث يتهم المرأ بالكذب إذا وصفها، أو تحدث عنها، وبحيث لا يستطيع أي مصور أن يتخيل أو أن يحلم بمثل هذه الكائنات العجيبة. فإن الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات، ولم يكن يعرفها إلا بما كان يسمع من الأقوال.

وبعد أن عبروا أبوابا عديدة أخرى، وساروا في تعاريج كثيرة، كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجابا، وصل الفرنج إلى القصر الكبير، حيث يقطن الخليفة. وفاق

هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك. وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين، متقلدين أسلحتهم وعليها الزرد والدروع، تلمع بالذهب والفضة، وعليهم سيماء الافتخار، بما كانوا يحرسون من الكنوز.

وأدخل المبعوثون في قاعة واسعة، تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان. عليها رسوم الحيوان والطيور، وبعض صور آدمية. وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة. ولم يكن في هذه القاعة أحد. لكن شاور خر راكعا فور دخوله، ثم نهض واقفا، ثم قبَّل الأرض ثانية، وخلع السيف الذي كان يلبسه في عنقه، ثم خر ساجدا مرة ثالثة، في ذلة وخشوع كأنه يسجد لله. وارتفعت الحبال فجأة، وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق، كأنها ملاءة خفيفة. وظهر الخليفة الطفل "السلطان العاضد" لأعين الفرنج المبعوثين، وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماما، وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة»[٢٥].

وصف لشاهد آخر:

وهناك وصف ثان، لشاهد عيان آخر، زار مصر فيما بين سنتي ٤٣٩ و٤٤١ هـ (١٠٤٧– ١٠٤٩ م)، ذلك هو الرحالة المشهور ناصر خسرو، المتقدم ذكره، فقد ذكر أن قصر السلطان كان يقع في وسط القاهرة، وبينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء، يفصله عنها. وكان يحرسه في الليل خمسمائة حارس من الفرسان، وخمسمائة حارس من الرجالة. وكانت أسواره عالية، فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة، بينما يبدو من خارجها كالجبل. وكان في القصر ألوف من الخدم والنساء والجواري. وله عشر بوابات فوق الأرض، وباب يقود إلى ممر تحت الأرض، يعبره الخليفة راكبا، ليصل إلى قصر آخر. وكان كل كبار الموظفين في قصور الخليفة من الروم أو السود.

خزائن القصر:

تقدم القول أنه كان بالقصر الكبير عدة خزائن، منها: خزانة الكتب، وخزانة البنود (الأعلام)، وخزائن السلاح، وخزائن الفرش، وخزائن الكسوات، وخزائن الخيم، وخزائن

الجوهر والطيب والطرائف وغيرها، مما لا يتسع المقام لوصفها، وشرح محتوياتها. وكان لكل خزانة عامل يدير شئونها، وصناع يشتغلون فيها، إن كانت محتوياتها مما يتطلب ذلك، وفراش يقوم هو ومساعدوه بتنظيفها، والسهر على محتوياتها. ولكل هؤلاء مرتب يتقاضونه من بيت المال(٢٦).

خزائن الجوهر والطيب:

ولقد حوت خزائن الجوهر والطيب والطرائف ما يحار له العقل من لآلئ وأحجار كريمة وتحف صنعت من الذهب والفضة والنحاس المكفت، ونفائس غالية تجلى فيها الحذق والمهارة الفنية. ولقد روى المؤرخون في ذلك أخبارا لا يكاد يصدقها العقل، إلا إذا أخذ في اعتباره ما كانت تنعم به البلاد في عهد الفاطميين من ثروة وغنى، ورخاء ويسر، وهدوء وأمن، شهد به الرحالة ممن وفدوا على مصر، وأقاموا فيها ردحا من الزمن، ورأوا بأعينهم العز الذي ينشر ألويته على ربوعها، ويعم جميع أرجائها.

التحف المعدنية:

فقد كان من بين تلك التحف حصيرة مصنوعة من الذهب، تزن ثمانية عشر رطلا (أي ما يساوي سبعة كيلو جرامات)، يقال إن بوران بنت الحسن بن سهل جلست عليها يوم زواجها بالخليفة المأمون، وكانت توجد ثمان وعشرون صينية من المينا المحلاة بالذهب، وقد قدرت كل صينية منها بثلاثة آلاف دينار، واستولى عليها ناصر الدولة، الذي كان قائد الجند في ذلك الحين.

وكانت هناك أيضا صناديق مملوءة مرايا من حديد، محلاة بالذهب والفضة، وبعضها مكلل بالجواهر النفيسة، وله محفظات أو غلف من الكيمخت، وهو نوع من الجلد المتين، وأخرى من الأقمشة الحريرية النفيسة. وكان للمرايا المذكورة مقابض من العقيق.

وقد أخذ من خزائن القصر آلاف الآلات المصنوعة من الفضة، المكفتة بالذهب، ذات النقش العجيب، والصنعة الدقيقة، كما وجدت كميات كبيرة من قطع الشطرنج والنرد المصنوعة من الجوهر والذهب والفضة والعاج والأبنوس، ولها رقاع من الحرير المنسوج

بخيوط من الذهب واستولى الجنود –فيما استولوا عليه من نفائس القصر وتحفه في أثناء الشدة العظمى في عصر المستنصر– استولوا على أربعمائة قفص مملوءة بالأواني الفضية الثمينة المكفتة بالذهب، وقد سبكت كلها ووزعت على الثوار.

واستولوا كذلك على أربعة آلاف قنينة مذهبة للنرجس، وعلى ألف قنينة للبنفسنج. ووجد من السكاكين الثمينة ما بيع بأبخس الأثمان وبلغت قيمته على الرغم من ذلك ستة وثلاثين ألف دينار، أي خمسة عشر ألف جنيه.

النفائس:

ومن أجمل النفائس التي كانت تزين القصر الكبير تحف على شكل حيوانات وطيور، منها طاووس من ذهب مرصع بالجواهر النفيسة، عيناه من ياقوت أحمر، وريشه من الزجاج المموه بالمينا على ألوان ريش الطاووس. ومنها ديك من الذهب له عرف كبير من الياقوت الأحمر المرصع بالدر والجواهر. ومنها غزال مرصع أيضا بالجواهر النفيسة، ومائدة كبيرة واسعة من العقيق، ونخلة من الذهب مكللة ببديع الدر والجوهر، يمثل أجزاءها، وما تحمله من بلح.

وقد بلغ من غرام الفاطميين بجمع التحف الفنية أن الأميرات كن ينافسن الأمراء في هذا الميدان. وأن بعضهن تركن كنوزا ثمينة: فرشيدة ابنة المعز توفيت سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١م)، وتركت تحفا تقدر قيمتها بنحو مليون وسبعمائة ألف دينار: منها ثلاثون ثوبا من الخز الثمين (أي من قماش الصوف والحرير)، كما وجد في خزائنها بعض العمامات المرصعة بالجواهر، مما يذكر بعمامات الأمراء الهنود. ويقال أيضا إنها كانت تمتلك الخيمة التي توفي فيها هارون الرشيد بمدينة طوس، وقد كانت من الخز الأسود. وقد ضمت كل كنوزها إلى خزائن القصر بعد وفاتها في عهد المستنصر. ومن التحف التي تركتها الأميرة عبدة بنت المعز التي توفيت سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠م) نحو أربعمائة سيف محلى بالذهب، ونحو إردب من الزمرد! وغير ذلك من الجواهر والأقمشة النفيسة والأباريق والطسوت من البلور الصافي.

التحف المصنوعة من البلور:

وقد كان بخزائن القصر شيء كثير من البلور والتحف الفنية الزجاجية المحكمة الصنع، والمموهة بالذهب، وغير المموهة. وقد قال أحد المستخدمين في بيت المال أن صندوقا من الصناديق التي نهبت من القصر ذات يوم كان مملوءا بأباريق من البلور النفيس. بعضها منقوش بزخارف ورسوم جميلة، وبعضها غير منقوش. والظاهر أنها كانت لشراب الفقاع «وهو نوع من البيرة كانت منتشرا في القاهرة في العصور الوسطى»[٢٧].

الخزف اللامع:

وقد سلم لنا القليل من هذه التحف، معروض الآن بالمتحف الإسلامي بالقاهرة، بين آنية من الخزف اللامع، المعروف بالخزف ذي البريق المعدني، من أصص وأطباق وصحون وبراني، تزينها الزخارف النباتية، ورسوم الطير والحيوان، مرسومة بأيدي أشهر فناني ذلك العصر، مثل سعد ومسلم.

واسترعت صناعة الخزف في مصر انتباه الرحالة الفارسي، ناصر خسرو بصفة خاصة، فذكر أن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفة، وأن الخزف المصري كان رقيقا وشفافا، حتى لقد كان ميسورا أن ترى من باطن الإناء الخزفي اليد الموضوعة خلفه، وكانت تصنع بمصر الفناجين والقدور والبراني والصحون والمواعين الأخرى، وتزين بألوان تشبه لون القماش المسمى بوقلمون، وهي ألوان تختلف باختلاف أوضاع الآنية وساعات النهار، وذكر أيضا عن استخدام التجار والبقالين الأواني الخزفية، فيما يستخدم فيه التجار الورق في العصر الحاضر، أنهم كانوا يضعون فيها ما يبيعونه، ويأخذه المشترون بالمجان[٢٨]. ولعمري إن هذا ليدل على مدنية ورقي لم تبلغهما الصناعة أو التجارة حتى في يومنا هذا.

التحف الخشبية:

كذلك معروض بهذا المتحف كثير من التحف الخشبية المحفورة، من أبواب وألواح ومحاريب متنقلة، وحشوات تخلفت من القصور الفاطمية. ومن أبدع تلك التحف ألوان خشبية، كانت تزين القصر الفاطمي، محفور عليها مناظر تمثل الحياة اليومية، على أرضية من

زخارف نباتية بديعة. وتحف مصنوعة من العاج كقطع من الشطرنج والتماثيل الصغيرة.

الأقمشة:

وتوجد بالمتحف السالف الذكر أيضا قطع من القماش، كتانية وحريرية وصوفية، عليها كتابات كوفية، باسم الخليفة الحاكم، وعليها رسوم نباتية وحيوانية، وكلها مما لا يغني فيه الوصف عن المشاهدة، فهي قطع فنية رائعة، تدل على مبلغ ما وصل إليه الذوق الفني الرفيع عند الفاطميين، من التقدم والسمو.

التصوير:

وكان للفاطميين في ميدان التصوير باع طويل. فقد استباحوا لأنفسهم ما أحجم عنه أهل السنة، من مزاولة التصوير. وقد أحجم عنه أهل السنة خوفا مما جاءت به بعض الأحاديث النبوية من معاقبة المصورين يوم القيامة. ولكن الفاطميين. الذين كانوا يعارضون أهل السنة في كثير من الأمور، لم يأبهوا لما أنذرت به تلك الأحاديث، وزاولوا التصوير على مدى كبير، فصوروا الإنسان والحيوان والنبات على الخزف والأخشاب وعلى الجص والمنسوجات.

وخلا ما هو موجود على قطع الخزف اللامع والأخشاب والمنسوجات المحفوظة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة، لم تصل إلينا لوحات من التصوير الفاطمي، ما عدا بعض صور مرسومة على الجص وجدت على جدران حمام فاطمي، بجهة أبي السعود جنوبي القاهرة، نقلت إلى المتحف الإسلامي، أهمها صورة إنسان تحيط برأسه هالة، وهي ملونة بالأحمر والأسود، وعليه عمامة جميلة، وفي يده اليمنى كأس يحمله على النحو الذي نراه كثيرا على نقوش الخزف والأواني الفارسية الساسانية، من فضة ونحاس.

وقد حدثنا المقريزي عن المباراة بين المصورين ابن عزيز وقصير، وعن المنافسة التي كان يذكيها بينهما اليازوري، الوزير الفاطمي المشهور.

وحدث أن جمعهما اليازوري يوما في مجلسه وقال ابن عزيز: «أنا أصور صورة إذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط». فقال قصير: «لكن أنا أصورها فإذا نظرها الناظر ظن

أنها داخلة في الحائط». فقال الحاضرون هذا عجب. وأمر اليازوري المصورين أن يصنعا ما وعدا به. فرسما الصورتين في حنيتين متقابلتين. وكان رسم قصير راقصة، بثياب بيض، فوق أرضية الحنية التي دهنها باللون الأسود، فظهرت الراقصة كأنها داخلة في الحنيَّة. بينما كان يرسم ابن عزيز راقصة بثياب حمر، فوق أرضية الحنية التي دهنها باللون الأصفر، فظهرت الراقصة كأنها بارزة من الحنية. فاستحسن اليازوري ذلك وخلع عليهما كثيرا من الذهب(٢٩).

الحالة العلمية:

كان في مقدمة ما عنى به الخلفاء الفاطميون جمع الكتب، مما يستدل معه على ميلهم إلى إحياء العلوم. وشغفوا بصفة خاصة بجمع النادر من الكتب، في كل علم وفن. وكثيرا ما كانوا يحرصون على اقتناء نسخ من مختلف الكتب بخط مؤلفيها، ويدفعون في سبيل ذلك أغلى الأثمان، مبالغة في التحقيق والتدقيق، هذا فضلا عن تنسيق تلك الكتب وتبويبها، والمحافظة عليها، وفق نظام دقيق، تيسيرا للرجوع إليها، والاغتراف من مناهلها.

خزانة الكتب :

وذكرنا في معرض الكلام عن خزائن القصر أنه كان من بينها خزانة المكتب، وقد ذكر المقريزي في خططه أنها كانت تشتمل على ألف ألف وستمائة ألف كتاب –أي مليون وستمائة ألف–، وكانت في أحد مجالس المارستان العتيق –أي أنها كانت في الموضع الذي أنشئ فيه مارستان قلاوون بعد ذلك– وكانت تتألف من أربعين قسما، ويحتوي كل قسم على عدة رفوف، في دور ذلك المجلس العظيم. والرفوف مقطعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل، ومن بين ما تحتوي عليه كتب في الفقه على سائر المذاهب، والنحو واللغة، وكتب الحديث، والتواريخ، وسير الملوك، والنجامة والروحانيات، والكيمياء، والمصاحف الكريمة بخط ابن مقلة ونظائره، كابن البواب وغيره، وثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة، وألفان وأربعمائة ختمة قرآنية، في ربعات بخطوط منسوبة، زائدة الحسن، محلاة بذهب وفضة وغيرهما. وإن جميع ذلك ذهب فيما أخذه الأتراك في واجباتهم – أي أجورهم ومرتباتهم– ببعض قيمته، أيام الشدة الكبرى في عهد الخليفة المستنصر(٣٠).

ومن طريف ما ذكره المقريزي في هذا الشأن: أن رجلا حمل إلى العزيز بالله نسخة من كتاب الطبري اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز أمناء المكتبة، فأخرجوا من الخزائن ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبري، منها نسخة بخط يده، ولعله فعل ذلك لكيلا يركب الرجل متن الشطط في تقدير ثمن الكتاب.

ونقل المقريزي عن صاحب كتاب الذخائر: "قال وكنت بمصر في العشر الأول من محرم سنة إحدى وستين وأربعمائة، فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتبا، محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج مُحَمَّد بن جعفر المغربي، فسألت عنها، فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر وهو الخطير بن الموفق في الدين، بإيجاب، وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجبلين"[٣١].

شغف الخلفاء بالعلم :

ولم يكن اقتناء الكتب والمحافظة عليها حبا في الزينة، وجريا وراء المظاهر البراقة، وإنما كان الخلفاء الفاطميون يدمنون القراءة والمطالعة، بل لقد عرف عن بعضهم أنهم كانوا من أعلم أهل زمانهم، كالمعز لدين الله، الذي كان عالما وفقيها، وعلما من أعلام الدين والأدب، بليغ الأسلوب، ملما بكثير من اللغات. وما رُئي في مجلس أو عابرا طريقا إلا وبيده كتاب[٣٢]. وكان هو وكثير من أسرته من بعده، من بينهم الحاكم بأمر الله يشتغلون بعلوم النجوم، ويميلون إلى علوم الأوائل، ويقربون إليهم أهلها، ويفرضون العلم على أولادهم ومماليكهم.

وكثيرا ما كان الخليفة يزور خزانة الكتب، فيجيء راكبا، ثم يترجل ويتخذ مجلسه فوق دكة منصوبة، ويمثل بين يديه أمين المكتبة، ويأتيه بمصاحف كثيرة، مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين، وغير ذلك مما يقترحه من الكتب. فإن عنَّ له أخذ شيء منها أخذه ثم أعاده[٣٣].

عناية الوزراء بالعلم :

ولم يكن الخلفاء وحدهم يشتغلون باقتناء الكتب، وينقبون عنها ويدمنون القراءة، ويطيلون البحث فيها، بل إن وزراءهم كانوا يقتفون أثرهم، وينهجون نهجهم. فقد روي عن

يعقوب بن كلس، وزير العدل، أنه كان يرتب في داره الكتّاب والأطباء، وجعل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين، وأجرى عليهم الأرزاق، وألّف كتبا عدة في الفقه والقراءات، ونصب له مجلسا في داره يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل، يتناظرون بين يديه. وكان في داره كذلك عدة كتّاب، ينسخون القرآن الكريم والفقه والطب وكتب الأدباء وغيرها من العلوم، فإذا فرغوا من نسخها قوبلت وضبطت(٣٤).

الجوامع كمراكز لنشر العلم:

ولم تقف جهود الخلفاء الفاطميين في إحياء العلوم ونشر المعارف عند حد اقتناء الكتب والمحافظة عليها، بل إنهم نشروا العلم وشجعوا الناس على الاغتراف منه، بكل الوسائل والطرق. فلقد ظل العلم يلقى في جامع عمرو في حلقاته العلمية والأدبية، التي كانت تعقد بانتظام، ويشهدها عدد كبير من الأساتذة والطلاب والأدباء والشعراء، كما كان يحدث في عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية، وأوقف عليه الخلفاء الفاطميون وعلى غيره من المساجد الأوقاف والهدايا، وقد كان يصيب هذا الجامع لهذا السبب كثير من الترميمات والإصلاحات بين آن وآخر. كذلك كان الخلفاء الفاطميون يشملون الطلاب بالرعاية والعطف، وترتب لهم نفقات مأكلهم ومشربهم، فضلا عما يقدم لهم من الأطعمة والحلوى في جميع المواسم والأعياد.

ومن أشهر الفقهاء الذين جلسوا للتدريس في جامع عمرو في عهد الفاطميين علي بن نصر بن سليمان الزنبقي اللغوي، وقرئ عليه كثير من الكتب الأدبية واللغوية والنحوية، وأبو أسامة جنادة بن مُحَّد النحوي، وأبو الحسن طاهر بن بابشاذ، وكان كلاهما عالما في اللغة والنحو.

الجوامع كمراكز لنشر المذهب الشيعي:

غير أنه لا يغيب عن البال أن الخلفاء الفاطميين كانوا يتخذون من الجوامع مراكز لنشر المذهب الشيعي، وإشاعة عقائدهم بين الناس، فقد جلس بجامع عمرو كثير من الفقهاء، درسوا فيه الرسالة الوزيرية، التي ألّفها الوزير يعقوب بن كلس في الفقه الشيعي، في

عهد الوزير. كما قام فيه بتدريس العلوم الشيعية في زمن الحاكم بأمر الله القاضيان الحسين بن علي النعمان وعبد العزيز بن مُحَمَّد بن النعمان.

كذلك أدى جامع ابن طولون دوره كمعهد علمي. غير أنه لم يتح له من النشاط والشهرة مثلما أتيح لجامعي عمرو والأزهر، إذ لم يرو لنا التاريخ أسماء لامعة قامت بالتدريس فيه، مثل ما روي من أسماء العلماء والأدباء والفقهاء الذين حاضروا في الجامعين المذكورين.

الجامع الأزهر:

أما الجامع الأزهر فقد عقدت له الزعامة الثقافية والعلمية والدينية على غيره من الجوامع ومعاهد العلم، وذلك لما كان يختصه به الخلفاء الفاطميون من رعاية وعناية، وما يخلعونه عليه من زخرف وزينة، وما يضاء به في المواسم والأعياد، من أنوار ساطعة. فهو مسجدهم المفضل، الذي يخطب فيه الخليفة، وتعقد فيه مجالس الدروس، وتنشر منه تعاليم المذهب الفاطمي، وينعم فيه الأساتذة والطلاب بالأرزاق الوفيرة، والهدايا الحسنة. ولقد اختصه الحاكم بوقفية ملكية، هي أول وقفية صدرت للإنفاق على هذا المسجد، وقف فيها ريع كثير من ممتلكاته، من دور وحوانيت ومخازن، للإنفاق على أثاثه وخدمة أئمته، وعلى إنارته وإصلاحه.

لذلك لم يكن غريبا أن يصبح أكبر جامعة إسلامية في الشرق، يفد عليه الطلاب من كل حدب وصوب، يتلقون فيه مختلف العلوم الدينية والفلسفية والمنطق، وبعض الرياضيات والطب، على يد علماء ذلك العصر، مثل أبي علي مُحَمَّد بن الحسن بن الهيثم، الذي رحل إلى مصر في زمن الحاكم.

وظل بها إلى أن توفي سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ – ١٠٣٩م)، وهو أشهر علماء المسلمين في الطبيعة والبصريات، ويعرف عنه الأوروبيين باسم «الهازن».

ومن أشهر كتبه كتابه في البصريات، المسمى «كتاب المناظر»، الذي يعتبر أساس علم الضوء حتى وقتنا هذا. وقد ضاع أصله العربي، ولكنه بقيت ترجمته اللاتينية. والحوافي أمام العربية والنحو، وابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ هـ(١٠٧٦م)، وغيرهم من علماء الفقه

والدين واللغة العربية ونحوها وصرفها وآدابها.

ولقد قصد الفاطميون من إنشائهم الجامع الأزهر أن يكون جامعة شيعية، ولم يدروا أنهم يضعون أساس أكبر جامعة إسلامية سنية، بل وأعظم قلعة حصينة يذاع منها الإسلام خالصا صحيحا في مشارق الأرض ومغاربها. فما دالت دولة الفواطم، وعفَّت آثارها، إلا وحمل الأزهر الأمانة، وظل طوال القرون التالية حتى اليوم حصن الإسلام الحصين، وركنه الركين. وانعقدت لعلمائه في تاريخ مصر الحديث الزعامة والرياسة، في توجيه الرأي العام.

وقد وصف المقريزي حركة العلم في الأزهر فقال: «ولم يزل في هذا الجامع منذ بني من الفقراء، يلازمون الإقامة فيه. وبلغت عدتهم في هذه الأيام –أيام المقريزي– ٧٥٠ رجلًا، ما بين عجم وزبالقة، ومن أهل ريف مصر ومغاربة، ولكل طائفة رواق يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه، والاشتغال بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو، ومجالس الوعظ والإرشاد وحلق الذكر.

فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله، والارتياح، وترويح النفس، ما لا يجده في غيره. وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس، إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى. وكل قليل، تحمل إليهم أنواع الأطعمة، والخبز، والحلويات لا سيما في المواسم»[٣٥].

دار الحكمة أو العلم:

لم تقف جهود الفاطميين في نشر العلم على المساجد، بل تعدت ذلك إلى إنشاء المعاهد التي انفردت بنشره، فقد أنشأ الحاكم في سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩– ١٠١٠م) دار العلم أو دار الحكمة، وكانت تلاصق القصر الغربي وأمدها بالأثاث، ورتب لها الخدم والفراشين، وحمل إليها من خزانة القصر عددا كبيرا من الكتب في مختلف العلوم والفنون، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة للإنفاق على الطلاب والأساتذة والأدوات.

وذكر المقريزي أنه "حصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة، ما لم ير مثله مجتمعا

لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم، ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها. وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعليم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر"[٣٦].

وظلت دار العلم تؤدي رسالتها طوال العهد الفاطمي، ما عدا فترات قصيرة، أغلقت فيها، ثم يعاد فتحها، إلى أن دالت الدولة، وقامت على أنقاضها دولة بني أيوب، فأحالها صلاح الدين الأيوبي، وكان قد أوقف جهوده على القضاء على المذهب الشيعي، إلى مدرسة لتعليم الدين، وفق المذهب الشافعي.

مجالس المناظرة في القصر:

وفي القصر كانت تعقد مجالس المناظرة تحت إشراف الخليفة ووزرائه، وبحضور العلماء والأدباء، وكبار رجال دولته. فيتناظر العلماء في مختلف المسائل وفي نهاية المناظرة ينهض الشعراء، ينشدون القصائد، ويتبارون في مدح الخليفة، والإشادة بمجد آبائه وأجداده. ولا غرو إذا وفد على مصر كثير من الشعراء، من مختلف الأقطار، يسعون إلى مجلس الخليفة، يشدون عطاءه، ويبتغون كرمه، من هؤلاء أبو حمد الأنطاكي، ومُحَمَّد بن القاسم بن عاصم، وأبو الحسن علي بن عبد الواحد البغدادي المعروف بصريع الدلاء، وأبو الحسن علي بن نوبخت، وعبد الوهاب بن نصر المالكي.

وقد مدح ابن هانئ الأندلسي المعز لدين الله الفاطمي في قصائد رنانة، غالى بها في مدح المعز حتى انحدر إلى درجة الكفر، وكان يزمع الرحيل إلى مصر، في أثر المعز، بعد رحيله من بلاد المغرب، ولكنه توفي في الطريق، فحزن عليه المعز كثيرا.

الحالة الاجتماعية

المجتمع المصري:

كان المجتمع المصري في عهد الفاطميين ينقسم بصفة عامة إلى سنيين، وهم جمهرة المصريين قبل وفود الفاطميين إلى مصر، وشيعيين، وهم الذين وفدوا إليها من بلاد المغرب،

وقد تحول كثير من السنين، بل ومن النصارى واليهود، إلى المذهب الشيعي، طمعا في الهبات والعطايا، التي كان الفاطميون يغرون بها الناس للانضمام إلى مذهبهم، وتقلد كثير من اليهود بعد إسلامهم وتشيعهم أرقى المناصب في الدولة ومن بينها منصب الوزارة.

وبالإضافة إلى السنيين، وهم أصل مصر، والشيعيين، وهم المغاربة، أو من اعتنق هذا المذهب من المصريين، كانت توجد طبقة الأتراك الذين تكاثروا منذ عهد أحمد بن طولون، التركي الجنس، والسودانيون الذين استكثر منهم كافور الإخشيدي، وقد ظهر أمرهم في عهد الحاكم، حيث استعان بهم على الجنود الأتراك، فأحرقوا القاهرة، عقابا للمصريين الذين كانوا يحتفون عليه، لسوء سياسته. وقد استمر العراك بين الأتراك والسودانيين طوال العصر الفاطمي(٣٧).

الإدارة:

وقد كانت الإدارة في العهد الفاطمي تتبع النظام العباسي، أو بعبارة أخرى النظام الفارسي القديم. وكان الجيش مكونا من ثلاث طبقات:

١- الأمراء، ومن بينهم كبار الضباط وحملة السيوف من حرس الخليفة.

٢- ضباط الحرس، وهؤلاء يشملون الأساتذة والخصيان.

٣- الفرق المختلفة التي كانت تحمل أسماء منسوبة إلى أحد الخلفاء، أو الوزراء، أو إحدى الجنسيات مثل الحافظية والجيوشية والسودانية.

كبار الموظفين:

وكان الوزراء من طبقات متعددة، أرقاهم رجال السيف الذين يشرفون على الجيش والحرب، ثم سادة الحرب أو كبار الحجاب، وكانت وظيفتهم تقديم السفراء الأجانب. أما رجال القلم، فكان من بينهم القاضي والمحتسب الذي يشرف على الموازين والمكاييل والمقاييس والآداب العامة، وخازن الدولة الذي يشرف على بيت المال. وكانت أقل مرتبة في طبقة رجال القلم الموظفون المدنيون، ومن بينهم الكتَّاب والسكرتارية في مختلف الدواوين(٣٨).

الأعياد والمواسم:

وقد كان للخلفاء الفاطميين عناية خاصة بالأعياد والمواسم، وقد ذكرنا فيما سبق أسماء المواسم التي ابتدعوها، والتي ما زال كثير منها باقيا حتى اليوم، نحتفي به ونحييه، وفي تلك الأعياد، خصوصا عيدي الفطر والنحر، كانت تمد الأسمطة «الموائد»، وتعد ألوان الطعام الوفيرة، ويُدعى الناس إليها من جميع الطبقات، لا فرق ولا تمييز، ليأكلوا هنيئا، ويشربوا مريئا، مما لذ وطاب، وهم إنما يلتمسون من وراء ذلك رضا الشعب ومحبته، واجتذاب الناس إلى المذهب الشيعي، الذي كانوا يحاولون بشتى الطرق تثبيت دعائمه، ونشر لوائه.

"ففي يوم عيد الفطر، كان يقام السماط مرتين، وفي عيد النحر مرة واحدة، في قاعة الذهب، إحدى قاعات القصر الفاطمي. ويُعبى السماط في الليل، وطوله ثلثمائة ذراع وعرض سبعة أذرع، وعليه من أنواع المأكل أشياء كثيرة. فيحضر إليه الوزير، أول صلاة الفجر، والخليفة جالس في الشباك، ومُكّنَت الناس منه، فاحتملوا ونهبوا ما لا يأكلونه، ويبيعونه ويدخرونه وهذا قبل صلاة العيد. فإذا فرغ من صلاة العيد، مُد السماط المقدم ذكره فيؤكل، ثم يمد سماط ثان من فضة، يقال له المدورة، عليها أواني الفضة والذهب والصيني، فيها من الأطعمة الخاص ما يُستحى من ذكره، والسماط بطول القاعة، وهو خشب مدهون شبه الدكك اللاطية، عرضه عشر أذرع.

ويُحط في وسط السماط واحد وعشرون طبقا، في كل طبق واحد وعشرون خروفا!! ومن الدجاج ثلثمائة خمسون طائرًا، ومن الفراريج –الدجاج– مثلها، ومن فراخ الحمام مثلها، وتتنوع الحلوى أنواعا، ثم يمد بخلل تلك الأطباق –أي فيما بينها– أصحن خزفيات في جنبات السماط، في كل صحن تسع دجاجات: في ألوان فائقة من الحلوى، والطباهجة –وهو ضرب من قلي اللحم المشرح– المفتقة بالمسك الكثير –أي المحشوة به– وعدة الصحون خمسمائة صحن، مرتب كل ذلك أحسن ترتيب. ثم يؤتى بقصرين من حلوى – أشبه شيء بالتورتة اليوم– قد عملا بدار الفِطْرة، زنة كل واحد سبع عشر قنطارا! فيُمضى

بواحد من طريق قصر الشوق إلى باب الذهب، ويُشق بالآخر من الجانب بين القصرين، فينصبان أول السماط وآخره ثم يخرج الخليفة راكبا، فينزل على السرير الذي عليه المدورة الفضية، وعلى رأسه أربعة من كبار الأساتذة المحنكين، وأربعة من خاص الفراشين، ثم يستدعى الوزير فيجلس عن يمينه، والأمراء ومن دونهم فيجلسون على السماط، فيتداول الناس السماط، ولا يُرد أحد عنه حتى يذهب عن آخره، فلا يقوم الخليفة إلا قريب الظهر، ثم يخرج الوزير ويذهب إلى داره، ويعمل سماطا يقارب سماط الخليفة. وهكذا يقع في عيد النحر، في أول يوم منه"[٣٩].

وكان يمد سماط عظيم في سرادق رحب على شاطئ النيل، على مقربة من المنظرة المعروفة بمنظرة السكرة، كما كان يُصنع في موسم مولد النبي –صلى الله عليه وسلم– عشرون قنطارا من الحلوى، توضع على ثلثمائة خوان (صينية)، وتوزع على الناس في الأزهر. وما زالت الحلوى إلى اليوم تصنع وتباع في مولد النبي وأولياء الله الصالحين، في طول البلاد وعرضها، وربما لا يعرف كثير من الناس أن هذا التقليد انحدر إلينا عن الفاطميين، ضمن ما انحدر إلينا من ابتكاراتهم وبدعهم.

ركوب الخلفاء الفاطميين:

وكان الخلفاء الفاطميون يخرجون في مواكب غاية في الفخامة والأبهة، للاحتفال بالأعياد والمواسم، أو للصلاة في المساجد، أو لتوزيع فرقة من الجيش، أو لإحياء مناسبات أخرى. وكان ركوب الخلفاء لا ينقطع من أول العام حتى شهر رمضان.

الاحتفال بأول العام الهجري:

وأفخم مواكبهم يوم الاحتفال بأول العام الهجري، حيث توضع الترتيبات والتنظيمات، وتفتح خزائن الفرش والكسوات والأسلحة والإعلام والبنود والسروج، والتجميل، وتمد كل فئة بحاجتها من العدد والأدوات، مما تستلزمه تلك المناسبات.

"ويخرج الخليفة في جمع زاخر من أفراد أسرته وغلمانه وبطانته ووزرائه وموظفي دولته وجنوده، من مختلف الأسلحة والأجناس، راجلين وراكبين، يحملون السيوف والرماح،

وينشرون الأعلام والبنود، ويلبسون الملابس الفاخرة، ويركبون الجياد المطهمة، ويسيرون وفق نظام دقيق، وترتيب موضوع. ويصطف الأمراء والوزراء على باب النصر حتى يهل عليهم الخليفة بطلعته، وحوله الأستاذون المحنكون[٤٠]، ودابته تمشي على بسط مفروشة، خيفة أن تَزْلَق على الرخام.

فعندما يقترب من الباب، يقترب رجل ببواق من ذهب لطيف معوج الرأس بصوت عجيب، يخالف أصوات الأبواق، فتضرب أبواق الموكب، وتنشر المظلة، ويخرج الخليفة من الباب، فيقف مقدار ما يركب الأساتذة المحنكون، وأرباب الرتب الذين كانوا بالقاعة. ويكون لباسه البياض، يزين رأسه تاج مرصع بالجوهرة اليتيمة، وهي جوهرة عظيمة، لا تعرف لها قيمة، حولها ما دونها من الجواهر، وهي موضوعة في هلال من ياقوت أحمر، ليس له مثال في الدنيا، زنته أحد عشر مثقالا، وقيل أكثر، يقال له الحاضر، فتنظم في خرقة من حرير، أحسن ما يمكن من الوضع، ويخاط على التاج بخياطة خفيفة، فيكون ذلك بأعلى جبهة الخليفة، وبدائرها قصب الزمرد الذبابي[٤١] العظيم القدر".

"ثم يسيرون والمظلة على يسار الخليفة، وصاحبها يبالغ ألا يزول عنه ظلها، وصبيان الركاب، منهم جماعة كبيرة من الشكيمتين، وجماعة أخرى في عنق الدابة، وجماعة أخرى في ركابيه، فالأيمن مقدم المقدمين، وهو صاحب المقرعة، التي يناولها للخليفة، ويتناولها منه، ويؤدي عن الخليفة الأوامر والنواهي مدة ركوبه".

"والمظلة تشاكل[٤٢] بدلة الخليفة، وعمودها من الزان، ملبس بأنابيب الذهب، ورأسها كالرمانة، ويعلوه أيضا رمانة صغيرة كلها ذهب مرصع بجوهر، ولها رفرف دائر، عرضة أكثر من متر ونصف".

"ويسير الموكب وبأوله أخلاص بعض العساكر، ثم الأماثل، ثم أرباب المناصب، ثم أرباب الأطواق، ثم الأستاذون المحنكون، ثم حاملا لواءي الحمد من الجانبين ثم حامل الدواة، ثم صاحب السيف، وهما في الجانب الأيسر، وكل من تقدم ذكره بين العشرة والعشرين من أصحابه. وأهل الوزير من الجانب الأيمن، بعد الأستاذين المحنكين، ثم الخليفة

وحوله صبيان الركاب المذكورة بقرقرة السلاح منهم، وهم ما يزيد على ألف رجل، وعليهم المناديل الطبقيات، يتقلدون بالسيوف، وأوساطهم مشدودة بمناديل، والسلاح مشهور بأيديهم، من جانبي الخليفة كالجناحين، وبينهم فُرجة لوجه الدابة، ليس فيها أحد. وبطول الموكب، والي القاهرة رائح وعائد، يفسح الطريق، ويُسيِّر الفرسان، فيلقي في عودة الأسفهسالار -القائد العام- كذلك، في حث الأجناد في الحركة، وينكر على المزاحمين، ويلقي أيضا في عودة صاحب الباب بمن في زمرة الخليفة، إلى أن يصل إلى الأسفسهالار، فيعود لترتيب الموكب.

"وخلف دابة الخليفة قوم من صبيان الركاب لحفظ أعقابه، وخلفهم أيضا أخَر، يحمل كل واحد سيفا في خريطة[٤٣] ديباج أحمر وأصفر بشراريب، يقال لها «سيوف الدم» لضرب الأعناق، ثم صبيان السلاح الصغير، أرباب الفرنجيات".

"ثم يأتي الوزير، وفي ركابه قوم من أصحابه وقوم يقال لهم صبيان الزرد، من أقوياء الأجناد، يختارهم لنفسه نحو خمسمائة رجل من جانبيه كأنه على قلق من حراسة الخليفة. ويجتهد ألا يغيب عن نظره، وخلفه الطبول والصنوج والصفافير، بحيث تدوي منهم الدنيا في عدد كثير، ثم يأتي حامل الدرقة والرمح، ثم طوائف الراجل من الركابية الجيوشية وقبلهما المصامدة ثم الفرنجية، ثم الوزيرية، زمرة بعد زمرة، في عدد وافر، يزيد على أربعة آلاف نفر، ثم أصحاب الرايات، ثم طوائف العساكر من الآمرية والحافظية والحُجرية الكبار والحُجرية الصغار والصِقِلية، ثم الأتراك المصطنعون، ثم الديلم، ثم الأكراد والغز المصطنعة، وهم البحرية، ويقدم هذه الفرسان عدة وافر من المرجلة، أرباب قسي اليد وقسي الرجل في نيف وخمسمائة نفر، وهم المعدون للأساطيل، وجملتهم نحو ثلاثة آلاف وأكثر، وهؤلاء الذين ذكرناهم بعض من كل، لا جميع عسكر الخليفة، ثم يدخلون من باب الفتوح، ويقفون بين القصرين كما كانوا"[٤٤].

«فإذا وصل الخليفة إلى موضع جامع الأقمر الآن، وقف وقفة، وانفرج الموكب، واتجه الخليفة إلى القصر، يحف به الوزير والأمراء والأستاذون المحنكون، وهم مشاة، إلى أن يصل

إلى باب القصر، فينزل الخليفة، وينصرف الوزير والباقون، وينتظرون في بيوتهم، فتأتيهم دنانير ذهبية، كانت قد ضربت في العشر الأخير من ذي الحجة، عليها تاريخ السنة التي ركب فيها، فيحمل للوزير شيء كثير منها وإلى أولاده وأقاربه، ثم إلى أرباب الرتب من أرباب السيوف والأقلام، من عشرة دنانير إلى رباعي إلى قيراط وإلى دينار واحد، فيقبلون ذلك تبركا[٤٥]".

ركوب الخليفة إلى مصر «الفسطاط»

«وكان أكثر ركوب الخليفة إلى مصر (الفسطاط)، فإذا ركب، ركب الوزير وراء الخليفة، في أقل جمع مما تقدم ذكره في ركوب أول العام، فيشق الخليفة القاهرة إلى جامع أحمد بن طولون إلى الشاهد كمشهد زين العابدين، ومشهد السيدة نفيسة، ومشهد السيدة أم كلثوم، إلى درب الصفا، ويقال له الشارع الأعظم، إلى دار الأنماط (وتعرف بدار الحصر)، إلى جامع مصر (جامع عمرو)، ثم يسير الخليفة إلى دار الملك[٤٦]، فينزلها والوزير معه، وكلما مر من القصر إلى دار الملك بمسجد أعطى قَيمة دينارا، ما عدا شيخ جامعة عمرو، فيعطيه ثلاثين ديناراً له وللقامة والمؤذنين خاصة، ثم تأتي المائدة من القصر وعليها كل ما لذ وطاب من الأطعمة الشهية، فيحمل الخليفة إلى الوزير منها جزءا وافرا، ويعطي الأمراء ومن حضر، ثم يوصل إلى أهل مصر «الفسطاط» من ذلك كثيرا من الفضلات».

"ثم يصلي الخليفة العصر، ويتحرك إلى العنود، والناس في الطريق جلوس لنظره، وزيه في هذه الأيام لبس البياض المذهبة والملونة، وهي العمامة والمنديل مشدود، وشدته مفردة عن شدات الرعية، وذؤابته تقرب من الجانب الأيسر، ويتقلد السيف العربي المجوهر، بغير حنك ولا مظلة ولا يتيمة، ولذلك أوقات مخصوصة، فلا يمر بمسجد في طريقه إلا ويعطي قيمة دينارا كما جرى في الرواح، وينعطف من باب الخرق (المعروف اليوم بباب الخلق) فيدخل من باب زويلة، ويشق القاهرة إلى القصر[٤٧].

---

(١) النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ٤١.

(٢) الخطط المقريزية، ج ٢ ص ١٨٤.

(٣) الخطط التوفيقية لعلي (باشا) مبارك،، ج ٤ ص ٤.

(٤) الخطط المقريزية، ج ٢ ص ٢٠٥.

(٥) الزهمة: ريح لحم سمين منتن.

(٦) انظر تعليق المرحوم العلامة مُحَمَّد (بك) رمزي على كتاب النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ٣٤ – ٣٦.

(٧) خطط المقريزي ج ٢، ص ١٨٠.

(٨) كنوز الفاطميين للمرحوم الدكتور زكي مُحَمَّد حسن، ص ٧٤ – ٧٦.

(٩) الخطط للمقريزي، ج ٢ ص ٢٥٣ – ٢٧٦.

(١٠) سفرنامة لناصر خسرو علوي ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، ص ٥٠، ٥٨.

(١١) المقريزي: الخطط، ج ٢ ص ٢٦٦.

(12) Creswel. Aarly Muslim Architecture.

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) تاريخ المساجد الأثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب ص ٤٩.

(١٥) دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة للمرحوم الأستاذ محمود أحمد ص ٥٩.

(١٦) الفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ١٢٨.

(١٧) المقريزي: الخطط، ج ٤ ص ٥٢.

(18) Greswel: Early Muslim Architecture. Vol.1.

(١٩) الدليل الموجز للمرحوم محمود أحمد، ص ٦٥ – ٦٧.

(٢٠) سفرنامة لناصر خسرو ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص ٦١.

(٢١) ونقابل هذه السنة ١٠٦٤ – ٦٥ ميلادية.

(٢٢) إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي، نشر الأستاذين مُحَمَّد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، ص ٢٦ – ٢٧.

(٢٣) كنوز الفاطميين للدكتور زكي مُحَمَّد حسن ص ٧١ – ٧٦.

(٢٤) صلاح الدين وعصره للأستاذ مُحَمَّد فريد أبي حديد ص ٥٣ – ٥٤.

(٢٥) كنوز الفاطميين ص ١١، ١٢.

(٢٦) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ٢٥٣.

(٢٧) راجع كنوز الفاطميين للمرحوم الدكتور زكي مُحَمَّد حسن ص ٤٠ – ٦٦.

(٢٨) سفرنامة ص ٦٠ – ٦١.

(٢٩) كنوز الفاطميين ص ٩٢.

(٣٠) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ٢٥٤.

(٣١) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ٢٥٤.

(٣٢) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ٢٥٤.

(٣٣) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ٢٥٤.

(٣٤) الفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٢٣٦.

(٣٥) المقريزي: الخطط جـ ٤ ص ٥٤.

(٣٦) المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٣٣٤.

(٣٧) تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن.

(٣٨) تاريخ العرب تأليف فيليب حتى، ترجمة المرحوم الأستاذ مُحَمَّد مبروك نافع، المجلد الثاني ص ٨١٢.

(٣٩) النجوم الزاهرة حـ ٤ ص ٩٧ – ٩٨.

(٤٠) خواص خدم الخليفة، وهم الذين يدرون عماذمهم على أحناكهم.

(٤١) أي أن لونه كلون الذباب المائل إلى الخضرة.

(٤٢) تماثل.

(٤٣) في جراب.

(٤٤) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن بن تغري بردي الجزء الرابع ص ٨٨ – ٩١.

(٤٥) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٩١.

(٤٦) كانت دار الملك من جملة مناظر الفاطميين، واقعة على شاطئ النيل في آخر عمارة مصر القديمة، ويوجد في مكانها اليوم أبنية منها بوليس مصر القديمة.

(٤٧) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٩١ – ٩٣.

الباب الخامس

قاهرة صلاح الدين

- ١ -

أدرك الوهن دولة الفاطميين في أواخر أيامها، منذ عهد الشدة العظمى، في عهد الخليفة المستنصر، أي منذ سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨م). ودب الضعف في أوصالها، فترنحت وهَوت سنة ٥٦٧ (١١٧١م). وقامت على أنقاضها الدولة الأيوبية، التي شيدها صلاح الدين يوسف بن أيوب.

كان قدوم صلاح الدين إلى مصر بصحبة عمه أسد الدين شيركوه، سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤م). حضرا تلبية لاستغاثة الوزير شاور، أحد وزراء العاضد، آخر الخلفاء الفاطميين. وكان شاور في نزاع مع ضرغام أبي الأشبال، أحد أمراء البرقية، الذي ظل يترقى حتى صار صاحب الباب.

ولم يستطع أحدهما التغلب على عدوه إلا بالاستعانة بقوة خارجية، وفي هذا ما يدلك على مبلغ انحطاط الوطنية والأخلاق عند وزراء ذلك العهد، الذين بلغ عددهم أربعين وزيرا، في مدة تسع سنوات. فاستعان ضرغام بالصليبيين، وهم جماعة من مسيحيي أوروبا، استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩م)، وأنشأوا لهم إمارات على طول ساحل الشام، وكانوا يتمنون لو استطال ملكهم فشمل مصر أيضا. لذلك رحبوا بدعوة ضرغام لهم، لمناصرته على شاور، وسارعوا إلى الزحف على مصر، ليحققوا الأمل الذي داعب خيالهم. أما شاور، فقد استعان بنور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب، وقد أدرك هذا مبلغ ما يصيبه الصليبيون من قوة، أن هم استولوا على مصر. لذلك سارع هو الآخر إلى

تلبية نداء شاور، عندما استغاث به ضد ضرغام، الذي كان قد هزم شاور، فهرب الأخير إلى الشام يطلب العون من نور الدين.

وقد استمرت مصر، ردحا من الزمان، ميدانا للتنافس بين نور الدين والصليبيين يرسل كل منهما جيشه إليها، فيتحاربون، ثم يغادرون البلاد بشروط يشترطها كل فريق مع حليفه من الوزيرين، ثم يعودون إليها، وهكذا.

وانتهى الأمر بقتل كل من ضرغام وشاور، وخلصت مصر لأسد الدين شيركوه، وحل في الوزارة محل شاور. ولكن لم يلبث أن عاجله الموت، بعد شهرين من توليه أمرها، فخلفه صلاح الدين، وحل محله في الوزارة في جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ (مارس سنة ١١٦٩م). ولم يكن صلاح الدين ليغبط على مركزه، إذ كان في الواقع مركزا شاذا، تحفه كثير من الصعاب: فبينما كان وزيرا للعاضد الشيعي، كان في نفس الوقت نائبا عن نور الدين محمود السني. هذا بالإضافة إلى قيام الفتن والثورات، التي كان يشعل نارها الحاقدون عليه، من شيعة ومغاربة وسودانيين.

ولكن صلاح الدين، وقد حالفه الحظ، ولازمه التوفيق، وبما وهبه الله من سعة الحيلة، وبعد النظر، ذلل جميع ما اعترضه من عقبات، فتوفي العاضد سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ – ١١٧٢ م)، ثم أعقبه نور الدين محمود، فتوفي سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ – ١١٧٤م)، فخلا له الجو، وخلص له ملك مصر، وصار صاحب الحول والطول فيها بلا منازع، وقضى على الشيعة، وشتت شملهم، وأخذ في إحلال المذهب السني محل المذهب الشيعي، مستعينا في ذلك بأهله وأقاربه ورجال دولته.

وبعد أن استتب له الأمر في مصر، وثبتت أقدامه، أخذ يعد العدة للقضاء على الصليبيين، وتوجيه ضربة قاصمة لهم، تزلزل أقدامهم، وتهد كيانهم. وقد أتيح له ذلك في موقعة حطين الحاسمة (٢٥ ربيع الثاني سنة ٥/٥٨٣ يوليو سنة ١١٨٧)، حيث أنزل بالصليبيين هزيمة ساحقة، وانتزع منهم بعد ذلك بيت المقدس، ثم أجلاهم عن بقية مدن الشام وفلسطين، ولم يبق في أيديهم سوى بعض المدن الساحلية الصغيرة وأهمها صور،

وبذلك صار جلاؤهم عن بلاد الشرق، جلاء نهائيا، أمرا محتوما.

والواقع أنه لم يتفق لملك من ملوك الشرق، أو زعيم من زعمائه، ما اتفق لصلاح الدين من بطولة وشجاعة، وشدة بأس، وعلو همة، وبعد نظر، وثاقب رأي، وصفاء نفس، واستمساك بالعدل والإنصاف والرحمة بالناس، غير مفرق بين عدو وصديق أو بين مسلم ومسيحي، مما شهد به الأعداء قبل الأصدقاء، وأجمع عليه المؤرخون بالرغم من تباين أجناسهم، واختلاف نحلهم ونزعاتهم. هذا إلى تفقه في الدين، ورسوخ كعب في الأدب، ومصاحبة للعلماء والأدباء.

وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال، توفي صلاح الدين إلى رحمة الله ورضوانه في ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ (٤ مارس سنة ١١٩٣) بعد أن أصيب بالحمى الصفراء، التي لم ينقذه منها علاج، ودفن في دمشق. ومع أنه كان صاحب الكلمة النافذة في إدارة شئون البلاد، وليس من ينازعه في أي أمر من أمورها، أو يراجعه في أي شأن من شئونها، فقد مات ولم يخلِّف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية، ودينارا واحدا ذهبا صوريا، كما ذكر ابن شداد. ولم يخلِّف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا مزرعة[١].

وقال ابن شداد أيضا يصف وقع موت صلاح الدين في نفوس الناس:

"وكان يوم موته يوما لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله، بعد فقد الخلفاء الراشدين – رضي الله عنهم– وغشي القلعة والمُلك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى، وقد علمت من نفسي، ومن غيري، أنه لو قبل الفداء لفدى الأنفس".

ألا رحم الله صلاح الدين رحمة واسعة، وأنزله منازل المجاهدين المكافحين، والأبرار الصديقين، الذين رفعوا لواء الإسلام عاليا، وذادوا عن حياضه، واستماتوا في الدفاع عنه حتى النفس الأخير.

- ٢ -

القاهرة في عهد صلاح الدين:

رأينا أن في مقدمة ما كانت تعني به أية دولة عند بدء قيامها، إنشاء عاصمة جديدة لها، تتفق ومكانتها، وتجتمع فيها مقومات عظمتها، وتفتتح بها صفحة جديدة في تاريخها. ولما كان صلاح الدين يدين بالمذهب السني، وينقم على المذهب الشيعي، فقد آل على نفسه أن يطمس آثار الفاطميين، وألا يترك سبيلا لإحياء ذكراهم، واستعادة سلطانهم.

لذلك فإنه لم يبق على قصورهم وما احتوت عليه من تحف وطرائف، فأسكنها أتباعه وحاشيته وضباط جيشه وأقاربه. وأهمل مدينتهم التي التصقت بها ذكراهم، وارتبطت بمنشآتها شهرتهم، وعول منذ اللحظة الأولى على أن يُدمج القاهرة والعواصم التي سبقتها، بعضها في بعض، ويوحد بينها، فيحيطها جميعا بسور عظيم، لتصبح حاضرة دولته، وعاصمة إمبراطوريته، على أن يشيد له فوق رابية المقطم قلعة حصينة لإقامته، ولتشرف على تلك العاصمة الموحدة، تحمي ذمارها، وتدفع عنها غارة العدو المهاجم. وأي عدو لمصر في ذلك الحين غير الصليبيين، الذين أجلاهم عن أرضها، بعد أن كادت تقوم لقمة سائغة في حلوقهم.

والواقع أن صلاح الدين هو الذي وضع أساس القاهرة الحالية، بعد أن وحَّد بين العواصم الأربع القديمة، وهو الذي مهَّد لها كي تصبح أكبر مدينة في الشرق، جديرة بما لمصر من مركز الصدارة بين دول العالم الإسلامي، ودول الشرق الأوسط، ورسم طريق تقدمها في مستقبلها العظيم، الذي كان ينتظرها في العهود التالية، وفي العصر الحديث. وبعد أن كانت قاهرة الفاطميين مقصورة على سكنى الخلفاء وحاشيتهم، فقد شجع صلاح الدين أفراد الشعب على سكنى القاهرة، وإقامة المنازل فيها، فنقلوا الأنقاض من مدينة مصر «الفسطاط»، التي تخلفت عن حريق شاور في ٣٠ربيع الأول سنة ٥٦٤ هـ (أول يناير سنة ١١٦٩م)، ذلك الحريق الذي استمر ٥٤ يوما، واستعملوا الأنقاض في تشييد مبانيهم.

ولما كان صلاح الدين دائم التنقل بين القاهرة والشام، للإشراف على أعماله الحربية ضد الصليبيين، فقد وكل إلى وزيره أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب ببهاء الدين إنفاذ خططه، والإشراف على أعمال البناء. فأنفذ تلك الخطط بكل نشاط وإحكام. ومن هنا جاءت شهرته بالصرامة، وعَلق باسمه الاستبداد، فلقبَّه الناس بقراقوش، ومعناها الطائر الأسود «العقاب» عنوانا على الصرامة والاستبداد، وشبهوا عهود الظلم بعصر قراقوش. ومن الطريف أن الأسعد بن مماتي، كتب كتابا عن بهاء الدين عنوانه: «الفاشوش في أحكام قراقوش» ضمنه كثيرا من الأمور التي يبعد وقوعها منه[٢].

ولم يمتد أجل صلاح الدين ليتمم جميع أعماله الإنشائية، فأتمها خلفاؤها من بعده. وعلى الرغم من أنه لم يقم طويلا في القاهرة، إلا أن أحدا ممن سبقوه من الحكام لم يترك فيها مثلما ترك من آثار.

-٣-

منشآت صلاح الدين:

السور: كانت نفقات حروب صلاح الدين تستنفد جانبا كبيرا من ميزانية الدولة، لذلك رأى توفيرا للنفقات الكثيرة، التي يستلزمها بناء سور جديد، أن يمد سور بدر الجمالي من شماليه، ويتجه به غربا حتى شاطئ النيل الشرقي، حيث أقيم حصن المقس المنيع. كذلك رأى أن يمده جنوبا حتى باب الوزير، بالقرب من سور القلعة الجديد. ثم هو يتمم هذا السور، بمده جنوبا، ليحيط بمدينة مصر «الفسطاط»، حتى يلتقي بالنيل ثانية، جنوبي الفسطاط.

ولم يكمل بناء السور في أثناء حياة صلاح الدين، وإنما أتمه خلفاؤه من بعده. وكل ما تم منه في عهده ما يأتي:

١- السور الشمالي: ويبتدئ من غرب باب الفتوح ويسير غربا ثم إلى الجنوب الغربي، ثم

يتجه إلى الغرب ثانية. ويسير باطراد ما عدا قطع واحد بالقرب من شارع الخليج المصري (شارع بورسعيد حاليا). وبعد ذلك يمكن للإنسان أن يتتبعه وهو يسير خلف سكة الفجالة، وشارع الطبلة حتى ميدان محطة مصر (ميدان رمسيس الآن)، حث تجد بقايا منه، على طول هذا الاتجاه الذي ينتهي بقلعة المقس. وقد زالت ولم يبق لها أثر اليوم، وكان قد شيد بجوارها جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع أولاد عنان.

٢- الجزء من السور الشرقي: ويمتد من باب النصر فدرب المحروق حتى باب الوزير، بالقرب من سور القلعة الجديد. ويوجد في هذا الجزء برج الظفر.

وعند وفاة صلاح الدين لم يكن قد بدئ في بناء السورين الجنوبي والغربي، كما لم يكن السور الشرقي قد اتصل بعد بباب الوزير. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا السور بني من الأحجار، بخلاف سور جوهر الذي بني من اللبن. كذلك يمتاز سور صلاح الدين بوجود الأبراج الدائرية الخالية من الحجرات الداخلية والمنافذ والفتحات. ولا يزال ممكنا تتبع أجزاء من هذا السور بين المنازل القديمة أو خلال تلال المقطم.

القلعة:

وقد شرع صلاح الدين، في نفس الوقت الذي كان يبني فيه السور، في تشييد القلعة، فوق جبل المقطم، في موضع كان يعرف بقبة الهواء، قيل إن حاتم بن هرثمة هو أول من بناها(٣)، ثم صار موضعها مقبرة، فيها عدة مساجد. ولم يعرف أن صلاح الدين سكنها، لأنه توفي قبل إتمام مبانيها. وإنما تمت في عهد الملك الكامل مُحَمَّد بن العادل أبي بكر بن أيوب، فكان أول من سكنها واتخذها دار الملك في الديار المصرية، واستمرت كذلك في جميع العهود التالية، حتى عهد مُحَمَّد علي، وبعض خلفائه من بعده. وقد هدم صلاح الدين بعض الأهرام الصغيرة في الجيزة، واستعمل أحجارها في بناء القلعة والسور، واستخدم كثيرا من أسرى الفرنجة في أعمال النحت والبناء.

وقد قيل في سبب بناء القلعة إن صلاح الدين أراد أن يحتمي بها من الفاطميين وأشياعهم، ولكن المعقول أن يكون قد قصد من بنائها تحصين البلاد ضد عدو أشطر

خطرا، ألا وهو الصليبيون. وقد شاهد في أثناء تجواله في سوريا أن لكثير من البلاد بها قلاعا حصينة تحميها، فلم ير بدا، وهو بصدد تحصين القاهرة بسورة عظيم، أن يزيد في مناعتها، ويضاعف من قوتها بإقامة قلعة حصينة، فوق جبل المقطم، أسوة بمدن سوريا، التي شاهدها من قبل، وأعجب بقلاعها وحصونها. وقد بلغ طول هذا السور حسب تقدير المقريزي ٢٩٣٠٢ ذراعا هاشميا.

وقد بدئ في بناء القلعة سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦م)، وتمت في عهد الملك الكامل سنة ٦١٤ هـ (١٢٠٧– ١٢٠٨م). وفي الضلع الغربي للقلعة، يوجد الباب المدرج، وفوقه كتابة تاريخية، كتبت بعد البدء في إنشاد القلعة بست سنوات، ولا تزال موجودة حتى اليوم، وهذا نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة، المجاورة لمحروسة القاهرة التي جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينا، مولانا الملك الناصر صلاح الدين والدين، أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير الدولة في نظر أخيه وولي عهده، الملك العادل سيف الدين أبي بكر مُحَمَّد خليل أمير المؤمنين، على يد أمير مملكته، ومعين دولته، قراقوش بن عبد الله الملكي الناصري في سنة تسع وسبعين وخمسمائة»، ويقابل هذه السنة سنة ١١٨٣ – ١١٨٤م.

القلعة بعد صلاح الدين:

ولم يبق من منشآت صلاح الدين بالقلعة سوى بعض أجزاء السور والأبواب، ذلك لأنه أدخلت عليها كثير من التغييرات والإضافات في العصور التالية: فقد أنشأ الكامل قصورا، وزاد في مساحتها، وأحاط الزيادة بسور أقل حجما من سورها الأول. كما أنشأ الظاهر بيبرس برجا كبيرا وطباقا للمماليك، وقصرا فخما لوالده الملك السعيد. وأنشأ الأشرف خليل بن قلاوون مقعدا فخما شاهقا يطل على الجيزة والنيل. وأنشأ الناصر مُحَمَّد بن قلاوون برجا مربعا كبيرا، لا يزال باقيا إلى الآن بالقرب من الناحية البحرية الشرقية أسفل جامع مُحَمَّد علي، كما بنى قصره المعروف بالقصر الأبلق، الذي لا تزال توجد بقية منه. وأنشأ أيضا مسجدا. وأنشأ الناصر حسن بن مُحَمَّد قصره المسمى بالبيسرية سنة ٧٦١ هـ

(١٣٥٩ -١٣٦٠م)، وقيل إنه جعل به شبابيك من الذهب.

وفي سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٨ – ١٣٨٩م) جدد السلطان الظاهر برقوق سور القلعة. وقد شيد السلطان الغوري إيوانا كبيرا جمع كثيرا من بدائع الفن. وحوالي سنة ١١٦٠ هـ (١٧٤٧م) أنشأ الأمير رضوان كتخدا الجلفي باب العزب، المشرف على ميدان صلاح الدين. وقد أصلح مُحَمَّد علي جانبا كبيرا من سورها وأبراجها وأبوابها.

وأنشأ الجامع وسرايا الجوهرة والعدل، ودار الضرب ودار المحفوظات المقابلة للباب الجديد الذي أنشأه سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥م)(٤).

بئر يوسف الحلزوني:

وحفر صلاح الدين في القلعة بئرا يستقي منها الجيش وسكان القلعة، إذا ما مُنع الماء عنها عند حصارها. وهي من أعجب ما تم من الأعمال في عهد صلاح الدين، إذ أنها محفورة في الصخر على عمق ٩٠ مترًا تقريبًا من مستوى أرض القلعة. ولا يخفى ما يتطلبه هذا العمل من جهد.

وتترك هذه البئر من طابقين، لكل منهما ساقية، ترفع المياه منها بواسطة الدواب، التي خصص لها منحدر، لتسهيل النزول والصعود.

وقد فتحت بجانبه فتحات لإيصال النور إلى هذا الممر(٥). ولا تزال توجد السواقي بمعداتها أسفل البئر حتى الآن.

- ٤ -

القاهرة في عهد خلفاء صلاح الدين

خلف صلاح الدين سبعة عشر ولدا، وفتاة واحدة. وقد اقتسم أولاده وإخوته مملكته العظيمة. فوقعت مصر من نصيب ابنه عماد الدين عثمان، الذي لقب بالملك العزيز. ولكنه لم يعمر طويلا، إذ توفي في ٢١ محرم سنة ٥٩٥ هـ (٢٤ نوفمبر سنة ١١٩٨م) أى

بعد ست سنوات من ولايته، فخلفه ابنه ناصر الدين محمد وعمَّر ثماني سنوات، ولُقِّب بالملك المنصور.

"أقام الملك العادل بن أيوب نفسه وصيا عليه. وما لبث أن خلعه في شوال سنة ٥٩٦ هـ (١٥ يوليو سنة ١٢٠٠ م) وانفرد بحكم مصر، بل إنه سرعان ما مد نفوذه على بلاد الشام أيضا، وسائر دولة صلاح الدين، فعادت البلاد إلى حظيرة سلطان واحد، وتحت قبضة يد واحدة. ويظهر أن هذا الحل الموفق كانت تقتضيه أحوال ذلك العهد، وما لابسه من ظروف خطيرة: فالصليبيون لم يلبثوا بعد وفاة صلاح الدين أن أخذوا يستعيدون نشاطهم، ويمنون أنفسهم باستعادة ممتلكاتهم، بعد أن أجلاهم عنها صلاح الدين.

فاشتبك العادل معهم في عدة حروب بالشام، ولكنهم حولوا وجوهم شطر مصر، واستولوا على دمياط في ٤ ربيع الأول سنة ٦١٥ هـ (أول يونيو سنة ١٢١٨م)، وتوغلوا في أرض الوجه البحري، وكان العادل قد توفي حينذاك، فتصدى لهم الكامل بن العادل، وهزمهم بعد قتال عنيف هزيمة ساحقة في ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ (٦ سبتمبر سنة ١٢٣١م)، في الموضع الذي أطلق عليه فيما بعد "المنصورة"، ثم أجلاهم عن أرض مصر.

ولكنهم عادوا إليها في عهد ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان قد تولى الملك في ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٣٦ هـ (أول يوليو سنة ١٢٣٩م)، ولكنه توفي قبل أن يتم له النصر عليهم، فقام بهذه المهمة ابنه الملك المعظم غياث الدين توران شاه، وهزمهم هزيمة ساحقة عند المنصورة أيضا، وأسر ملكهم لويس التاسع سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م). وفي نفس العام توفي توران شاه، وبموته انقرضت دولة الأيوبيين، وانتهى عهدهم.

القلعة والأسوار:

ذكرنا أن الملك الكامل أكمل بناء القلعة سنة ٦١٤ هـ (١٢٠٧م)، وأنشأ بها قصورا، وزاد في مساحتها، وأحاط الزيادة بسور أقل ارتفاعها من سورها الأول، ثم اتخذها مقرا لملكه.

قبة الإمام الشافعي:

ولقد أنشأ صلاح الدين فيما أنشأه من مدارس، ما سيأتي ذكره قريبا، المدرسة الصلاحية سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦م)، وأنشأ بجوارها ضريحا للإمام الشافعي. وفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨م) أنشأ التابوت الخشبي الذي يعلو تربة الشافعي، وهو مصنوع من خشب الساج الهندي، ومقسم إلى حشوات هندسية، منقوشة نقشا غاية في الاتقان، ومكتوب عليه آيات قرآنية، وترجمة حياة الشافعي، واسم الصانع الذي صنعه، وذلك بالخط الكوفي والنسخي.

وبجوار قبر الشافعي دفنت الأميرة «شمس» زوج صلاح الدين، والملك العزيز عثمان ابنه، ووالدة الملك الكامل. لذا شيد ولدها الكامل في جمادى الأولى سنة ٦٠٨ هـ (أكتوبر سنة ١٢١١م) قبة ضمت قبر الشافعي، وبعض أفراد الأسرة الأيوبية. وتمتاز هذه القبة بما فيها من نقوش وزخارف، ويوجد فوقها من الخارج، في مكان الهلال، مركب صغير من النحاس، يقال إنها تسع من الحب قدر نصف إردب لإطعام الطيور، ويغلب على الظن أن تكون هذه المركب رمزا لعِلم الشافعي الذي شُبه بالبحر الزاخر. ثم إنه أنشأ تابوتا من الخشب فوق تربة والده، لا يقل دقة عن تابوت الشافعي. وركب على باب القبة مصاريع خشبية، تماثل صناعتها صناعة التابوت. ولا تزال هذه القبة الجميلة المرتفعة قائمة إلى اليوم، تعلو قبر الإمام الشافعي، المجاور لمسجده، بشارع الإمام الشافعي بالقرافة.

ولما تسرب الوهن إلى المدرسة الصلاحية، وتعطلت إقامة الشعائر الدينية بها، هدمها الأمير عبد الرحمن كتخدا، وأنشأ مكانها مسجدا عظيما سنة ١١٧٦ هـ (١٧٦٢ – ١٧٦٣م) وضم إليه ضريح الإمام الشافعي. وقد أصاب هذا المسجد بعد ذلك تصدع وخلل، فرممه على الصورة التي هو عليها الآن الخديو محمد توفيق سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩٠-١٨٩١م).

تربة الصالح نجم الدين أيوب:

وتوجد بشارع ما بين القصرين، في الجهة البحرية الغربية للمدرسة الصالحية. وقد أنشأتها الملكة شجرة الدر، ليدفن بها زوجها الصالح نجم الدين أيوب، وبها تابوت خشبي

بلغت صناعته الدقيقة درجة عظيمة من الاتقان. كذلك تعد شبابيكها النحاسية المفرغة، ورخام المحراب من أقدم النماذج التي من نوعها.

ـ ٥ ـ

الحالة الاجتماعية في عهد الأيوبيين

نعمت البلاد في عصر صلاح الدين بأمن مستتب، وهدوء شامل، وعدل مقيم، ورخاء عميم. ولا يظن ظان أن انشغال صلاح الدين طوال حياته بالحرب والنضال قد صرفه عن تعهد البلاد بكل ما تحتاجه من إصلاح. والواقع أنه حفر الترع، وطهر القديم منها، فأينع الزرع، وكثر الرزق، وعمَّت الخيرات.

القضاء على البدع:

ولم يأل جهدا في القضاء على البدع التي شابت عقائد الناس في عهد الفاطميين، وأعاد الناس إلى النهج القويم والطريق السليم، ونفث فيهم من روحه قوة وشجاعة وتقى وعدلا ورحمة. فضربوا مثلا رائعا في رباطة الجأش وقوة الإيمان، والجد والعمل، الزارع في حقله، والصانع في مصنعه، والجندي في ميدانه.

انتشار العدل:

وكان محبا للعدل، يجلس في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء، ويصل إليه الكبير والصغير، والشيخ العجوز، وما استغاث به أحد إلا أجابه وكشف ظلامته(٦).

الحمامات:

ولقد زار مصر في عهد صلاح الدين، وبعد وفاته عبد اللطيف البغدادي، الرحالة المشهور، فأعجب بكل ما شاهد في القاهرة من غرائب الأبنية، ووسائل الراحة. وأطنب في وصف حماماتها فقال: «وأما حماماتهم فلم أشاهد في البلاد أتقن منها وصفا، ولا أتم حكمة،

ولا أحسن منظرا ومخبرا. أما أولا فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين روايتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك، يصب فيها ميزابان ثجاجان، حار وبارد. وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جدا مرتفع، فإذا اختلطا فيه جرى منه إلى الحوض الكبير، وهذا الحوض نحو ربعه فوق الأرض، وسائره في عمقها، ينزل إليه المستحم، فيستنقع به. وداخل الحمام مقاصير بأبواب. وفي المسلح أيضا مقاصير لأرباب التخصص، حتى لا يختلطوا بالعوام، ولا يظهروا على عوراتهم. وهذا المسلح بمقاصيره، حسن القسمة، مليح البنية.

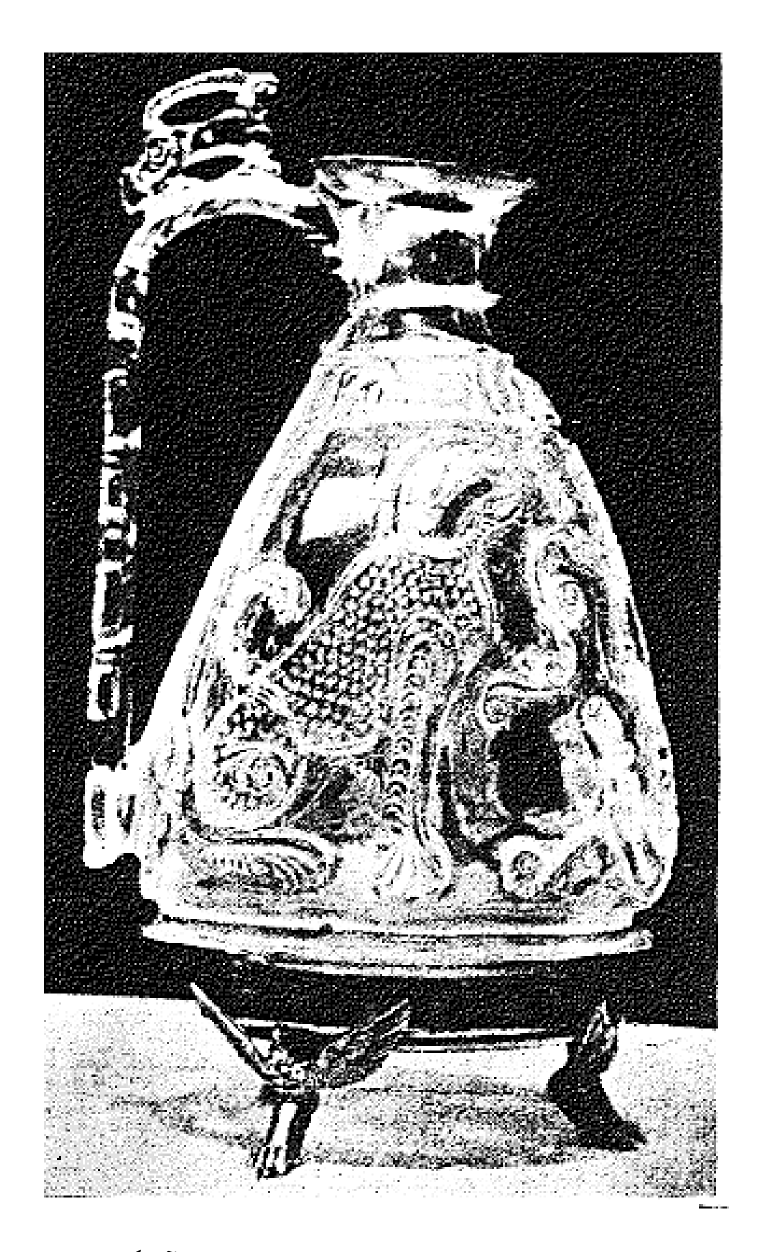
وفي وسطه بركة مرخمة، وعليها أعمدة وقبة، وجميع ذلك مزوق السقوف، مفوف الجدران، مبيضها، مرخم الأرض بأصناف الرخام، مجزع باختلاف ألوانه، وترخيم الداخل يكون أبدا أحسن من ترخيم الخارج، وهو مع ذلك كثير الضياء، مرتفع الآذاج، جاماته مختلفة الألوان، صافية الأصباغ، بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه، لأنه رذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذ دارا لجلوسه، وتناهى في ذلك، لم تكن أحسن منه"(٧).

وإذا كثرت الحمامات في بلد، كان ذلك عنوانا على نظافة أبدان أهله، وصحة أجسامهم، وسلامة عقولهم، وبالتالي دليلا على رقيهم وتقدمهم.

وقد كان هذا حال أهل القاهرة في عهد صلاح الدين، وفي عهد خلفائه من بعده.

رعاية المرضى:

وقد شمل صلاح الدين المرضى، وذوي العاهات برعايته وعنايته، فأنشأ لهم دورا لعلاجهم، والعناية بهم، من ذلك: بيمارستان بالإسكندرية، وآخر بالقاهرة، كان يطلق عليه البيمارستان العتيق، الذي أنشأه سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ – ٨٢م) محل قاعة بالقصر الكبير، بناها العزيز بالله الفاطمي سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧م)، وكانت آيات من القرآن مكتوبة على جدرانها. وموضع هذا البيمارستان اليوم مجموعة المباني الواقعة خلف دورة مياه المشهد الحسيني، من الجهة البحرية إلى عطفة القزازين. وقد أوقف على كل البيمارستانين الأوقاف الجيدة، شأنه في شأن جميع المدارس التي أنشأها بمصر والشام، والتي سيأتي الكلام عنها عاجلا.

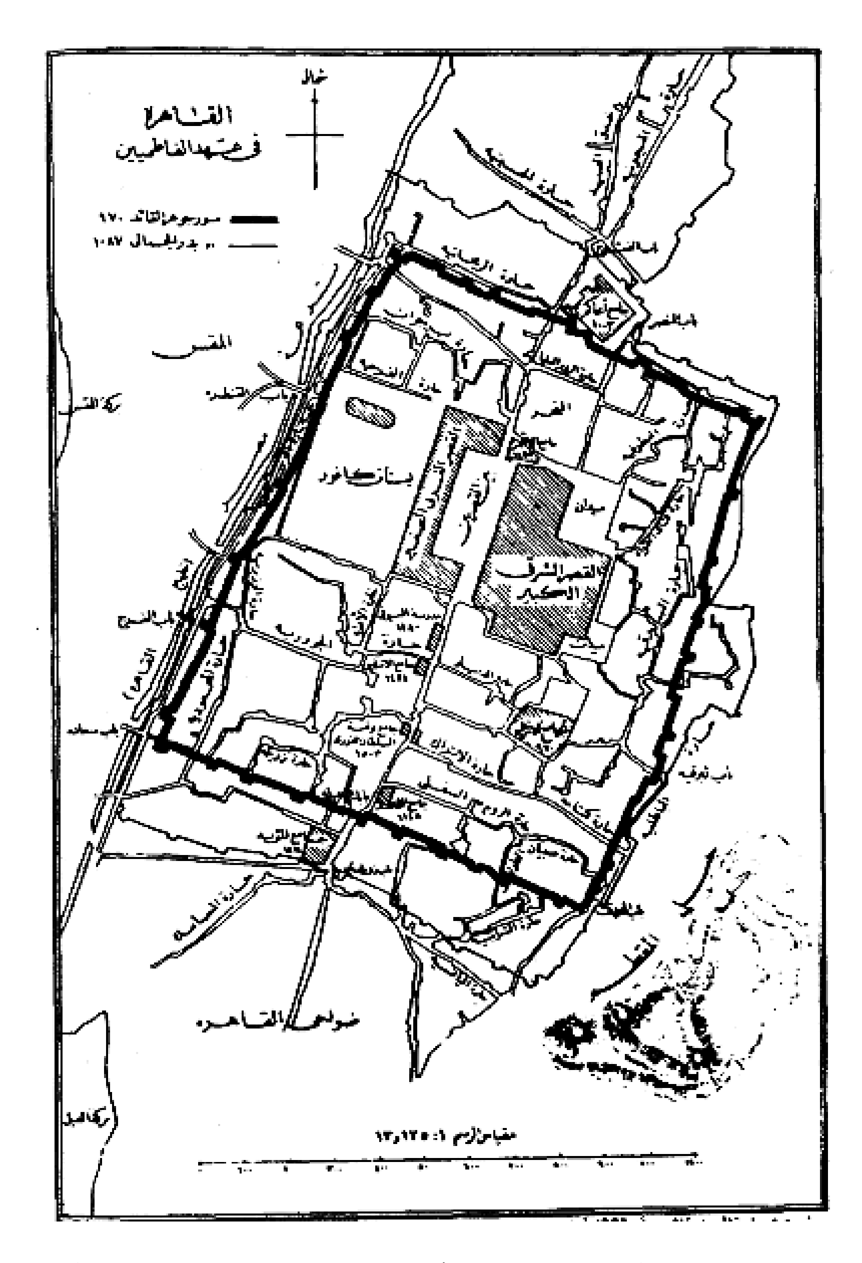


إبريق من البلور الصخري، من العصر الفاطمي (القرن العاشر الميلادي) محفوظ الآن بكتدرائية "سان مارك" بمدينة البندقية، وتمثل الزخارف المحفورة فيه أسدين بينهما شجرة الخلد، وعلى المقبض خروف صغير، ونص الكتابة الموجودة في أعلاه "بركة من الله للإمام العزيز بالله".

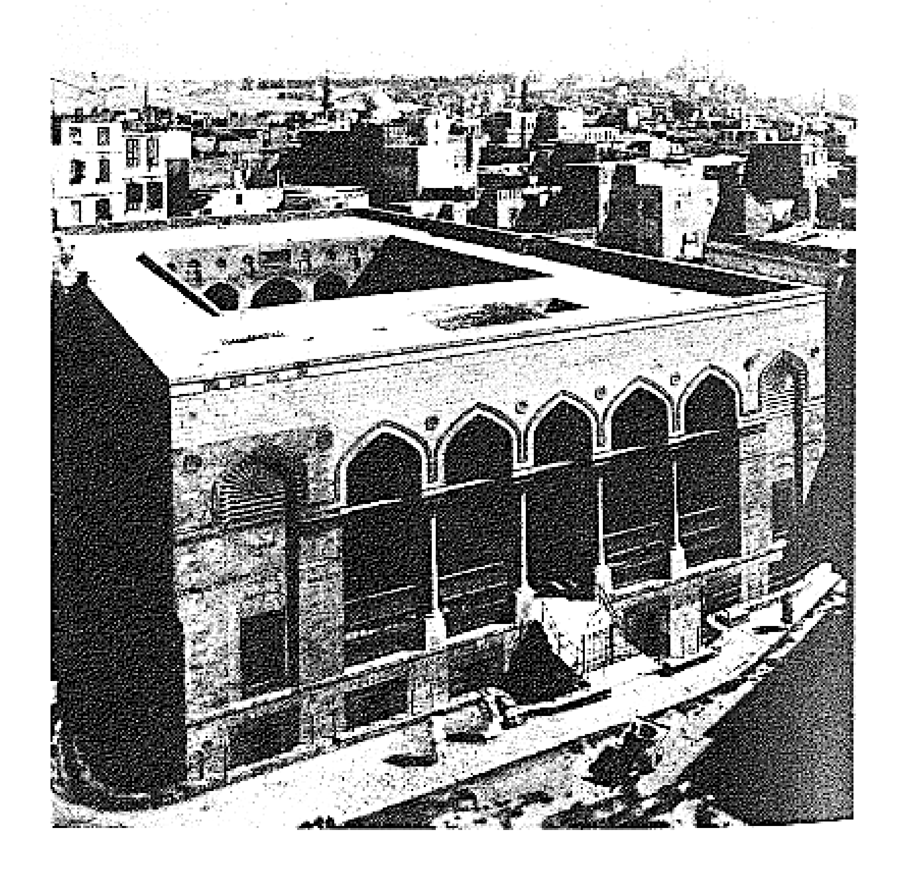




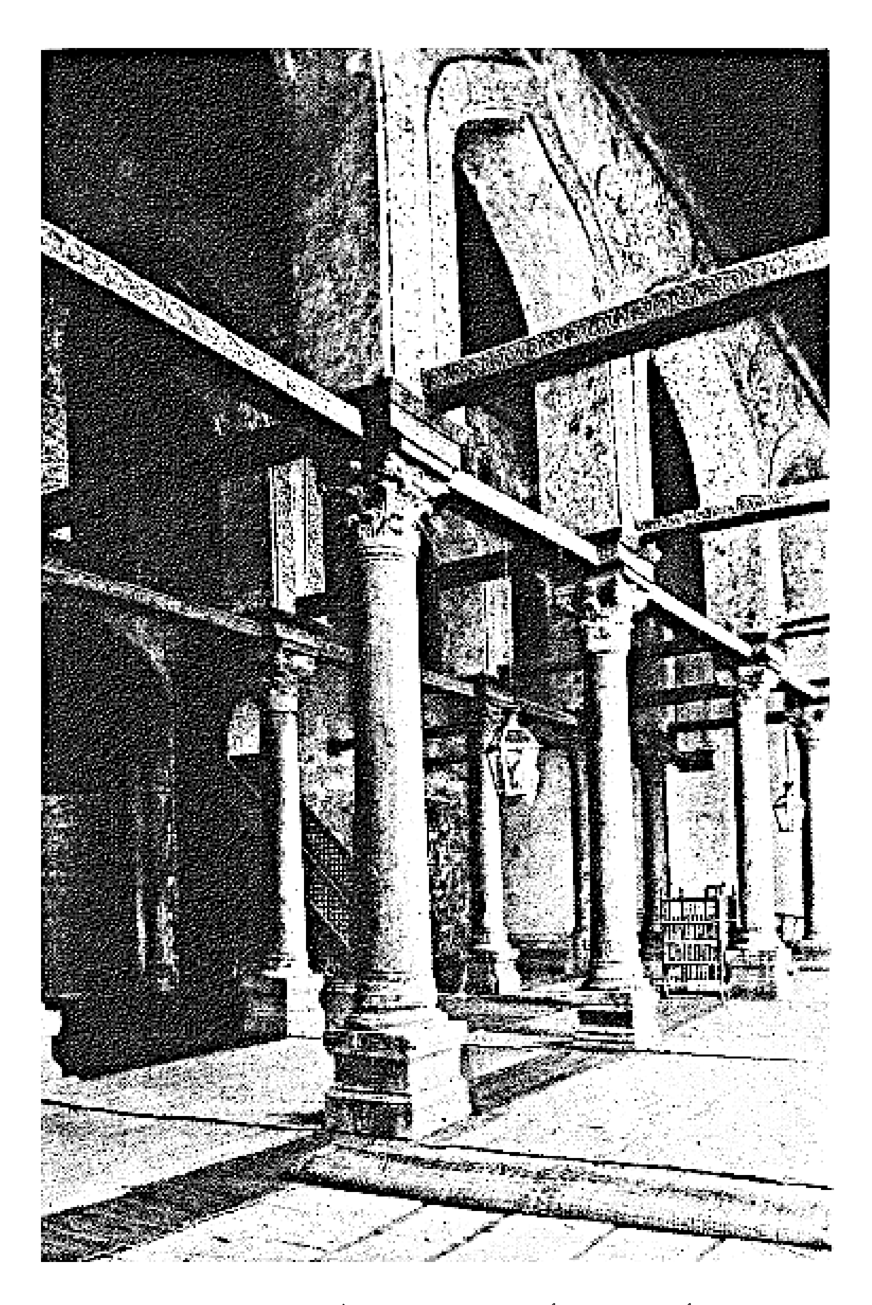
صورة على الجص، وجدت على جدران فاطمي بجهة أبي السعود، محفوظة الآن بالمتحف الإسلامي بالقاهرة تمثل إنسانا تحيط برأسه هالة –وهي ملونة بالأحمر والأسود– وعليه عمامة جميلة، وفي يده اليمنى كأس.



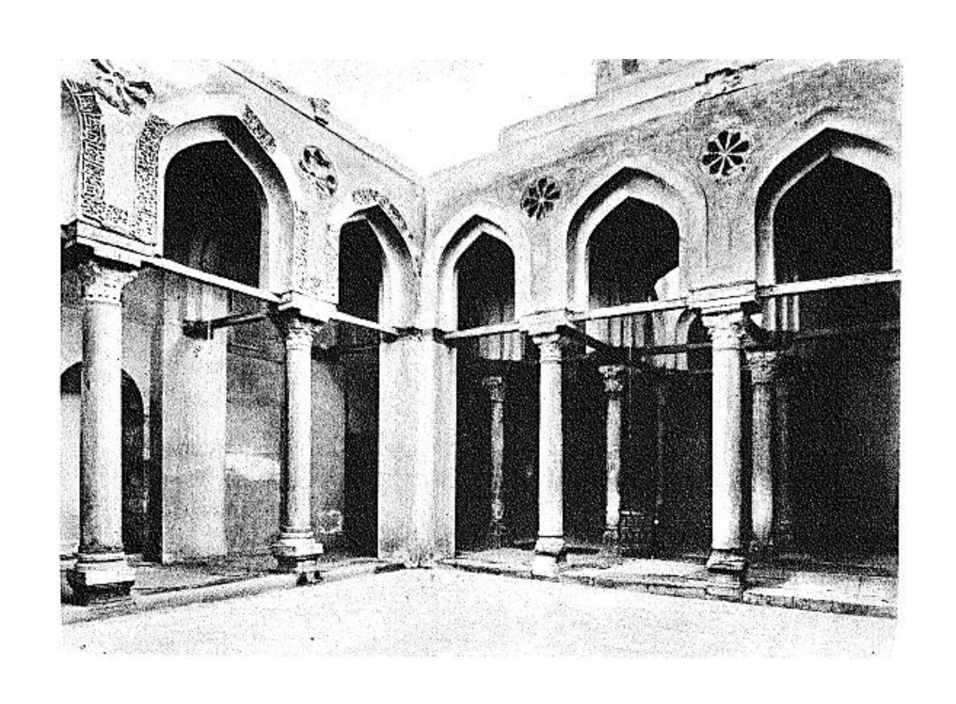
يوضح هذا الرسم مواقع أبواب القاهرة، والجامع الأزهر، والقصرين الفاطميين، وجامع الحاكم وقد أخرجه سور بدر الجمالي عن نطاق القاهرة الفاطمية.



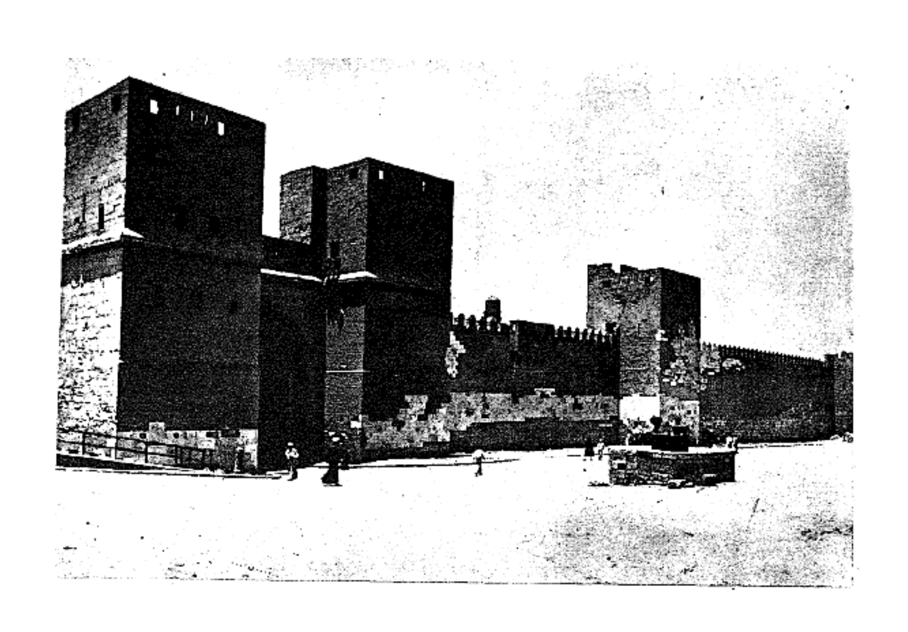
الواجهة الرئيسية لمسجد الصالح طلائع، والرواق الخارجي ذو العقود الفارسية التي ترتكز على أعمدة قديمة، وتشاهد التجاويف والمحارات والمقرنصات الصغيرة، والصنج المعشقة.



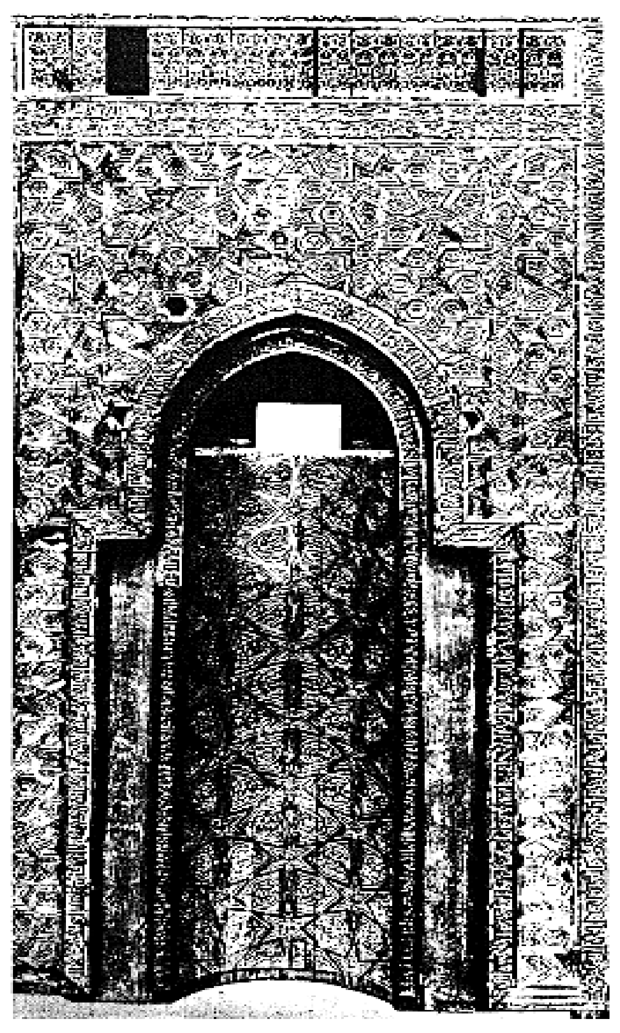
العقود الفارسية والأعمدة القديمة والأوتار الخشبية، وعليها زخارف نباتية محفورة بمسجد الصالح طلائع.



العقود الفارسية بمسجد الأقمر التي تفصلها بعضها عن بعض زخارف على هيئة صرر، وترى الأعمدة القديمة والدعائم المحيطة بالصحن.

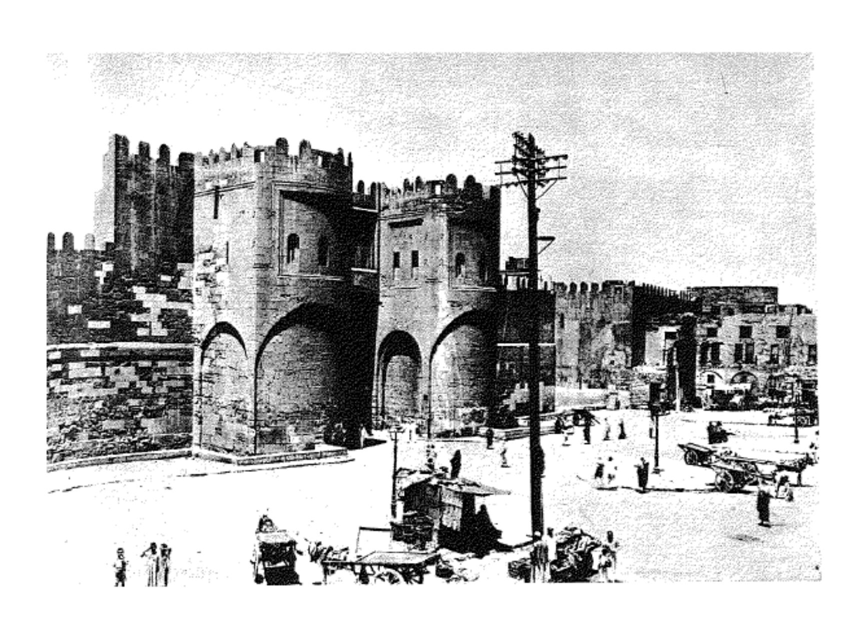


منظر جانبي عام لباب النصر مع جزء من سور بدر الجمالي، وتشاهد الأبراج المربعة والنقوش الحجرية ذات الطابع الحربي، والغرف ذات الفتحات الرأسية التي يفصلها ممر.

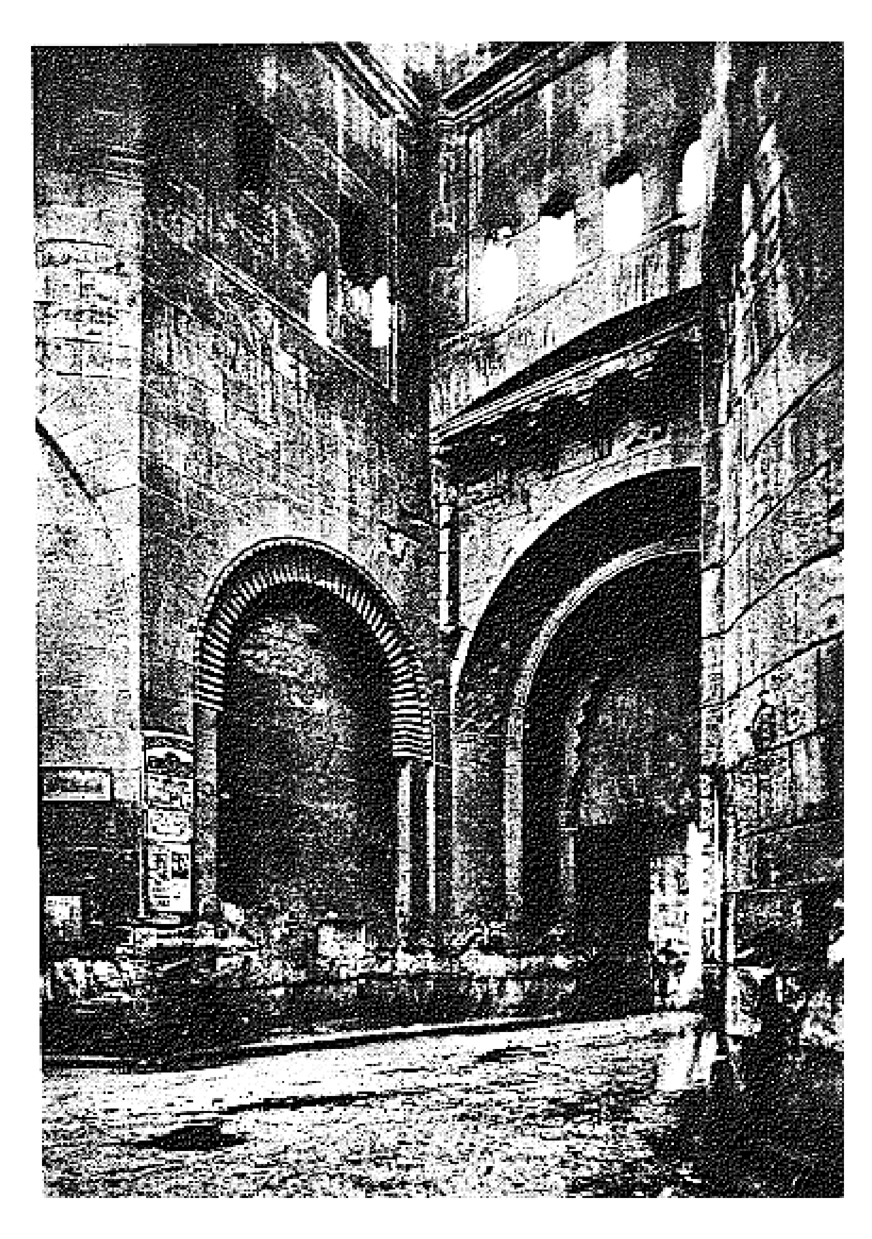


محراب السيدة رقية، وهو أحد محاريب ثلاثة متنقلة خشبية، صنعت في العصر الفاطمي، ومحفوظة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة، ويمتاز هذا المحراب بأنه مزين بالزخارف من الظهر والجانبين، وحنية القبلة مكونة من حشوات سداسية الشكل، مجمعة بحيث تحصر بينها حشوة على شكل نجمة ذات ستة أطراف، وتزين كل حشوة من تلك الحشوات سيقان نباتية دقيقة، فيها وريقات ذات نصوص طويلة، وتحيط بحنية القبلة كتابة بالخط الكوفي المشجر تتضمن بعض الآيات القرآنية.

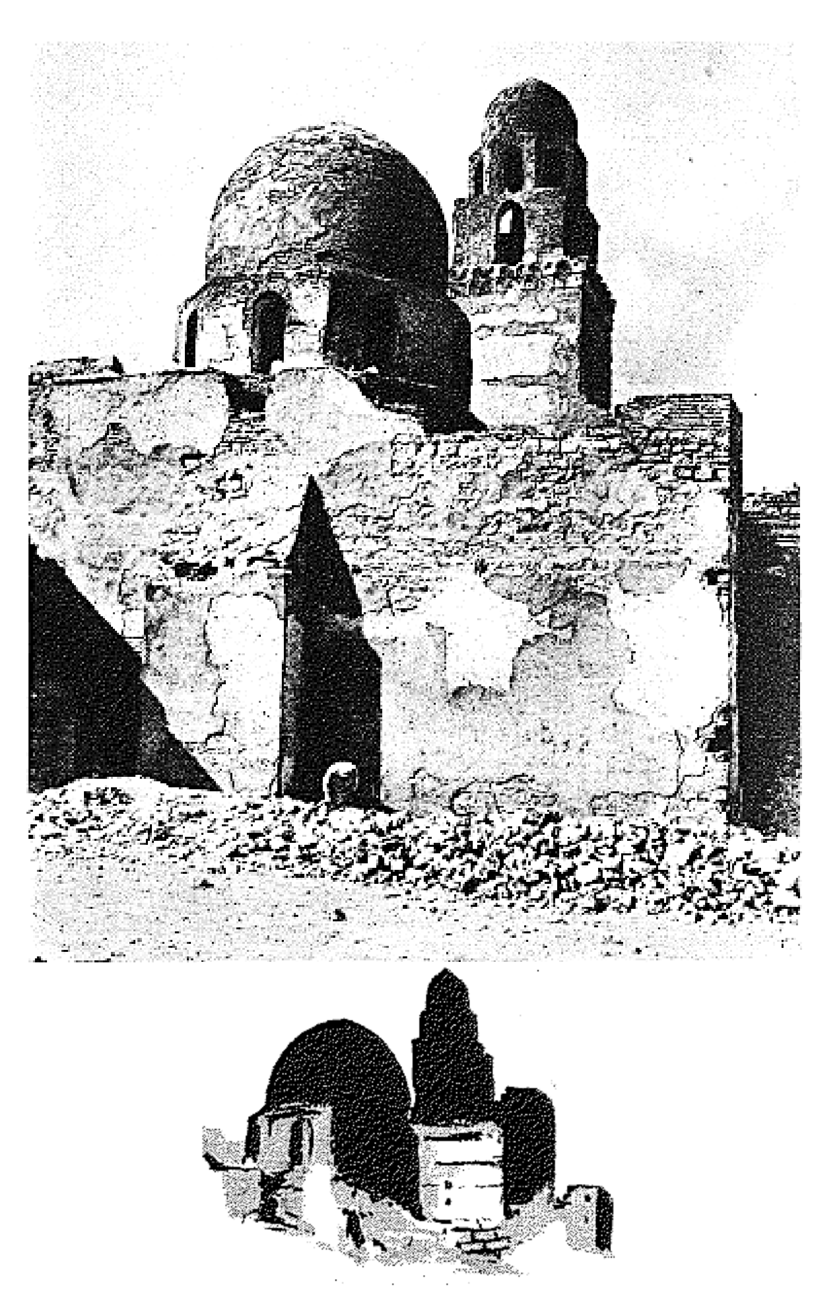
أما واجهة المحراب فمن خشب قرو، ومزخرفة بحشوات من ساج هندي وخشب زيتون على شكل نجوم وأشكال هندسية أخرى كثيرة الأضلاع، وغنية بما فيها من سيقان ووريقات دقيقة، ويحيط بالزخارف إطار من كتابة كوفية مشجرة تتضمن اسم زوجة الخليفة الآمر وهي التي أمرت بصنعه.



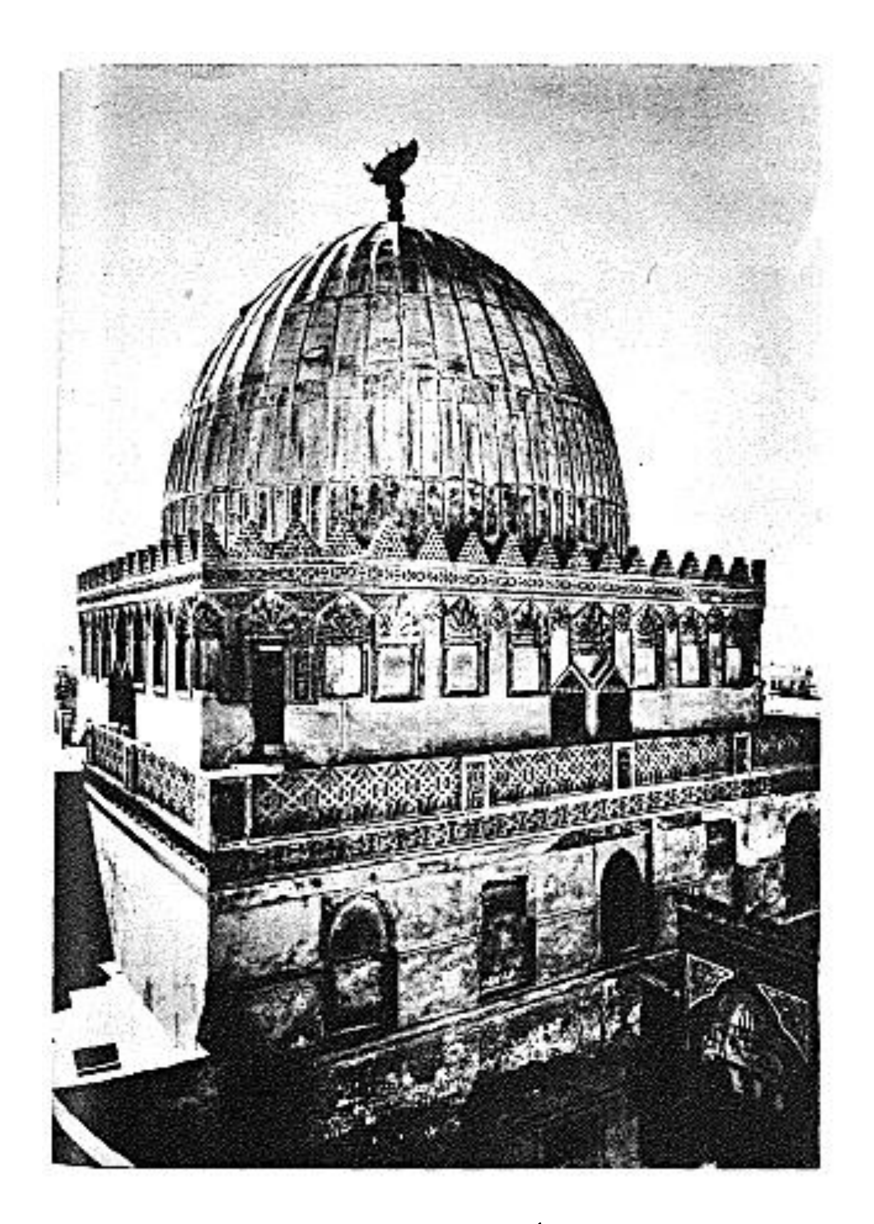
منظر عام لباب الفتوح وجزء من سور بدر الجمالي، وبعض المنازل المجاورة.



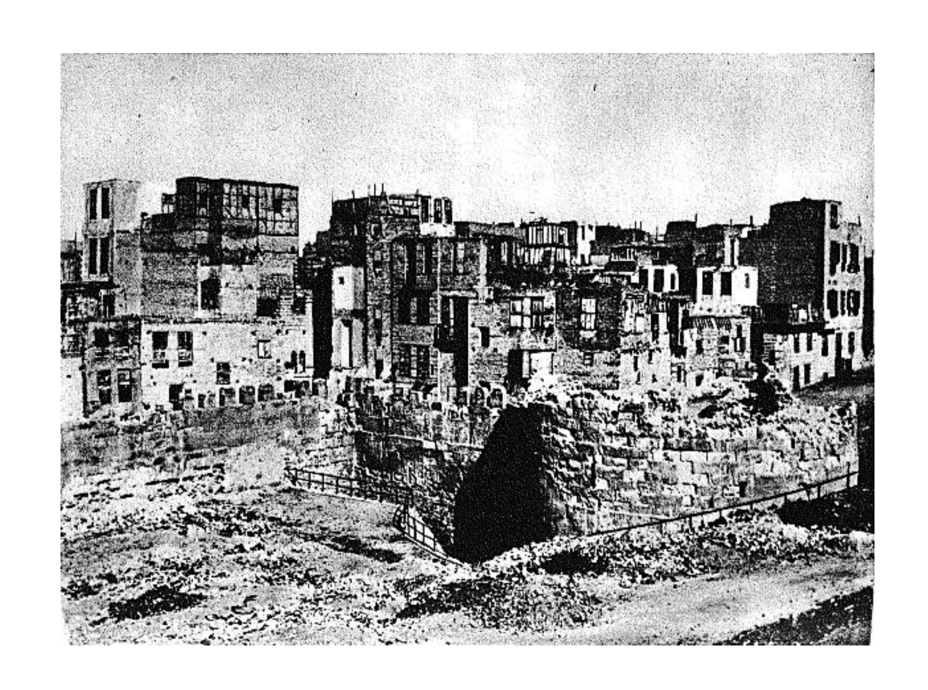
باب الفتوح من الداخل وترى الأبراج المستديرة من الحجر المنحوت والعقود الدائرية المحلاة بواطنها بزخارف هندسية، وعتب الباب المكون من صنج على هيئة السنارة.



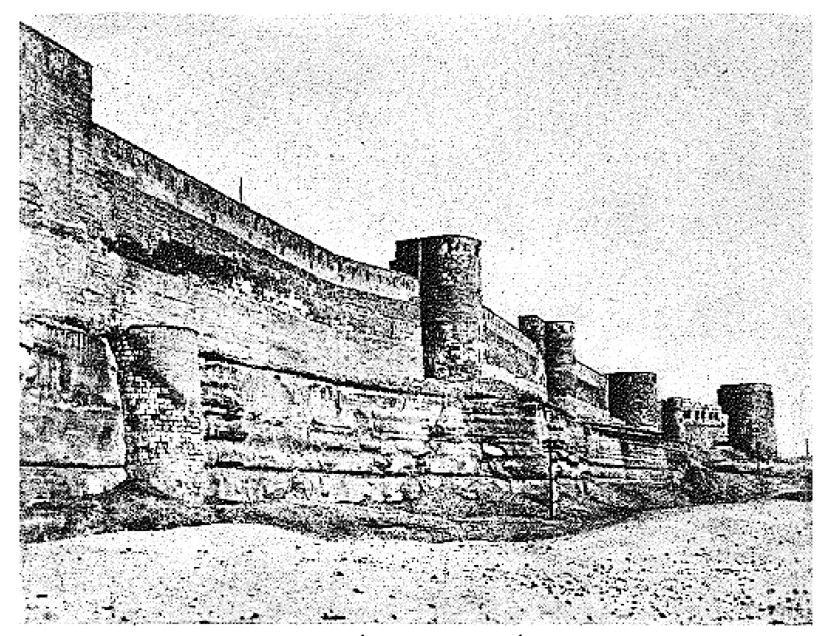
مسجد أو زاوية الجيوشي، فوق هضبة المقطم، وترى القبة الملساء فوق المحراب، والمئذنة المنتهية في أعلاها بقبة أيضا.



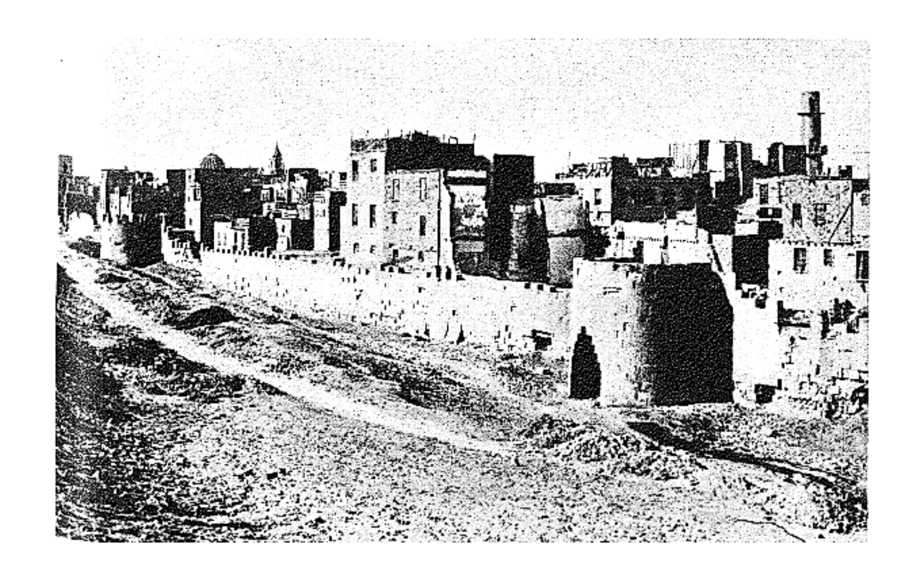
قبة الإمام الشافعي وهي من العصر الأيوبي، ومصنوعة من الخشب، وتشاهد الشرافات المسننة المفرغة بزخارف هندسية.

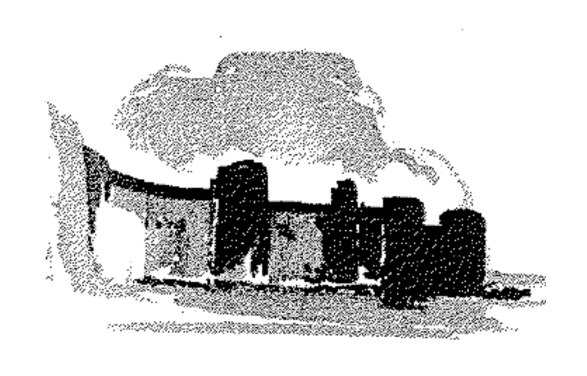


جزء من سور صلاح الدين.. ويرى به البرج المعروف ببرج الظفر.

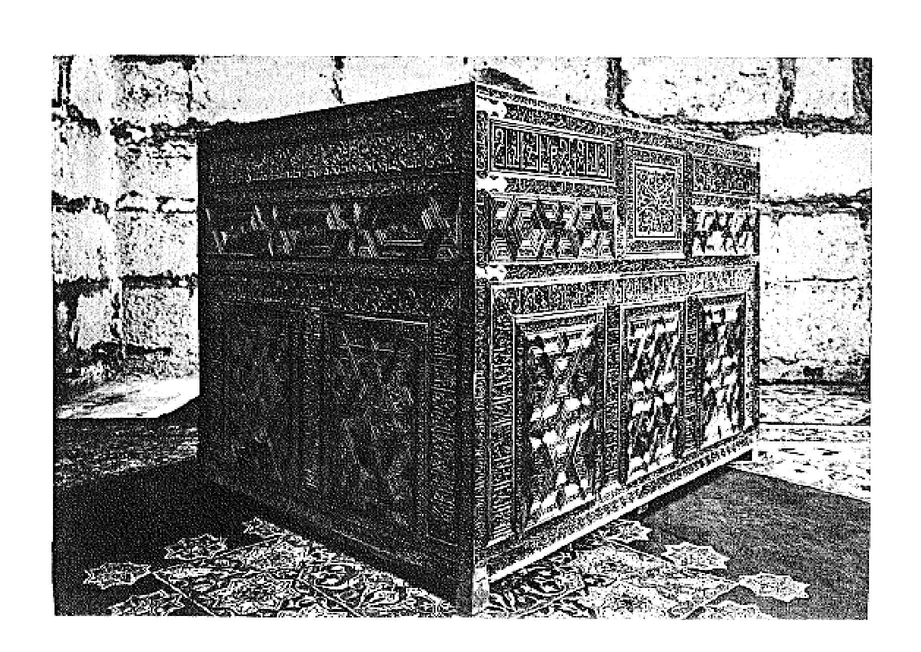


قلعة صلاح الدين الأيوبي (من مجموعة الأستاذ حسن عبد الوهاب).

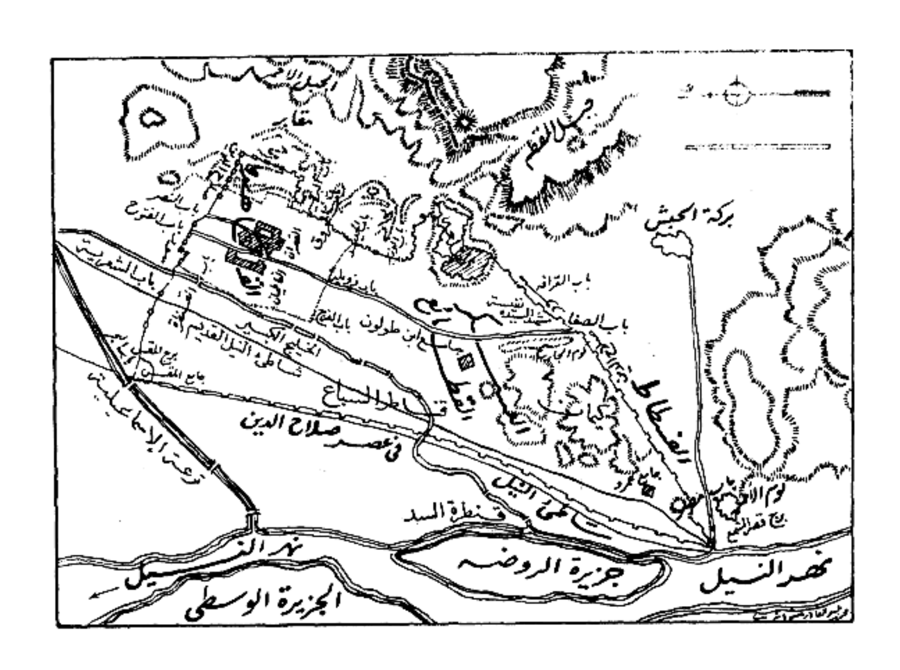




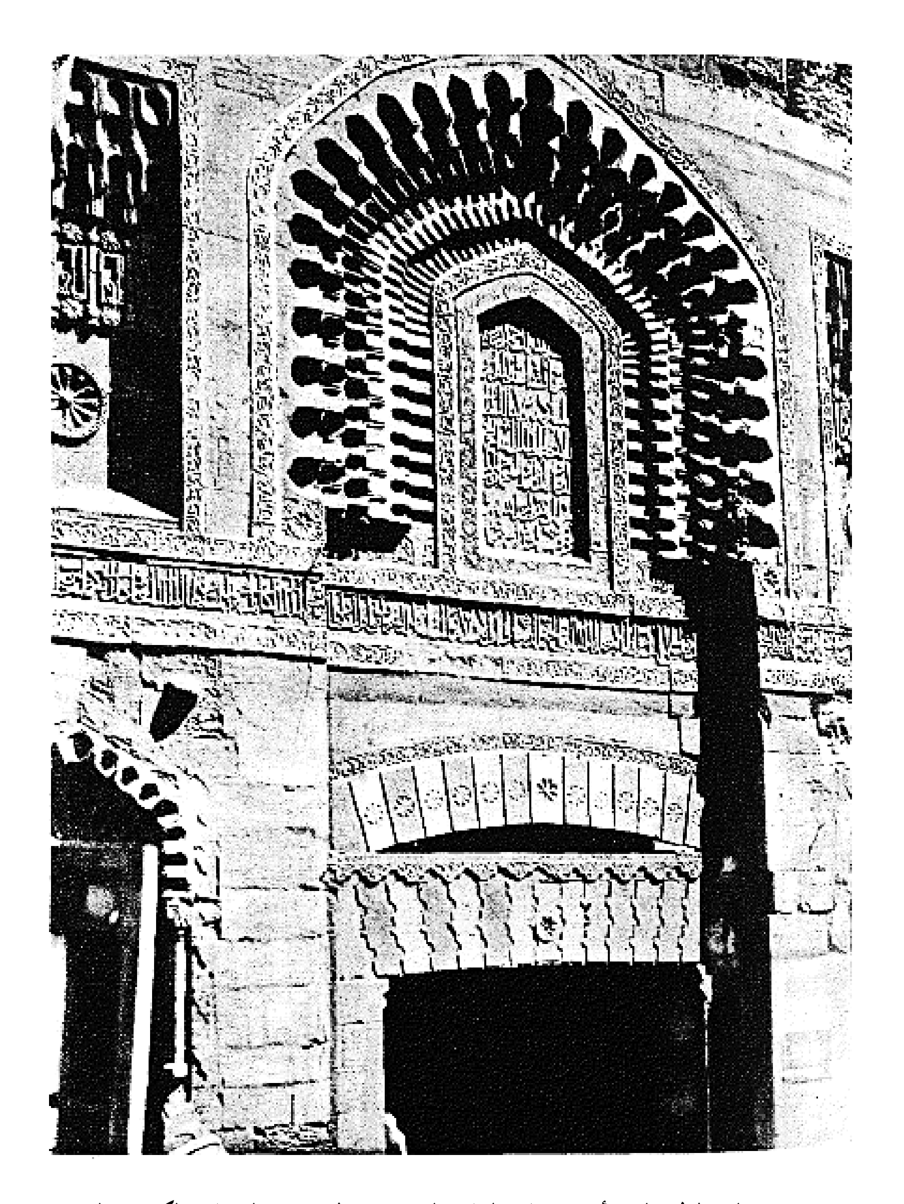
جزء من سور صلاح الدين الأيوبي ويرى فيه أحد الأبراج المستديرة.



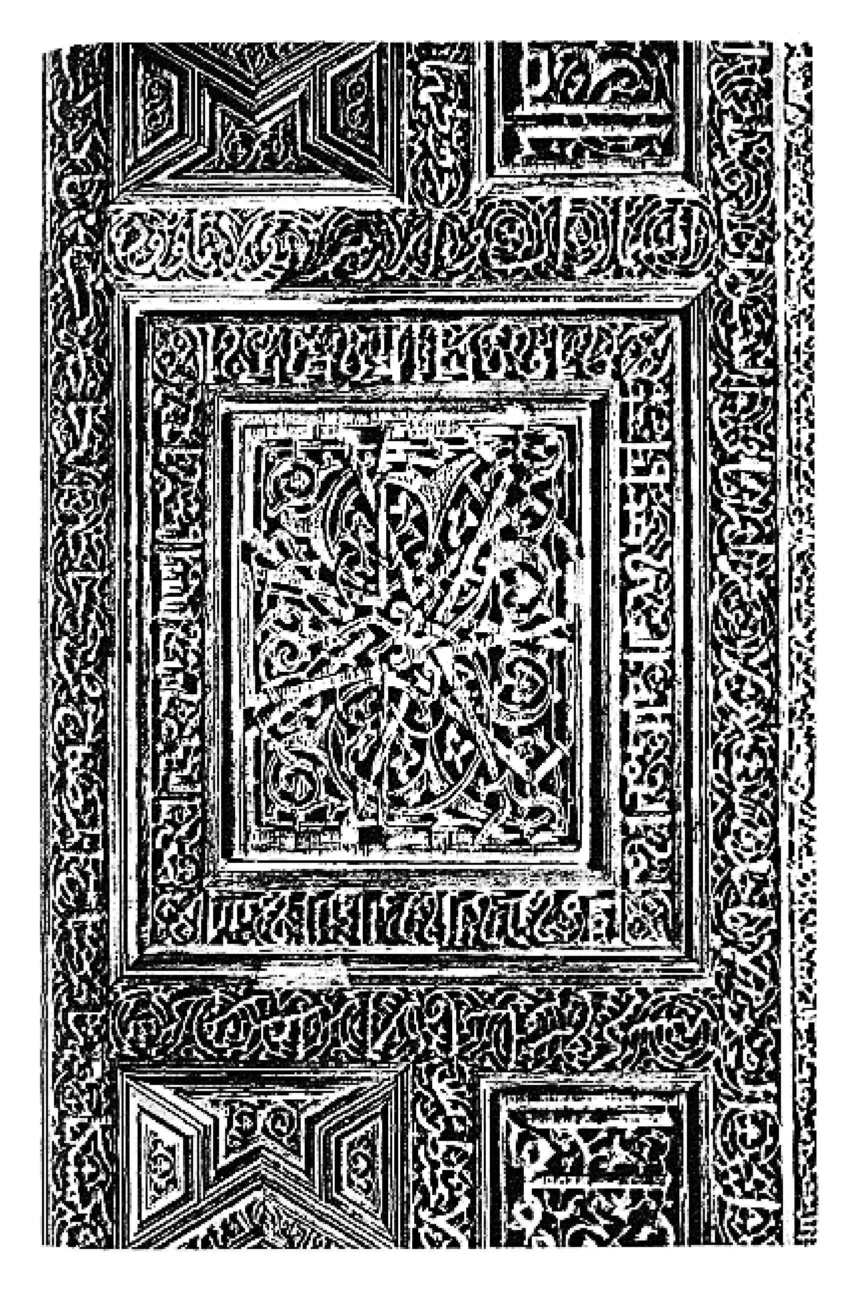
تابوت الإمام الحسين، وهو مصنوع من الخشب المحفور، ذو ثلاثة أوجه، محفوظ بالمتحف الإسلامي بالقاهرة ويرى في هذين الجانبين، كما في الجانب الثالث، مناطق تحبسها إطارات عليها كتابات بخط النسخ الأيوبي وبالخط الكوفي، على أرضية من الزخارف النباتية الدقيقة.



توضح هذه الخريطة مدينة القاهرة الموحدة في العصر الأيوبي (عن كازانوفا).



واجهة مدرسة الصالح نجم الدين أيوب، وتلاحظ فيها التجاويف والمقرنصات الزخرفية والكتابات النسخية، والصنج المعشقة والعقد المخفف.



قطعة من تابوت خشبي، أصلها من ضريح الإمام الشافعي، تتكون من حشوات صغيرة مزينة بزخارف نباتية محفورة بعمق عظيم ودقة فائقة.

وقد أصاب مصر في عهد هذه الدولة قحط، مما كان يتهدد البلاد دواما في العصور الوسطى من جراء انخفاض النيل، وافتقار الأرض إلى مياه الري، فيجف الزرع، ويقل القوت، وتنتشر المجاعة، ويعقبها حدوث الأوبئة التي تفتك بالناس، وتحصدهم حصدا. فإذا ما ارتفع النيل بعد ذلك لم يجد الأيدي التي تفلح الأرض، وتستنبت النبات، فيمتد القحط بالبلاد عدة سنوات، ربما بلغت سبعا، كما حدث في عهد المستنصر الفاطمي ما سبق وصفه قبل الآن.

القحط في حكم العادل:

وقد حدث في السنوات الأولى من حكم الملك العادل (٥٩٦ – ٦١٥هـ / ١٢٠٠ – ١٢١٨م) قحط، لا يقل هولا عما حدث في عهد المستنصر الفاطمي. وقد وصف عبد اللطيف البغدادي الذي عاصر الدولة الأيوبية هذا القحط بقوله: "يئس الناس من زيادة النيل، وارتفعت الأسعار، وأقحطت البلاد، وأشعر أهلها البلاء، وهربوا من خوف الجوع، وانضوى أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد، وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن، وتفرقوا في البلاد أيدي سبا، ومزقوا كل ممزق.

ودخل إلى القاهرة ومصر (الفسطاط) منهم خلق كثير، واشتد بهم الجوع، ووقع فيهم الموت، واشتد بالفقراء الجوع، حتى أكلوا الميتات والجيفة والكلاب والبعر والأرواث. ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم. فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون.

فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل، ورأيت صغيرا مشويا في قفة، وقد أحضر إلى دار الوالي، ومعه رجل وامرأة، زعم الناس أنهما أبواه، فأمر بإحراقهما"(٨).

وقد اجتاح الوباء أهل مصر «حتى إن القرية التي كان فيها خمسمائة نفس لم يتأخر سوى اثنين أو ثلاثة. وكانت الأزقة كلها بالقاهرة ومصر لا يرى فيها من الدور المسكونة إلا القليل. وعدمت الحيوانات جملة، فبيع فروج بدينارين ونصف دينار، وبيع الرأس الواحد من البقر بسبعين دينارًا.. فلما أغاث الله الخلق بالنيل، لم يوجد أحد يحرث أو يزرع. فخرج

الأجناد بغلمانهم، وتولوا ذلك بأنفسهم»[٩].

الحالة العلمية والثقافية

إحلال المذهب السني محل المذهب الشيعي:

تقدم القول أن صلاح الدين أخذ على عاتقه محو المذهب الشيعي من مصر. وبذلك يقضي على كل أثر للدولة الفاطمية فيها، ويقضي على كل أمل لهم في العودة إلى حكم مصر، إذ إن بقاء تلك الدولة كان مرهونا ببقاء مذهبها، وازدهاره في البلاد.

حقيقة إن صلاح الدين استعمل الشدة مع الفاطميين وأتباعهم، فطرد حرس الخليفة العاضد، وكانوا من السودانيين، إلى الخليج، وأعمل فيهم القتل والذبح مدة يومين، وحرق ثكناتهم، وكانت خارج باب زويلة، في الحي الذي يعرف بالمنصورية، والذي تحول بعد ذلك إلى حدائق كان يجتازها السلطان عند مسيره من القصر إلى القلعة الجديدة[١٠]، كما أخمد ثورة أخرى بالإسكندرية، إلا إنه عندما استتب له الأمر، وقبض على ناصية البلاد بيد قوية، شرع في القضاء على المذهب الشيعي، متبعا طريقة دلت على حكم سياسته، وسعة حيلته، واتساع أفق تفكيره، مبتعدا عن العنف والشدة في اقتفاء أثر معتنقي هذا المذهب، والتنكيل بهم.

وإنما اتبع سياسة يمكن أن نطلق عليها سياسة الإزاحة، أي إزاحة مذهب لإحلال مذهب آخر مكانه، فأزاح المذهب الشيعي، وعمل على إحلال المذهب السني مكانه. وأنشأ لذلك مدارس يدرس فيها الدين وفق المذاهب الأربعة، ولم يجد في ذلك كبير صعوبة. فالمذهب الشيعي وإن ساد مصر طوال حكم الفاطميين لها، إلا إنه لم يكن قد تأصلت جذوره في نفوس المصريين. إذ الواقع أن الفاطميين قد روجوا لمذهبهم هذا، تارة بطريق الشدة والإكراه، وطوروا بطريق الدعاية والإغراء، وإقامة الأفراح والولائم والأعياد. فلما أفل نجمهم لم يكن عسيرا حينئذ إعادة البلاد إلى حظيرة المذهب السني، الذي اعتنقه المصريون منذ الفتح الإسلامي سنة ٢٠ هـ (٦٤١م)، إلى وقت قيام الدولة الفاطمية سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م)، أي مدة نيف وثلاثة قرون.

المدارس:

لهذا السبب أنشأ صلاح الدين المدرسة الناصرية[١١] سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠م)، بجوار الجامع العتيق (جامع عمرو) لتعليم الدين، وفق المذهب الشافعي، وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد، وهي أول مدرسة أقيمت بمصر. وأنشأ في نفس السنة مدرسة أخرى بجوار الجامع نفسه، عرفت بالمدرسة القمحية[١٢]، لتعليم الدين وفق المذهب المالكي.

وإنما عرفت بهذا الاسم لأنه أوقف عليها ضيعة بالفيوم، يوزع قمحها على الطلاب وشيوخهم. وفي سنة ٥٧١ هـ (١١٧٦ م) أنشأ المدرسة الصلاحية، بجوار قبر الإمام الشافعي، برسم فقهاء الشافعية. وبنى مدرسة ثالثة، مجاورة للمشهد الحسيني[١٣]. وفي سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٧م) أمر بإنشاء مدرسة لتعليم الدين وفق المذهب الحنفي، هي مدرسة السيوفية [١٤] وهي أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر، وهي من جملة قصر الوزير المأمون البطائحي، ووقف على مستحقيها اثنين وثلاثين حانوتا، بخط سويقة أمير الجيوش وباب الفتوح وحارة برجوان.

كما أنشأ بالإسكندرية سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١م) مدرسة أخرى. ولكي يضمن ازدهار هذه المدارس، واستمرارها في أداء رسالتها، أوقف عليها كما رأيت الخيرات والأرزاق، وعنى بالطلاب والشيوخ على حد سواء.

وكما ابتدع صلاح الدين إنشاء المدارس في مصر، تلك المدارس التي أخذ خلفاؤه من بعده يتبارون في إنشائها، فإنه كان أول من أدخل تصميم بناء المدرسة إلى مصر، نقلا عن مدارس سوريا. وقد أخذ هذا التصميم في الانتشار أيضا من بعده حتى غلب تصميم المدرسة على المسجد، فأنشئ على مثالها الكثير من المساجد، حتى لو لمتخصص لتدريس المذاهب الأربعة[١٥].

وقد اندثرت هذه المدارس جميعا، ولم يبق لها اليوم أدنى أثر: فالمدرسة الصلاحية دخلت في بناء جامع الإمام الشافعي، والمدرسة التي كانت بجوار المشهد الحسيني أدخلت أيضا في هذا المشهد، وأصبح في محلها الإيوان الشرقي عند المحراب الحالي للجامع[١٦]

ومدرستا الشافعية والمالكية، بجوار جامع عمرو قد زالتا، وأصبح مكانهما أرض فضاء، في الجهة الشرقية، والجنوبية الشرقية، من الجامع المذكور، ومشغولة بقمائن الجير والفواخير(١٧).

المدارس في عهد خلفاء صلاح الدين:

ولم يبق من مدارس خلفاء صلاح الدين سوى الإيوان الشمالي الغربي من المدرسة الكاملية، الموجودة على الجانب الغربي من سوق النحاسين اليوم، بجوار جامع السلطان برقوق من بحريه. وكان قد أنشأها الملك الكامل بن العادل بين أيوب لتدريس الحديث سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥م)، لذا عرفت بدار الحديث الكاملية. وهي أول دار أنشئت بمصر لهذا الغرض، وثاني دار في الشرق بعد دار الحديث التي أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق. وقد بنى الكامل هذه الدار وأوقفها على المشتغلين بالحديث النبوي، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية. وتعرف اليوم باسم جامع الكاملية، أو جامع الكامل(١٨).

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل قد أنشأ سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ – ٤٤م) مدرسة خصصت لدراسة المذاهب الأربعة.

وهي أول مدرسة يجتمع يها تدريس المذاهب الأربعة. وكان إنشاؤها على قطعة أرض من جملة القصر الشرقي الفاطمي، مساحتها ٦٠٠٠ متر مربعا تقريبا، ودخل فيها باب الزهومة، أحد أبواب القصر، وكانت تتكون من قسمين: أحدهما على يمين الداخل من الباب العمومي، والثاني على يساره. وكان بكل قسم إيوانان، ويتوسط القسمين صحن كبير، ويدرس الطلاب بكل إيوان مذهبا من المذاهب الأربعة.

ولم يبق من مباني هذه المدرسة سوى واجهتها التي بها الباب العمومي، المشرف على شارع ما بين القصرين، وتعلوه مئذنتها. ولكن يحجب هذه الواجهة الأثرية الجميلة، الحافلة بالزخارف والكتابات، سبيل خسرو باشا وما يجاوره من دكاكين حقيرة بشارع بين القصرين(١٩).

وقد نقل الباب الخشبي لهذه المدرسة إلى المتحف الإسلامي، بميدان أحمد ماهر بالقاهرة.

وقد تخلف من الجزء البحري الإيوان الغربي، الملاصق لتربة منشئ المدرسة، وبقايا بسيطة من الإيوان الشرقي. أما النصف القبلي فقد اغتصبت أواوينه، ولم يبق منه سوى الواجهة، وتحتله وكالة الجواهرجية[٢٠].

الأدب والثقافة:

وقد كان للأدب والثقافة في دولة بني أيوب شأن أي شأن، ذلك لأن صلاح الدين كان لا يجالس سوى الأدباء والفقهاء والعلماء. ويجزل لهم العطاء، ويصلهم بالمنح والمكافآت. بل إن وزارته كانت تضم اثنين من كبار الأدباء: أحدهما القاضي الفاضل، والآخر عماد الدين الكاتب الأصفهاني، اللذان اشتهرا بحسن الأسلوب، ورشاقة الرسائل. وكان آخر سكرتير خاص له بهاء الدين بن شداد الذي كتب تاريخ حياته.

"وقد كانت تحيط به جمهرة من الأذكياء، الذين لم يقتصروا على وزرائه الباهرين، بل كانت تضم أيضا أشخاصًا متميزين، كطبيبه اليهودي ابن ميمون، والعالم المبدع العراقي عبد اللطيف البغدادي (١١٦٢–١٢٣١م)، الذي يعتبر وصفه القصير لمصر من أهم المؤلفات الطبوغرافية التي كتبت في العصور الوسطى"[٢١].

عماد الدين الكاتب:

وقد كان العماد كاتبا مجيدا، وشاعرا مفلقا، ومؤرخا عالما، وله مؤلفات كثيرة منها «كتاب خريدة القصر، وجريدة العصر» جمع فيه تراجم شعراء الشام والعراق ومصر والجزيرة والمغرب وفارس، وهو يدخل في عشرة مجلدات. وكتاب «البرق الشامي، والفتح القسي في الفتح القدسي»، وكتاب «السبيل على الذيل ونصرة الفِطرة وعُصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية». وقد رثا صلاح الدين بقصيدة عامرة جاء فيها:

شمـــلُ الهـــدى والملـــك عـــم شـــتاته	**والـــدهرُ ســـاء وأقلعـــت حســـناته**
بالله أيـــن الناصـــر الملـــك الـــذي	**لله خالصـــــة صـــــفت نياتـــــه**
أيـــن الـــذي مُـــذْ لم يـــزل مخشـــيةً	**مرجـــــوةً رهباتـــــه وهِباتُـــــه**
أيـــن الـــذي كانـــت لـــه طاعاتنـــا	**مبذولـــــة ولِرَبِّـــــه طاعاتـــــه**

أيـــن الـــذي مـــا زال ســـلطانا لنـــا يرجـــى نـــداه وتُتَقـــى ســـطواتُه

أيـــن الـــذي شـــرف الزمـــان بفضـــله وسَمَـــت علـــى الفضـــلاء تشـــريفاتُه

لا تحســـبوه مـــات شخصـــا واحـــدا قـــد عـــمَّ كـــل العـــالمين مماتـــه

مَلِـــك عـــن الإســـلام كـــان محاميـــا أبـــدا لمـــاذا أســـلمته حُمَاتُـــه

القاضي الفاضل:

أما القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، فقد كان شاعرا فحلا، استشهد علماء البديع بكثير من شعره في أنواع كثيرة. ومن شعره الذي جرى مجرى الأمثال قوله:

وإذا الســـعادة لاحظتـــك عيونهـــا نَمْ فالمخـــاوف كلهـــن أمـــان

واصـــطد بهـــا العنقـــاء فهـــي حبائـــل واقتـــد بهـــا الجـــوزاء فهـــي عِنـــان

وقال فيه ابن خلكان: "وبرز في صناعة الإنشاء، وفاق المتقدمين، وله فيه الغرائب مع الإكثار. أخبرني أحد الفضلاء الثقاة المطلعين على حقيقة أمره أن مسودات رسائله في المجلدات، والتعليقات في الأوراق، إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد، وهو مجيد في أكثرها".

وكفاه فخرا ما كان يقوله فيه صلاح الدين: «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل»[٢٢].

ومن شعراء هذا العصر الشيخ شرف الدين أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي المعروف بابن الفارض الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، الصالح الشاعر المشهور، أحد البلغاء الفصحاء الأدباء. يُروى أن الملك محمد الكامل أراد أن يصله بالعطاء فأبى. كما أنه رفض مقابلته. وقد قصد الملك الكامل إلى داره، وذلك لزهده وبعده عن زخرف الدنيا. وله ديوان شعر، جمع أشهر قصائده.

ومن عيون تلك القصائد قصيدته البائية التي منها:

سـائق الأظعـان يطـوي البيـد طـي	مُنعمًـا عـرِّج علـى كثبـانِ طَـي
وبـذاتِ الشـيخ عـني أن مـرر	ت بحـيٍّ مـن عُرَيْـب الجـزع حـي
وتلطـف وأجـر ذِكـري عنـدهم	عَلهـم أن ينظـروا عطفـا إليَّ
قُـل تركـتُ الصَّـب فـيكمُ شـبحا	مـا لـه ممـا بـراه الشـوقُ فِي

ومن مقطعات شعره قوله:

وحيـاة أشـواقي إليـ	ـك وحرمـة الصـبر الجميـل
لا أبصـرت عيـني سـواك	ولا صـبوتُ إلى خليـل

وقد توفي بالقاهرة في جمادى الأولى سنة ٦٣٢هـ (يناير سنة ١٢٣٥) ودفن بجهة الأبجية بسفح المقطم، بمسجده المعروف بمسجد عمر بن الفارض[٢٣].

عبد اللطيف البغدادي:

أما عبد اللطيف البغدادي فقد ولد في بغداد سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢م)، ودرس الطب والفلسفة وعلوم اللغة، وتنقل بين مصر والشام والعراق، واتصل بصلاح الدين وغيره من الأمراء الأيوبيين، واجتمع بأعلام الأساتذة، ولم يكن «يأخذ بقلبه ويملأ عينه» إلا النفر القليل منهم. وقد لقي القاضي الفاضل في معسكر صلاح الدين بظاهر مدينة عكا، فأرسله إلى مصر بتوصية منه إلى وكيله، ولكن عبد اللطيف لم يلبث أن غادر مصر، ورحل إلى القدس للقاء صلاح الدين، ثم يمم شطر دمشق. وقدم مصر ثانية بعد وفاة صلاح الدين، واشتغل بالتدريس في الأزهر.

ومن مؤلفاته كتاب «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، وهو يشتمل على وصف رحلته إلى وادي النيل في نهاية القرن السادس الهجري «الثاني عشر الميلادي»، وهو على اختصاره يمتاز بدقة الوصف والاتجاه العلمي. وليس هذا بعجيب من عالم طبيب كالبغدادي. وقد وصف فيه خواص مصر العامة، وما تختص به من

النبات والحيوان، وما فيها من الآثار القديمة مثل الأهرام وأبي الهول والمسلات والمعابد في مصر العليا، ومنارة الإسكندرية وعمود السواري(٢٤).

موسى بن ميمون:

وموسى بن ميمون، ويعرفه العرب بأبي عمران عبيد الله، فهو يهودي الأصل، ولد في مدينة قرطبة بالأندلس سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥م)، ولما شب تلقى العلم على علماء قرطبة وفلاسفتها من مسلمين ويهود، ثم نزح إلى بلاد المغرب سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) وأقام بمدينة فاس، ثم رحل إلى عكا بفلسطين سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥م)، وبعد أن أقام بها نصف سنة رحل إلى مصر في أواخر عهد الدولة الفاطمية، وقد ظل بها إلى حين وفاته سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤م)، وقد أقام بمدينة الفسطاط يلقي المحاضرات في علوم الرياضة والفلك والفلسفة.

وقد شهد سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية، وعاصر أكثر ملوكها، وقام بتطبيبهم وتطبيب أفراد أسراتهم، ومداواة الناس على اختلاف مللهم ونحلهم. ولم يمنعه كل ذلك عن التدوين والتصنيف في الفلسفة والطب والمنطق والدين اليهودي. وقد انتهى به الأمر إلى أن أصبح رئيس الطائفة اليهودية بمصر(٢٥).

الحالة الفنية

انطبع العصر الأيوبي كما رأيت بالطابع الحربي، الذي استلزمته مقاومة الصليبيين، والقضاء على أطماعهم. كما انطبع بالطابع السني، وقد استلزم ذلك أيضا حماية البلاد من عودة الفاطميين إلى امتلاكهم مصر، ونشر تعاليمهم فيها، وكان لذلك كله أثره الواضح في سير الفنون واتجاهاتها.

المباني:

ففي المباني انتشر بناء الأسوار والقلاع والحصون. وقد أتينا قبل الآن على وصف قلعة صلاح الدين وأسوار القاهرة وما تخللها من أبراج وحصون. وكل ذلك لتحصين البلاد ضد الخطر الصليبي، الذي كان يهدد البلاد في ذلك العهد.

المدارس:

كذلك انتشر بناء المدارس، لتعليم الدين وفق المذاهب الأربعة، دفعا للمذهب الشيعي، وقضاء عليه. وقد استتبعت هذه السياسة الدينية الجديدة إجراء تعديل في تخطيط المسجد. فقد كان المألوف في تصميم المسجد، قبل إنشاء هذه المدارس، أن يتكون من أربعة أواوين، مسقوفة في الغالب، ومحمولة عقودها على عمد أو أكتاف، أكبرها إيوان القبلة.

ويتوسط الأواوين صحن مكشوف تتوسطه أحيانا قبلة تحتها فسقية. أما تصميم المدرسة فيشتمل على إيوانين أو أربعة أواوين معقودة متقابلة، تكون شكلا متعامدا (Cruciform)، أكبرها إيوان القبلة، وأصغرها الإيوانان الجانبيان. ويتوسطها غالبا صحن مكشوف به قبة الفسقية، ويلحق به عادة مدفن للمنشئ، وسبيل يعلوه كتَّاب، ومساكن للطلاب.

ولما صغر حجمها غطى الصحن، واستغنى عن الفسقية وعن قبتها. وقد ساد هذا التصميم في عصر المماليك[٢٦].

ركود الفنون:

وقد كان لتمسك الأيوبيين بالسُّنَّة وتعاليمها، وعدم استباحتهم لأنفسهم ما استباحه الفاطميون في تعاطي الفنون أثر كبير في ركود الفنون بوجه عام. وإن كانت قد ازدهرت في بعض نواح مثل الحفر على الأخشاب، والخزف المطلي بالمينا.

الأخشاب المحفورة:

أما الحفر على الأخشاب فقد بلغ الذروة في عهد الأيوبيين، يرى ذلك في ثلاثة توابيت: أحدها على قبر الإمام الشافعي، والثاني على قبر الملكة شمس، زوج صلاح الدين، الموجود بجانب قبر الشافعي، والثالث كان موضوعا فوق قبر الإمام الحسين –رضي الله عنه–، وهو الآن موجود بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.

وهذه التوابيت الثلاثة، المتخلفة عن العصر الأيوبي، تتكون من ترابيع خشبية، قوامها حشوات صغيرة، يربط بعضها البعض «سقاسات» من الخشب. ويحيط بهذه الترابيع في مجموعها شريط من كتابات كوفية، يليه شريط آخر من كتابات نسخية. وقوام الزخرفة في هذه الحشوات فروع نباتية، وأوراق ذات فصوص، وبعض عناقيد العنب، وهي تذكرة إلى حد كبير بالزخارف الموجودة على جوانب محراب السيدة رقية وفي ظهره.

الأبواب:

وبقية ضريح الإمام الشافعي، وكذلك بمسجد الإمام الليث بابان يرجعان إلى العصر الأيوبي، مؤرخان سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ – ١٢م)، وقوام الزخرفة في هذين البابين أطباق نجمية تتكون من الحشوات الصغيرة المدقوقة «أيْمَه» تحيط بها السقاسات، مما مهد لانتشار هذا النوع من التصميم في الأبواب أيام المماليك. ويوجد بالمتحف الإسلامي باب مخلف من قبة الإمام الشافعي مصفح بالنحاس، مثبت به حشوات نحاسية في أطباق نجمية، وقوام الزخرفة في هذه الحشوات أوراق وفروع نباتية.

والحشوات هنا مسطحة ليس بها بروز، وهذا الباب هو النموذج الثاني من نوعه، إذ أن النموذج الأول هو باب مسجد الصالح طلائع المنشأ سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م)، والموجود الآن بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.

الأبواب النحاسية:

ولقد كان ظهور مثل هذه الأبواب النحاسية تمهيدا لانتشار مثل هذه الأبواب ذات الحشوات البارزة في أيام المماليك. وخير مثل لهذا النوع من الأبواب الباب النحاسي

لمسجد السلطان حسن سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢– ٦٣م)، والذي نقله المؤيد سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥م) إلى مسجده الذي فرغ من بنائه في نفس السنة، والقائم خلف باب زويلة.

الخزف:

ويظهر في العصر الأيوبي نوع جديد من الخزف، والزخرفة في هذا النوع الجدد، منقوشة تحت الطلاء، والكتابة عليه بالخط النسخي، وهو يخالف الخزف الفاطمي أو الطولوني، المعروف بالخزف ذي البريق المعدني **Lustre Pottery**، والذي كانت الكتابة عليه بالقلم الكوفي.

ويوجد بالمتحف الإسلامي بالقاهرة قطع من الخزف الأيوبي، منها: قطعة قوام زخرفتها رسم باللونين الأزرق والأسود، يمثل شخصين في قارب مزين بمربعات سوداء وزرقاء، وأخرى قوام زخرفتها رسم حيوان باللون الأسود، وتمتاز بتصرف وحرية، يجعلانه يشبه بعض الرسوم الزخرفية في العصر الحديث، وثالثة عليها رسم أرنبين باللون الأزرق الفاتح، وكل منها يولي الآخر ظهره، وبينهما رسوم زهور باللون الأحمر، ومما يلفت النظر في هذه التحفة التماثل والتقابل في رسم الأرنبين، ثم الحركة التي تبدو فيهما، ورقّة الرسوم النباتية.

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٢.

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٠.

(٣) الخطط للمقريزي جـ ٣ ص ٣٢٩.

(٤) انظر الدليل الموجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة تأليف الأستاذ محمود أحمد ص ٧٩ – ٨٢.

(٥) المصدر السابق ص ٨٥.

(٦) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص.

(٧) الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة، بأرض مصر، لعبد اللطيف البغدادي، طبعة المجلة الجديدة بالقاهرة ص ٥٣، ٥٤.

(٨) كتاب عبد اللطيف البغدادي في مصر، مع المجلة الجديدة ص ٦٢ وما بعدها.

(٩) إغاثة الأمة بكشف الغمة لتقي الدين المقريزي، نشر الأستاذين زيادة الشال ص ٣٠ – ٣١.

(١٠) سيرة القاهرة لستانلي لين بول ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن ص ١٦٠ – ١٦١.

(١١) المقريزي: الخطط ج ٤ ص ١٩١.

(١٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١٩٢.

(١٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص٥٥.

(١٤) الخطط للمقريزي ج ٤ ص١٩١.

(١٥) تاريخ المساجد الأثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب ج ١ ص ١٤.

(١٦) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٤ حاشية رقم ٢٥.

(١٧) نفس المصدر ج ٥ ص ٣٨٥ الحاشيتان ١٠، ٢٥.

(١٨) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٩ حاشية رقم ٥.

(١٩) الدليل الموجز لأشهر الآثار العربية للمرحوم الأستاذ محمود أحمد ص ٩٧.

(٢٠) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤١ حاشية رقم ١.

(٢١) تاريخ العرب تأليف فيليب حتى ترجمة المرحوم الأستاذ مُحَّد مبروك نافع ص ٨٥٦.

(٢٢) النجوم الزاهرة ج ٦ص ١٥٧.

(٢٣) جلاء الغامض في شرح ديوان الفارض ص ٥ – ٧ وشذرات الذهب، ج ٥ ص ١٤٩.

(٢٤) طبع هذا الكتاب مؤخرا في القاهرة تحت عنوان «عبد اللطيف البغدادي في مصر» بمطبعة المجلة الجديدة.

(٢٥) موسى بن ميمون تأليف الدكتور إسرائيل ولفنسون ص ٢٣.

(٢٦) تاريخ المساجد الأثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب ص ١٤.

الباب السادس

القاهرة في عهد المماليك

ـ ١ ـ

لما تولَّى المَلك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، سابع ملوك الدولة الأيوبية، سلطنة مصر في ٢٥ ذي العقدة سنة ٦٣٦ (أول يوليو سنة ١٢٣٩) استكثر من شراء المماليك، وجعل منهم أمراء دولته، وخاصة بطانته، والمحيطين بدهليزه، ودعاهم بالحَلَقة، إشارة إلى أنه لا يبرح محاطا بهم كيفما توجه، كما فعل الخليفة المعتصم العباسي، من الاستكثار من المماليك الأتراك. وأنشأ لهم في جزيرة الروضة سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠ – ٤١م)، قلعة قرب المقياس، عرفت بقلعة الروضة. وقد أنفق في عمارتها أموالا كثيرة، حيث بنى فيها الدور والقصور، وعمل لها ستين برجا، وبنى بها جامعا، ثم اتخذها دار ملك، وسكن فيها بأهله وحرمه، وأسكن فيها مماليكه. وكانت عدتهم نحو ألف مملوك. وقد عرفوا بالمماليك البحرية، لسكناهم هذه الجزيرة الواقعة في (بحر) النيل. وقد درست هذه القلعة بما كان فيها، ولم يبق لها أثر اليوم[1].

وتوفي الصالح في ١٤ شعبان سنة ٦٤٧ (نوفمبر سنة ١٢٤٩) بالمنصورة، في أثناء قتاله ضد حملة لويس التاسع، فأخفت جاريته شجرة الدر، أو شجر الدر، خبر وفاته، وكانت أمَة تركية أو أرمنية من بين نساء الخليفة المستعصم العباسي، ثم دخلت في خدمة الملك الصالح، الذي أعتقها بعد أن أنجبت له ولدا يسمى خليل. وكانت امرأة أريبة، راجحة العقل، بعيدة النظر، كثيرا ما عهد إليها الصالح بإدارة الأحكام، في أثناء غيابه في حملاته الحربية، فلما رأت دقة موقف الجيش المصري، وهو يحارب الأعداء، وخشيت وقوع الفرقة

والاضطراب بين قواده إذا هم علموا بوفاة الملك الصالح، كتمت هذا الأمر، وأخذت البيعة لابنه الملك المعظم غياث الدين توران شاه، واستقدمته على جناح السرعة، وكان متغيبا بالشام. فحضر وقاد الجيش ضد الفرنسيين حتى هزم لويس التاسع، واندحر جيشه.

ولما أراد توران شاه أن يكافئ مماليكه الذين أحضرهم معه من الشام، وقدم بعضهم على مماليك أبيه، وكان هؤلاء ذوي أنفة وغطرسة، لا يطأطئون الرأس لأحد، ويرون أنفسهم أحق بملك مصر، لما أحرزوه من نصر على الفرنسيين، ولما اشتدت إهاناته وتحقيره لهم، وثب به أربعة منهم وفتكوا به. ويمكن القول أنه منذ هذه اللحظة بدأت تبزغ إلى الوجود دولة المماليك البحرية.

فلما رأت شجرة الدر ما حل بتوران شاه، ورأت كفة المماليك هي الراجحة، تواطأت مع عز الدين أيبك التركماني، أتابك العسكر "القائد العام للجيش"، وكان أقوى المماليك نفوذا، وأعظمهم شأنا، وكان يربطها به ود قديم منذ أيام الملك الصالح، فأخذت لنفسها البيعة من الأعيان والأمراء، وقبضت على ناصية الأمور في ١٠ صفر سنة ٦٤٨ (مايو سنة ١٢٥٠)، وتكنَّت بعصمة الدين أم خليل، ونقش اسمها على النقود، ودُعِي لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة بما نصَّه: "احفظ اللهم الجهة الصالحية، ملك المسلمين، عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجميل، والستر الجليل، والدة المرحوم خليل المستعصمية، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب"(٢). وعينت عز الدين أتابكا عندها، لتدبير المملكة.

ولكن الأمر لم يستقم لها طويلا، إذ لم يحدث قبل ذلك أن حكمت المسلمين امرأة، وعاب الخليفة المستنصر العباسي ذلك على أهل مصر، وقد كانت شجرة الدر كما تقدم، إحدى جواريه، قبل أن يشتريها الصالح، فبعث برسالة لاذعة إلى أمراء مصر، يقول لهم فيها: "إن كان الرجال قد عدموا عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا"، فخلع المماليك طاعتها، ووثب إلى العرش عز الدين أيبك التركماني، وبويع بالسلطنة في آخر ربيع الثاني سنة ٦٤٨ (يولية سنة ١٢٥٠)، ولُقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالحي. وتزوج من شجرة الدر، وينسب إليها أنها أول من أرسلت المحمل من مصر إلى مكة.

عزَّ على شجرة الدر أن ينفرد أيبك بالملك من دونها، وأن يشرع في الزواج من سيدة أخرى، فيقضي على مركزها كسيدة مصر الأولى، ويلقي بها في زوايا النسيان، فأكل الحسد أحشاءها، وسرعان ما دبرت له مؤامرة، فانقض عليه نفر من عبيدها، وقتلوه وهو في الحمام.

فلما تولى المُلك ابنه نور الدين علي، قبض على شجرة الدر، وعهد بها إلى نساء بيته، فانهلن عليها ضربا بالقباقيب، حتى لفظت أنفاسها، وألقي بجثتها في خندق بالقلعة، وأخيرا دفنت قرب مدفن السيدة نفيسة.

-٢-

القاهرة في عهد المماليك البحرية

امتدت القاهرة في عهد المماليك البحرية صوب الشمال، في الريق التي رسمها لها صلاح الدين الأيوبي من قبل، فهدموا ما تبقى من القصرين الفاطميين الكبيرين، كذلك لم يتركوا قطعة أرض فضاء، داخل حدود القاهرة، من جنوبيها إلى شماليها، إلا وأقاموا فيها الجوامع والمدارس والأضرحة والحمامات والوكالات والأسبلة، ولم تقف في وجوههم الأسوار الشمالية، بل تخطوها وبنوا المساجد الفخمة. واقتفي أثرهم المماليك الشراكسة أو البرجية، فعمروا الصحراء وشيدوا فيها المساجد والأضرحة، كما سيجيء شرح ذلك قريبا.

والواقع أن القاهرة ازينت، ولبست أبهج حللها في عهد المماليك، الذي يعتبر العصر الذهبي في تاريخ العمارة بمصر. فقد كان الإقبال عظيما على الإنشاء والتعمير، ولا غرو في ذلك، فقد عم الرخاء في عهدهم، وامتلأت خزائنهم بالأموال، لما كانت تدره عليهم التجارة الشرقية من ثروات، وما كانوا يجبونه عليها من مكوس عند دخولها مصر أو خروجها منها. فعاشوا عيشة البذخ والترف، وتسابقوا، سلاطين، وأمراء، ووزراء، في إقامة المساجد الفخمة، والقصور الشاهقة، واقتنوا أجمل التحف وأغلاها، وما تزال القاهرة تحتفظ بكثير من تحفهم، التي تشهد ببراعة الصناع، وتفوق الصناعة وتقدمها في عهدهم، وحياة الترف

والبذخ التي كانوا يحيونها.

كذلك امتدت القاهرة صوب الغرب والشمال الغربي، بما طرحه النيل من أرض كونها الطمي، الذي يأتي به النيل مع مياه الفيضان كل عام، فنشأت أرض اللوق وجزيرة الفيل، التي قامت عليهما فيما بعد أحياء بولاق وشبرا وروض الفرج والإسماعيلية وباب اللوق.

أراضي اللوق:

كان يطلق هذا الاسم على الأراضي الممتدة غربي القاهرة، والتي يحدها اليوم شارع قنطرة الدكة من الشمال، ومستشفى قصر العيني وشارع البستان الفاضل من الجنوب، وشارع رمسيس (الملكة سابقا) من الغرب. وينحرف هذا الحد إلى قصر النيل عند مبنى مصلحة المجاري، ويسير بمحاذاة النيل، حتى كوبري مُحَمَّد علي. وتحد شرقا بشارع الخليج المصري (شارع بورسعيد حاليا)، فشارع نوبار «باشا» (الدواوين سابقا)، وينثني هذا الحد إلى الشرق عند التقائه بشارع الشيخ ريحان، حتى يتصل بشارع مُحَمَّد (بك) فريد (شارع عماد الدين سابقا)، ثم يستقيم شمالا حتى شارع قنطرة الدكة، وهو الحد الشمالي السابق ذكره.

وهذا الحد الشرقي لأرض اللوق، كان الشاطئ الشرقي للنيل، تجاه القاهرة حتى سنة ٦٩ هـ (٦٨٨م).

وقد كان النيل يغمر هذه الأراضي وقت الفيضان. فإذا ما انتهى الفيضان تنكشف هذه الأراضي بعد صرف المياه عنها، ويأخذ الناس في زرعها دون حرث، لليونتها، وإنما تُلاقُ لوقا، كما يفعل بأراضي الملق بالوجه القبلي، وهذا هو سبب تسميتها بأرض اللوق.

وقد انحسر النيل عن هذه الأراضي فيما بين سنتي ٣٣٠ هـ، ٥٦٠ هـ (٩٤١ – ١١٦٤م) وأصبحت أرضا زراعية، أنشئ بها كثير من البساتين والمنشآت مثل منشأة القاضي الفاضل، وبستان ومنشأة ابن ثعلب، وبستان ومنشأة الكتبة وغيرها. ولم يحدث بها بناء إلا منذ عهد الظاهر بيبرس البندقداري في سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١م). ومع أن ما شيد من الأبنية كان قليلا فقد تهدم في نهاية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي).

وإنما أخذت في العمار في عهد الخديو إسماعيل (القرن الثالث عشر الهجري= التاسع عشر الميلادي)، حيث شيدت بها كثير من المباني والعمائر الفخمة، ونشأت أحياء الإسماعيلية والتوفيقية[٣].

بولاق:

وظهر في النيل سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١م) أمام أرض اللوق جزيرة كبيرة[٤] ، أنشئت على جزء منها قرية بولاق سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ – ١٣١٤م). وما لبثت أن اتصلت الجزيرة بشاطئ النيل، وصارت الطريق من اللوق إلى بولاق «سالكة»، وصرح الملك الناصر مُحَمَّد بن قلاوون بالعمارة والبناء في تلك الأراضي، فتسابق الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة في البناء، وأنشأوا على النيل الدور والقصور والبساتين. وتكون من مجموع ذلك بلدة جديدة هي بولاق. ولم تتصل بولاق بمدينة القاهرة إلا في زمن الخديو إسماعيل، حينما أخذت تتسع فيها العمائر وتمتد المباني صوب الشرق.

كذلك اتصل ما بين المقس[٥] (ثغر القاهرة إذ ذاك، ويوجد مكانه اليوم مسجد أولاد عنان بميدان رمسيس) وجزيرة الفيل، بعد أن كان النيل يجري بينهما، آتيا من الجنوب بمحاذاة شارع رمسيس (شارع الملكة سابقا) وذاهبا إلى الشمال من ميدان باب الحديد (ميدان رمسيس حاليا) إلى منية السيرج. لذلك حلت بولاق محل المقس، وصارت بولاق ميناء القاهرة النهري، ترسو عندها البضائع، وتبنى فيها السفن منذ ذلك الوقت إلى وقتنا الحاضر.

جزيرة الفيل:

وهي التي قام عليها فيما بعد حي شبرا وروض الفرج كما سبق بيانه، وقد ظهرت هذه الجزيرة في النيل في أواخر الدولة الفاطمية، وعرفت بجزيرة الفيل. وإنما سميت كذلك لأن مَركبا يُشبَّه بالفيل غرق في النيل، وتُرك مكانه، فتراكمت عليه الرمال والأعشاب، وظلت تتكاثر إلى أن أصبحت جزيرة، يحيط بها الماء من جميع الجهات، فزرعت أيام صلاح الدين الأيوبي وطرح البحر بجوارها سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ - ١٢٨٢م)، فاتصلت بأرض بولاق

وأرض الطبالة وأرض البعل وأرض منية السيرج. وفي أيام المنصور قلاوون أنشأ الأمراء والأعيان بجزيرة الفيل الدور والقصور والبساتين، حتى صارت بلدا كبيرا، به جامع وسوق كبيرة، وعدة بساتين جليلة، بلغ عددها مائة وخمسين بستانًا، من أحسن البساتين، لجمال منظرها، وكثرة ثمارها.

وقد حقق المرحوم العلامة الأستاذ مُحَمَّد رمزي موقع جزيرة الفيل فقال: "إن جزيرة الفيل، مكانها الآن المنطقة التي يمر فيها شارع شبرا من الجنوب إلى الشمال، وكان يحدها وقت أن كانت في وسط الماء، من الغرب النيل، حيث يمتد الآن جسر طراد النيل القديم، وشارع أبي الفرج. ومن الجنوب النيل، حيث يسير الآن شارع جزيرة بدران وشارع بركات. ومن الشرق والشمال سيالة مياه، كانت فاصلة في ذلك الوقت بين هذه الجزيرة وبين أرض الطبالة، التي تشمل اليوم منطقة محطة كوبري الليمون والفجالة، وبركة الرطلي، وبين أرض البعل، التي تعرف اليوم بالشرابية ومهمشة، وبين منية السيرج، ومنها إلى فم ترعة الإسماعيلية".

"وبالاطلاع على خريطة القاهرة، رسم الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠م، تبين لي أن المنطقة التي بها الآن قسما شبرا وروض الفرج كانت كلها أرضا زراعية، ولم يكن فيها من المباني في ذلك الوقت إلا قرية صغيرة باسم جزيرة بدران، قائمة في مكان البلدة التي أنشئت في جزيرة الفيل في أيام الملك المنصور قلاوون"[٦].

- ٣ -

السلاطين البناؤون

حكم مصر من المماليك البحرية أربعة وعشرون سلطانا، تميز أربعة منهم بعظيم ما شيدوه من مبان، حتى استحقوا أن يلقبوا بالسلاطين البنائين وهم:

السلطان الظاهر:

هو السلطان الظاهر، ركن الدنيا والدين، بيبرس البندقداري الصالحي، وإليه ينسب

حي الظاهر، أحد أحياء القاهرة.

كان مملوكا للصالح نجم الدين أيوب، وما زال يترقى حتى وثب إلى عرش مصر سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م)، وظل يحكمها إلى حين وفاته سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧م).

ويعتبر الظاهر المنشئ الحقيقي لدولة المماليك البحرية، ومثبت أركانها.

لم يكتف بأن تكون القاهرة عاصمة سلطنته، بل جعل منها مقر الخلافة الإسلامية، وذلك بأن استدعى أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين هجروا بغداد، بعد أن هدمها المغول سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م)، ونادى به خليفة المسلمين، وأسكنه القلعة، ثم استمد منه حكم مصر. وبذلك أضفى على نفسه صفة الشرعية والقانون في حكم البلاد، فأمن مكايد المماليك، وتحامى غدرهم. ولم يكتف بهذا بل وطد علاقاته بكثير من ملوك الشرق والغرب، ووثق صلاته السياسية والاقتصادية بكثير من الدول.

منشآت الظاهر:

وشيد كثيرا من المباني، من ذلك: مدرسة أنشأها سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) بجوار تربة سيده الصالح نجم الدين أيوب، بشارع بين القصرين، وقد تهدمت بسبب فتح شارع بيت القاضي. كذلك بنى في شمال القاهرة قناطر أبي المُنجَّا، ومثلها بالقرب من محطة اللد على خط القنطرة فلسطين. ولا تزال بقية من عقود قناطر أبي المُنجَّا باقية حتى اليوم.

وشيد مساجد كثيرة بالقاهرة وحلب وبصرى ودمشق والرملة. ولكن أهمها جميعا جامعة العظيم الموجود بميدان الظاهر.

وشيد أيضا قنطرة السباع[٧]، ونصب عليها سباعا من الحجارة لأن رنكه (شعاره) كان على شكل سبع. ومن هنا جاءت تسميتها بهذا الاسم. وكانت موجودة على الخليج المصري، وكانت تعرف أيضا باسم قنطرة السيدة زينب. ولقد اختفت هذه القناطر بعد ردم الجزء الأوسط من الخليج، تحت ميدان السيدة زينب. وقد كانت هذه القناطر تتكون من قنطرتين: إحداهما توصل بين شارعي الكومي والسد، والثانية شارع الكومي ومراسينا.

جامع الظاهر

بدئ في بناء هذا المسجد سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦م). وكان الفراغ منه سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ – ١٢٦٩م). وطوله ١٠٨ متر، وعرضه ١٠٥ متر.

ويتكون من صحن يحيط به أربعة أواوين: القبلي ويتكون من ستة أروقة. وكل من الإيوانين الشرقي والغربي ويتكون من ثلاثة أروقة. أما الإيوان البحري فيتكون من رواقين. وجميع عقود الجامع محمولة على أعمدة من رخام، ما عدا عقوده المشرفة على الصحن، وعقود الرواق الثالث فمحمولة على أكتاف.

وواجهات الجامع الأربع مبنية بالحجر. أما من الداخل فالبناء جميعه بالآجر. والقبة الموجودة أعلى المحراب مربعة، طول ضلعها عشرون مترًا، بنيت على مثال قبة الإمام الشافعي، وهي أكبر قبة أقيمت فوق محراب.

وتمتاز عن غيرها من القباب بأنها محمولة على حجرة، وليست على دعائم أو أعمدة.

وتمتاز عمارة هذا الجامع بميزات لم يسبقه إليها جامع آخر. من ذلك: الأبراج الأربعة القائمة فوق نواصي الجامع. ثم الدعائم القائمة خارج واجهتيه الشرقية والغربية، والأبواب الثلاثة البارزة، ولم توجد قبل ذلك إلا في باب جامع الحاكم، واستعمال مداميك الحجر الأبيض والأحمر على التوالي.

وقد كان هذا الجامع حافلا من الداخل بالزخارف الجصية والرخام الملون بالوزارات. والبقايا المخلفة من الشبابيك الداخلية والكتابات الكوفية المحيطة بها وبالقبلة تدل على ما كان عليه من فخامة وبهاء.

وقدم هدم الفرنسيون، في أثناء احتلالهم مصر، المنارة التي كانت تعلو الباب البحري، كما هدموا مآذن ومساجد وبنايات أخرى بالقاهرة، وسكنه بعض جنودهم، فتخرب كثير من أجزائه. وحوَّله مُحَمَّد علي إلى مصنع للصابون. ثم انتهك الإنجليز حرمته في الحرب الأوروبية الأولى، فأحالوه إلى مذبح، ثم استعادته لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩١٨م. فرممت بعض أجزائه.

السلطان قلاوون:

هو الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي قلاوون. تولى عرش مصر سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٦م)، بعد أن عزل سلامس بن الظاهر بيبرس، الذي كان قلاوون يقوم بالوصاية عليه. وهو أيضا من مماليك الصالح نجم الدين أيوب، اشتراه بألف دينار، لذا كان يلقب بالألفي. وأخذ يتقلب في المناصب العليا حتى ظفر بحكم مصر. ويعتبر المنشئ الثاني لدولة المماليك البحرية، فقد ظل الحكم في بيته نحوا من مائة عام.

وقد كان قلاوون أعظم شخصية بين المماليك بعد بيبرس، وقد ترسم خطى الأخير في ربط مصر بما جاورها من الدول، بصلات الود والصداقة، كما يعزى إليه فضل صد المغول عن العالم الإسلامي، في الزحف الثاني الذي قام به أبغا وأخوه منكوتمر على الشام. فهزمهم قلاوون هزيمة ساحقة في حمص في سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢م).

وهو من أربعة السلاطين العظام، الذين زينوا القاهرة بمنشآتهم الضخمة، ومبانيهم العظيمة، التي ما تزال قائمة حتى اليوم، تشهد بعظيم همتهم، وقوة شكيمتهم، ورفيع ذوقهم.

منشآت قلاوون:

فقد أنشأ في شارع بين القصرين، تجاه تربة سيده الصالح نجم الدين أيوب مجموعة عظيمة من المباني، تتألف من مارستان (مستشفى) ومدرسة وتربة، غلب عليها اسم مارستان قلاوون.

المارستان:

مرض قلاوون ذات مرة، في إحدى غزواته بالشام، فعولج بأدوية استحضرت له من مارستان نور الدين بدمشق. فنذر أن ينشئ مارستانا في مصر كمارستان نور الدين، لعلاج المرضى من جميع الأديان والأجناس.

فلما آل إليه عرش مصر وفَّى بنذره، وأنشأ هذا المارستان، وزاد عليه مدرسة وقبة يدفن فيها، وحرص على أن يقيم هذه المنشأة تجاه قبر سيده الصالح نجم الدين أيوب،

ومدرسة سلفه الظاهر بيبرس، الملاصقة لقبر الصالح.

وتنفيذا لخطته، استولى على قصر الأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية، وكان يقع في المكان الذي تخيره لإنشاء المارستان عليه، وعوضها عنه بقصر الزمرد، برحبة العيد مع مبلغ كبير من المال، وعهد إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعي أن يشرف على بنائه، فحشد خلقا كثيراً من الأسرى والصناع والمماليك، وأنجز بناء هذه المجموعة الضخمة من المباني فيما لا يزيد على عامين، وهي مدة لا تقل أن يتم فيها هذا العمل الضخم، إلا إذا سخر فيه الناس ليل نهار، وسامهم البطش وسوء العذاب. يؤيد ذلك ما حُكي عنه أنه أوقف مماليكه بشارع بين القصرين، فكانوا إذا مر أحد، مهما عظم قدره، ألزموه أن ينقل حجرا إلى محل العمل، حتى اضطر الناس إلى تجنب المرور من هذا الشارع. ولم يكتف قلاوون بذلك، بل إنه أمر بهدم قلعة الصالح نجم الدين بالروضة، ونقل أعمدتها الضخمة، ورخامها البديع ليدخلها في عمارة المارستان. وبهذا تنكر لسيده. ومن الغريب أنه مع ذلك يحرص على بناء مارستانه وتربته تجاه تربة الصالح، ثم يصادر الناس في ممتلكاتهم.

فهذا المارستان يقع في شارع ما بين القصرين، ولم يبق منه الآن غير جزءين من القاعتين الشرقية والغربية، وجانب كبير من القاعة القبلية.

ويشغل مساحة كبيرة منه في الوقت الحالي مستشفى قلاوون للرمد، ويذكر المؤرخون أنه كان مكونا من جملة أجنحة، يختص كل جناح منها بعلاج مرض من الأمراض، وأنه كانت تشرف عليه هيئة طبية منظمة، كما كانت توجد به غرفة للمطالعة، ومعامل كيميائية، وصيدلية، وحمامات، ومطبخ.

وبوجه عام توفرت فيه جميع معدات المستشفيات المعروفة وقتذاك. بل وكانت توجد جوقة موسيقية تخفف من آلام المرضى. بما تعزفه لهم من ألحان. وبجانب ذلك كان خمسون من القراء يرتلون القرآن الكريم. وكان هناك أمين للمكتبة يساعده أتباعه في مناولة الكتب الطبية والمدنية وغيرها لمن يرغبون في المطالعة. وفوق هذا كان هناك مكتب لتعليم القراءة والكتابة لعدد من أطفال المسلمين اليتامى.

وينقسم البناء إلى قسمين: قبلي وهو واجهة المدرسة، وبحري وهو واجهة التربة التي تعلوها القبة، وتوجد المئذنة في نهاية القسم البحري، وهي مكونة من ثلاثة أدوار: الأسفل والأوسط منها مربعان، والثالث مستدير، وقد جدده الناصر مُحَمَّد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣- ١٣٠٤م)، عقب زلزال هدم هذا الجزء.

وبين هذين القسمين يوجد الباب الرئيسي المُحلى بالرخام، وضلفتاه مكسوتان بالنحاس، المقسم تقسيما هندسيا بديعا، ويؤدي إلى دهليز طويل. وللقبة بابان مفتوحان على الدهليز، يُدخل من أولهما إليها مباشرة، ومن الثاني إلى البهو الذي أمامها.

وتكون الواجهة في مجموعها منظرا من أروع مناظر العمارة الإسلامية بالقاهرة، فحناياها المحمولة على عمد رخامية تحتضن شبابيك ذات أشكال هندسية بديعة. ويحلي الواجهة جميعا طراز مشحون بآيات قرآنية، وغيرها من الكتابات المثبتة لتاريخ البناء(٨).

القبة:

ويعلو تربة السلطان قلاوون قبة محمولة على أربعة أكتاف، وهي مربعة الشكل، ذات أسفال مكسوة بالفسيفساء البديعة، ويتوسط هذه الأكتاف أربعة أزواج من الأعمدة الجرانيتية، تيجانها مذهبة، وتحمل ثمانية عقود.

وهذه تحمل رقبة القبة، المنشأة حديثا، والسقف الخشبي المذهب حولها.

والجدران مكسوة بفسيفساء الرخام الدقيقة، وكذلك المحراب تزينه ثلاث حطات من الفسيفساء البديعة، والشبابيك ملونة بألوان جميلة.

ويتوسط القبة التربة، وقد دفن بها المنصور قلاوون، وابنه الناصر مُحَمَّد، وعليها تابوت من الخشب البديع. وحول المدخل الغربي للقبة زخارف جصية هندسية مورقة، مصنوعة باليد، تسترعي كثيرا من الإعجاب.

المدرسة:

وأمام القبة وقاعتها توجد المدرسة بمحرابها البديع، وبقايا زخارفها الجصية المتقنة، وقد

أعيد إصلاح إيوانها الشرقي، ولم تصلح بعد الأواوين الأخرى[٩].

ويوجد بقسم من واجهة المدرسة سبيل صغير، أنشأه الناصر مُحَمَّد بن قلاوون على روح والده، يرجح المرحوم الأستاذ محمود أحمد إنشاءه سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣م)[١٠].

السلطان الناصر محمد بن قلاوون:

توفي السلطان قلاوون في ٥ ذي القعدة سنة ٦٨٩ (١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠) وهو في السبعين من عمره، وخلفه على العرش ابنه الأشرف خليل، وأهم أعماله هدمه حصن عكا، آخر معقل للصليبيين في الشام، فطويت بذلك صفحتهم، بعد أن ظلت منشورة قرنين من الزمان، ارتكبوا خلالهما كثيرا من الشرور والآثام، وكانوا شوكة في جنب مصر. غير أنه لم يعمر طويلا، إذ توفي في المحرم سنة ٦٩٣ هـ (ديسمبر سنة ١٢٩٣)، فخلفه أخوه الناصر مُحَمَّد.

حكم السلطان الناصر مُحَمَّد أربعة وأربعين عاما وبضعة شهور. ولكن لم تكن مدة حكمه متصلة، إذ عزل عن العرش مرتين:

الأولى: في المحرم سنة ٦٩٤ (نوفمبر سنة ١٢٩٤)، فتولى المُلك السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا. فعزل هذا أيضا وتولى مكانه حسام الدين لاچين –المحرم سنة ٦٩٦ (أكتوبر سنة ١٢٩٦)– ثم قتل لاچين في ٦ جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ (فبراير سنة ١٢٩٩)، فأعيد الناصر مُحَمَّد إلى العرش.

الثانية: وبقي الناصر مُحَمَّد في دست الملك عشر سنين وخمسة أشهر وستة عشر يوما، ثم اعتزله وسافر إلى الكرك، فانتخب ركن الدين بيبرس الجاشنكير سلطانا. غير أن مدة حكمه لم تطل عن عام واحد ثم أعيد الناصر مُحَمَّد إلى العرش للمرة الثالثة، وبقي به إلى أن توفي في ذي الحجة سنة ٧٤١ (مارس سنة ١٣١٠).

ومع ذلك فيعتبر عصر الناصر مُحَمَّد بن قلاوون من أزهى عصور العمارة الإسلامية، لكثرة ما شيد فيه من مساجد ومدارس وقصور، وانتشار طراز ثابت للواجهات، تكثر بها

الحنايا، وتنتظم صفا واحدا، وتحليلها المقرنصات.

أهم المنشآت في عصر الناصر:

وأهم ما أنشئ في عصر الناصر: مدرسة بالنحاسين، والمدرسة الجاولية بشارع مراسينا، وخانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية، وتربة حسن صدقة، ومسجد الناصر مُحَمَّد بالقلعة، وسراي بشتاك بشارع بين القصرين، وجامع المارداني بالدرب الأحمر.

ويضيق المقام عن وصف هذه المساجد جميعا. لذلك نقصر الكلام على أهمها:

مدرسة الناصر محمد بشارع بين القصرين:

وهي ملاصقة لقبة السلطان قلاوون، بشارع المعز لدين الله، وبدأ في إنشائها السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري، فوضع أساسها، وارتفع ببنائها إلى الطراز المكتوب بواجهتها، وذلك في سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥م)، ثم خلع من الملك قبل إتمامها. فلما عاد السلطان الملك الناصر مُحَمَّد إلى ملك مصر للمرة الثانية، اشترى هذه المدرسة، وبنى بها قبة، فكملت في سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣م)، وعين بها المدرسين للمذاهب الأربعة، وألحق بها مكتبة حافلة، ثم نقل إلى القبة رفات والدته، كما دفن بها ابنه أنوك المتوفى في ١٧ ربيع الأول سنة ٧٤١ هـ (١٣٤١م)، ولم يبق منها سوى الإيوان الشرقي، وبه محراب جصي نادر المثال، والإيوان الغربي، وبه شباك من الجص غاية في الدقة.

ولهذه المدرسة واجهة جميلة، حافلة بالزخارف، والكتابات الكثيرة.

وتوجد المنارة فوق الباب، وهي موشاة بالزخارف الجصية الدقيقة.

ويوجد بداخل القبة طراز من الخشب المنقوش يحيط بجدرانها، وبين القبة والمسجد طرقة بها سقف من الخشب مزين بالزخارف والألوان المذهبة.

مسجد الناصر بالقلعة:

أنشأه الناصر سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨م)، وأعاد بناءه سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤م). وهو من الجوامع الكبيرة. وقد خالف في تخطيطه نظام الأواوين المتعامدة، الذي كان سائدا في

عصر المماليك. وأقيم على النظام القديم من أربعة أواوين تحيط بالصحن المكشوف، وأكبر تلك الأواوين إيوان القبلة. ويوجد أمام محراب هذا المسجد قبة كبيرة حملت على أعمدة ضخمة من الجرانيت الأحمر.

ويحيط بالجامع من أعلاه نوافذ كانت مغطاة من الداخل والخارج بشبابيك من الجص. وكانت الجدران مغطاة بوزرة من الرخام إلى ارتفاع خمسة أمتار ونصف، كما كانت أرضه مفروشة بالرخام أيضا. وله مئذنتان وبابان: أحدهما غربي، تجاوره المئذنة الأولى، وهي أسطوانية الشكل والباب الآخر بالواجهة البحرية، وفي نهايتها المئذنة الثانية، وهي مربعة القاعدة. ويغطي القاشاني قمة المئذنة الأولى، كما يغطي الدورة الثالثة للمئذنة الثانية.

قنطرة سنقر على الخليج الكبير:

وأنشأ الأمير «آق سنقرشاد العمائر السلطانية» في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون قنطرة سنقر، وكانت موجودة على الخليج الكبير، تجاه مدخل شارع قنطرة سنقر، الموصل إلى شارع درب الحجر، بالقاهرة.

السلطان حسن

وتولى السلطان حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون حكم مصر في ١٤ رمضان سنة ٧٤٨ (١٨ ديسمبر سنة ١٣٤٧)، بعد أخيه المظفر حاجي، وكان عمره وقتئذ ثلاث عشرة سنة. فقام بالوصاية عليه الأمير شيخون العمر، ولم يمنعه ذلك من أن يزاول الحكم بنفسه، فاستبد، وبالغ في أسباب الطمع، واستولى على أملاك بيت المال، فاعتقل سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١م)، فخلفه أخوه الصالح صلاح الدين صالح، ثم أعيد إلى الملك ثانية سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤م)، وظل متربعا في دست السلطنة ست سنين وسبعة أشهر إلى أن قتل.

مسجد أو مدرسة السلطان حسن:

يقع هذا المسجد بميدان صلاح الدين، تجاه القلعة، في الجهة الغربية البحرية منها، أنشأه السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون. وقد بدأ في إنشائه سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦م)، واستمر العمل به لحين وفاته في جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١م).

حدوده وأبعاده:

وتبلغ مساحة هذا المسجد ٧٩٠٦ أمتار، وطوله ١٥٠ متراً وعرضه ٦٨ متراً، وارتفاعه عند بابه ٣٧,٧٠ متر، وواجهته البحرية، وهي الواجهة الأصلية، مشرفة على شارع القلعة (شارع مُحَمَّد علي سابقا)، وواجهتاه الجنوبية والشرقية مشرفتان على ميدان صلاح الدين، ومن الصعب تحديد شكله، لأن في وضعه بعض الازورار. ويمكن أن يوصف بأنه كثير الأضلاع، ممتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي(١١).

والقادم نحو هذا المسجد يأخذه العجب من جدرانه العالية الضخمة، والإفريز الذي يتوجها، وما تمتاز به من زخارف معمارية تشبه خلايا النحل، وتخدع النظر، فتبدو الجدران أعلى مما هي في الحقيقة. ويرى المشاهد في واجهات الجامع، ما عدا تلك التي تطل على القلعة، تجاويف في الحيطان عمودية طويلة ضيقة، وقد هيئت النوافذ فيها على ثمان طبقات.

تخطيط المسجد:

وتخطيط هذا المسجد متفق مع الطراز المملوكي، ذي أربعة الأواوين المتعامدة، التي يتوسطها الصحن، فتكون معه ما يشبه الصليب(Cruciform) ، فهو مكون من صحن مكشوف مساحته ٣٢ x٢٤,٦٠ متر مربع، تتوسطه ميضأة، تعلوها قبة، محمولة على ثمانية أعمدة من الرخام. ويقطع الصحن محوران متعامدان، في نهاية كل منهما إيوان، وفي كل زاوية من زوايا الأواوين الأربعة، باب يوصل إلى إحدى المدارس الأربع، المخصصة لدراسة المذاهب الإسلامية الأربعة وهي: الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي. وأكبر هذه المدارس مدرسة الحنفية، إذ تبلغ مساحتها ٨٩٨ متراً مربعًا.

وأكبر الأواوين الإيوان الشرقي، وجدرانه مكسوة بالرخام والأحجار الفاخرة الملونة، يحيط به إطار جصي، مكتوب به آيات من سورة الفتح، بالخط الكوفي المزهر، وسقفه معقودا عقدا ستينيا، ومبني بالآجر، ما عدا مبدأه من جهة الصحن، فإنه بالحجر، وهو أكبر عقد مبني على إيوان بمصر، ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى الذي هو بالمدائن في العراق(١٢).

وفي هذا الإيوان دكة من الرخام، وفي وسط واجهته الشرقية المحراب المجوف، وتزينه

قطع من النقوش الذهبية والرخام المطعم، وعلى يمينه محراب من الرخام الأبيض. وبابه من الخشب المصفح بالنحاس في زخارف من أشكال متعددة الأضلاع، مرتبة في أوضاع نجمية. وعلى جانبي القبلة بابان يوصلان إلى تربة السلطان، وتعلوها قبة عظيمة، وجميع جدرانها مكسوة بالرخام الفاخر الملون بارتفاع ثمانية أمتار، وفوق ذلك شريط من خشب عرضه ثلاثة أمتار، محلى بكتابة بالخط النسخ مؤرخة بسنة ٧٦٤ هـ (وتقابل سنة ١٣٦٢ – ٦٣ ميلادية)، وبالمقرنصات التي في زوايا القبة الأربع تعتبر من أجمل وأغرب ما صنع من نوعها. ومعلوم أن السلطان لم يدفن فيها، لأنه قتل ولم يعثر لجثته على أثر.

والمدخل مكون من ثلاثة أواوين، ويوجد على يسارها إلى الجهة الشرقية طريق مستطيل، يصعد إليه بسلم ذي سبع درجات، ثم ينثني فيه الداخل إلى الجهة الشرقية القبلية، فيصل إلى صحن المسجد.

وبالواجهة القبلية الشرقية توجد المئذنتان العظيمتان، ويبلغ ارتفاع الكبرى منهما ٨١,٦٠ متر[١٣].

وظاهر أن هذا المسجد أضخم مساجد مصر عمارة، وأعلاها بنيانا، وأكثرها فخامة، وأحسنها شكلا، وأجمعها لمحاسن العمارة، وأدلها على عظيم الهمة. وإن المرء ليحار من كثرة ما أنفق على بنائه، ولا عجب إذا قيل إن بناءه كان يكلف منشئه في اليوم الواحد ألف دينار.

وقد كانت تتدلى من أسقف أواوين هذا الجامع مصابيح زجاجية (مشكاوات) مموهة بالمينا، وتنانير نحاسية، مصنوعة من النحاس المفرغ، والمكفت بالذهب والفضة، ومحفوظة جميعها اليوم بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.

وقال الأستاذ جاستون فييت، المدير السابق للمتحف الإسلامي بالقاهرة في مقال له عن هذا الجامع: "إنه لأبدع آثار القاهرة، وأكثرها تجانسا وتماسكا وكمال وحدة، وأجدرها بأن يقوم بجانب تلك الآثار المدهشة، التي خلفتها مدنية الفراعنة"[١٤]. وقد كشف الأستاذ حسن عبد الوهاب في نوفمبر سنة ١٩٤٤ عن مهندس هذا المسجد –واسمه مُحَمَّد بن بيليك[١٥]– مكتوبا في الطراز الجصي بالمدرسة الحنفية.

- ٤ -

القاهرة في عهد المماليك البرجية

قامت بعد دولة المماليك البحرية، دولة المماليك البرجية، ويُسمون أيضا بالشراكسة، لأن معظمهم كانوا من الشراكسة، الذين اشتراهم قلاوون، أحد المماليك البحرية، وأسكنهم أبراج القلعة، لذا سمُّوا بالبرجية. وقد حكموا مصر من سنة ٧٨٤ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ (من سنة ١٣٨٢ إلى سنة ١٥١٧م)، وكان عددهم ٢٣ سلطانًا، وجميعهم من الشراكسة كما قدمنا، ما عدا اثنين هما خوشقدم وتموربغا، فقد كانا روميين. أما المماليك البحرية فقد كانوا من التركستان، وقد أجلاهم التتار عن بلادهم عند غزوهم لغرب آسيا.

حذا المماليك الشراكسة حذو المماليك البحرية في مد حدود القاهرة من ناحية الشمال، وساروا بها شوطا بعيدا صوب الشمال الشرقي، وعمروا صحراء الريدانية (العباسية). وامتدت أبنيتهم مسافات بعيدة في تلك الصحراء حتى وصلت إلى ما يعرف الآن بكوبري القبة، حيث شيد الأمير يشبك الداوادار، أحد أمراء الأشرف قايتباي قبة جميلة بكوبري القبة، وإلى جهة الخانقاه، حيث شيد الأشرف برسباي جامعا.

وقد استمر تقدم فن العمارة في عهدهم، وشيد كثير من سلاطينهم الأبنية الفخمة، وأدخلوا كثيرا من التعديلات على هندسة العمارة، فتميزت بميزات صارت علما على فن العمارة في عهدهم. من ذلك: تغطية بعض صحون المدارس بعد أن كانت عارية، وزخرفة بعض المآذن والقباب بالفسيفساء والقاشاني والرخام. وانتهاء بعض المآذن برأسين والبعض الآخر بأربعة رؤوس.

وننتقي من آثار هذه الدولة، على سبيل المثال، وليس على سبيل الحصر، ما يأتي:

مسجد السلطان برقوق بالنحاسين:

الملك الظاهر أبو سعيد برقوق، أول ملوك الجراكسة. كان مملوكا للأتابك يلبغا، فأعتقه، وظل يتقلب في الوظائف الكبرى حتى ولي أمر مصر سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢م)،

وبقي على عرش مصر إلى أن توفي سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩م).

وقد أنشأ في الجهة البحرية لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون هذا المسجد سنة ٧٨٦هـ (١٣٨٤م)، فصارت الواجهتان تكونان مجموعة من أجمل المباني الأثرية منظرا. ولهذا المسجد مئذنة ضخمة، متناسبة الأبعاد، طعمت دورتها الوسطى بقطع متماثلة من الرخام، وتعد الأولى من نوعها من المآذن، وتوجد في الطرف البحري للواجهة الشرقية، المشرفة على شارع بين القصرين.

وللباب العمومي لهذا المسجد ضلفتان من الخشب، مصفحتان بالنحاس المكفت بالفضة، ويؤدي إلى طرقة، توصل إلى الصحن، الذي تحيط به أربعة أواوين متعامدة، أكبرها إيوان القبلة. وينقسم هذا الإيوان إلى ثلاثة أروقة، أكبرها الرواق الأوسط، وجميعها مسقوفة بأسقف خشبية مموهة بالذهب. والمحراب مكسو بالرخام المختلف الألوان والمحلى بفصوص من الصدف. أما الأواوين الثلاثة الأخرى فمسقوفة بقبوات حجرية. وفي وسط الصحن فسقية، تعلوها قبة محمولة على ثمانية أعمدة رفيعة من الرخام. أما أرضية الصحن نفسه فمفروشة بترابيع من الرخام الأبيض.

وبالركن البحري الشرقي للصحن باب يؤدي إلى التربة، وتعلوها قبة ذات أركان مقرنصة. ومما يستوقف النظر في هذه التربة الوزرة الرخامية المنتهية بطراز مكتوب بالذهب، يتضمن تاريخ إنشاء المدرسة. وقد بنى برقوق لنفسه تربة أخرى بجبانة المماليك دفن فيها.

ومهندس هذا المسجد معروف، بخلاف كثير من المساجد والمباني الأخرى، واسمه شهاب الدين أحمد بن الطولوني.

تربة برقوق بمقابر المماليك:

أنشأها السلطان برقوق سنة ٨٠١– ٨١٣ هـ (١٣٩٨ – ١٤١١م) بالقرافة الشرقية، وهي في الواقع عبارة عن مدرسة تدرس فيها العلوم الشرعية، ومسجد للصلاة، وخانقاه فخمة للصوفية، جمعها السلطان برقوق في صعيد واحد، لذلك جاءت أضخم تربة وجدت في جميع جبانات مصر والقاهرة.

هذا بالإضافة إلى اشتمالها على ميزات معمارية لا نظير لها في سواها. فلا عجب أن يستغرق بناؤها حوالي اثني عشر عاما. وقد أراد برقوق أن تكون هذه التربة نواة لمدينة عامرة، تحيط بها الأسواق والخانات والحمامات.

والواجهة الغربية متماثلة الأجزاء، ففي طرفيها البحري والبحري سبيلان، يعلوهما مكتبان، وتقوم على يمين المكتب البحري وعلى يسار المكتب القبلي مئذنتان رشيقتان، تزيدان هذه الواجهة جمالا.

ويحيط بالصحن أربعة أواوين: الإيوان البحري والقبلي، وهما متساويان، وكلاهما مكون من رواق واحد، وفوقهما خلوات وحجرات ومرافق، يتوصل إليها من سلالم بالصحن والطرقات. أما الإيوان الشرقي فأكبر من الغربي، ومكون من ثلاثة أروقة، يكتنفه من طرفيه قبتان كبيرتان مركب على بابهما حجابان من قطع الخشب تكون أشكالا هندسية منتظمة، وسقوف الأواوين الأربعة مغطاة بقبوات نصف كرية مبنية بالآجر، ومحمولة على عقود مرفوعة مدببة، وأطرافها متكئة على أكتاف من الحجر، قواعدها وتيجانها مربعة، أما أبدانها فثمانية.

والمنبر من الحجر المحلى بالزخارف الهندسية، وقد أنشأه والدكة الخشبية السلطان قايتباي سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣م)[١٦].

جامع المؤيد:

كان أبو النصر شيخ المحمودي مملوكا اشتراه برقوق من نخاس شركسي بثلاثة آلاف دينار، فارتقى سريعا من مملوك في القصر إلى أمير الحج، فأمير على ألف، ثم حاكم على طرابلس. ثم اشترك في قتل فرج بن برقوق، وشق طريقه إلى عرش مصر، وتلقب بالملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي، وكان ذلك سنة ٨٠٥ هـ (١٤١٢م)، وظل يحكم مصر إلى حين وفاته في المحرم سنة ٨٢٤ هـ (يناير سنة ١٤٢١).

والمحمودي نسبة إلى النخاس محمود اليزدي، الذي باعه إلى برقوق.

ومما يتصف به المؤيد أنه كان شاعرا وموسيقيا، وأنه كان ورعا محبا للعلم، يعاونه طلابه،

ويشجعهم بالمال.

وهذا الجامع من الجوامع الكبيرة، أنشأه سنة ٨١٨- ٨٢٣ هـ (١٤٠٥ - ١٤١٠م) بجوار باب زويلة. ومدخله موجود في الطريق البحري للواجهة الشرقية. والباب المركب عليه مكسو بالنحاس المحلى بزخارف هندسية بديعة. وكان قبل ذلك مركبا على باب مسجد السلطان حسن، واسمه منقوش عليه، وما يزال يرى حتى الآن في هذا الوضع.

وقد تهدمت ثلاثة من أواوين هذا المسجد. ولم يبق سوى الإيوان الشرقي، وجزء من جدرانه مكسو بوزرة من الرخام، المختلف الألوان.

وبجوار المحراب منبر، حشواته المجمعة على هيئة أشكال هندسية مطعمة بالسن. والسقف محمول على أعمدة من رخام، وكله محلى بنقوش زخرفية بديعة.

ومنارتا هذا الجامع قائمتان على بدنتي باب زويلة. وبأعلى الواجهة الشرقية يوجد إفريز من الآيات القرآنية.

تربة الأشرف أبي النصر قايتباي بصحراء قايتباي (القرافة الشرقية)

ينتمي قايتباي إلى الأصل الشركسي. اشتراه چقمق بخمسين ديناراً.

ولما كان فارسا ممتازا تقرب إلى البلاط، وظل يتقلب في الوظائف الكبرى حتى وصل إلى وظيفة "أتابك العسكر"، ومنها ارتقى إلى عرش السلطنة في٣ رجب سنة ٨٧٣ (ديسمبر سنة ١٤٦٧)، وبقي على العرش حتى وفاته في ١٧ ذي القعدة سنة ٩٠١ (٢٩ يوليو سنة ١٤٩٦). ويؤثر عنه أنه كان كثير التنقل بين أنحاء مملكته، فشيد كثيرا من المساجد والمدارس والمباني والقلاع، من ذلك قلعته بالإسكندرية التي تحمل اسمه حتى اليوم، وتربته التي نحن بصددها.

وهذه التربة هي في الواقع مجموعة نادرة من المباني بديعة التصميم، متناسقة المبنى، لذلك يؤمها السائحون لاستجلاء بهجتها، والاستمتاع بجمال زخارفها، وتوجد بمقابر المماليك التي سميت خطأً بمقابر الخلفاء.

وهي تتكون من مدرسة وملحقاتها، وتربة، وسبيل، وكُتَّاب، بدئ في إنشائها سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢م). وتم بناؤها في رجب سنة ٨٧٩ (نوفمبر سنة ١٤٧٤).

ومدخل هذه المجموعة موجود بالواجهة البحرية، وقد حُلي عتبه مَزرة بالرخام الملون والكتابات، تغطيه مقرنصات منقوشة، وطاقية ملبسة بالحجرين الأبيض والأحمر(١٧). ومركب على المدخل باب مغشي بالنحاس في الأركان والوسط. وعلى يسار المدخل سبيل يعلوه كتَّاب.

وعلى يمينه تقوم مئذنة رشيقة، تعتبر من أجمل المآذن بالقاهرة. كما تعتبر القبة الموجودة في نهاية الواجهة الشرقية من الجهة القبلية من أجمل القباب أيضا، إذ أنها مغطاة بزخارف هندسية مزهرة بديعة.

والصحن مغطى بسقف ذي "شخشيخة" جميلة، ويحيط به أربعة أواوين، البحري والقبلي صغيران، وهما متقابلان، والشرقي أكبر منهما، ويتوسط جدران الشرقي محراب يجاوره منبر من الخشب المطعم بالسن المدقوق أيمة.

وبهذا الإيوان وباقي المسجد مجموعة كبيرة من الأسقف والشبابيك الجصية، غاية في الجمال ودقة الصناعة، وأرضية كل من الأواوين والصحن والقبة ووزرة القبة مغطاة بفسيفساء الرخام الدقيقة(١٨).

وتقع التربة قبلي الإيوان الشرقي مباشرة، ويتوصل إليها من باب شرقي الباب القبلي. ويجري داخل القبة وخارجها زخارف بديعة. ويوجد بها كرسي للمصحف الشريف بلغ منتهى الدقة في زخارفه. وقد دفن بهذه القبة قايتباي وابنه.

مسجد (مدرسة الغوري)

تولى الملك الأشرف قانصوه الغوري في شوال سنة ٩٠٦ هـ (أبريل سنة ١٥٠١). وهو مملوك چركسي، خدم قايتباي كغلام وتابع له. وقبل أن يصير «رئيسا لعشرة» كانت سِنُّه تزيد على الأربعين، وبعد ذلك رقُي بسعة إلى قيادة «طرطوس» و«حلب» و«ملطية».

ثم صار «أمير الألف» ثم كبير الأمناء، ثم رئيس الوزراء، وقد رفض العرش في أول الأمر، ولكن الأمراء ألحوا عليه بقبوله، بعد أن أقسموا له على الإخلاص في خدمته، فقبله أخيرا. وكانت سنه إذ ذاك ستين عاما.

ولما استتب له الأمر، أولى أعمال الإصلاح كل عنايته، ولكنه اشتط في جمع الضرائب، فلم يفلت منها إنسان أقلته أرض مصر، بل إنها تعدت الأحياء إلى الأموات، مما أثار ثائرة الناس ضده. وقد كان بلاطه مضرب الأمثال في عيشة البذخ والترف التي كان يحياها على حساب الفقراء والمساكين ودافعي الضرائب البؤساء[١٩].

وقد ابتليت مصر في أواخر عهده بحادثين عظيمين: أولهما كشف طريق رأس الرجاء الصالح، وتحول التجارة الشرقية عن مصر والشام إليه[٢٠]، فكان ذلك ضربة قاصمة أصابت الاقتصاد المصري، وأثرت أبلغ الأثر في رخاء مصر وثرائها، اللذين كانت تستمدها من الضرائب التي كانت تجبى على تلك التجارة عند دخولها مصر وخروجها منها، أما الحادث الثاني هو غزو العثمانيين لمصر، واستيلاؤهم عليها، فقضوا بذلك قضاء مبرما على دولة المماليك.

ويوجد مسجد الغوري بشارع الغورية، في مواجهة منشآت الغوري الأخرى، وهي «المدفن والخانقان والمكتب والمقعد»، ويفصل بينهما شارع الغورية. وكان إنشاؤه عام ٩٠٩ – ٩١٠ هـ (١٥٠٣ – ١٥٠٤م) ويتألف من صحن، يحيط به أربعة أواوين، أكبرها الإيوان الشرقي، يغطيها جميعا سقف ذو نقوش مموهة بالذهب. وللصحن منور مستطيل، محاط بدرابزين من الخشب المخروط الجميل، على قاعدة مقرنصة بديعة.

وليس لهذا المنور مثيل. وأرضية الصحن والأواوين مغطاة بالرخام، المختلف الألوان، البديع الصنع، كما يكسو الجدران وزرات من الرخام، الملون البديع.

ومدخل هذه المدرسة في الواجهة الشرقية، ويقابل مدخل التربة والخانقاه، الموجود على الضفة المقابلة من شارع الغورية. والمدخلان متماثلان في الارتفاع، في كثير من التفاصيل والزخارف، ويمتازان عن غيرهما بارتقاء شكل الشرافات، وبأن الكسوة الرخامية،

التي تعلو فتحات الشبابيك مكونة من حطتين مزررتين تزريرا دقيقا، بدلا من حطة واحدة في غيرها[٢١].

ومما هو جدير بالذكر أن السلطان الغوري قتل تحت سنابك الخيل في الموقعة، التي حدثت بينه وبين السلطان سليم الأول العثماني، في مرج دابق بالشام سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦م)، ولم يعثر لجثته على أثر. لذلك لم يدفن بتربته المقابلة لهذا المسجد.

-٥-

الحياة الاجتماعية بالقاهرة في عصر المماليك

عرفنا أن المماليك كانوا من عناصر تركية وشركسية وورومية ومغولية، بيعوا في أسواق الرقيق، وجُلبوا إلى مصر حيث استخدمهم الأيوبيون، فكانوا مادة جيوشهم. وكان منهم كبار موظفيهم، ورؤساء دولتهم. ولم يكن عسيرا عليهم بعد ذلك أن يقفزوا إلى عرش مصر، ويستولوا على مقاليد الحكم.

وكان هؤلاء المماليك يدربون منذ حداثة سنهم على فنون الحرب والقتال، وأساليب الصيد والفروسية، وركوب الخيل، وسائر أنواع الرياضة. وكانوا يُعلَّمون بالإضافة إلى ذلك اللغة العربية والقرآن والدين. وقد نبغ كثير منهم في الفقه والأدب، ونظم الشعر والعزف على الآلات الموسيقية. ومع ذلك فقد وجد من بين هؤلاء المماليك من كان أميا، لا يعرف القراءة أو الكتابة، بل يجهل العربية تمام الجهل.

ومع أن هؤلاء المماليك كانوا في الأصل أرقاء، بيعوا في أسواق النخاسة، فيتشرفون بالانتساب إلى أسيادهم الذين اشتروهم، أو التجار الذين باعوهم، فيلقب الواحد منهم بالصالحي نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب، والمؤيدي نسبة إلى المؤيد شيخ المحمودي، والناصري نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون، والأشرفي والعلائي وهكذا، ويلقب بعضهم بالألفي لأنه اشتُري بألف دينار، مع كل ذلك فقد كانوا يتعالون على المصريين، ويشمخون

بأنوفهم، فلا يخالطونهم أو يتزوجون منهم. ويرجع ذلك دون شك إلى مركب النقص الذي كان يتملكهم، وإلى سعيهم لاستكمال هذا النقص عن طريق الكبرياء والغلظة.

وكان المجتمع المصري بناء على ذلك منقسما إلى طبقتين رئيسيتين: طبقة الحكام والأسياد، أصحاب الحول والطول، الذين كانوا بالأمس أرقاء بيعوا في أسواق الرقيق والنخاسة، وطبقة الشعب بفلاحيها وزراعها في الريف وطوائف عمالها وتجارها في كبريات المدن وخصوصا في مصر والقاهرة، الذين انقلبوا عبيدا، يستغلهم المماليك لمصلحتهم ورفاهيتهم ويسومونهم الخسف وسوء العذاب. ويبتزون أموالهم، ويمتصون دماءهم، ليعيشوا عيشة البذخ والنعيم.

وكان أغلب هؤلاء المماليك غلاظ الأكباد، شديدي المراس، أهل مكر وخداع، يشوب أخلاقهم كثير من الصلف والكبرياء، لا يقيمون للمبادئ والمثل العليا أي وزن. ديدنهم الدس والوقيعة، وقانونهم الذي يؤمنون به «الحق للقوة». لذلك لم يكن غريبا أن ينقلب أحدهم على سيده، ويقلب له ظهر المجن، ويكيد له، ويدس له السم في الدسم، أو يقتله شر قتلة، ويسبي نساءه، ويغتصب أمواله وكنزه، ويجلس على العرش مكانه.

وقد كان من المناظر المألوفة لسكان القاهرة أن تنقلب شوارعها وأحياؤها بين عشية وضحاها إلى ميدان حرب، بين أميرين وأنصارهما، فتقفر من المارة، ويغلق التجار حوانيتهم، خشية سلب ما بها من أموال وتجارة، ويتملك الناس الخوف والفزع، فيحتمون بأبواب الحارات والمساجد، أو يقبعون في بيوتهم إلى أن تنجلي الغمة، وتمر العاصفة، وخيول الفريقين تروح وتغدو، وتكر وتفر، يطارد أحدهما الآخر، والجثث والأشلاء تتناثر هنا وهناك، والرماة يتحصنون بأسوار القلعة، ويتحصن أعداؤهم بأسطح مسجد السلطان حسن المقابل لها، يتراشقون بالسهام والنبال. وما يزال سكان القاهرة نهبا للفزع والرعب عدة أيام، حتى يزول الكرب بهزيمة أحد الفريقين، وفراره إلى الشام، يجر أذيال الخيبة والفشل. فيعود إلى المدينة عازب هدوئها، وسابق سكنها، ويرجع الناس إلى مزاولة أعمالهم ونشاطهم.

ويعجب الناس اليوم، كيف تتفق هذه الشرور، التي كان يقترفها هؤلاء المماليك وما

يقومون به من أعمال الخير والبر، وفي مقدمتها بناء المساجد والتكايا والأضرحة والمدارس والكتاتيب وغيرها. إذ الواقع أن ما أنشأه المماليك من المساجد ودور العبادة قد فاق من حيث الكثرة الفخامة ما أنشئ في جميع العهود الإسلامية. ولكن الأمر لا يحتمل شيئا من العجب، إذا عرفنا أن هذه المساجد ودور العبادة إنما كان ينشئها المماليك في كثير من الأحيان تكفيرا عن ذنوبهم، وتقربا إلى الله، كيما يتجاوز عن سيئاتهم والأمثلة على ذلك كثيرة. ونكتفي بذكر المثل الآتي: فمعلوم أن الأمير حسام الدين لاچين اشترك في المؤامرة التي انتهت باغتيال الأشرف خليل.

فلما خشي انتقام الأشرفية (مماليك الأشرف)، اتخذ من جامع ابن طولون مخبأ له، يتوارى فيه عن الأنظار، وكان حينئذ خرابا لا سكان فيه.

ونذر لله أن هو سَلم من هذه المحنة، ومكَّن له، ليجددن عمارة هذا الجامع، ويقفن عليه الأوقاف التي تفي بنفقاته، وقد خرج من هذه المحنة سالما. ويرجع الفضل في ذلك إلى الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، نائب السلطنة في ذلك الوقت، والذي انتهى إليه المُلك أخيرا، وتلقب بالملك العادل. ولكن لاچين، حائك المؤامرات، ومدبر الفتن، لم يحفظ هذه اليد لكتبغا، ولم يذكر له هذا الفضل، وتحركت عوامل الحسد والحقد في صدره، فانقلب عليه، وكاد يفتك به، لولا أن فر كتبغا إلى الشام، فاغتصب لاچين المُلك، وصار سلطانا على مصر. فلما تم له ذلك، وفى بنذره، وجدد الجامع، وما تزال آثار التجديد باقية إلى اليوم.

وقليل من المماليك من لم تتلطخ يداه بدماء الأبرياء، ومع ذلك فقد كانوا يتبارون في بناء المساجد والتكايا والأضرحة، ويقومون بكثير من الخيرات والمبرات. غير أن هذه المبرات نفسها كانت تستخدم في إنشائها كثير من أساليب الظلم والعسف، فالأراضي تغتصب من أصحابها، والضرائب يثقل بها كواهل الناس من أجلها، والسخرة والتعذيب والجلد لا معدى عنها لا مفر للشعب منها. فكيف يتفق ذلك مع أعمال البر والخير!!!

أما الشعب وكان أغلبه من الفلاحين، الذين يكدون ويكدحون، فلم يكن هناك من يهتم بأمره الاهتمام اللازم، أو يعني بشأنه. فقد كانت الأمراض تحصد أفراده حصدا، لا

سيما عندما ينخفض النيل، وينتشر القحط، ويعقب ذلك الوباء. هنالك تكون الطامة الكبرى، التي يرزح تحتها الشعب عدة سنوات، فتقفر الأرض من الزرع والنبات، ويقل القوت، ويفتك الجوع بالناس، وتنهكهم الأمراض، فينهد كيانهم، وتخور قواهم، ولا يعودون إلى سابق نشاطهم وقوّتهم إلا بعد فوات سنوات عدة.

ومن أعجب ما يذكر في هذه المناسبة أن البلاد رُزئت في عهد برساي، أحد المماليك الشراكسة، بوباء من تلك الأوبئة التي كانت تنتابها بين آن وآخر، فلم يجد الناس السكر، وكان الدواء الوحيد الذي يتداوى به المرضى إذ ذاك. ذلك لأن برسباي كان قد احتكر صناعة السكر، وحرم زراعة القصب، كي يستنزف من الأرباح أقصى ما يستطيع استنزافه. كما كان قد أصدر أمرا بمنع استيراد التوابل من الهند، بما في ذلك الفلفل.

وقبل أن ترتفع أثمانها خزن لنفسه كميات كبيرة منها، ثم باعها لرعاياه بأثمان فاحشة، فجنى من وراء ذلك أرباحا باهظة. وقد نقص عدد القرى في عهد برسباي بسبب هذا الوباء من عشرة آلاف قرية إلى ألفين ومائة وسبعين قرية، وذهب ضحية هذا الوباء مائتا ألف نفس، في مدى ثلاثة شهور، في القاهرة وحدها.

والمماليك كغيرهم من العناصر الأجنبية التي حكمت مصر، لم يكن يهمهم من أمرها، أو من أمر أهلها شيء بقدر اهتمامهم بانتجاع خيرها، والاستيلاء على ثروتها. حقيقة أنه وجد من بين المماليك سلاطين أولوا البلاد عناية طيبة، ونصبوا ميزان العدل، وعملوا على إسعاد العباد، ولكنهم كانوا قلة إذا قيسوا بمجموع المماليك الذين حكموا مصر قرنين وثلاثة أرباع القرن، وقد بلغ عددهم ثمانية وأربعين سلطانا، والذين كانوا يرتعون في بحبوحة العز، بينما كان الشعب يرسف في أغلال الجوع والمرض والفقر.

كان المماليك يعنون بأشخاصهم وأسرهم وأتباعهم وغلمانهم: يلبسون من الملابس أفخرها، ويأكلون من الأطعمة أطيبها، ويسكنون القصور الفخمة، ذات القاعات البديعة النقوش، الوثيرة الفراش، الفسيحة الرحبات، العالية الأشجار، الغالية الرياش. وتزين أفنيتها نافورات صنعت من الفسيفساء الرخامية، الدقيقة الصنع. ويقتنون التحف الغالية، ويركبون

الجياد المطهمة، ويعيشون عيشة البذخ والنعيم، ويحتفظون في دورهم بالعدد الوفير من المماليك، فكان لكل أمير رجاله وغلمانه، يعتد بهم، ويعتمد عليهم في إدراك مآربه، ويرهب بهم عدوه، ويستعين بهم على الوثوب إلى العرش إذ ما لاحت بادرة أمل فيه.

ومن أمثلة حياة البذخ التي كان يحياها المماليك، ما روي عن الناصر مُحَمَّد بن قلاوون من أنه في أثناء عودته إلى مقر ملكه في القلعة بالقاهرة، بعد رحلة قصيرة، كانت تفرش الأرض تحت قدميه بالبسط والمنسوجات الغالية لمساحة تبلغ أربعة آلاف ذراع. وفي طريقه إلى الحج كانت مائدته تزود في جوف الصحراء بالخضر الطازجة من حديقة متنقلة، يحملها أربعون جملا. وفي عرس ابنه استنفد ثمانية آلاف قمع من السكر. وذبحت عشرون ألف رأس من الماشية. وأشعلت في القصر الملكي ثلاث آلاف شمعة. وكان له إسطبل خيل عظيم. وما كان يتردد في أن يدفع ثلاثة آلاف دينار ثمنا لحصان واحد إذا أعجبه. وبلغ من بذخ برقوق أنه أنشأ بين دمشق والقاهرة محطات لتسهيل نقل الثلج من الشام إلى مصر على ظهور الجمال.

وكانت القلعة محل إقامة السلطان، وبها دواوينه وقصره وما يتبعه من أبنية وإدارات. ومن أهم الدواوين ديوان الأحباس ويشبه وزارة الأوقاف، وديوان النظر ويشبه وزارة المالية، وديوان الخاص، وديوان الإنشاء، وديوان الأهراء (شون الغلال السلطانية)، وديوان الطواحين (طواحين الغلال)، وديوان المرتجعات (ديوان التركات). ومن أهم ملحقات قصر السلطان بالقلعة الحوائج خاناه (أو خزانة الفراش)، والطبلخانة (أو خزانة الأبواق والطبول)، والركاب خاناه (أو الإسطبلات السلطانية).

وقد كان البلاط السلطاني في عهد المماليك مليئا بكبار الموظفين: كالحاجب، ووظيفته إدخال الناس على السلطان، والأسنادار، وكان يتولى إدارة البيوت السلطانية، والداوادار، وكان يبلغ السلطان الرسائل، ويقدم إليه المنشورات للتوقيع عليها، ورأس نوبة الأمراء، وكان يتولى الرياسة على أمراء الدولة ومحاكمة المماليك السلطانية. وأمير المجلس، وكانت مهمته حراسة السلطان داخل قصره، وأمير السلاح، وكان يتولى الإشراف على مخازن الأسلحة،

وأميراخور، وكان يشرف على الخيل، وساقي خاص، وهو حامل كأس السلطان، وكان كل هؤلاء الموظفين من الأمراء والمماليك، وليس من بينهم مصري واحد، كما كان لأغلب هؤلاء الأمراء أشعرة أو رنوك (مفردها رنك)، ما زال كثير منها يرى على التحف الخزفية والزجاجية بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.

وكان المماليك يرتدون المنسوجات الهندية الرفيعة، وفوقها القفاطين الحريرية المطرزة، ثم الجبب ذات الفراء الغالية، والسراويل الواسعة من الجوخ، والأخفاف (الأحذية) المصنوعة من أجود أنواع الجلد البلغاري، ويتمنطقون بالأحزمة الحريرية، يثبتون فيها الأسلحة المرصعة بالياقوت والزمرد، ويضعون على رؤوسهم عمامات من النسيج الرفيع (الشاش)، أو طواقي مزركشة مختلفة الألوان. وكانوا يمتطون الخيول العربية الكريمة المطهمة، وسروجها من القطيفة أو الجوخ، المزركشة بالفضة والذهب والأحجار الكريمة.

وكانوا يمارسون أنواعا كثيرة من الألعاب الرياضية: كرمي النشاب، وقذف الرمح، ولعب الأكرة (لعب الكرة بالمضارب من على ظهور الخيل وهي اللعبة المعروفة اليوم باسم البولو)، والقنص، والصيد، خصوصا صيد الطيور الجارحة. وأنشأوا لهذا الغرض الساحات الواسعة والميادين الكبيرة. فيخرج إليها السلطان في جموع الأمراء، وكبار رجال الدولة، فينصب وسط الساحة القبق (الهدف)، وهو قطعة عالية من الخشب، تنصب في برج من الأرض، مرسوم في أعلاها دائرة [٢٢]، فيصطف المتبارون بقسيهم، ويصوبون سهمهم إلى مركز الدائرة. فمن أصاب منهم الهدف، خلع السلطان عليه خلعة نفيسة.

ومن الميادين التي أنشأها السلاطين للعب الكرة «الميدان الصالحي» بأراضي اللوق. أنشأه الصالح نجم الدين أيوب، وصار يركب إليه، ويلعب فيه بالكرة، وما برح هذا الميدان تلعب فيه الملوك بالكرة من بعد الملك الصالح إلى أن انحسر ماء النيل من تجاهه، وبعد عنه. وكان إنشاء هذا الميدان سببا في بناء قنطرة الخرق على الخليج الكبير ليجتازها السلطان عند ذهابه إلى الميدان، وكان موضعها موردة سقائي القاهرة. وقد حرَّف العامة هذا الاسم فصار يطلق على ذلك الموضع باب الخلق (وهو الذي يعرف اليوم بميدان أحمد ماهر)[٢٣].

وأنشأ الملك الظاهر بيبرس «الميدان الظاهري» بطرف أراضي اللوق، وما زال يلعب فيه بالكرة هو ومن أتى بعده من ملوك مصر حتى سنة أربع عشرة وسبعمائة. وأنشأ الملك الناصر مُحَمَّد بن قلاوون «ميدا سرياقوس» شرقي ناحي سرياقوس، بالقرب من الخانقاه. واستمر يتوجه إليه في كل سنة، ويقيم به الأيام، ويلعب فيه بالكرة إلى أن توفي، فعمل ذلك أولاده الذين ملكوا من بعده، كذلك أنشأ الناصر أيضا «الميدان الناصري» من جملة أراضي بستان الخشاب، فيما بين مدينة مصر والقاهرة. أنشأه للعب الأكرة، وكان ركوبه إلى هذا الميدان دائما يوم السبت(٢٤).

وكان سلاطين المماليك يميلون إلى اللهو والمرح، ويعقدون مجالس الشراب، ويقيمون الحفلات الكبيرة، حيث تمد أسمطة الطعام، ويكثرون من المواكب الرسمية في شتى المناسبات، كالخروج لصلاة الجمعة، أو صلاة العيدين، والاحتفال بجبر الخليج، أو الخروج للعب الأكرة أو الصيد. كما كان الأغنياء والأمراء يخرجون إلى خارج القاهرة، ليقضوا عطلة آخر الأسبوع، للاستمتاع بالصيد أو السمر أو الطعام أو الشراب أو مشاهدة «خيال الظل» أو «طيف الخيال»، الذي كان معروفا لديهم، إذ يرجح أنه نقل إلى مصر من الشرق الأقصى، وكانوا واسطة في نقله إلى الغرب، حيث يرجح الكثيرون أنه الأصل الذي اشتقت منه السينما الحديثة(٢٥).

ومهما يكن من أمر، فقد عاشت مصر طوال حكم المماليك عزيزة الجانب، موفورة الحرية، بفضل شجاعتهم وقوة بأسهم. وإليهم يرجع الفضل في صد المغول عن مصر وعن العالم الإسلامي، والقضاء على فلول الصليبيين، فلم تقم لهم من بعد ذلك قائمة. وهم الذين أبقوا على الخلافة الإسلامية، بعد أن خرب التتار بغداد سنة ٥٦٦ هـ (١٢٥٨م)، فنقلوها إلى القاهرة، فصارت مصر قلب العالم الإسلامي النابض، وقبلة المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها. وصارت القاهرة محط رحال التجار والعلماء والرحالة من كل حدب وصوب. وظلت مركز الخلافة الإسلامية إلى أن انتزعها منها سليم الأول العثماني عند غزوه مصر سنة ١٥١٧م.

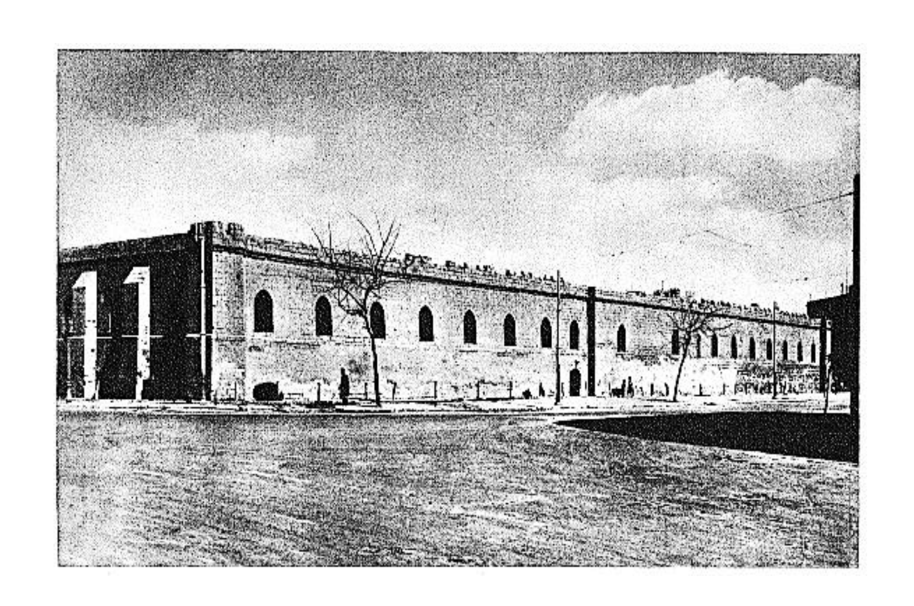
الحالة الاقتصادية

الزراعة:

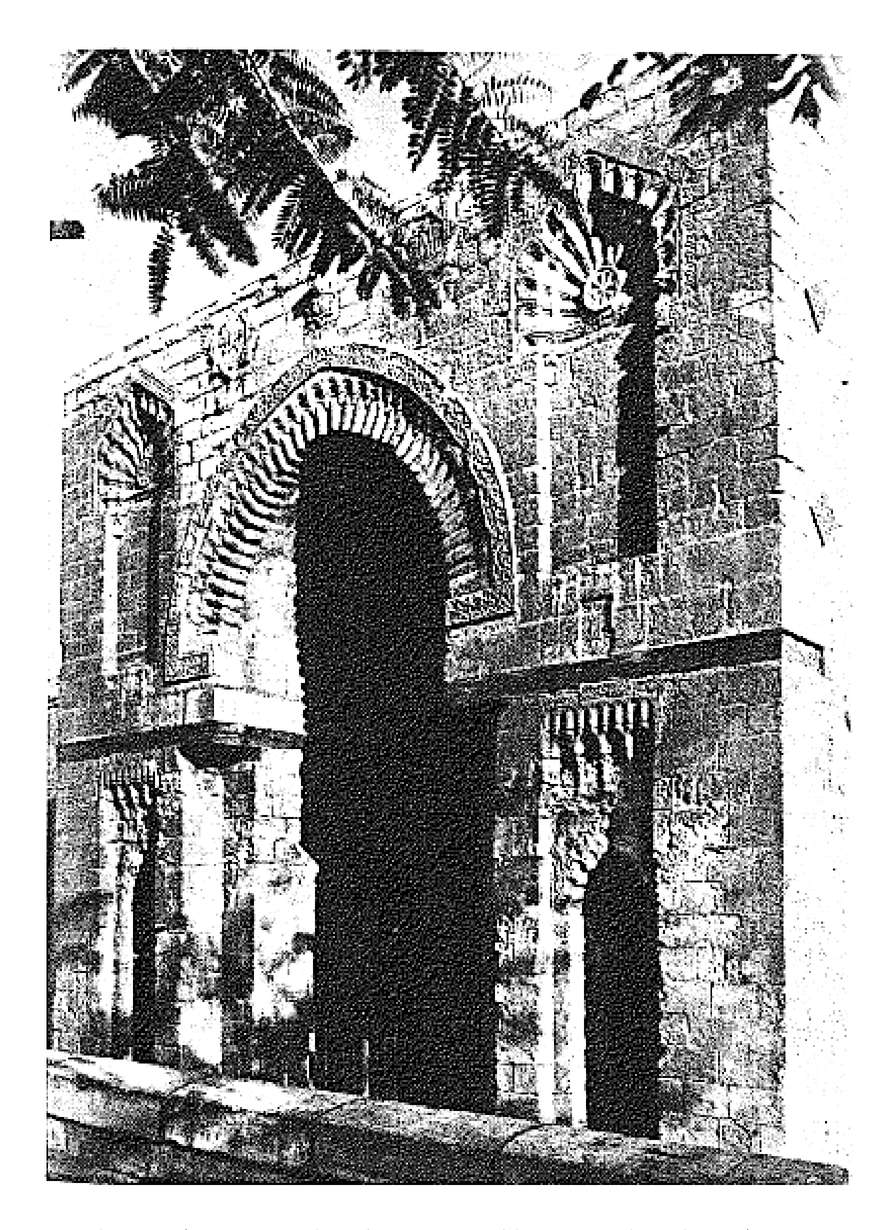
كانت الزراعة مصدر الثروة الرئيسي في عهد المماليك، وكانت الأرض تنبت جميع المحاصيل المعروفة اليوم، من حبوب وبذور وخضر وفاكهة وأزهار. ومما كان يعوق تقدم الزراعة وازدهارها كثرة الضرائب التي كان المماليك يثقلون بها كاهل الفلاحين والتجار، واستعمال القسوة والتعذيب في جبايتها، لذلك كان الفلاحون يمتنعون أحيانا عن عرض محاصيلهم في الأسواق، ويخفي التجار متاجرهم في الحواصل والمخازن، فرارا من قسوة الجباة وظلمهم، وإلحاح السلاطين في جمع أكثر ما يمكن جمعه من الأموال، لكي يحصلوا على المال اللازم لحملاتهم الحربية ونفقات بلاطهم، وحفلاتهم ومواكبهم ومبانيهم العظيمة. ومن هذه الضرائب: ضريبة الأرض أو الخراج، وزكاة الدولة، والجوالى، ومقرر جباية الدينار، والمكوس، والرسوم الجمركية، وموارد الديوان الخاص، وضريبة التركات، وما يتحصل من دار ضرب النقود بالقاهرة، وما كان يجبى عند وفاء النيل[٢٦].

الصناعة:

وازدهرت في عهد المماليك كثير من الصناعات أيَّما ازدهار، وبلغت درجة عظيمة من التقدم والرقي. ولقد تركزت معظم هذه الصناعات في مدينتي مصر والقاهرة. وأحرز الصناع مهارة تستحق الإعجاب.



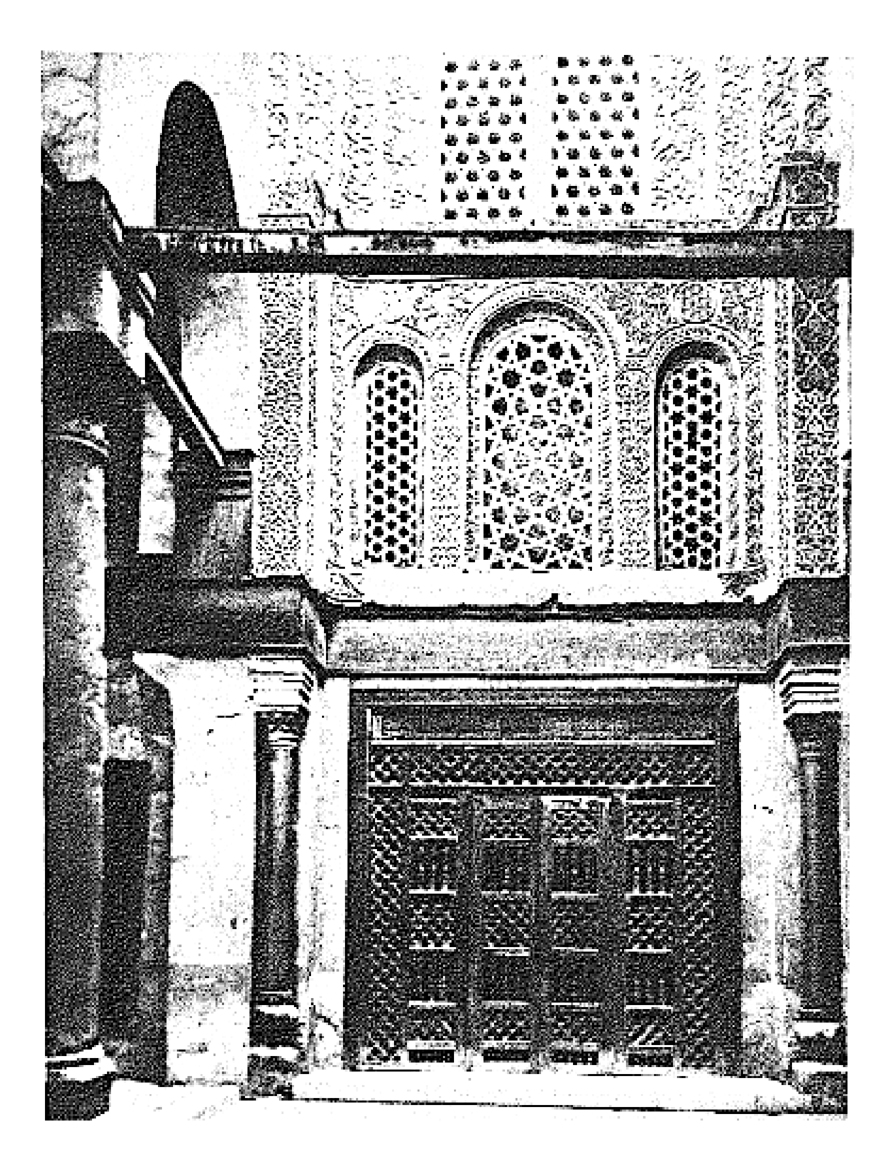
الواجهة الشرقية بمسجد الظاهر بيبرس وهي مشيدة من الحجر المنحوت، وتشاهد الشبابيك ذات العقود المدببة، وبقايا الشرافات المسننة على الجدران، ويظهر جزء من الواجهة القبلية والأكتاف المشطوفة التي بنيت لتقوية الجدران.



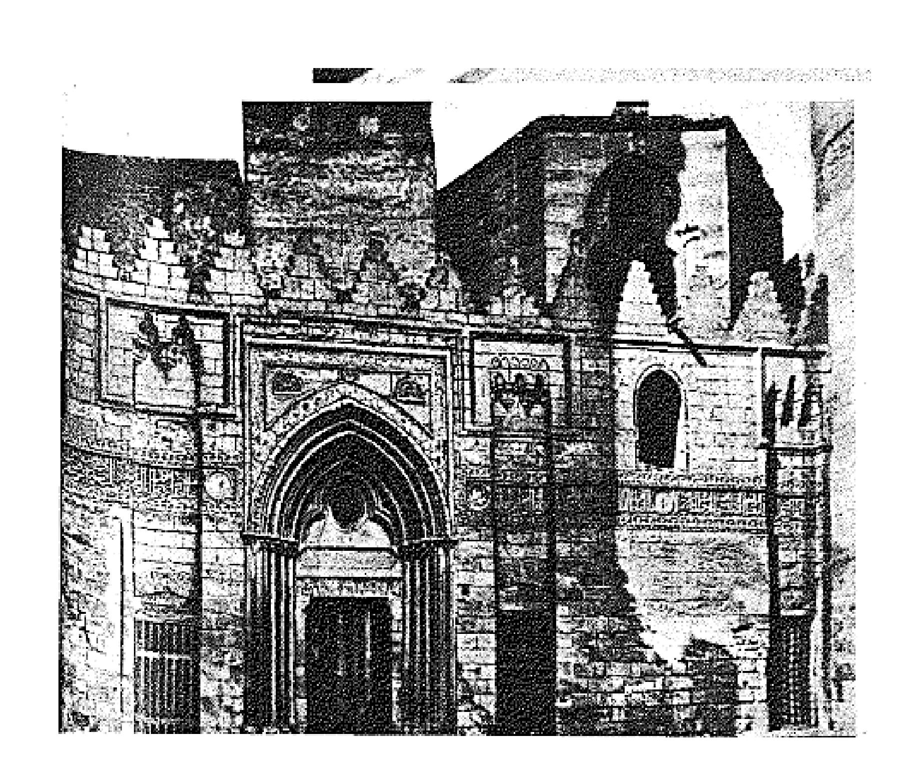
مدخل من المداخل الثلاثة البارزة بمسجد الظاهر بيبرس تلاحظ فيه التجاويف ذات المقرنصات الزخرفية.

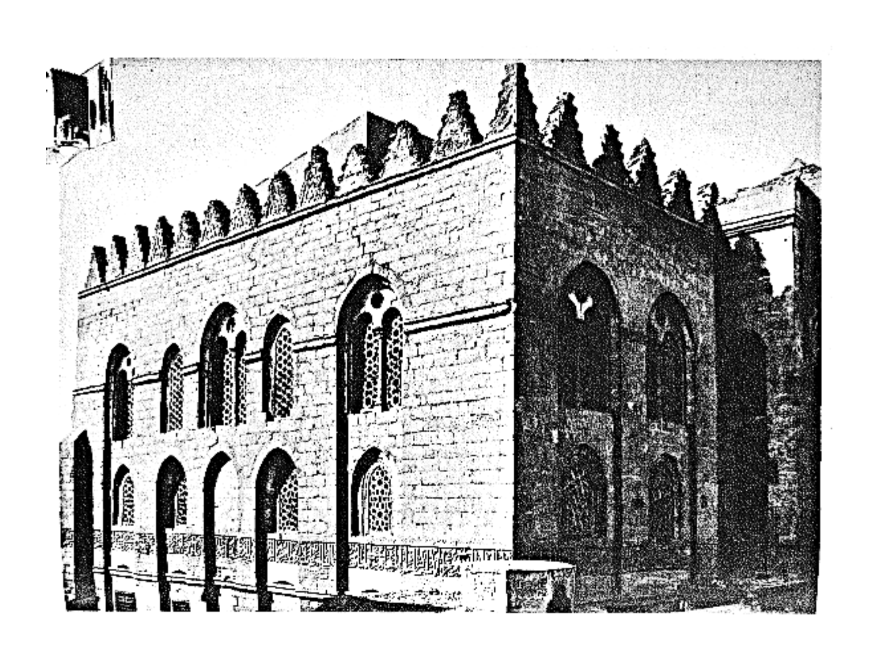


مدرسة وقبة وبيمارستان قلاوون بالنحاسين.

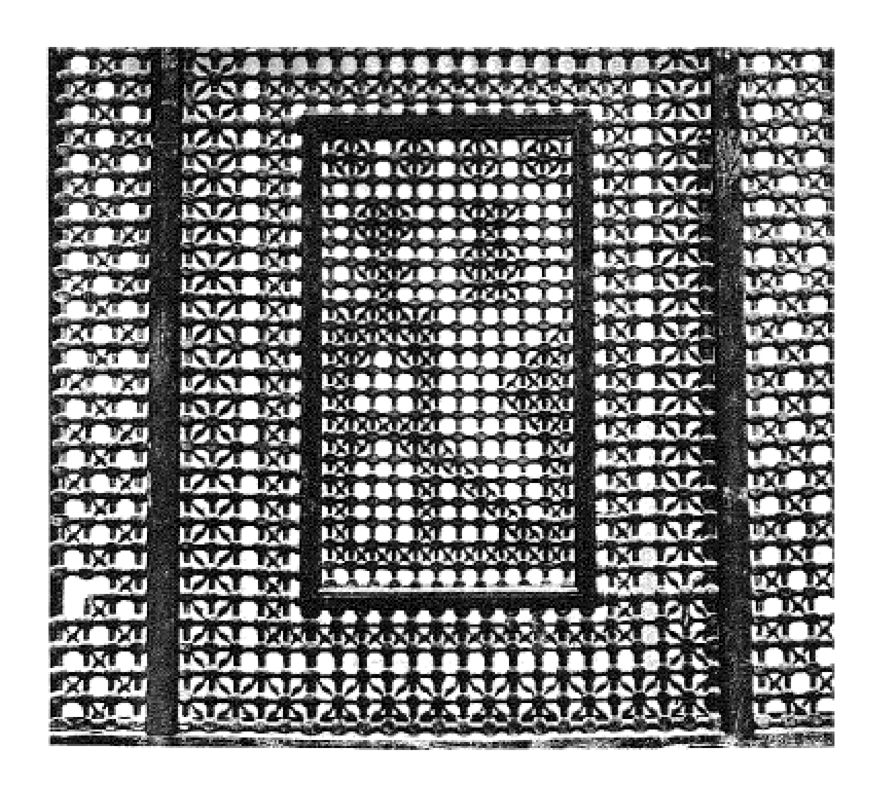


داخل قبة قلاوون: حيث ترى النوافذ ذات الزخارف الجصية الهندسية المغطاة بقطع من الزجاج الملون ونماذج من الزخارف النباتية الجميلة.

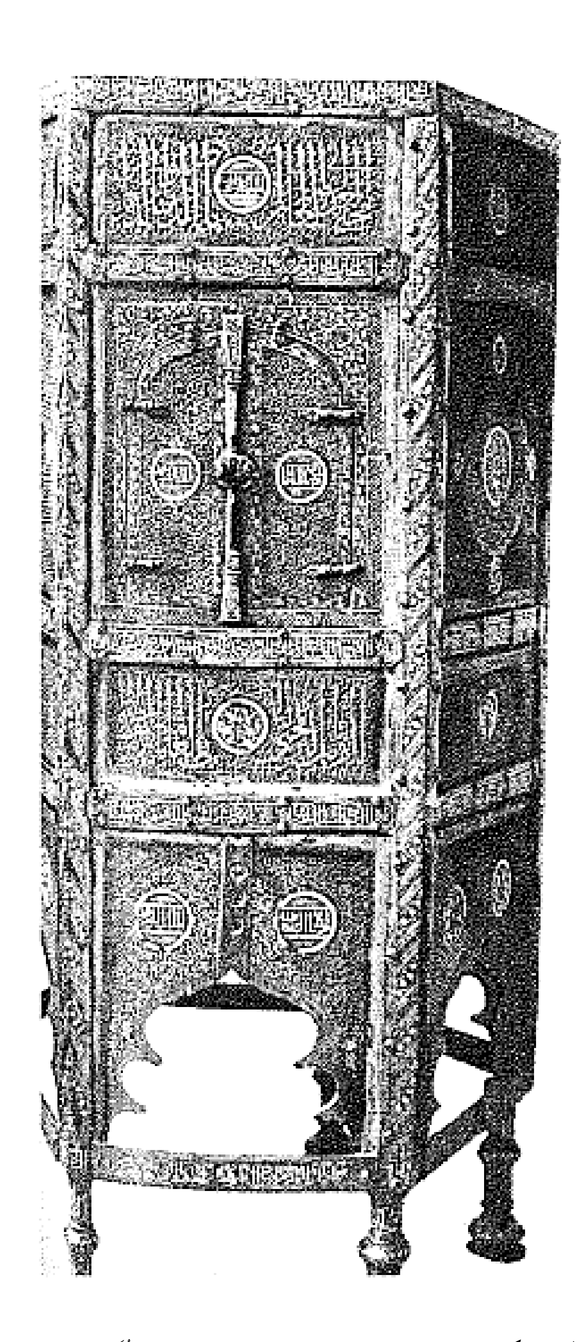




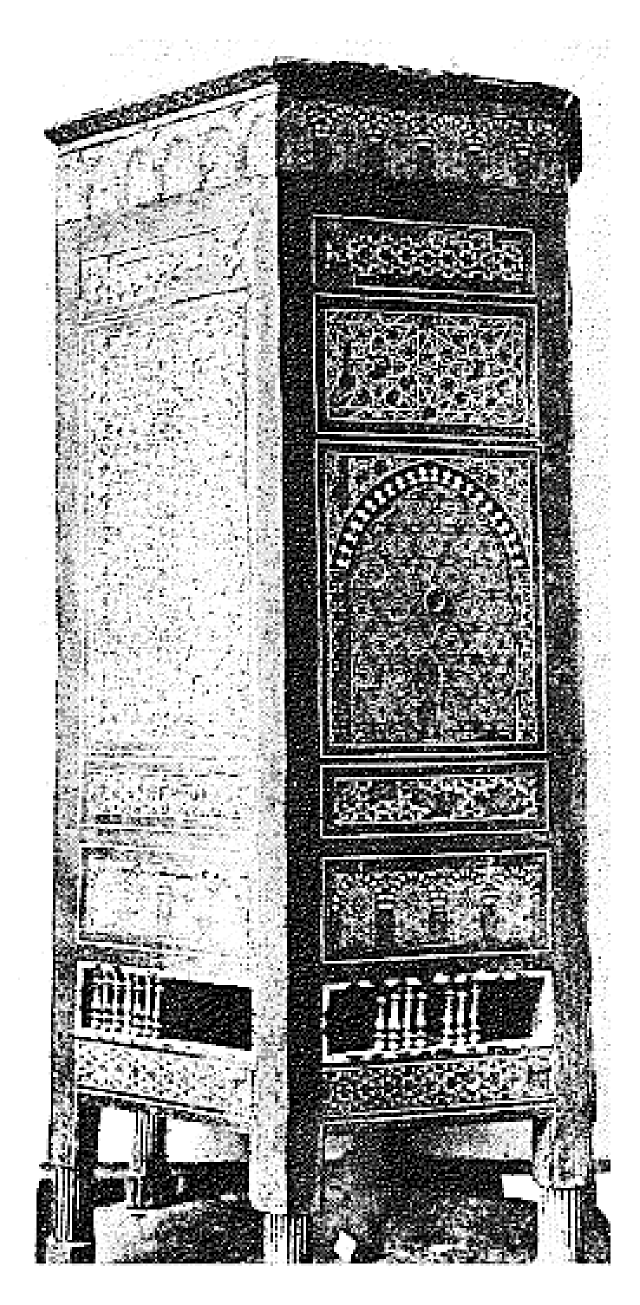
مدرسة الناصر محمَّد بن قلاوون.. وترى الواجهة، وهي مزينة بالزخارف والكتابات الكثيرة، والمئذنة القائمة على الباب الرخامي.



حاجز من خشب مخروم «مشربية» يرى فيه منبر ومشكاة محفوظ بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.

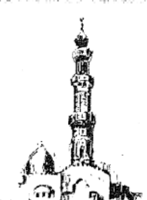


كرسي من نحاس مكفت بالذهب والفضة عليه كتابة برسم السلطان مُحَمَّد بن قلاوون محفوظ بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.

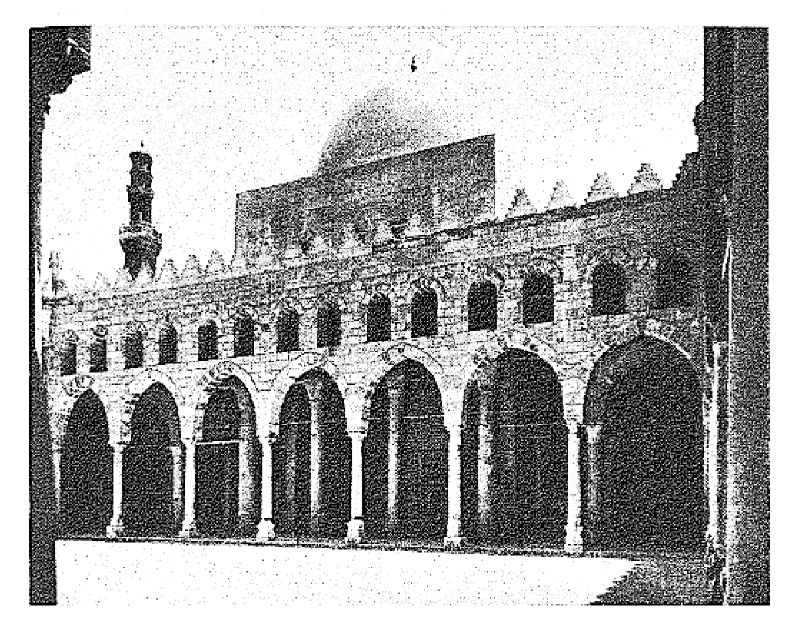


كرسي من خشب (منضدة) مكسوة بطبقة من الفسيفساء من جامع السلطان شعبان الثاني ٧٧٠ هـ (١٣٦٩م) محفوظ بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.

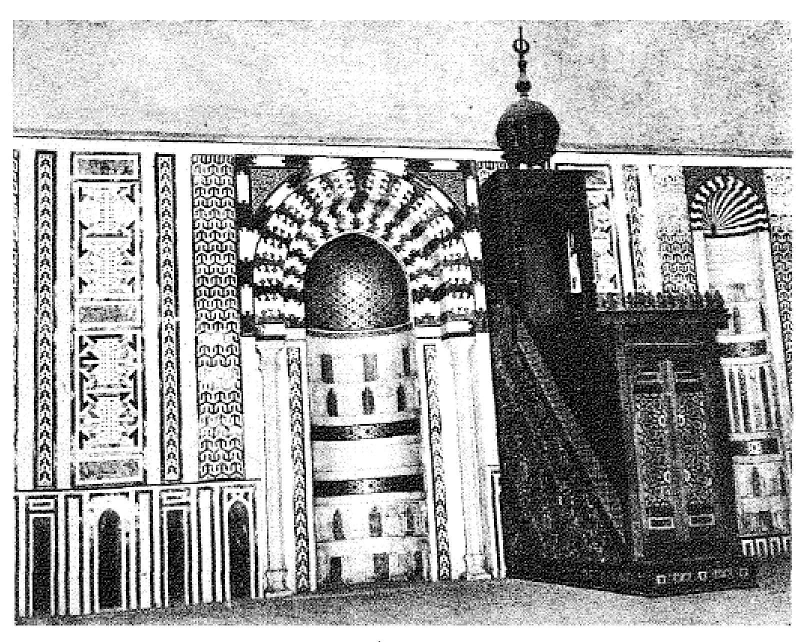




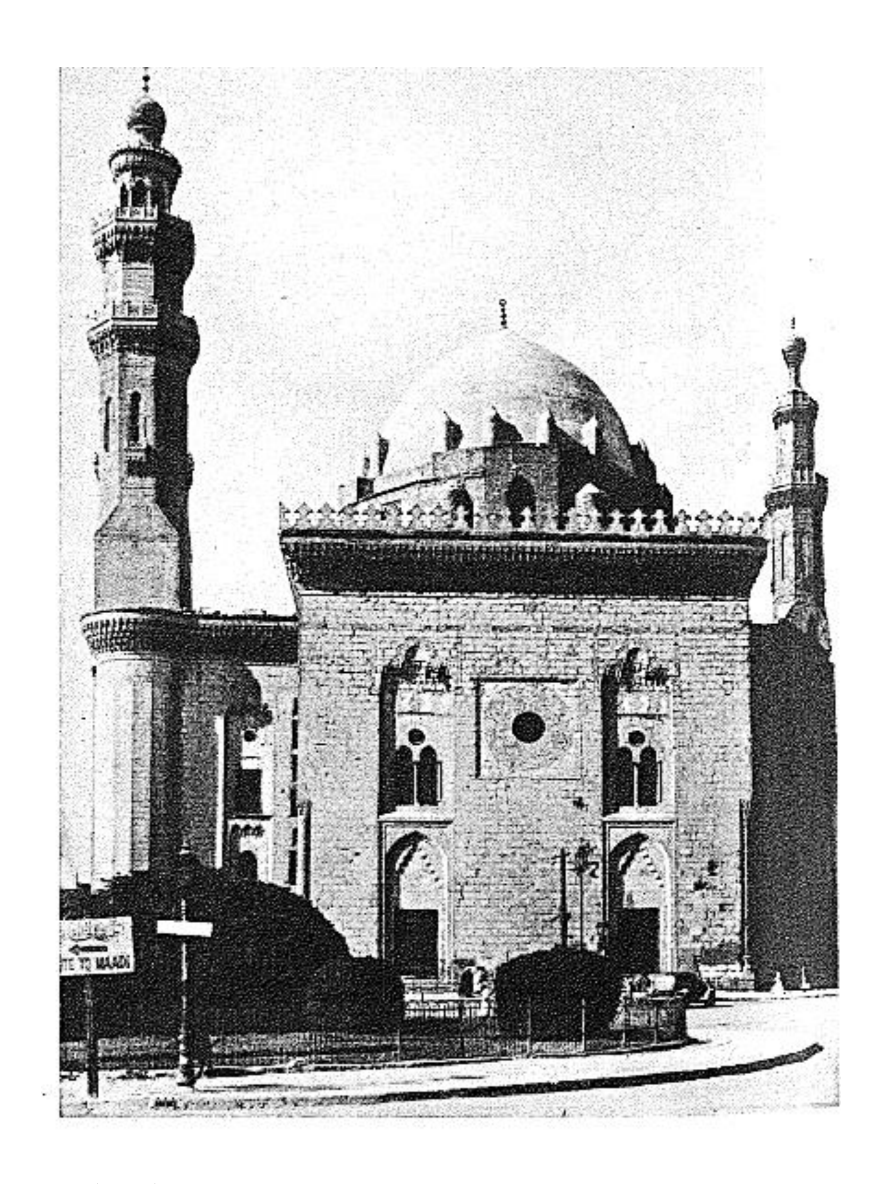
قبتا سلار وسنجر الجاولي، بشارع مارسينا والمنارة ذات القاعدة المربعة والتي تشبه المبخرة وهي طرفة فنية قليلة النظير جاءت متممة لجمال الواجهة البحرية للمسجد. والقبتان متماثلتان شكلا وزخرفة، تعلو كبراهما مدفن الأمير سلار وصغراهما مدفن الأمير سجر الجاولي.



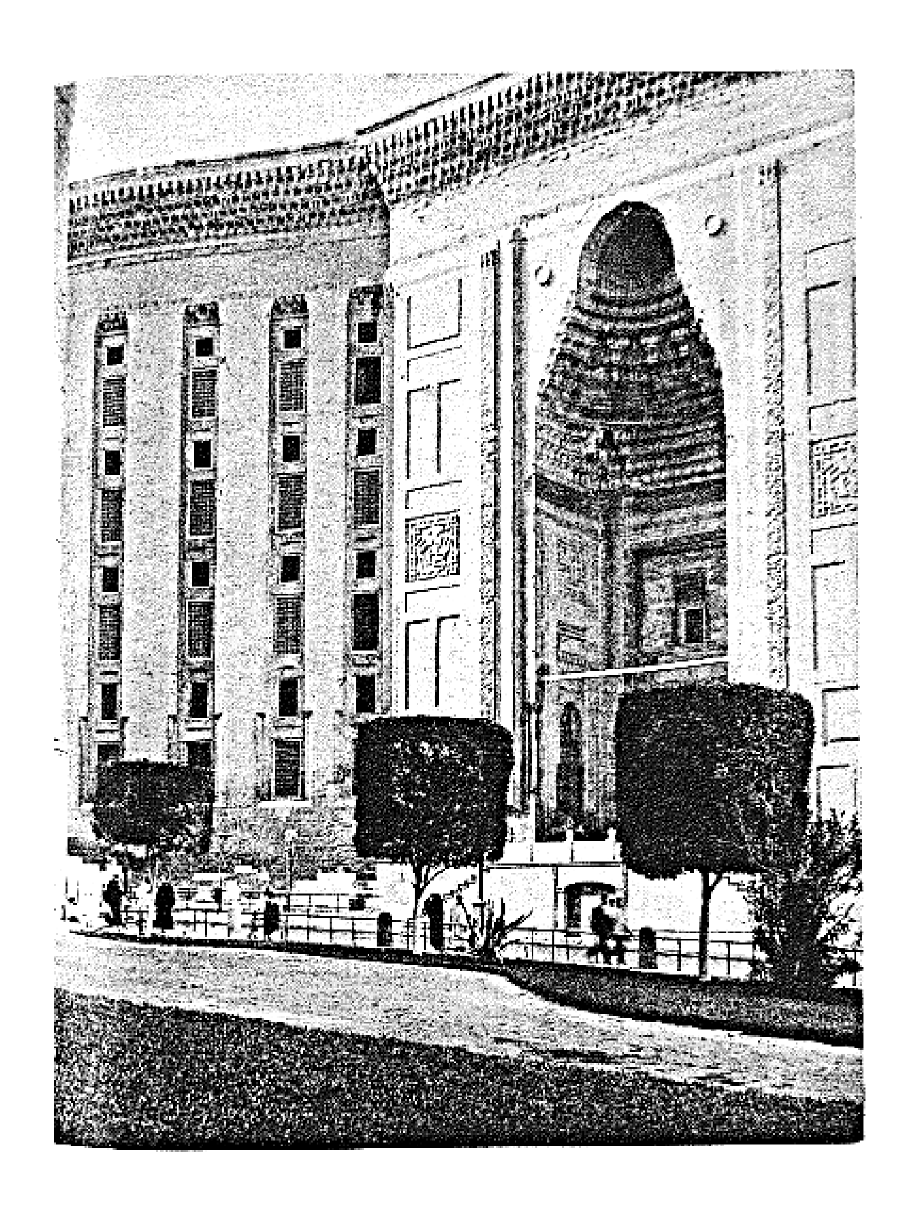
مسجد الناصر مُحَمَّد بن قلاوون بالقلعة.



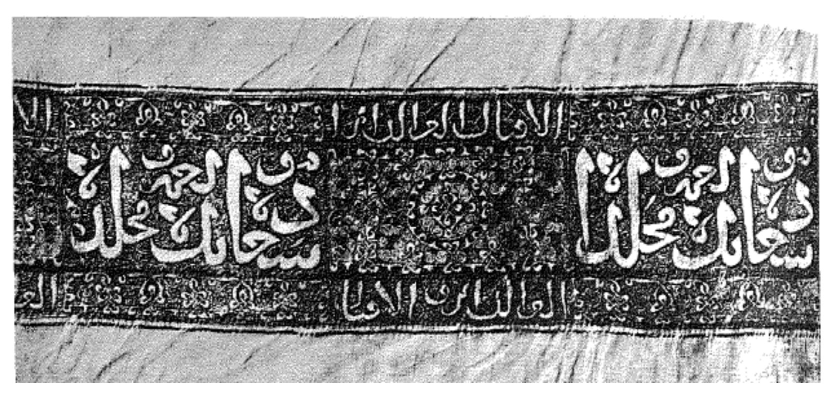
المحراب والمنبر بمسجد الناصر مُحَمَّد بن قلاوون بالقلعة.



الواجهة الشرقية لمدرسة السلطان حسن، وتظهر فيها القبة والمنارتان وجانب من الإفريز الكبير المكون من عدة صفوف من المقرنصات والشرافات ذات الأشكال النباتية.

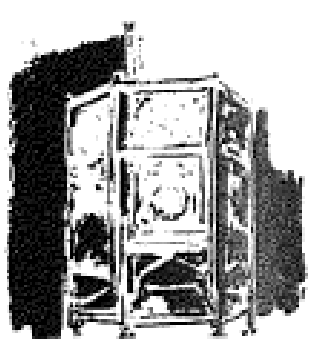


الواجهة الرئيسية لمدرسة السلطان حسن، وتشاهد فيها المقرنصات المدلاة التي زين عقد المدخل المرتفع، والتجاويف العديدة والنوافذ، ويعلوها إفريز المقرنصات.

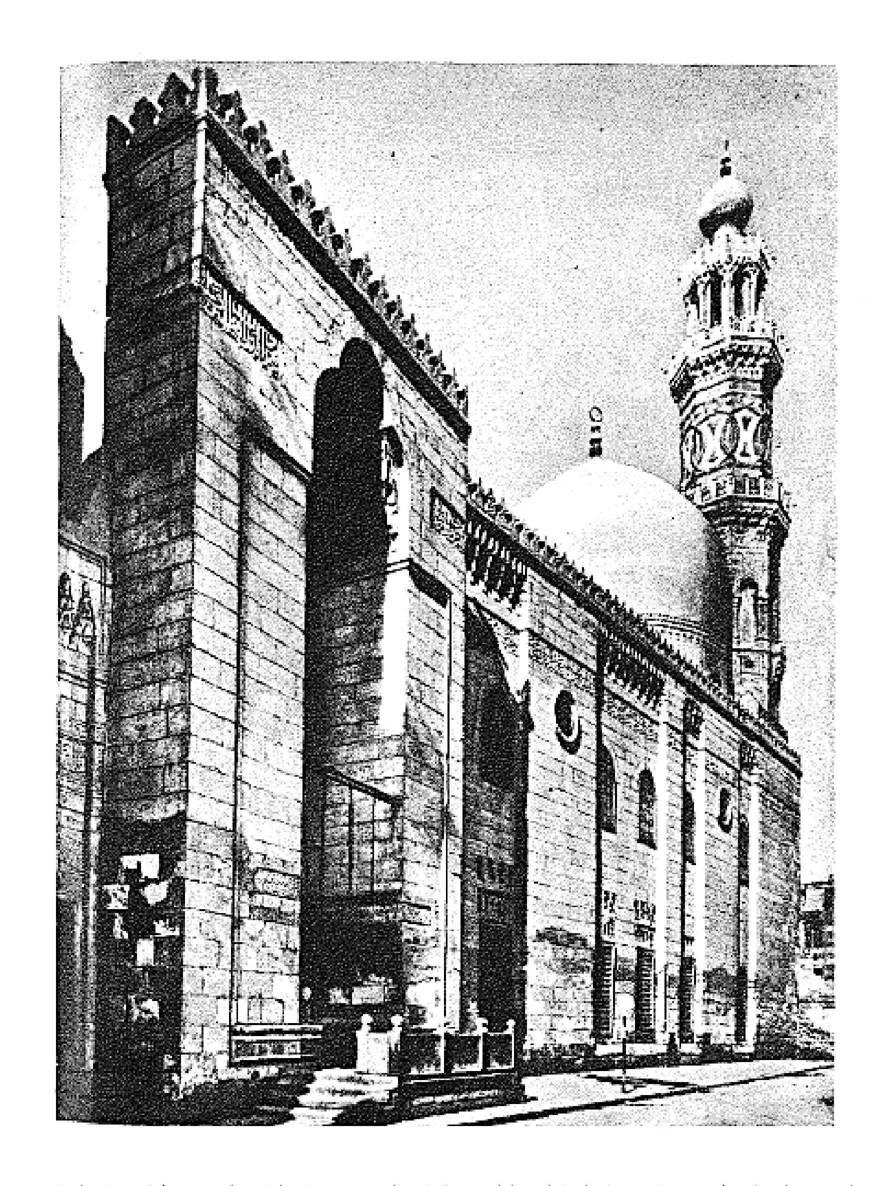


قطعة نسيج من كتان مزينة بشرط من زخارف وكتابات عبارة عن أدعية (من القرن الرابع عشر الميلادي) محفوظة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.

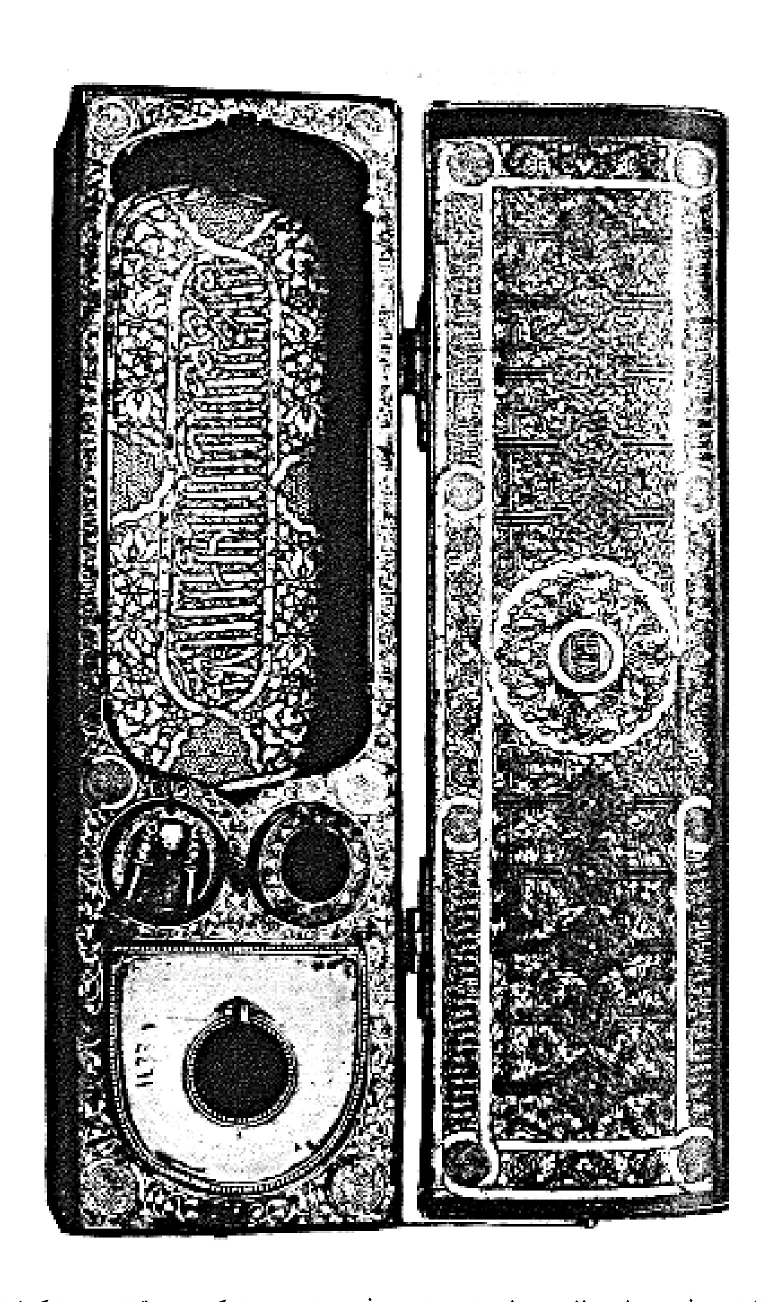




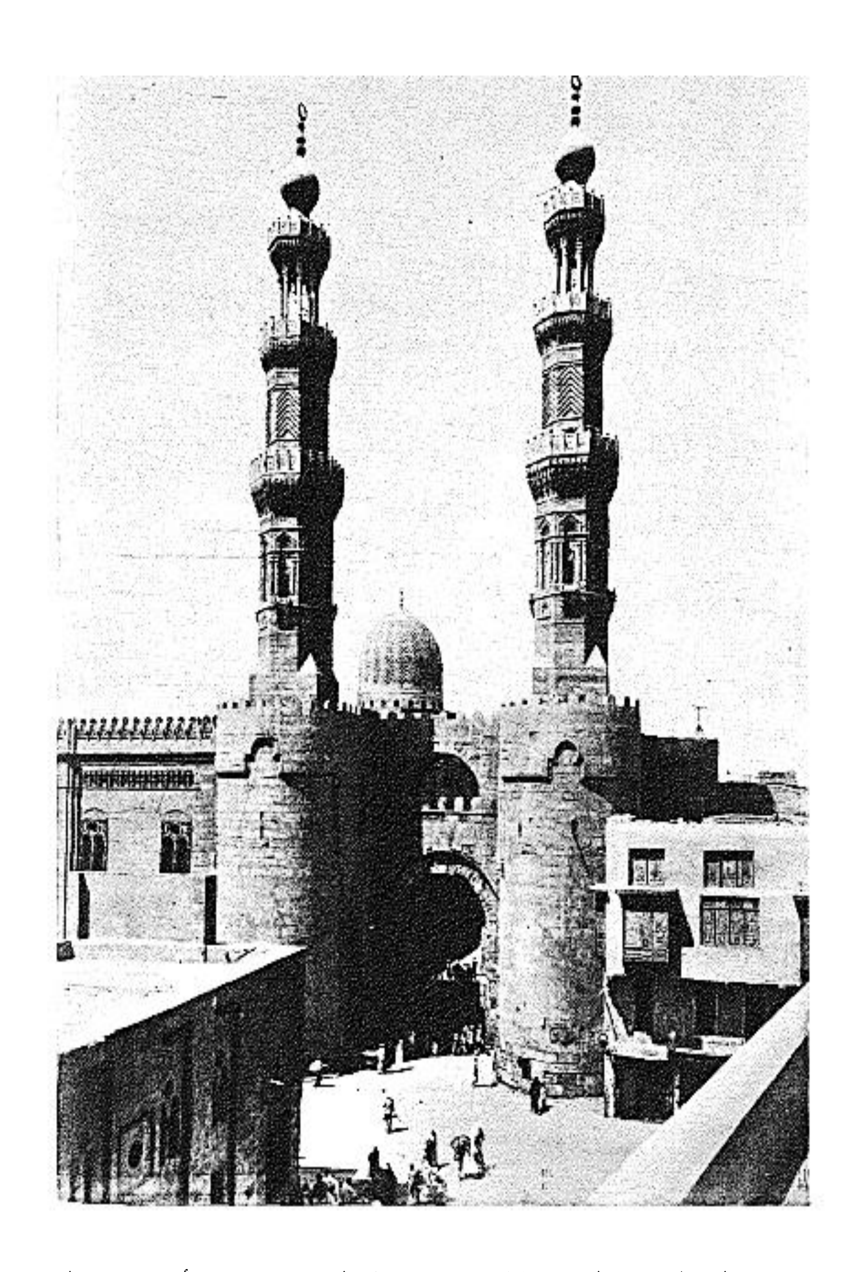
مشكاة وكرتها من زجاج بالمينا تظهر كأنها محاطة بشبكة من حبال مجدولة معقدة بالتماثل، نشأ منها جامات غير منتظمة، تحتوي على زهور أوراقها مختلفة الألوان من أزرق وأخضر وأحمر. والكرة والمشكاة باسم السلطان حسن ٧٦٤ هـ (١٣٦٣م) ومحفوظة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.



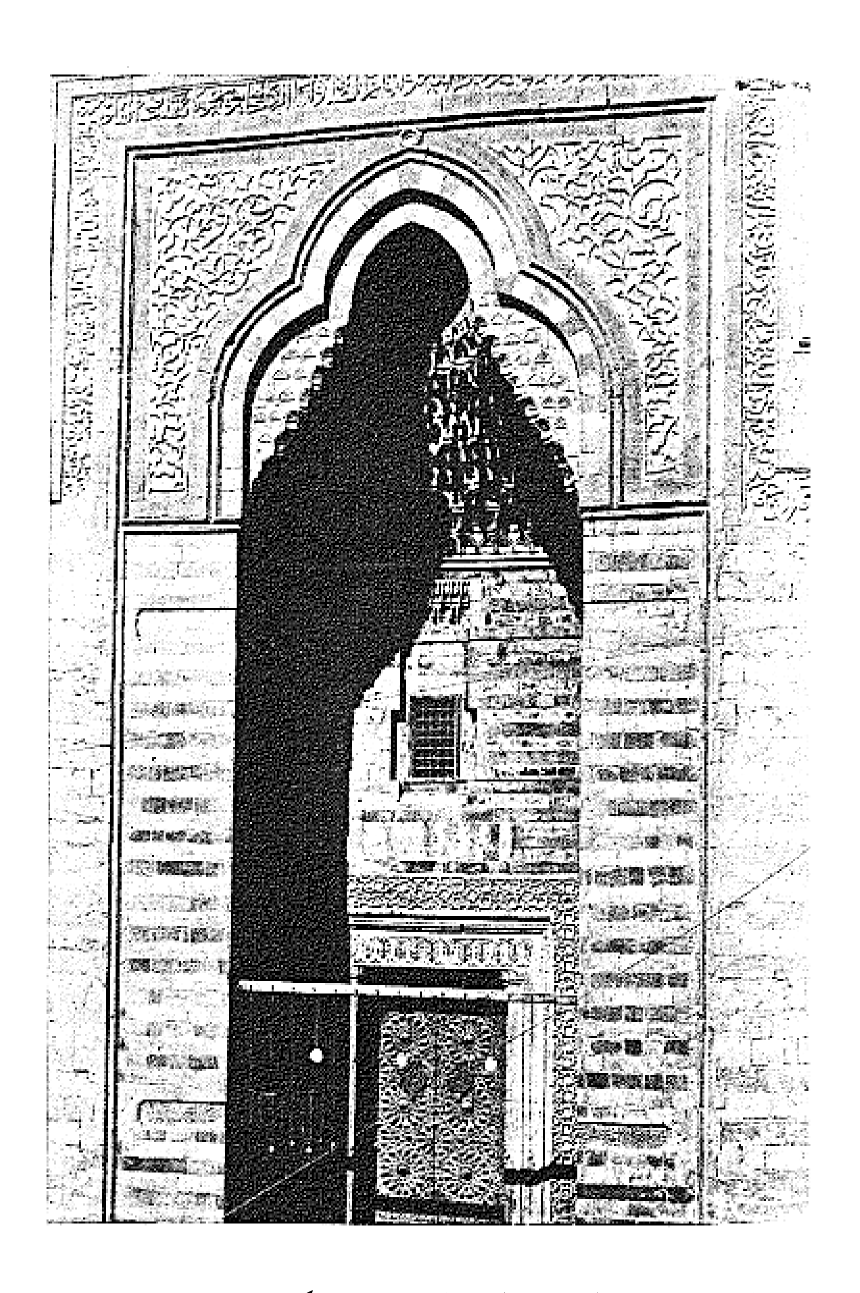
الواجهة الشرقية لمسجد (مدرسة) السلطان الظاهر برقوق بالنحاسين وفي طرفها البحري المئذنة وفي القبلي المدخل الرئيسي.



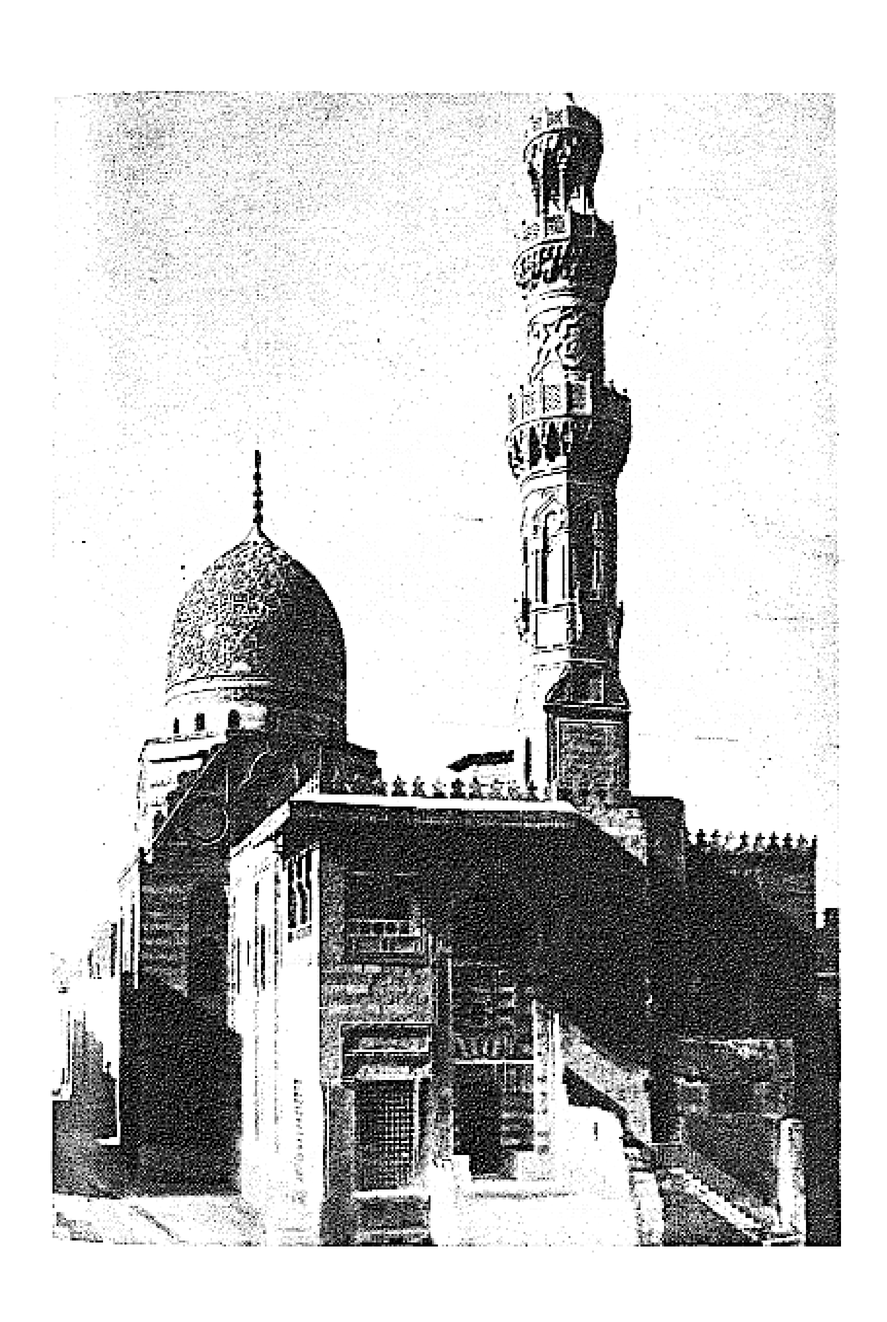
مقلمة من نحاس مطبق بالذهب والفضة، مزينة بزخارف نباتية وهندسية وكتابات دقيقة نسخية وكوفية يتخللها فروع نباتية، وهي أجمل مقلمة معروفة وتحمل اسم الملك المنصور محمَّد (١٣٦٣م) بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.



منارتا مسجد المؤيد الرشيقتان المشيدتان فوق برجي باب زويلة المستديرتين، وهما من أجمل منارات المساجد بالقاهرة، ويصلهما ممر ذو عقد دائري على عقد الباب.



الواجهة الرئيسية في مسجد المؤيد وتبين المدخل الذي يعلوه عقد مكون من ثلاثة فصوص ذات صنج مختلفة الألوان.



المئذنة والقبة بمدرسة قايتباي وكلاهما من روائع الفن الإسلامي.. ويشاهد السبيل الذي يعلوه مكتب والشرافات التي على هيئة أوراق النبات.

وإنما ساعدهم في بلوغ ذلك شيوع نظام الطوائف، فقد كان لكل حرفة طائفة، ولكل طائفة شيخ يهيمن على شئون أفرادها، ويوجههم التوجيه الفني الصحيح، ويرعى مصالحهم. ولابد للصبي قبل أن يصبح صانعا ماهرا أن يسلك عدة خطوات، ثم يحصل بعد ذلك من شيخ الطائفة على شهادة بأنه حذق الصنعة، فينادي به الشيخ معلما، ويصبح عضوا في طائفة حرفته. وكان لكل حرفة مشايخها وأعلامها وطبولها، وتمثل في الاحتفالات العامة، كمولد النبي ووفاء النيل ورؤية هلال رمضان. وتمثل هذه الطوائف اليوم نقابات العمال إلى حد ما.

ومن أهم الصناعات التي ازدهرت بالقاهرة في عصر المماليك صناعة المنسوجات والفرش والستور والخيم والسروج، وصناعة الأواني النحاسية المكفتة كالأباريق والصحون والطسوت والموائد والثريات والمقالم.. إلخ، وصناعة الزجاج، خصوصا المطلي بالمينا، فصنعت منه المشكاوات والدوارق، وصناعة الخزف والبلور الصخري والتحف الخشبية المطعمة بالسن والأبنوس، مما سيأتي ذكره عند الكلام على الفنون في عهد المماليك.

هذا بالإضافة إلى الصناعات الحيوية، التي تتصل بمعاش الناس وحياتهم: صناعة السكر والحلوى وعصر الزيوت، وصناعة القلل والأزيار والبراني، وصناعة الحصر والبناء وصبغ المنسوجات، وغير ذلك من الصناعات التي لا تزال موجودة حتى اليوم.

كذلك قامت بالقاهرة صناعة الأسلحة وأدوات الحرب كالسيوف والرماح والسهام والأقواس والدروع، وأدوات الرياضة والصيد وصناعة السفن.

التجارة:

ولقد نعمت مصر في عهد المماليك بمصدر آخر من مصادر الغنى والثروة، ملأ خزائنهم بالأموال الطائلة، وهيأ لهم حياة العز والنعيم، ومكنهم من بناء القصور الفخمة، والمساجد العظيمة، ذلك هو التجارة الشرقية، التي كانت تخترق مصر أو الشام، في طريقها إلى أوروبا، وكان كلا الطريقين في حوزة المماليك، فيجبون على تلك التجارة ما شاؤوا أن يجبوه من المكوس والضرائب الباهظة.

ولم تكن فائدة مصر من مرور التجارة الشرقية بأراضيها قاصرة على الضرائب الفادحة، التي كان المماليك يجبونها عليها، بل إنها كانت تعمر الأسواق في القاهرة، فتنشط حركة البيع والشراء، حتى أصبح لهم مركز ممتاز بين طبقات الشعب، ومكانة ملحوظة في سياسة البلاد وسير الأمور فيها.

وقد استلزم تفاقم حركة النشاط التجاري بناء الخانات والفنادق والأسواق. ففي الخانات والفنادق ينزل التجار ببضائعهم وسلعهم ودوابهم، ويختزنون بضائعهم في المخازن والحواصل، وتؤدى لهم الأعمال المصرفية. وتفد عليهم تجار التجزئة لشراء حاجياتهم من البضائع التي يعرضنها للبيع في حوانيتهم بالأسواق.

الخانات:

ومن أشهر الخانات (٢٧) "خان مسرور"، وقد كان في الحقيقة خانين: أحدهما كبير والثاني صغير، وكان موضعه خزانة الدرق، إحدى خزائن القصر الفاطمي الكبير، وكان قبل تشييده ساحة لبيع الرقيق. وقد أدرك المقريزي هذا السوق «في غاية العمارة، تنزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم». ومسرور كان خادما لصلاح الدين، وهو الذي بنى هذا الخان. و«فندق بلال المغيثي»، فيما بين خط حمام خشبية وحارة العدوية، أنشأه الأمير الطواشي الحبشي حسام الدين بلال المغيثي، خادم الصالح نجم الدين أيوب، وكثير من سلاطين المماليك بعده وآخرهم الناصر مُحَمَّد بن قلاوون.

«وما برح هذا الفندق يودع فيه التجار وأرباب الأموال صناديق المال، المملوءة بالذهب والفضة». و«خان منكورش» بخط سوق الخيمين بالقرب من الجامع الأزهر، أنشأه منكورش أحد مماليك السلطان صلاح الدين الأيوبي، وعرف بعد ذلك بخان النشارين. و«وكالة قوصون»، وهذه الوكالة تدخل في عداد الفنادق والخانات، ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس (٢٨) والفستق والجوز اللوز والخرنوب والرب (٢٩) ونحو ذلك، وموضعها فيما بين الجامع الحاكمي ودار سعيد السعداء. وقد شهدها المقريزي، ودهش لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع وازدحام الناس، وشدة

أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها.

ويعلو هذه الوكالة رباع تشتمل على ثلاثمائة وستين بيتا عامرة كلها بالسكان، ويقدر سكانها بنحو أربعة آلاف نفس، ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير. و«فندق دار التفاح» ومكانه تجاه باب زويلة، وكان يرد إليه الفواكه على اختلاف أصنافها، مما ينبت في بساتين ضواحي القاهرة، ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الواصل من البلاد الشامية، ومنها ينقل إلى سائر أسواق القاهرة ومصر ونواحيهما.

وأنشأ هذه الدار طقوزدمر، بعد سنة أربعين وسبعمائة، وبظاهر هذه الدار عدة حوانيت تباع فيها الفاكهة «تذكر رؤيتها وشم عرفها بالجنة، لطيبها، وحسن منظرها وتأنق الباعة في تنضيدها واحتفافها بالرياحين والأزهار، وما بين الحوانيت مسقوف حتى لا يصل إلى الفواكه حر الشمس». و«وكالة باب الجوانية، ومكانها تجاه باب الجوانية من القاهرة، فيما بين درب الرشيدي ووكالة قوصون. كان موضعها عدة مساكن، فابتدأ الأمير جمال الدين محمود بن علي الاستادار بهدمها سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، وبناها فندقا، وربعا بأعلاه، فلما كملت، رسم[٣٠] الملك الظاهر برقوق أن تكون دار وكالة، يرد إليها ما يصل إلى القاهرة، وما يرد من صنف متجر الشام في البحر كالزيت والرب والدبس، وما يرد في البر يُدخل به على عادته إلى وكالة قوصون.

و«خان الخليلي» وقد أنشأه الأمير جهاركس الخليلي، أميراخور السلطان الظاهر برقوق، المتوفى في سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩م) في مكان تربة الخلفاء الفاطميين، التي كانت تجاور القصر الشرقي الكبير، والتي كانت تعرف باسم تربة الزعفران. فلما رغب جهاركس في بناء هذا الخان، نبش تربة الزعفران، وألقى بما كان بها من عظام على التلال، الموجودة خارج القاهرة، معتذرا عن ذلك بأن الفاطميين كانوا كفارا رفضة، وهذه الدعوى من غير شك لا تنهض عذرا لهذا العمل الشنيع، ولا لما يقتضيه جلال الموت من احترام للموتى ورفاتهم. ومع ذلك فقد أوقف هذا الخان وغيره من المباني على فقراء مكة، وجعل ريعها خبزا يوزع عليهم، ثم استبدل بالخبز نقودا، وهذا مثل آخر من أعمال السوء التي كان

يرتكبها بعض المماليك، ثم يكفرون عنها بإنشاء المبرّات وأعمال الخير.

وفي ربيع الثاني سنة ٩١٧ (يوليو سنة ١٥١١) هدم السلطان الغوري خان الخليلي، وأنشأ مكانه حواصل وحوانيت وربوعا ووكالات يتوصل إليها من ثلاث بوابات (٣١)، وقد هدمت هذه الحواصل وتلك الحوانيت، وأعيد بناء الخان بعد ذلك. ويغص اليوم بحوانيت التحف والطرف، حيث يقوم الصناع بتقليد بعض الصناعات المملوكية، خصوصا المصنوعات المعدنية بالزخارف الهندسية والنباتية.

ويحتل خان الخليلي مركزا عالميا اليوم، فالسائحون الذين يفدون على مصر كل عام من شتى أنحاء العالم لا يغادرونها قبل زيارة هذا الخان لشراء بعض التحف، تذكارا لزيارتهم القاهرة، من البضائع الشرقية كالأقمشة الحريرية المطرزة بالقصب، والخيم، والأواني النحاسية المكفتة، والتحف العاجية، والأخفاف (المراكيب) والحقائب الجلدية، والسجاجيد.

الأسواق:

وقد عقد المقريزي في خططه فصلا لأسواق القاهرة، ذكر فيه أسواقها التي كانت موجودة في عصره، وقد تتبعها منذ أيام الفاطميين، ووصف أماكنها، وذكر ما كانت تعج به من سلع ومتاجر. وقال في مفتتح هذا الفصل: "وقد كان بمدينة مصر (الفسطاط) والقاهرة وظواهرها من الأسواق شيء كثير جدا، قد باد أكثرها، وكفاك دليلا على كثرة عددها أن الذي خرب من الأسواق فيما بين أراضي اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقا، أدركناها عامرة، فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا. وهذه الخطة من جملة ظاهر القاهرة الغربي، فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر!!".

وسمع المقريزي ممن أدركهم من المعمرين أن بشارع القصبة، وهو أعظم أسواق مصر، والذي كان يمتد ما بين أول الحسينية والمشهد النفيسي، كان يوجد اثنا عشر ألف حانوت. وقد أدرك هذه المسافة عامرة بالحوانيت. وسوق القصبة هذا هو عبارة عن الشارع الأعظم الذي كان يعرف بقصبة القاهرة، أو شارع القاهرة، وأكثرها عمرانا بالحوانيت والخانات، وأشدها زحاما بالناس. وهذا الشارع هو المعروف اليوم باسم شارع المعز لدين الله، ويدخل

ضمنه من بحريه جزء من الفضاء العظيم الذي كان واقعا بين القصرين الفاطميين.

وقد تضاءل هذا الفضاء بما أقيم على جوانبه من مساجد ومدارس وأضرحة ومبان أخرى في عهد الأيوبيين والمماليك، وانتهى به الحال إلى الطريق الضيق المعروف بخط بين القصرين. وقد كان يتفرع من شارع القصبة يمينا ويسارا عدة أسواق، فهو يشبه في ذلك النهر الأعظم وما يتفرع منه من نهيرات وجداول.

وقد تخرب بعض تلك الأسواق، وقدر البقاء للبعض الآخر. ونجتزئ هنا بذكر أشهر تلك الأسواق، معتمدين في ذلك على ما ورد في فصل أسواق القاهرة، سابق الذكر:

«سوق باب الفتوح» في داخل باب الفتوح، وبه حوانيت اللحامين، والخضريين، والفاميين، والشرايحية وغيرهم.

«سوق المرحلين» عند رأس حارة بهاء الدين، وهو مملوء برحالات الجمال وأقتابها وسائر ما تحتاج إليه. ولو أراد الإنسان تجهيز مائة جمل وأكثر في يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه من ذلك.

و«سوق خان الرواسين» على رأس سويقة أمير الجيوش، وكان يشتمل على نحو العشرين حانوتا، مملوءة بأصناف المآكل. و«سوق حارة برجوان» وهي من حارة برجوان إلى قريب الجامع الحاكم. وكانت من أعظم أسواق القاهرة، لوفرة الأطعمة بها، نيئة ومطبوخة، وأنواع المتاع المختلفة. وبها الحمامات والأفران. وكان فيه قباني برسم وزن الأمتعة والمال والبضائع.

و«سوق الشماعين» بالقرب من الجامع الأقمر، وحوانيته عامرة بالشموع الموكبية والفانوسية، وكان به في شهر رمضان موسم عظيم، لكثرة ما يشترى ويكترى من الشموع الموكبية، التي تزن الواحدة منها عشرة أرطال فما دونها. ومن الشمع الذي يحمل على العجل، ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار وما فوقه.

و«سوق الدجاجين» ويلي سوق الشماعين، وكان يباع فيه الدجاج والأوز شيء كثير جليل للغاية. وفي كل يوم جمعة يباع فيه بكرة أصناف القمارى والهزازات والشحارير والببغاء والسمان. ومن السمان ما يبلغ ثمنه المئات من الدراهم، وكذلك بقية طيور المسموع، يبلغ

الواحد منها نحو الألف درهم، لتنافس الناس فيها، وتوفر عدد المعتنين بها، وكان يقال لهم غواة طيور المسموع، سيما الطواشية، فإنه كان يبلغ بهم الترف أن يقتنوا السمان، ويتأنقوا في أقفاصه، ويغلوا في أثمانه، حتى بيع طائر من السمان مرة بألف درهم فضة، وآخر بنحو الخمسين دينارا من الذهب، كل ذلك لإعجابهم بصوته. وكان صوته على وزن قول القائل "طقطلق وعوع". وكلما كثر صياحه كانت المغالاة في ثمنه.

و«سوق بين القصرين» وكان في الدولة الفاطمية براحا واسعا، يقف فيه عشرة آلاف، ما بين فارس وراجل، ثم لما زالت الدولة، ابتذل وصار سوقا يعجز الواصف عن حكاية ما كان فيه. وقد تضاءل بعد ذلك، وقلَّت حوانيته في عهد المقريزي.

و«سوق السلاح» ويقع فيما بين مدرسة الظاهر بيبرس، وبين قصر بشتاك. وقد استجد فيما بعد الدولة الفاطمية، في خط ما بين القصرين، وجعل لبيع القسي والنشاب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح.

و«سوق القفيصات» تجاه شبابيك القبة المنصورية، حيث كان يجلس أناس على تخوت، فوقها أقفاص صغار من حديد مشبك، فيها الطرائف من الخواتم والفصوص «وأساور النساء وخلاخليهن» وغير ذلك. وهذه الأقفاص يأخذ أجرة الأرض التي عليها مباشرة المارستان المنصوري.

و«سوق باب الزهومة» وسمي كذلك تبعا لباب الزهومة، أحد أبواب القصر الفاطمي. وكان من أجمل أسواق القاهرة وأفخرها، موصوفا بحسن المآكل وطيبها.

و«سوق المهامزيين» وهو ما استجد من الأسواق بعد الدولة الفاطمية، كان بأوله سوق العنبر، الذي أنشأه المنصور قلاوون، ويقابله المارستان والوكالة ودار الضرب. وهذا السوق معد لبيع المهاميز. وقد أدرك المقريزي الناس وهم يتخذون المهماز كله –قالبه وسقطه– من الذهب الخالص، ومن الفضة الخالصة، وهؤلاء هم المترفون، وإلا فيتخذ القالب من الحديد، ثم يطلى بالذهب أو الفضة، ويتخذ السقط من الفضة. وكانت تباع بهذه السوق البذلات الفضة التي كانت برسم لجم الخيل، وسلاسل الفضة، والطرف التي

فيها الفضة والذهب كسكاكين الأقلام ونحوها.

و«سوق اللجميين» ويباع فيه آلات اللجم ونحوها، مما يتخذ من الجلد والسروج، وتعمل ملونة، ما بين أصفر وأزرق، وفيها ما يعمل سيورا من الجلد البلغاري الأسود، ويركب بهذه السروج السوداء القضاة ومشايخ العلم اقتداء بعادة بني العباس في استعمال السواد. ولما تسلطن الملك الظاهر برقوق اتخذ سائر الجند السروج المفرقة، وهي التي جميع قرابيسها -جمع قربوس وهو حلقة تركب في السرج- من ذهب أو فضة، إما مطلية أو ساذجة. وكثر عمل ذلك حتى لم يبق من العسكر فارس إلا وسرجه هكذا.

و«سوق الجوخيين» ويلي سوق اللجميين، وهو معد لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج، لعمل المقاعد والستائر وثياب السروج وغواشيها. وقلما كان الناس يلبسون الجوخ، وإنما يلبسه الرؤساء والأكابر وقت المطر فقط، فإذا ارتفع المطر، نزع الجوخ.

و«سوق الشرابشيين» نسبة إلى الشرابيش -مفردها شربوش وهو شيء يشبه التاج، مثلث الشكل، يجعل على الرأس بغير عمامة- وكان السلطان برقوق إذا أمَّر أحدا من الأتراك، ألبسه الشربوش. وقد كان لباس الرأس يتغير شكله بتغير السلطان: ففي عهد المنصور قلاوون كان يلبس خاصيته -خواصه- ومماليكه الكلوتات -الطواقي- الجوخ والصفر. وفي عهد الأشرف خليل استبدل بها الكلوتات المزركشة، وفي عهد الناصر محمَّد بن قلاوون استجد العمائم الناصرية، وهي صغار، وفي عهد الأمير يلبغا العمري الخاصكي عمل الكلوتات اليلبغاوية، وكانت كبارا، واستجد الأمير سلار، في أيام الملك الناصر محمَّد القباء الذي يعرف بالسلاري.

فلما تملك الظاهر برقوق عمل الكلوتات الچركسية، وهي أكبر من اليلبغاوية، وفيها عوج. أما الشربوش فكان برقوق إذا أمَّر أحدا من الأتراك، وخلع عليه، ألبسه الشربوش، كما تقدم ذكره، وقد بطل الشربوش في الدول الجركسية. وكان يباع في هذه السوق الخلع التي يُلبسها السلطان للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم.

و«سوق الحلاويين» وكان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطط وغيرها،

تسمى العلاليق –واحدتها علاقة– ترفع بخيوط على الحوانيت. فمنها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل، تشتري للأطفال، فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده.

و«سوق الشوايين» أي بائعي الشواء أو اللحم المشوي. و«سوق الشرايحيين»، أي بائعي الشرائح، وهي أحزمة الخيول وأدوات السروج.

و«سوق الغرابليين» وفيه حوانيت لعمل مناحل الدقيق والغرابيل.

و«سويقة أمير الجيوش» وبها حوانيت الرفائين والحياكين والرسامين –المطرزين– والغرائيين –بائعي الغراء– والثياب المخيطة والأمتعة من الفرش ونحوها، و«سوق الجمالون الصغير» وتباع فيه الثياب القطنية والكتانية، وبه حوانيت لغسل الثياب وكيها. و«سوق المحايريين» وفيه حوانيت لعمل المحاير –مفردها محارة– التي يُسافر فيها إلى الحجاز وغيره.

و«الصاغة» وما تزال إلى اليوم في مكانها القديم. و«سوق الكتبيين» و«سوق الصنادقيين»، و«سوق الحريريين»، و«سوق الخراطين»، لبيع المهد –مفردها مهد– الذي يربى فيه الطفل. و«سوق الفرايين» وتباع فيه أنواع الفراء كالسمور والوشق والعمائم والسنجاب. و«سوق الخلعيين» بالقرب من باب زويله الكبير. والخلعيون جمع خلعي وهو الذي يتعاطى بيع الثياب الخليع، وهي التي قد لبست. وقد كانت من أعمر أسواق القاهرة، لكثرة ما يباع فيها من ملابس أهل الدولة وغيرهم. و«سوق الأخفافيين»، ويباع فيه أخفاف «النسوان» ونعالهن. و«سوق الكفتيين»، ويشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت، وهو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة، ولا تكاد تخلو دار بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت.

ولابد أن يكون في شورة العروس –أي جهازها– دكة نحاس مكفت.

والدكة عبارة عن شيء يشبه السرير، يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مدهون، وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض، يبلغ كبراها ما يسع نحو الإردب من القمح، وطول الأكفات التي نقشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع في عرض إصبعين، ومثل

ذلك دست أطباق، عدتها سبعة، بعضها في جوف بعض، ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر، وغير ذلك من المنابر والسرج وأحقاق الأشنان والطشت والإبريق والمبخرة. فتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتي دينار ذهبا.

وكانت العروس، من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أماثل التجار، تجهز في شورتها عند بناء الزواج عليها سبع دكك: دكة من فضة، ودكة من كفت، ودكة من نحاس أبيض، ودكة من خشب مدهون، ودكة من صيني، ودكة من بلور، ودكة كداهي وهي من ورق مدهون، تحمل من الصين(٣٢).

الحالة العلمية

قامت في مصر، في عصر المماليك، حركة علمية لا بأس بها، وقد يبدو ذلك لأول وهلة غريبا بعض الشيء، للأسباب التي بيناها فيما مضى، ومنها أن المماليك كانوا عناصر أجنبية عن سكان البلاد، وانتشار الفتن والثورات طوال مدة حكمهم، وتعرض البلاد للأوبئة والمجاعات بين آن وآخر. ولكن مع ذلك قامت حركة ثقافية وعلمية في مصر، إذ كانت الظروف تحتم قيامها: فمعلوم أن المغول قضوا على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م)، فأصيبت الحضارة العباسية الزاهرة بضربة قاصمة، قضت على جهود قرون عديدة، وقذف هولاكو بالكتب التي كانت تملأ مكتبات بغداد في نهر دجلة ليعبر عليها جنوده النهر.

وسبق القول أن الظاهر بيبرس نقل الخلافة إلى مصر سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م)، فصارت مصر بذلك قبلة المسلمين. وكان طبيعيا أيضا أن ينتقل مركز الثقافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة، التي لم تمتد إليها جحافل المغول وأسرابهم، وإن كانت قد غرقت في نهر دجلة كنوز من العلم لا يمكن أن تُعوض.

غير أن الحركة العلمية في عهد المماليك لم تتميز بالابتكار والكشف والاختراع، كما كان الحال في العصر العباسي، وإنما سارت الحركة سيرا هينا لينا. فنهج الكتاب والعلماء في العلم أيسر سبله، وأقلها عناء وجهدا، وإن كان قد ظهر قليل من كتب الطب مثل كتاب «شرح تشريح القانون» لأبي الحسن علي بن النفيسي المتوفى سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨م)،

والذي كشف نبض الدورة الدموية، قبل أن يكتشفها العالم البرتغالي سرفيتوس بثلاثة قرون. وكان أبو الحسن هذا عميدا لمستشفى قلاوون.

و«كتاب كامل الصناعتين، البيطرة والزرطقة» لمؤلفه أبي بكر بن المنذر البيطار المتوفى سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠م)، وكان مشرفا على إصطبلات الناصر مُحَمَّد بن قلاوون[٣٣]، وكتاب «فضل الخيل» تأليف عبد المؤمن الدمياطي المتوفى سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦م)، والذي كان يحاضر في المدرسة المنصورية التي أسسها قلاوون.

ولكن اشتهر عصر المماليك بكتب الموسوعات، وقد بقي لنا منها ثلاث موسوعات عظيمة هي: كتاب «نهاية الأرب» للنويري، الذي ألفه في ثلاثين مجلدًا، في زمن الناصر مُحَمَّد بن قلاوون، وكتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي في أربعة عشر جزءًا. والقلقشندي نسبة إلى قلقشندة، إحدى قرى مديرية القليوبية. وقد توفي سنة ٨٢١ هـ (١٤٧١م)، وكتاب «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م)، ويقع في أكثر من عشرين جزءًا، وتعتبر هذه الموسوعات معينا خصبا ينهل منه الكتاب والأدباء والمؤرخون في عصرنا الحاضر.

كذلك نشطت كتابة التاريخ، وازدهر العصر المملوكي بمؤرخين محققين، تعتبر مؤلفاتهم مصادر أصلية في دراسة هذه الحقبة من تاريخ مصر. في مقدمة هؤلاء ابن خلدون، المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٦م)، صاحب كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر»، وأبو الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١م)، مؤلف كتاب «المختصر في أخبار البشر»، وابن تغري بردي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩م)، صاحب كتاب «النجوم الزاهرة، في ذكر ملوك مصر والقاهرة»، وهو يتضمن تاريخ مصر من الفتح العربي إلى فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م)، وجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥م)، مؤلف كتاب «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة»، وشيخ المؤرخين تقي الدين أحمد المقريزي ٧٦٦ هـ – ٨٤٥ هـ (١٣٦٤ – ١٤٤٢م)، حجة زمانه، ونابغة عصره. ومن أهم مؤلفاته كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وكتاب «السلوك

لمعرفة دول الملوك»، وابن إياس المتوفى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣م) مؤلف كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور».

ومن كتب التراجم كتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لمؤلفه ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢م). وكتاب «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩م).

وقد راج الأدب القصصي، في هذا العهد، ومن أشهر القصص كتاب «ألف ليلة وليلة»، الذي تصور قصصه عصر المماليك، بطريقة جذابة، وان انتحلت شخصية هارون الرشيد وشخصيات العصر العباسي الأول لأبطال تلك القصص. كما ذكرت بغداد عوضا عن القاهرة. ومن القصص المشهورة أيضا قصتا عنترة، والظاهر بيبرس، وتعتبران من القصص الشعبية التي أعجب بها الشعب كثيرا.

الفنون في عصر المماليك

أوضحنا فيما مضى كيف أن فن العمارة في عهد المماليك بلغ شأوا عظيما لم يبلغه في الزمن السابق أو الزمن اللاحق لعصر المماليك. وذكرنا أمثلة لذلك بعض المساجد الشهيرة التي خلدت ذكرهم، وازدانت بها القاهرة وما تزال. ووصفناها وصفا موجزا بقدر ما سمحت به صحائف هذا الكتاب. ووصفنا ما حفلت به من نقوش وزخارف. وما اشتملت عليه من تحف فنية وطرف غالية.

والواقع أن ما أدركه فن البناء من تقدم، امتد أيضا إلى بقية الفنون الإسلامية في هذا العهد. فازدهرت وارتقت أيما ارتقاء. وغصت قصور المماليك وبيوتهم بالتحف الثمينة من خشبية وخزفية وزجاجية وبلورية وعاجية ونحاسية. وفرشت بالطنافس والأبسطة والرياش الثمينة. ولقد سلمت لنا نماذج كثيرة من كل ذلك، محفوظة الآن بالمتحف الإسلامي بميدان أحمد ماهر بالقاهرة، ننصح القارئ ألا يفوته زيارته، واستجلاء محاسنها، والاستمتاع بجمالها الفني. والآن نأتي على وصف نماذج من تلك التحف، معتقدين أن ذلك سيستهوي القارئ لرؤيتها في المتحف الإسلامي المذكور رأي العين.

التحف الخشبية:

اشتملت التحف الخشبية في العصر المملوكي على المنابر والكراسي والدكك والمشربيات والسقوف والأبواب والصناديق. وتمتاز كل هذه التحف بالأشكال الهندسية البديعة المحفورة عليها، من مربعات ومعينات ومنحرفات ونجوم تتداخل بعضها في بعض، وهي وإن كانت لا يتكون منها موضوع كامل متماسك، إلا أنه يتكون منها تراكيب غاية في الرشاقة والإبداع.

وقد نشأت في العصر المملوكي بعض أساليب جديدة في صناعة التحف الخشبية، كتطعيم الحشوات بخيوط أو أشرطة رفيعة «مستريكات» من نوع آخر من الخشب، أغلى ثمنا، وأندر وجودا، أو بالعاج والعظم، كما كانوا في بعض الأحيان يكسون الخشب بطبقة دقيقة من الفسيفساء أو الزردشان مكونة من قطع صغيرة من الأبنوس والسن والقصدير.

ويوجد في المتحف الإسلامي بالقاهرة نماذج كثيرة لكل من الأنواع السابقة، من أجملها الكرسي المستحضر من مسجد السلطان شعبان (٧٧٠ هـ – ١٣٦٩م)، وهو على شكل منشور سدادي من خشب شوح تركي، مكسور بالفسيفساء الدقيقة من السن والأبنوس، وزخرفته على شكل عقود في الحشوات العليا والسفلى من الجوانب. والقاعدة فيها برامق مخروطة من أبنوس وسن، تشاهد على أرجله كذلك.

وكانت هذه الكراسي تستعمل في قصور المماليك لوضع موائد الطعام عليها. وفي المساجد لحمل الشموع التي توجد بجانب المحراب عند الصلاة قبلا.

وشهد عصر المماليك ازدهار صناعة المشربيات(٣٤)، المصنوعة من الخشب المخروط الدقيق الصنع. وقد كانت المشربيات تمتد من جدران البيوت إلى الطريق، فيختفي النساء وراءها عن أعين المارة في الطريق، كما ساعدت على تجميل بعض شوارع القاهرة وطرقاتها، وعلى إكسابها طابعا فنيا جميلا.

ويفسر بعض المشتغلين بالفنون الإسلامية كلمة مشربية بأنها مشتقة من الشرب، ويذكر أن القلل كانت توضع خارجها فيبرد ماؤها (٣٥)، ولكن لأستاذنا الجليل، الأستاذ

مُحَمَّد فؤاد مرابط، أستاذ تاريخ الفنون بجامعة القاهرة، تفسيرا مقبولا، فهو يذكر أن كلمة مشربية قد حرفت عن كلمة مشرفية، التي تشتق من الشرافات التي تعلو البناء وتشرف عليه، كالشرافات التي تعلو أسوار الجامع الطولوني. وكلمة مشربية أيسر في النطق عند العامة من كلمة مشرفية. ومن هذا القبيل تحريفهم اسم «باب الخرق» إلى «باب الخلق»، وقد أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الميادين التي أنشأها المماليك للعب الأكرة، إذ أن الاسم الأخير أكثر سهولة في نطقه، وأكثر تداولا، وإن كان أبعد عن المعنى المقصود من التسمية.

التحف النحاسية:

وقد امتد تطور الزخرفة في التحف النحاسية إلى الزخارف النباتية والهندسية، التي رأيناها في الحفر على الأخشاب، ولكن فضلا عن ذلك يشهد عصر المماليك تطورا آخر في التحف النحاسية، وذلك بتطبيقها أو تكفيتها بالذهب والفضة. وسبق أن ذكرنا في أسواق القاهرة أنه كانت بها سوق خاصة لهذه الصناعة هي "سوق الكفتيين"، وذكرنا طرفا من المصنوعات النحاسية المكفتة. ولا شك أن القرن الثالث عشر الميلادي هو العصر الذهبي للتحف (٣٦) النحاسية الفاخرة المكفتة. وزخارف هذه التحف ذات نضرة وبهاء، يكسبان التحفة بريقا ولمعانا، تظهر فيها الأساليب الفنية الإيرانية. ولقد انتقلت هذه الصناعة إلى القاهرة من الموصل، بعد سقوطها في يد المغول، ولقيت في مصر رواجا عظيما، حتى أن كل شخص كان يحرص على اقتناء بعض الأواني النحاسية. ويقول المقريزي: "إنه كان لا يخلو بيت بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت".

وبالمتحف الإسلامي بالقاهرة مجموعة كبيرة من تلك الأواني، بمختلف أنواعها، من صوان وكراسي وشماعد ومقالم وتنانير وشبابيك وأبواب.

ومن أجمل هذه التحف كرسيان من عهد الناصر مُحَمَّد بن قلاوون مصنوعان من النحاس المخرم والمنقوش، ويحمل أحدهما اسم صانعه مُحَمَّد بن سنقر البغدادي السناني، وتاريخ صنعه وهو سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧م) في عهد الناصر مُحَمَّد بن قلاوون.

ولما كانت وسائل الإضاءة قديما تعتمد على استعمال الزيوت والشموع، فقد قامت

صناعة المشكاوات والشماعد والتنانير «الثريات»، وكلها قد تناولها الصناع بالنقش والزخرفة، فصارت كل قطعة منها تحفة فنية رائعة. ومن أجمل الشماعد المحفوظة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة شمعدان صنع بأمر السلطان قايتباي سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م)، ليهدى إلى الحرم النبوي الشريف بالمدينة. وقوام زخارفه كتابات تظهر بوضوح على أرضية من سيقان وفروع نباتية وزهور. وتنتهي حروف الكتابة بأشكال تشبه المقص.

ومن أجمل المقالم مقلمة من النحاس مكفتة بالذهب والفضة، باسم السلطان الملك المنصور مُحَمَّد المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣م). ومن أجمل التنانير تنور باسم السلطان حسن مؤرخ سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١م)، مصنوع من النحاس على شكل منشور مثمن. وفوق التنور قبة صغيرة وهلال ولا تزال كثير من مساجد المماليك تحتفظ بشبابيكها وأبوابها المكفتة بالذهب والفضة، كأبواب مدرسة السلطان حسن ومصراعي باب جامع السلطان برقوق.

الخزف والقاشاني:

ولقد تأثرت صناع الخزف في عصر المماليك بصناعة الخزف الإيراني.

فبعد أن كانت الطريقة السائدة هي صناعة الخزف ذي البريق المعدني، انتشرت صناع الخزف ذي الزخارف تحت الطلاء، واللونان المفضلان هما الأخضر أو الأسمر. والزخارف متنوعة جدا والصور الآدمية نادرة جدا، أما الحيوانات فمرسومة في أوضاع جامدة.

ومن أشهر صناع الخزف في هذا العصر غزيل وغزال ودهين وغيبي والأستاذ المصري، ولكل من هؤلاء بالمتحف الإسلامي قطع من آنية تنسب إليه، وجدت في حفائر الفسطاط، حيث كانت توجد مصانع الخزف، وعلى أكثرها زخارف نباتية من أوراق شجر وغصون مختلفة الأشكال، محفورة تحت الطلاء، مما امتازت به زخرفة الخزف في هذا العصر.

وفي نهاية القرن الخامس عشر تظهر في مصر صناعة القاشاني الذي تُكسى به الجدران. ومن أمثلة هذا القاشاني قرص مصنوع في مصر، وهو باسم السلطان قايتباي سنة ١٤٩٦م، وحروف كتابته بيضاء على أرضية زرقاء.

والإطارات المستديرة، والمقسمة إلى ثلاث مناطق بوساطة خطين أفقيين فيها، توجد

كثيرا على العمارات والتحف الفنية في عصر المماليك، ومثلها قرص السلطان قايتباي السابق ذكره، ونص الكتابة عليه «عز لمولانا السلطان، الملك الأشرف أبو النصر قايتباي، عز نصره».

التحف الزجاجية:

ولقد صنع الفنانون في عصر المماليك من الزجاج القوارير والأباريق والكؤوس والمصابيح والزجاجات. وكانت صناعته منتشرة في مصر وبلاد الشام، خصوصا في حلب ودمشق. ولكن أجمل ما صنع منه في ذلك العصر المشكاوات، وتعد بحق فخر عصر المماليك في صناعة الزجاج.

ومن حسن الحظ أن أبقى الزمان على مجموعة كبيرة منها، محفوظة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة، تعد أكبر وأنفس مجموعة من المشكاوات في العالم.

وهذه المشكاوات مطلية بالمينا، وعليها زخارف قوامها أشرطة تملؤها كتابات أو جامات وفروع نباتية تقليدية، ولكن بعضها تغطي سطحه بأكمله رسوم زهور ونباتات شبيهة بما يرى في زخارف الديباج، فتبدو كأنها ملفوفة في زخارف فاخرة من الزهور والأوراق النباتية. ويرى منقوشا على بدن المشكاة وغيرها من التحف الخزفية والمعدنية رسوم أشعرة أو «رنوك»، تحمل شارات السلاطين والأمراء ورؤساء الجند في دولتي المماليك الذين صنعت لهم هذه التحف، كالكأس والدواة والسيف والصولجان. وقد وردت على كثير من المشكاوات الآية القرآنية الكريمة:

"الله نور السماوات والأرض. مثل نوره كمشكاة فيها مصباح. المصباح في زجاجة. الزجاجة كأنها كوكب دُرِّيّ).

وأكثر أسماء السلاطين ورودا على هذه المشكاوات اسم السلطان حسن، الذي جلب من مسجده أكبر عدد منها، ثم الناصر مُحَّد بن قلاوون، ثم السلطان برقوق، والأشرف أبو النصر قايتباي. ومن الأمراء الأمير سلار، والأمير ألماس، وآق سنقر، وطغيتمر، وشيخو.

ومن بين هذه المشكاوات مشكاة وكرتها من زجاج بالمنيا، تظهر كأنها محاطة بشبكة من

حبال مجدولة، معقدة، بالتماثل، نشأ منها جامعات غير منتظمة، تحتوي على زهور، أوراقها مختلفة الألوان من أزرق وأخضر وأحمر. والكرة والمشكاة هما باسم السلطان حسن سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣م)[٣٧].

المنسوجات[٣٨]:

اضمحل نسج الكتان بمصر في عصري الأيوبيين والمماليك، وزادت العناية بنسج الحرير وتطريزه، وبتزيين المنسوجات بالزخارف المطبوعة المتنوعة التي تشبه الزخارف، التي نراها على التحف الخزفية والمعدنية في العصر نفسه. ومما تجب ملاحظته أن نسج الحرير في عصر المماليك قد تأثر إلى حد كبير بمنتجات الشرق الأقصى، التي أدخلها المغول في العصر الإسلامي إلى الأقطار الإسلامية، إما عن طريق التجارة أو عن طريق الهدايا، فقد ذكرت المصادر التاريخية أخبار بعثات تبودلت بين المماليك والمغول تحمل الهدايا القيمة من المنسوجات النفيسة. لذلك توجد قطع عليها أسماء سلاطين المماليك، ولكن يصعب الجزم بأنها من صناعة مصر أو عمال مصريين.

ومع انحطاط المنسوجات الكتانية في عصر المماليك، وجد قليل منها، مثال ذلك: قطعة محفوظة بالمتحف الإسلامي من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، يبدو في زخرفتها ما امتاز به هذا العصر من استعمال خط النسخ في كتابة العبارات الدعائية، مثل «العز الدائم والإقبال» و«سيادة مؤبدة، ونعمة مخلدة»، فضلا عن الإقبال على الزخارف النباتية، والأشكال الهندسية من مثلثات ودوائر ومعينات، ورسوم القطعة المذكورة مطرزة بالحرير الأسود والأزرق.

---

(١) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ١٨٣.

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤.

(٣) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٠٨ حاشية رقم ١ من تعليق المرحوم العلامة مُحَمَّد (بك) رمزي.

(٤) المصدر السابق ج٧ ص ٣٠٧ حاشية رقم ١.

(٥) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٠٨ حاشية رقم ٢.

(٦) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٠٩ حاشية رقم ٣.

(٧) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٩ حاشية رقم ٣.

(٨) الدليل الموجز ص ١٠٢ – ١٠٧.

(٩) دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة لمحمود أحمد ص ١٠٥ – ١٠٦.

(١٠) المصدر السابق ص ١٠٧.

(١١) دليل موجز لمحمود أحمد ص ١٣٧.

(١٢) المصدر السابق ص ١٣٨.

(١٣) انظر دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة لمحمود أحمد.

(١٤) الأستاذ جاستون فييتك من مقال له في وصف جامع السلطان حسن نشر في مجلة La Revue du Caire، ونقله إلى العربية الأستاذ مُحَمَّد وهبي، ونشر في مجلة المقتطف عدد ديسمبر سنة ١٩٣٨.

(١٥) تاريخ المساجد الأثرية ص ١٧٦ – ١٨١.

(١٦) دليل موجز لأشهر الآثار العربية لمحمود أحمد ص ١٥٠ – ١٥٣.

(١٧) تاريخ المساجد الأثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب ج ١ ص ٢٥١.

(١٨) دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة لمحمود أحمد ص ١٦٤.

(١٩) تاريخ دولة المماليك في مصر تأليف وليم موير وترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ١٦٦ – ١٦٧.

(٢٠) الواقع أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح حدث في عهد قايتباي سنة ١٤٩٨م، وإنما ظهر أثر هذا الكشف في عصر الغوري (١٥٠١ – ١٥١٦م)، إذ حطم البرتغاليون السفن المصرية في البحر الأحمر والمحيط الهندي واستولوا على ما بها من بضائع.

(٢١) دليل موجز لمحمود أحمد ص ١٨٢ – ١٨٥.

(٢٢) المقريزي الخطط ج ٢ ص ١١١.

(٢٣) وقد شيد الصالح نجم الدين أيوب قنطرة أخرى على الخليج الكبير كانت تعرف بقنطرة السد، وكان المرور عليها من شارع مصر القديمة إلى شارع قصر العيني، وموضعها اليوم نقطة تقابل شارع مدرسة الطب بشارع الخليج.

(٢٤) المقريزي: الخطط ج ٣ ص ٣٢٠ – ٣٢٦.

(٢٥) تاريخ العرب لفيليب حتى ترجمة المرحوم مبروك نافع ص ٨٩٤.

(٢٦) مصر في العصور الوسطى للدكتور علي إبراهيم حسن ص ٤٩٥ – ٤٩٧.

(٢٧) انظر خطط المقريزي ج ٣ ص ١٤٩ – ١٥٣.

(٢٨) عصارة الرطب.

(٢٩) دبس الرطب إذا طبخ.

(٣٠) أمر.

(٣١) دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة لمحمود أحمد ص ١٨٥ – ١٨٦.

(٣٢) ملخص من باب الأسواق، الجزء الثالث، من ص ١٥٣ إلى ص ١٧٤ من الخطط للمقريزي.

(٣٣) تاريخ العرب: تأليف فيليب حتى وترجمة المرحوم مبروك نافع ص ٨٨٦ – ٨٨٧.

(٣٤) دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية تأليف فييت وتعريب زكي مُحَمَّد حسن ص ٥٧.

(٣٥) انظر فهرس مقتنيات دار الآثار العربية تأليف مكس هرتس وتعريب المرحوم علي «بك» بهجت ص ١١٢ – ١١٣.

(٣٦) الدليل الموجز لمعروضات دار الآثار ص ٦٤ – ٦٥.

(٣٧) اليوم دار الآثار العربية، تأليف جستون فييت، ترجمة الأستاذ حسن الهواري من ٩٦.

(٣٨) فنون الإسلام، الدكتور زكي مُحَمَّد حسن ص ٣٦٥.

الباب السابع

القاهرة في عهد العثمانيين

من ٩٢٢ –١٢١٣ هـ (من ١٥١٧ – ١٧٩٨م)

- ١ -

لم يفت العثمانيين، بالرغم من توغلهم في شرق أوروبا، واستيلائهم على كثير من أقطارها، ما عليه دول الشرق الإسلامية من رغد وغنى، وما تجنيه الدولة العثمانية من قوة، وشدة بأس وثبوت قدم، من وراء الاستيلاء عليها، بالإضافة إلى الغنى والثروة، التي كانت تزخر بهما تلك الدول. ولم يغب عن العثمانيين ما كان للشرق من حضارة عظيمة، استضاء العالم بنورها ردحا من الزمان، وأن مصر كانت مركز تلك الحضارة.

فما إن تولى السلطان سليم الأول عرش آل عثمان سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢م)، إلا وأخذ يعد العدة، وينتحل الأسباب لغزو الدولتين العظيمتين في الشرق الإسلامي، ألا وهما مصر وإيران. فبدأ بالثانية باعتبارها زعيمة الشيعة، ومحرضة رعاياه الشيعيين على التمرد والعصيان. وجهز في سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤م) جيشا قاده بنفسه، واستولى على ديار بكر وكردستان، وتوغل في إيران، حيث تقابل مع الشاه إسماعيل الصفوي في جمادى الثانية سنة ٩١٨ هـ (أغسطس سنة ١٥١٢) بالقرب من تبريز، وأنزل بالشاه إسماعيل هزيمة ساحقة، ثم رجع إلى بلاده غالبا منصورا.

لم يكن هناك بعد ذلك ريب في أن سليما سيكر الكرة على مصر، ولم يصعب عليه أن يتصيد بعض المعاذير للاعتداء عليها، والفتك بها، والاستيلاء على وادي النيل وبلاد الشام. فهو ينعي على السلطان الغوري ارتباطه مع الشاه إسماعيل الصفوي بمحالفة سرية،

كما يتهمه بإيواء الأمراء العثمانيين، الفارين من بطشه وجبروته. ولكي يظهر استهانته بحكومة مصر، استولى على إحدى الإمارات الواقعة على حدود الشام، التي كانت تستظل بحماية المماليك، وهي إمارة ذي الغادر «دلغادر» سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥م).

ولما أحس الغوري بشرر العدوان يتطاير من القسطنطينية، خرج وكانت سنه قد أوفت على السبعين، في جيش كبير لملاقاة سليم على حدود الشام، قبل أن يتوغل في أرض مصر، فتتعذر مقاومته. وكان سليم قد جهز جيشا كبيرا، كامل العدد والعدة، واصطحب معه، فضلا عن ذلك، شرذمة من الجواسيس والخونة المارقين من المماليك، ليدلوه على مواطن الضعف في الجبهة المصرية، وليستميلوا قواد الجيش إلى جانب العثمانيين، فتتحقق هزيمة الجيش المصري بقوة السلاح، وبفعل الختل والخديعة. ولقد استطاع سليم فعلا أن يشتري ذمم بعض المماليك، أمثال خايربك الچركسي نائب حلب، وچان بردي الغزالي، ويونس العادلي، والسمرقندي، بأن مناهم بأجل المناصب وأرفعها.

وتقابل الطرفان في مرج دابق، على مسيرة يوم شمالي حلب، في ٣٠ رجب سنة ٩٢٢ (٢٩ أغسطس سنة ١٥١٦)، والتحم الجيشان في وقعة حامية، وكادت الدائرة تدور على العثمانيين، لولا أن سعى الجواسيس بالفتنة بين صفوف الجيش المصري، ولولا أن تقهقر خاير بك بميسرة الجيش، وانهزام ميمنته. فبقي الغوري في المعركة بمفرده، وانفض الجميع من حوله، وقتل تحت سنابك الخيل، وانجلت الوقعة عن انتصار العثمانيين انتصارا حاسما. فتقدم سليم إلى حلب واستولى عليها، ثم إلى دمشق التي فتحت له أبوابها، وأصبح الطريق إلى مصر ممهدا ميسورا.

وصلت أخبار الهزيمة إلى القاهرة، فأخذ طومان باي نائب السلطنة يستحث المماليك على الخروج، لملاقاة العثمانيين قبل أن يطبقوا عليهم في القاهرة، ويستنفرهم للقتال، ولكنه لم يلق منهم إلا تقاعسا وصدودا.

وأخيرا وصلت مقدمة الجيش العثماني إلى الصالحية، وأصبح الخطر ماثلا لعيونهم، فهبوا لملاقاة الغزاة الفاتحين، ودارت بين طومان باي وسليم وقعة أعظم من وقعة مرج دابق،

بميدان الريدانية، في ٢٨ ذي الحجة سنة ٩٢٢ (٢٢ يناير سنة ١٥١٧)، قتل فيها من العثمانيين خلق كثير، ولكنهم استماتوا في القتال، وانقسموا إلى فريقين: أحدهما جاء من تحت الجبل الأحمر، وهاجم القسم الآخر معسكر الريدانية، ولم تمض سوى ساعات معدودات حتى حاقت الهزيمة بالمماليك، فولوا الأدبار، ولم تمض سوى ساعات معدودات حتى حاقت الهزيمة بالمماليك، فولوا الأدبار. وظل طومان باي يحارب في نفر قليل من العبيد والمماليك السلحدارية، ولما لم تجد المقاومة، ولّى هو الآخر هاربا. وقد عمل الخونة عملهم في هذه الوقعة أيضا، ونقلوا إلى العثمانيين أسرار الجيش وأخباره.

وفي ٢٥ يناير نقل سليم معسكره من شمال الريدانية إلى بولاق، ثم دخل القاهرة في اليوم التالي من باب النصر، ودهم طومان باي المعسكر العثماني مرتين، ولكن دون جدوى، فاضطر أخيرا للتسليم بالهزيمة، واختبأ لدى أحد مشايخ العربان في البحيرة وكان لطومان باي عليه أياد كثيرة، وفضل سابق، إلا إنه لم يرع شيئا من كل ذلك، وسلم طومان باي للعثمانيين. فشنقه سليم على باب زويلة في ٢٣ ربيع الأول سنة ٩٢٣ (١٥ أبريل سنة ١٥١٧)، وترك جثته معلقة ثلاثة أيام، تشفيا منه وانتقاما.

ثم دفنت بعد ذلك، ولقد بكاه الناس كثيرا، لشجاعته وإبائه ونبله، وكان عمره إذ ذاك أربعين عامًا.

استتب الأمر إذن لسليم الأول، وخلص له مُلك مصر، وقضى على دولة المماليك، وكافأ خاير بك، جزاء خيانته ونذالته، بالولاية على مصر، كما تولى النذل الآخر، جان بردي الغزالي، أمر بلاد الشام. وشرع سليم بعد ذلك يضع لها نظاما لإدارتها، بحيث تظل أبد الدهر مستعمرة عثمانية، وكبلها بالقيود التي لا فكاك لها منها، والتي تقضي على حضارتها الغابرة، وتزج بها دياجير البؤس والشقاء. ولا عجب أن يصف المؤرخون عهد الاحتلال العثماني لمصر، الذي استمر قرابة ثلاثة قرون، بالعهد المظلم في تاريخ مصر.

وكان من نتائج سقوط مصر في أيدي الأتراك العثمانيين، أن قبض السلطان سليم على الخليفة العباسي، وأجبره على الرحيل معه إلى القسطنطينية. وبذلك لم تفقد مصر

استقلالها وحريتها فحسب، بل قضى أيضا على الخلافة التي انتقلت إلى مصر منذ عهد الظاهر بيبرس، وأصبح السلطان العثماني يلقب منذ ذلك الحين «بمالك البرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وإمام الحرمين الشريفين».

ظلت مصر خاضعة للعثمانيين منذ سنة ١٥١٧م حتى سنة ١٧٩٨م، حين غزاها الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت، ولم تدخر وسعا طوال هذه القرون الثلاثة في نفض السيطرة العثمانية عن كاهلها، واستعادة حريتها واستقلالها. ولكن تعذر ذلك عندما كانت الدولة العثمانية ما تزال في عنفوانها وكامل قوتها، فلما دب الضعف في أوصالها، سنحت لها الفرصة لإدراك بغيتها، وكان البطل الذي نادى باستقلالها هو علي بك، الذي لقب فيما بعد بعلي بك الكبير.

علي بك الكبير:

كان علي بك مملوكا بيع في سوق الرقيق بالقسطنطينية، ثم اشتراه إبراهيم كتخدا أحد أمراء المماليك في مصر سنة ١١٥٧ هـ (١٧٤٤ – ١٧٤٥م).

وامتاز بقوة الشخصية، والطموح، لذلك ظل يتغلب على منافسيه من المماليك حتى وصل إلى وظيفة شيخ البلد، سنة ١٧٦٣م، وتلي وظيفة الوالي العثماني في الأهمية. وانتهز فرصة اشتباك الدولة العثمانية في حرب مع الروسيا سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٩م)، فأعلن استقلاله بمصر.

وأخذ علي بك بعد ذلك في تحقيق الأمنية التي كانت تكمن في نفسه، وهي تحقيق السلطنة المملوكية، واستعادة مجد المماليك الغابر، فأرسل سنة ١١٨٤هـ (١٧٧٠م) حملة كبيرة بقيادة مُحَمَّد أبي الذهب استولت على الحجاز. وأرسل في سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١م) حملة أخرى، بقيادة مُحَمَّد أبي الذهب أيضا للاستيلاء على الشام، فدخل أبو الذهب دمشق، وعادت الشام بذلك إلى حكم مصر، كما كان الحال في عهد المماليك.

ولكن العثمانيين الذين لم يكن لديهم من القوة ما يقهرون به علي بك، كانت لديهم أسلحة أخرى لا تقل مضاء عن السيف والمدفع، تلك هي أسلحة الدس والوقيعة، التي

انتصروا بها على الغوري في مرج دابق، وعلى طومان باي في الريدانية. فأخذوا يستميلون إليهم أبا الذهب، ويمنونه بحكم مصر، وشق عصا الطاعة على سيده علي بك. فعاد أدراجه بجيشه إلى مصر، وهزم علي بك، واستولى على مصر. ففر علي بك إلى الشام، حيث أعد جيشا يستعيد به مصر، ويحارب به أبا الذهب، ولكنه هزم عند الصالحية وأخذا أسيرا إلى القاهرة، حيث مات متأثرا بجراحه في صفر سنة ١١٨٧ هـ (مايو سنة ١٧٧٣)، وبذلك رجعت مصر ثانية إلى جبروت العثمانيين.

حكم مصر مُحَمَّد أبو الذهب نائبا عن السلطان العثماني، جزاء له على نذالته وخيانته لسيده علي بك، ولكنه لم ينعم بحكمها أكثر من عامين، توفي بعدهما ملوما مدحورا. وخلفه على عرش مصر ثلاثة من المماليك هم البكوات: إسماعيل، وإبراهيم، ومراد، ولكن الأخيرين اتحدا ضد الأول، واستأثرا بالسلطة، وصارا يتناوبان مشيخة البلد وإمارة الحج، وهما السلطتان الإدارية والحربية، فكان إبراهيم عادة شيخ البلد، ومراد بك أمير الحج وقائد الجيش. وظل الحال كذلك إلى أن دهمت الحملة الفرنسية مصر في يوليو سنة ١٧٩٨، فانتهى حكم البكوات المماليك نهائيا من مصر، وتقلص ظل الدولة العثمانية منها أيضا.

ـ ٢ ـ

لم يطرأ على القاهرة في العهد العثماني أي تغيير أو تبديل في تخطيطها، ولم تتسع مساحتها أو تزدد رقعتها عما كانت عليه في عهد المماليك. ولم تساير الزمن في تقدمه. بل ظلت طوال الاحتلال العثماني جامدة صامدة.

ولا نغالي إذا قلنا إنها رجعت القهقرى كما أراد لها سليم الأول. وظلت تتلاشى تدريجيا[1]، بسبب الفقر الذي خيَّم على البلاد، وسوء حكم الباشوات، وعبث البكوات المماليك، وكثرة ما كان يشتعل في أنحاء القاهرة من فتن وثورات، يتخذ الثوار خلالها من المساجد حصونا ومعاقل، خصوصا مساجد أحمد بن طولون، والسلطان حسن، والمحمودية، والماس، ويطلقون قذائف المدافع من الأسطح والمآذن، فتصدعت جدرانها، وأصابها كثير

من التلف والدمار. فتسبب عن ذلك أن أقفر حي القلعة من سكانه، وتحولت قصور الأغنياء فيها إلى أحواش سكنها الرعاع. إذ هجرها أصحابها إلى حييَّ بركة الفيل والأزبكية، اللذين أصبحا المقرين المفضلين لدى الأمراء والخاصة.

وظلت القاهرة بحدودها القديمة المعروفة، وكان باب الحديد نهاية حدود مبانيها الشمال الغربي، والأزبكية وما حولها من مبان نهاية العمران غربا. والطريق بينها وبين بولاق مقفرة، خالية من العمران. لذلك كانت بولاق تعد من ضواحي القاهرة في ذلك العهد. كذلك كانت مصر القديمة أيضا. وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن، ليس بها إلا مزارع وحدائق. ولم يكن على شاطئ النيل سوى بعض مبان قليلة، كقصر إبراهيم بك (قصر العيني)، تجاه الروضة، وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناؤوطي، وعن شماله بيت لمصطفى بك.

وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال، ومقرا للجمارك، ومصر القديمة مرفأها في الجنوب. والأولى فرضة تجارة الوجه البحري، والثانية فرضة تجارة الوجه القبلي.

وأطول شوارع القاهرة هو الموصل بين باب الحسينية وباب السيدة نفيسة. ولم يكن بها سوى أربعة ميادين هي: قرة ميدان، تحت القلعة، وميدان الرميلة، المجاور لقرة ميدان، ويفصلهما باب اسمه قرة ميدان، وميدان بركة الفيل، وميدان الأزبكية أو ميدان بركة الأزبكية، لامتلائه بمياه النيل وقت الفيضان، فيصبح بركة يتنزه فيها الناس بالزوارق ليلا ونهارا، وتوقد المصابيح في البيوت المطلة عليها، فيكون المنظر بهيجا، ولا سيما في الليالي المقمرة.

وقد وصف الشيخ حسن العطار أحد أدباء ذلك العصر بركة الأزبكية(٢) فقال: «وأما بركة الأزبكية فهي مساكن الأمراء، وموطن الرؤساء، قد أحدقت بها البساتين الوافرة الظلال، العديمة المثال، فترى الخضرة في خلال تلك القصور المبيضة، كثياب سندس خضر على أثواب من فضة، يوقد بها كثير من السرج والشموع، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع، وجمالها يدخل على القلب، ويذهل العقل، حتى كأنه من النشوة مخمور».

ومن بين قصور الأمراء المشرفة على بركة الأزبكية قصر «رضوان بك الحنفي»، وقصر «أحمد الشرايبي» وكان من أغنى تجار القاهرة إذ ذاك، وقصر مُحَمَّد بك الألفي، الذي أصبح في عهد الحملة الفرنسية دارا للقيادة العامة للجيش الفرنسي، ومسكنا للقائد العام. وفي حديقته قتل كليبر، حليفة نابليون، إذ قتله سليمان الحلبي بتحريض من العثمانيين.

وكثرت بأحياء القاهرة الأخرى الأبنية المتخربة، إذ عفت الميادين والرحاب والمتنزهات، ودرست قصور الخلفاء والسلاطين، وما شيدوه من العمائر والمناظر والدواوين والمدارس ودور الكتب، وغيرها من معالم الحضارة والعمران، ولم يقف الهدم والتخريب عند هذا الحد، بل لقد ازداد تفاقما في عهد الاحتلال الفرنسي، كما سيأتي شرح ذلك في موضعه.

وفي الجهة البحرية لبركة الأزبكية قام الحي القبطي، وكان جزءا من خط المقس، وفي سنة ١٧٩٩م نقلت إليه البطرياركية القبطية من حارة الروم بالدرب الأحمر، وشيدت الكنيسة المرقسية الكبرى.

وفي شرقي البركة كان يوجد حي الإفرنج، حيث أنشأوا مساكنهم، وأقاموا متاجرهم، وبنوا الفنادق لينزل فيها السائحون الأوروبيون، الذين يزورون القاهرة. وفيه كانت توجد دور قناصل الدول الأوروبية. وشرقي هذا الحي كان يوجد حي اليهود ويعرف بحارة اليهود، وما يزال يوجد إلى اليوم في موضعه. ويمتد جنوبي هذين الحيين شارع الموسكي، وكان يصل بين بركة الأزبكية والخليج المصري الكبير. وقد سمي كذلك، لأنه كانت توجد فوق الخليج، تجاه هذا الشارع، قنطرة شيدها عز الدين موسك، أحد قواد صلاح الدين.

وكانت القاهرة مقسمة إلى أثمان وأخطاط. وكان كل خط يحتوي على شوارع. وتنقسم الشوارع إلى دروب وحارات وعطفات. وأغلب الحارات والعطفات غير نافذة، إلا إلى الدروب، فكانت المدينة أشبه شيء بعدة قرى مجتمعة. والدروب والعطفات والحارات عليها «بوابات»، وتغلق كل بوابة بعد العشاء، وينام خلفها بواب، يستأجره أهل الحارة، ولا يتأخر أحد بعد العشاء عن الحضور إلى بيته إلا للضرورة[٣].

وبالرغم مما أصاب القاهرة من ركود، وما قصد بها من شر، وما حل بمبانيها ودورها من خراب ودمار، فقد ظلت محتفظة بمكانتها التاريخية. إذ ما زالت تعتبر بالرغم من كل ذلك أعظم مدن الشرق قاطبة، وما زالت بها المساجد والمدارس، وتزخر بالحمامات والخانات والتكايا والحوانيت والوكالات، التي تجلب إليها البضائع من مختلف الأقطار.

-٣-

العمارة في عهد العثمانيين:

وصفنا فيما سبق كثيرا من المنشآت في عصر المماليك، وشرحنا مبلغ ما وصل إليه فن البناء من تقدم وازدهار. ولا نغالي إذا قلنا إنه وصل إلى قمة التقدم وذروة الرقي.

فلما وقعت مصر تحت سيطرة العثمانيين، دخل فن البناء في فترة ركود عميق، وانحطاط ظاهر. وليس في ذلك شيء من الغرابة، فالمشاهد أن تقدم فن البناء وغيره من الفنون رهن بتشجيع القادة والأمراء وذوي اليسار. فإذا ما انقطع هذا التشجيع، أدرك الركود والانحطاط تلك الفنون.

والسلطان سليم، فيما وضعه من أنظمة للبلاد، بعد أن تمت له السيطرة عليها، لم يكن ليعني برفاهيتها وتقدمها، بقدر اهتمامه بربطها بعجلة الإمبراطورية العثمانية، واستنزاف مواردها، وابتزاز أموالها، وإذلال أهلها. ولم يكن ليهمه مطلقا أن تتابع القاهرة تقدمها، وأن تزدهر العمارة فيها، وتسير في الطريق التي رسمها لها صلاح الدين، والمماليك من بعده. بل أكثر من هذا كان يهمه أن يأفل نجم القاهرة، وأن ينحط شأنها، وألا يتحدث الناس بأخبارها في مشارق الأرض ومغاربها، وأن ينزع من يديها مشعل الحضارة الذي ظلت تحمله عدة قرون، وأن يتحول اهتمام الناس عنها إلى القسطنطينية، مركز السلطنة الجديد ومستقر خلافة المسلمين الحديث.

يؤيد ذلك ما ذكره ابن إياس[٤]، المؤرخ المصري الذي عاصر حوادث الغزو العثماني

لمصر، من أن سليما عندما عزم على العودة إلى القسطنطينة، وسافر إلى الإسكندرية، أمر بحبس ألفين من المصريين، من رجال الحرف والصناعات، وكبار المباشرين والتجار، إلى جانب من القضاة والأعيان والأمراء والمقدمين، حبسهم في أبراج الإسكندرية وخاناتها، انتظارا لقيام المراكب بهم إلى القسطنطينية. وكان قد نزع من بيوت مصر والقاهرة أثمن ما فيها من منقول وثابت، حتى الأخشاب والبلاط والرخام والأسقف المزيكة والأعمدة السماقية بألوان القلعة، ومجموعة المصاحف والمخطوطات والمشاكي والكراسي النحاسية والمشربيات والشمعدانات والمنابر.

فعل سليم السفاح بالقاهرة ما فعله هولاكو الجبار ببغداد في منتصف القرن الثالث عشر، وتيمور لنك العاتي بالشام في أواخر القرن الرابع عشر، من سلب ونهب، وإزهاق للأرواح وسفك للدماء. وعمل على طمس معالم الحضارة في القاهرة كما طمسها التتار البرابرة في بغداد من قبل. وكان الولاة الذين تبعث بهم القسطنطينية إلى القاهرة في الغالب طغمة من الأتراك القساة، الذين يجهلون ألوان الحضارة الإسلامية، ولا يقيمون لها وزنا، ولا ينتظر منهم تشجيع لها، أو الإسهام في تقدمها. هذا فضلا عن قصر مدة بقائهم في ولاية مصر، حتى لا يُحدِّث الواحد منهم نفسه بالاستقلال بها عن الإمبراطورية. لذلك لم يكن للوالي التركي هم سوى جمع المال وابتزاز التحف والهدايا من الناس. فلم يكن يعني بتخليد ذكره، بإنشاء أية مبرة في القاهرة، تذكر المصريين بعهده السعيد!! لأنه راحل عما قريب إلى وطنه، مشيعا باللعنات، لما اقترف من جرائم وآثام.

ومهما يكن من أمر فقد ظل قبس من نور الماضي يلمع في أفق القاهرة، وتشبَّه قليل من الولاة وبعض السراة والتجار والأعيان برجالات مصر في العهد السابق، وشيدوا بعض المساجد والقصور والوكالات والخنقاوات والأسبلة والكتاتيب، ولكنها كانت دون مثيلاتها المملوكية روعة وجمالا، ولا تدانيها في فخامتها وأبهتها.

مميزات العمارة في هذا العهد:

ويغلب الطابع البيزنطي على مساجد هذا العهد، هذا الطابع الذي جلبه الولاة

الأتراك معهم من القسطنطينية، والذي كان يتمثل في كنيسة أيا صوفيا، التي حولها الأتراك إلى مسجد، بعد فتحهم القسطنطينية في عهد مُحَمَّد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣م). ويتجلى بصفة خاصة في جامع سليمان باشا بالقلعة، وجامع سنان باشا ببولاق، وجامع الملكة صفية، وجامع مُحَمَّد أبي الذهب، وجامع مُحَمَّد علي بالقلعة.

ففيها نرى المآذن الممشوقة الرفيعة، الأسطوانية الشكل، والتي تنتهي دائما بمسلة مخروطية، مكسو ظاهرها بألواح من رصاص، وكثرة القباب. والمسجد غالبا عبارة عن قبة كبيرة، أمامها حوش مكشوف، تحيط به أروقة ذات قباب صغيرة، ولكن مع ذلك وجدت عدة تصميمات جديدة للمسجد، فمن مربع تتوسطه أربعة أعمدة تحمل السقف، إلى مستطيل مكون من إيوانين، تتوسطه درقاعة، إلى مساجد مثل المساجد الجامعة، يتوسطها صحن مكشوف[٥]. ووجدت عناصر جديدة للزخرفة، لم تكن شائعة قبل ذلك، من هذا كسوة القباب والجدران بالقاشاني، وتغطية الأرضية والوزرات بالرخام الملون، ونقش الأسقف بالألوان البراقة. وانتشر إنشاء السبيل يعلوه الكتَّاب منفردا. وغير ملتحق بالمسجد. كما انتشر إنشاء الدور ذات المقاعد والمشربيات الجميلة.

أهم المنشآت

ومن أهم المساجد التي شيدت في هذا العهد:

مسجد المحمودية: ويوجد بميدان صلاح الدين، أمام باب العزب، أحد أبواب القلعة، وشرقي مسجد السلطان حسن، وقبلي مدرسة قاني باي الرماح.

أنشأه محمود باشا، أحد الولاة الأتراك سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ – ١٥٦٨م). وهو مرتفع عن مستوى الشارع، ويصعد إليه بسلم. وداخل هذا المسجد عبارة عن مربع، يتوسطه أربعة أعمدة كبيرة من الجرانيت، تحمل منورا كبيرا مرتفعا عن السقف. وحول الأعمدة أسقف المسجد، وهي مموهة بالذهب والألوان.

وفي جدار المحراب باب يوصل إلى قبة ملحقة بالمسجد، وبارزة عنه.

وهذا التصميم مقتبس من مسجد السلطان حسن، كما اقتبس منه أيضا قاعدة المئذنة من حيث الوضع والشكل، وإن كان جزؤها العلوي تركي الطراز(٦).

مسجد الملكة صفية: بشارع القلعة (شارع مُحَّد علي سابقا). وقد أمرت بإنشائه الملكة صفية، والدة السلطان مُحَّد خان الثالث سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠م). وهو مرتفع عن مستوى الشارع، كالمسجد السابق، ويصعد إليه بسلالم دائرية. ويتكون من جزءين: أحدهما الصحن، والثاني القبة، التي توجد شرقي الصحن. وهي محمولة على ستة عقود تحملها ستة أعمدة من الجرانيت. وبوسط الجانب الشرقي فجوة بها محراب ومنبر من الرخام المزخرف.

والجامع كبقية المباني التركية في مصر مبني بالحجر الأحمر(٧).

مسجد البرديني: وهو بشارع الداودية. أنشأه كريم الدين أحمد البرديني سنة ١٠٢٥ – ١٠٣٨هـ (١٦١٦ – ١٦٢٩م). وقد بلغ بناء هذا المسجد درجة من الإتقان لا تشاهد في العصر التركي، وإنما ترجع إلى العصر المملوكي الزاهر: فالجدران مكسوة بوزرة من الرخام الدقيق المختلف الألوان بها كتابات بالخط الكوفي المربع، ومنتهية بطراز من الرخام الدقيق، والمحراب من الرخام البالغ حد الإتقان والشبابيك من الجص المحلى بزجاج ملون. وبجوار المحراب منبر صغير مطعم بالصدف والسن. وبالجهة الغربية دكة المبلغ، ودرابزينها من الخرط اللطيف، وسقف الجامع محلى بنقوش مذهبة.

وتختلف المئذنة عن مآذن المساجد التركية بأنها مكونة من ثلاث دورات، مملوءة بالكتابات والنقوش(٨)، فهي والحالة هذه مصرية الطراز.

مسجد سنان باشا: وهو موجود بشارع السنانية، ببولاق، أنشأه سنان باشا بن علي بن عبد الرحمن، أحد ولاة مصر الأتراك سنة ٩٧٩هـ (١٥٧١م). وهو يتكون من قاعة واسعة، تعلوها قبة شاهقة، يحيط بها من ثلاثة جوانب، أواوين، صنعت أسقفها من قبوات صغيرة محمولة على عقود متكئة على أعمدة رخامية. ويحلي القبة من داخلها ومن خارجها شبابيك جصية، بها زجاج ملون، وزواياها الأربع مكونة من طاقة كبيرة بداخلها مقرنص يتوسطه لفظ الجلالة.

والمحراب من الرخام الدقيق، يجاوره منبر من الخشب، ومئذنة هذا المسجد بسيطة الشكل، مقامة في الطرف الشرقي القبلي للواجهة(٩).

جامع محمد أبو الذهب: وشيده مُحَّد بك أبو الذهب سنة ١١٨٧ هـ (١٧٧٣م)، وله واجهتان: إحداهما شرقية، وتواجه الجامع الأزهر، والثانية بحرية تطل على ميدان الأزهر. وبكل من الواجهتين باب يصعد إليه بسلم حجري.

والمسجد عبارة عن قبة يحيط بها ثلاثة أروقة مسقوفة بقبوات محمولة على عقود متكئة بأطرافها على أعمدة من رخام. ويحيط بالأروقة الثلاثة طرقة مكشوفة، وبالقبة محراب مكسو بالرخام يجاوره منبر مطعم بالصدف.

وبرقبة القبة مجموعة من النوافذ المغطاة بشبابيك من الجص والزجاج الملون، وباطن القبة محلى بنقوش مذهبة.

وتختلف مئذنة هذا المسجد الموجودة بنهاية الطرقة القبلية عن المآذن التركية كل الاختلاف، إذ أنها مربعة ومنتهية بخمسة رؤوس. وغربي دورة المياه سبيل وتكية ملحقان بالجامع. وقد عمل هذا المسجد على مثال جامع سنان باشا(١٠).

تجديد المساجد وإصلاحها: بالإضافة إلى ما ذكر آنفا من المساجد التي تم إنشاؤها في العهد التركي، فقد حظيت بعض المساجد القديمة برعاية الأمراء والولاة الأتراك، فتعهدوها بالتجديد والإصلاح. ولم يكن إصلاح المباني مما ينجح دائما، فكثيرا ما كانت التعديلات التي أدخلها الأتراك على التحف والروائع القديمة سببا في تشويهها.

ومن المساجد التي جددت مسجد المؤيد الذي كان متهدما، فقد أصلحه أحمد باشا أحد الولاة الأتراك سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩٠م). كما جُدد مسجد الظافر الفاطمي المعروف باسم الفكهاني سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥م).

تجديد الجامع الأزهر: ولكن أضخم تجديد حظي به مسجد في القاهرة هو ما قام به الأمير عبد الرحمن كتخدا من إصلاحات بالجامع الأزهر، وما رتبه من خيرات ومبرات، مما

استحق معه أن يطلق عليه اسم "المصلح الكبير والمحسن العظيم". وقد جاراه في هذا المضمار الأمير عثمان كتخذا القزدوغلي(١١). فقد بنى هذا أيضا سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥م) زاوية بالأزهر، يصلي فيها العميان سميت بزاوية العميان، وجدد رواق الأتراك ورحبته، ورواق السليمانية "الأفغانيين"، وأنشأ مسجده بميدان الأوبرا.

أما عبد الرحمن كتخذا فقد أجرى في الأزهر عمارات وخيرات عظيمة، فزاد في سعة الجامع بمقدار النصف تقريبا، خلف المحراب القديم، وأنشأ قبلة للصلاة ومنبرا للخطابة، وشيد مدرسة لتعليم اليتامى وعمل صهريجا للمياه، وشيد له قبرا دفن فيه، وتصدق على فقراء المجاورين بالطعام والكساء.

ويقول الجبرتي إنه «أنشأ مقصورة في الجامع مقدار النصف طولا وعرضا، وتشتمل على خمسين عمودا من الرخام، تحمل مثلها من البوائك المقصورة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت، وسقف أعلاها بالخشب النقي، وبنى محرابا جديدا ومنبرا. وأنشأ له بابا عظيما جهة كتامة (المعروفة بالدواداري) وهو المشهور بباب الصعايدة، وبنى بأعلاه مكتبا، له قناطر معقودة على أعمدة له من الرخام، لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن الشريف، وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجا عظيما وسقاية لشرب العطاش، وعمل لنفسه مدفنا بتلك الرحبة، وجعل عليه قبة معقودة، وتركيبة من الرخام البديع الصنع، منقوش عليها أسماء العشرة المبشرين بالجنة، ووصف للنبي –عليه الصلاة والسلام– وبعض الأشعار».

"وبنى أمام المدفن المذكور رواقا مخصوصا بمجاوري الصعايدة المنقطعين لطلب العلم، وبه مرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب. وبنى بجانب ذلك الباب منارة، وأنشأ بابا آخر جهة مطبخ الجامع (وهو المشهور بباب الشوربة)، وجعل أيضا عليه منارة، وجدد المدرسة الطيبرسية، وجعلها مع المدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من باب المزينين الكبير، الذي أنشأه خارجها جهة القبو الموصل إلى شارع السكة الجديدة بجوار المشهد الحسيني.

وهذا الباب مؤلف من بابين عظيمين، كل باب بمصراعين. وجعل على يمينه منارة

(وقد تهدمت سنة ١٣١٥هـ) وفوقه مكتب. وبداخله ميضأة. ووراء ذلك درج المنارة، ورواق البغداديين والهنود. وقد جاء هذا الباب الكبير، وما بداخله من المدرسة الطيبرسية والأقبغاوية والأروقة، من أحسن المباني في العظمة والفخامة. وزاد في رواق الشام، ووقف عليه، وجدد رواق المكيين والتكروريين، وأجرى زيتا للمصابيح، وزاد في مرتبات الجامع وأخبازه، ولا سيما في يومي الاثنين والخميس، فضلا عما رتَّبه لرمضان من وسائل الرفاهة والتوسيع، فكان مجموع مع عمله في الأزهر مما تقصر عنه همم الملوك".

ولقد بلغ ما بناه عبد الرحمن كتخذا أو أعاد بناءه ثمانية عشر مسجدًا، إلى جانب الأضرحة والسبل والمدارس والجسور وغير ذلك من الأبنية، ومع هذا فقد نفاه علي بك إلى بلاد العرب، غيرة منه وحسدا لتعلق الناس به وحبهم إياه، وبقي في منفاه اثنتي عشرة سنة، وأخيرا أعيد إلى مصر، حيث لم يعش سوى أيام قلائل، وتوفي في سن السبعين، سنة ١١٩١ هـ (١٧٧٦م) ودفن بمدفنه السابق الذكر.

ومن أهم القصور التي شيدت في هذا العهد:

منزل جمال الدين الذهبي: بحارة خوشقدم بالغورية، أنشأه جمال الدين الذهبي كبير التجار بمصر سنة ١٠٤٧ هـ (١٦٣٧م). ويدل تخطيطه وتناسق أجزائه على براعة مهندسه، فقد راعى أن تحيط جميع غرفه بالحوش الذي توجد بوسطه الآن فسقية من الرخام، ليستمتع سكانه في كل فصل من فصول السنة بمزاياه الخاصة. فيوجد في الجهة القبلية مقعد ذو عقدين متكئين على عمود من الرخام، وفي الجهة الشرقية قاعة كبرى ذات إيوانين وبالجهة البحرية إيوان ذو مشربيات.

وأسفال جدران القاعة الكبرى مكسوة بوزرة جميلة من الرخام الدقيق الصنع المختلف الألوان، وبها جزء على هيئة محراب. وبصدرها مشربية لطيفة مطلة على الشارع تعلوها شبابيك صغيرة من الجص المحلى بقطع من الزجاج الملون. وسقفا القاعة والمقعد محليات بالدهان المملوء بالذهب.

منزل الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي: بالدرب الأصفر، وهو المشهور ببيت السحيمي،

وهو مكون من قسمين: القبلي وقد أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي سنة ١٠٥٨ هـ (١٦٤٨م)، وأهم مشتملاته القاعة الكائنة على يمين الداخل، ثم القاعة الكائنة على اليسار، وأرضيتها مغطاة بالرخام الدقيق، وواجهة المنزل المشرفة على الدرب الأصفر مكونة من مجموعة قيمة من المشربيات والشبابيك الخرط الدقيقة الصنع.

أما القسم البحري فقد أنشأه الحاج إسماعيل بن الحاج إسماعيل شلبي سنة ١٢١١هـ (١٧٩٦- ١٧٩٧م)، وأدمجه في القسم الأول، وجعل منهما منزلا واحدا. وأفخم حجرات هذا القسم الحجرة البحرية الكبرى الراكبة على «تختبوش» محمول على عمود من الرخام، وهي مكونة من إيوانين، تتوسطهما «درقاعة»، والأجزاء السفلية من جدرانها مكسوة بالقاشاني المنوع. وبصدري الإيوانين دواليب دقيقة تعلوها أرفف، وضعت عليها مجموعة لطيفة من الأواني الخزفية.

منازل أخرى: ومن منازل هذا العهد أيضا منزل مُحَمَّد بن الحاج سالم الجزار المعروف بمنزل الجريدلية، وقد أنشئ سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣٢م).

ويتصل به منزل آخر بواسطة ساباط (ممر) ذو سقف محمول على عقد ستيني، يعرف بمنزل آمنة بنت سالم، ويقعان شرقي جامع أحمد بن طولون.

وقد استأجره سنة ١٩٣٥م «جاير أندرسون»، أحد الضباط الإنجليز الذين كانوا يعجبون بالفن الإسلامي. وقد جمع فيه مجموعة نفيسة من التحف والطرف الإسلامية، ويعرف الآن بمختلف جاير أندرسون. وسراي المسافرخانة بدرب الطبلاوي، وقد أنشأها محمود محرم، أحد أعيان التجار سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩م). ومنزل إبراهيم كتخدا السناري، بحارة منج بالسيدة زينب. وقد أنشأه إبراهيم كتخدا السناري سنة ١٢٠٩هـ (١٧٩٤م). وسميت الحارة بهذا الاسم، نسبة إلى "منج" أحد علماء الحملة الفرنسية، الذين أقاموا بهذا المنزل عند احتلالها مصر.

ومن منازل ذلك العهد، التي اندثرت، منزل رضوان بك الجلفي، وكان يشرف على بركة الأزبكية، وكانت تعلو ردهاته قباب بديعة الزينة، فيها نقوش عربية من الذهب. وكانت

له حديقة غناء تناثرت فيها الأكشاك الجميلة. وبجانب منزل رضوان بك كان هناك على بحيرة الأزبكية منزل آخر يملكه أحمد الشرايبي، أحد مشهوري التجار في ذلك العهد، وقصر مُحَمَّد بك الألفي الذي اتخذته قيادة الجيش الفرنسي مقرا لها في أثناء احتلالها مصر، وقتل فيه كليبر خليفة نابليون كما تقدم.

ـ ٤ ـ

الحالة الاقتصادية

ذكرنا أن تحول التجارة الشرقية عن مصر إلى جنوبي إفريقيا كان له أثر بارز في تدهور الحالة الاقتصادية في مصر. فقد كانت هذه التجارة ينبوع ثروة لا ينضب في عهد المماليك، سواء مما كانت يجبى عليها من ضرائب، أو مما كان يجنيه المصريون من وراء الإتجار فيها من أرباح. وقد تبع هذا الحادث غزو الأتراك العثمانيين مصر، وما كان يبتزه السلطان والولاة الأتراك والبكوات المماليك من أموال، ناء بها كاهل الشعب، وعم بسببها البؤس، وانتشر الفقر.

وقد كانت أمارات الفقر أكثر ما تكون ظهورا في القاهرة، حيث يقيم الوالي وأعضاء الديوان وجنود جيش الاحتلال التركي والبكوات المماليك، والجميع في تطاحن مستمر، خصوصا البكوات المماليك الذين كان القتال بينهم وبين بعض لا يخمد أواره، فلا تلبث الشوارع والحارات والدروب أن تنقلب إلى ميدان قتال، فيتخلل ذلك نهب المنازل وسلب الحوانيت والمتاجر، ووقوف حركة البيع والشراء، وكساد التجارة.

ولم يمسك المصريون عن الثورة طوال الحكم التركي، من فساد هذا الحكم واستبداد الحكام الأتراك والبكوات المماليك، وانتشار الرشوة وكثرة ما أثقلوا به كاهل المصريين من ضرائب وإتاوات. وكان أهل القاهرة يتزعمون الثورة ضد العثمانيين، ويرفعون راية العصيان في وجوههم كلما اشتد بهم الضيق وازداد بهم الضنك. ومن أمثلة ذلك ما حدث في أوائل ذي الحجة من سنة ١٢٠٩ (يونيه ١٧٩٥م). عندما اشتدت مظالم مراد بك وإبراهيم بك

في فرض الإتاوات وجمع الجبايات، فاجتمع علماء الأزهر وأغلقوه، وأبطلوا الدروس وأمروا الناس فأغلقوا الحوانيت والأسواق، وتجمعوا في بيت الشيخ السادات، وحضر إليهم مندوب إبراهيم بك فطالبوه برفع المظالم، وإبطال المكوس والضرائب، والحكم بمقتضى الشرع والعدل، فأبى وقال: "لا يمكن الإجابة إلى هذا كله، فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش".

فقال له المشايخ: "إن هذا ليس بعذر عند الله، ولا عند الناس. وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك، والأمير يكون أميرا بالعطاء لا بالأخذ". وتجمهر الناس، وركب المشايخ إلى الأزهر، وبات الجميع بالمسجد، وانتشرت الثورة في كل مكان، فخشي مراد بك، وإبراهيم بك عاقبة الأمر، ولاطفا المشايخ والتمسا منهم الصلح، واجتمع الوالي والأمراء بالمشايخ وأعلن الأمراء أنهم تابوا ورجعوا، والتزموا بما شرطه العلماء عليهم، وتعهدوا برفع المظالم والضرائب والمكوس والكشوفيات والتفاريد، وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس، ويسيروا في الناس سيرة حسنة. ولم يقتصر الأمر عند حد الوعد، بل إن القاضي –وكان حاضرا– كتب وثيقة بهذه المبادئ الدستورية، وقعها مراد بك، وإبراهيم بك، وفَر مَن عليها الباشا، أي وقع الوالي عليها"(١٢).

الحالة الاجتماعية

استمرت الحياة الاجتماعية في العصر العثماني كما كانت في عهد المماليك.

وكان نظام الطبقات هو نفس النظام السابق. غير أنه دخل على المجتمع المصري عنصر جديد، هو العنصر التركي العثماني، ويتمثل في جنود جيش الاحتلال العثماني والولاة الأتراك وأعضاء الديوان. وقد استمر البكوات المماليك كأسلافهم من المماليك الشراكسة، يترفعون عن المصريين، ويتباعدون عنهم، إذ لا تربطهم بالبلاد أية روابط وطنية أو أسرية، فكانوا يعتمدون على ما كانوا يبتاعونه من الرقيق، ولم يصاهروا الأهالي. وقد شاركهم الأتراك العثمانيون في ذلك. ولم يكونوا أقل ترفعا وتكبرا على المصريين من المماليك، بل زادهم كبرياء وتعاليا أنهم استولوا على البلاد عنوة، وبقوة المدفع والسيف. ونظروا إلى مصر وما

فوق أرضها من حيوان وإنسان كأنه ملك حلال لهم، وكان المصري مهما علا شأنه في نظر التركي العثماني ليس إلا "فلاحا!!".

وذكرنا أن العثمانيين فيما وضعوه للبلاد من أنظمة لم يعنوا إلا بأن تدوم تبعيتها لهم، ولا تنفك عنها الأغلال التي تربطها بذيلهم، لذلك لم يهتموا برفع المستوى العلمي أو الاجتماعي للشعب. كذلك البكوات المماليك لم يرعوا غير مصالحهم الشخصية، ولم يعملوا لاستغلال ثروة البلاد ومواردها إلا لمنفعتهم الخاصة، وإرضاء ملاذهم وشهواتهم.

لذلك انحط المستوى الاجتماعي للشعب، إلى أقصى دركات الانحطاط، وانتشرت الخرافات والبدع، وراجت سوق السحرة والمشعوذين. فقد حدث في عام ١١٤٧هـ (١٧٣٥م) أن راجت إشاعة أن يوم البعث سيكون يوم جمعة في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأخذ الناس يودع بعضهم البعض الوداع الأخير، ويهيمون على وجوههم في الحقول والطرقات، وانقضى اليوم الموعود والناس أحياء يرزقون، وكانوا يرددون فيما بينهم أن سيدي أحمد البدوي والدسوقي والشافعي تشفعوا للناس عند الله أن يؤجل قيام القيامة، فقبل شفاعتهم!!

وفي سنة ١٢٠٥هـ (١٧٩٢م) أشيع بين الناس أنه في ليلة السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى، في نصف الليل، ستحدث زلزلة قوية تستمر سبع ساعات. فلما كانت الليلة المذكورة، خرج الناس إلى الصحراء، وإلى الأماكن الفسيحة، مثل بركة الأزبكية، وبركة الفيل، وغيرها. ونزلوا في السفن، وباتوا ينتظرون إلى الصباح، فلم تحدث زلزلة، وأصبحوا وهم يتضاحكون بعضهم على بعض.

ومن الأعياد والاحتفالات الشعبية في ذلك العهد الاحتفال بمقدم شهر رمضان. ففي آخر ليال شعبان يوفد إلى الصحراء عدد من الرجال ليحاولوا رؤية الهلال الوليد، ويسير موكب المحتسب، من القلعة إلى بيت القاضي، يتبعه مشايخ الحرف والجنود والمنشدون والموسيقيون، ويمكثون عند بيت القاضي، حتى يعود واحد ممن أوفدوا لمشاهدة الهلال، أو يتقدم من يؤكد رؤيته. وإذ ذاك ينطلق الموكب، فيتفرق إلى جماعات، تجوس خلال المدينة،

وهي تنادي: «يا أمَّة خير الأنام.. غدا صيام! صيام!» أما إذا لم تكن الرؤية قد تأكدت، فإنهم يصيحون قائلين: "غدا من شهر شعبان.. إفطار! إفطار!"[١٣].

ومنها أيضا الاحتفال بعودة الحاج والمحمل من بلاد الحجاز، فيخف الشعب بجميع طبقاته في القاهرة لاستقباله، ويخرج الناس بالطبول والزمور للقاء أقاربهم وذويهم، العائدين من الحج، حاملين إليهم الطعام الوافر، والملابس الجديدة. ويحضرون لهم الحمير عوضا عن الجمال المنهكة. وتدخل قافلة الحج إلى القاهرة من ثلاثة أبواب، قسم يدخل من باب النصر، والثاني من باب الفتوح، والثالث من باب العدوي[١٤].

ومنها الاحتفال بيوم عاشوراء[١٥] (العاشر من شهر المحرم)، فتزدحم الطرقات المؤدية إلى مسجد الحسين بالناس، ويزخر المسجد نفسه بالدراويش حيث يقيمون حلقات الذكر. وأهم الاحتفالات جميعا، الاحتفال بمولد النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث تقام السرادقات الواسعة، في منطقة بركة الأزبكية. وتمتلئ هذه السرادقات بحلقات الذكر، بينما يلتف الناس في الطرقات المحيطة حول الشعراء والقصاصين الذين يقصون عليهم مغامرات أبي زيد الهلالي، والظاهر بيبرس، وعنترة بن شداد، وسيف بن ذي يزن مصحوبة بأنغام الرباب. هذا في النهار، أما في الليل فتتوافد على المكان مواكب الدراويش (وتسمى مواكب الإشارة)، حاملة المصابيح مرفوعة على عصي طويلة بدلا عن الأعلام التي يحملونها نهارا، ومن غريب ما كان يحدث في المولد النبوي انبطاح بعض الدراويش على الأرض، في طريق إمام مسجد الحسين، فيسير بجواده على أجسامهم، راجين البركة من هذا العمل، وهو ما كان يعرف عند العامة "بالدوسة"[١٦]، وقضم بعض المشعوذين رؤوس الثعابين بأسنانهم، وابتلاع الجمر الملتهب، وغير ذلك من العادات الغريبة الضارة.

ومن الاحتفالات الهامة استقبال الولاة الأتراك عند قدومهم إلى القاهرة، حيث يسير الوالي في موكب تقدمه فصائل الجنود المشاة بموسيقاهم وأعلامهم، يليهم الفرسان ويبلغ عددهم خمسة آلاف فارس أو ستة آلاف، يحملون الرماح الطويلة ويلبسون الملابس الفضفاضة اللامعة، يلي هؤلاء البكوات المماليك مرتدين الملابس البديعة، وحولهم

حاشيتهم من المماليك يمتطون صهوات الجنود العربية الأصيلة، وعليها سروج موشاة بالذهب والفضة، وأعنتها مرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة، يليهم الباشا، يسير الهوينا تتقدمه كوكبة من مائتي فارس وفرقة موسيقيين، وأمامه أربعة جياد، يقودها أربعة من السواس. ويمتطي الباشا جوادا كريما، ويضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة، يتوهج سناها في أشعة الشمس.

ويبدأ الموكب من بولاق في الساعة الثامنة صباحا، حيث تكون قد رست للسفينة المقلة للوالي، ويسير في شوارع القاهرة إلى أن يصل القلعة عند الظهر. وفي اليوم التالي يعقد الديوان بالقلعة، ويُدعى البكوات المماليك إلى حضوره، ويجلس الباشا على منصة، ويتلو كخياه (وكيله) كتاب الباب العالي، فيطأطئ السناجق (البكوات) رؤوسهم احتراما لولي الأمر، ويتعهدون بالطاعة. هذا الباشا بعد هذه الحفلة العظيمة لا يستطيع الخروج من القلعة إلا بإذن من شيخ البلد[١٧].

ويتم عزل الوالي في احتفال أيضا، ولكنه احتفال متواضع، يتفق ومقتضى الحال. ذلك أنه إذا لم يحز رضا شيخ البلد، فلا يلبث أن يجتمع الأخير برجاله اجتماعا عموميا، فيقرروا عزل الباشا ويكتبوا بذلك أمرا يسلمونه إلى «الأوطه باشي» ليوصله إلى الباشا فيحمله، ويسير على حمار –لأن القانون لا يسمح له بركوب الخيل أو البغال–! وبين يديه فرمان العزل. فإذا مر في الأسواق على هذه الصورة، علم الناس أنه ساع في أمر هام، فيه عزل، فيهرولون وراءه. ولا يزال سائرا في عرض الطرق، قائدا لتلك الجماهير حتى القلعة. ومن واجبات أي جندي يلقاه في تلك الحال أن يرافقه، اتقاء ما يخشى حدوثه عند وصوله إلى القلعة.

فإذا وصل القلعة، فإنه يدخل على الباشا، ثم يجثو أمامه باحترام ووقار. وعندما ينهض، يطوي السجادة التي كان جاثيا عليها وينادي بأعلى صوته: «انزل يا باشا». وعند طي السجادة، والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق ذلك الباشا، ولا تعود له أقل سلطة على الجنود التي كانت قبل بضع دقائق رهن إشارته، وتصير تحت أوامر الأوطه باشي.

وكان العامة يسمون الأوطه باشي بأبي طبق، لأنه كان يلبس قبعة ذات حافة عريضة تشبه الطبق. وإلى أن يصل إلى القاهرة وال جديد، يتسلم شيخ البلد زمام الأمور، ويصبح هو صاحب الأمر والنهي في البلاد[١٨].

وأخيرا فقد أدى سوء الإدارة التركية إلى انحطاط المستوى الخلقي، فانصرف الناس إلى الرذائل، والتخلق بالعادات الذميمة، فشاع شرب الخمر، وتعاطي المسكرات، والاستهتار بالفضائل، وانغمس سكان القاهرة في عهد «رضوان الجلفي» في أواخر العهد العثماني في حمأة الرذائل، وكانوا يحتسون كؤوس الشراب واللذة حتى الثمالة[١٩]، ولم يكن في ذلك شيء من الغرابة «فالناس على دين ملوكهم». ولولا انتشار الطرق الصوفية في القاهرة وسائر البلاد المصرية، وما كانت تذيعه بين الناس من المعارف الدينية والأخلاقية، وما يحفظون من قصائد المديح والأدعية والأوراد، لما وصل إلى عامة الشعب أي بصيص من النور[٢٠].

الحالة العلمية

عظم شأن العلم والثقافة في العصر المملوكي، لأن القاهرة، كما ذكرنا قبلا، خلفت بغداد في مضمار العلوم والمعرفة والفنون، فصارت مهبط العلماء، ومقصد الأدباء، ومحط رحال الرحالة والرواد، يفدون عليها من مختلف بقاع العالم. فلما غزا الأتراك العثمانيون مصر، وجَّه السلطان سليم كل جهوده للقضاء على الحضارة المصرية، وتحويل القاهرة إلى مدينة ثانوية، قليلة الخطر، وأراد لها أن تكون فقط عاصمة ولاية، بعد أن كانت مقر الخلافة وقصبة السلطنة، وإحلال إستانبول (القسطنطينية) محلها، وجذب انتباه العالم إليها.

لذلك أخذ شأن العلم في الانحطاط، حتى وصل في نهاية العهد العثماني إلى أبعد دركات الانحطاط، وأفل نجم الثقافة، ودخلت مصر في ليل من الظلام لا يتخلله شعاع من نور.

ولا يغيبن عن البال أن الأتراك العثمانيين لم يكن لهم ماض في العلم أو الثقافة، وليس لهم علم يذيعونه في البلاد التي وقعت تحت سيطرتهم.

وكان صلفهم وكبرياؤهم يأبيان عليهم التعاون مع المصريين في ميدان العلم، لأن هؤلاء قد ضرب عليهم الاستعمار الذلة والمسكنة. والمستعمرون يعتصمون دواما بأهداب القوة والجبروت، ويتخذون منهما درعا واقيا أمام الجهل والضلال، ويترفعون عن النزول إلى مستوى المصريين مهما كان نصيبهم من العلم والمعرفة، إذ هم جميعا في نظر الأتراك العثمانيين فلاحون!!، ولم يكن الأغا (التركي) ينادي المصري إلا بالعبارة المعروفة: «جنس فلاخ!!» تحقيرا له، وازدراء به.

ولقد كان أغلب المماليك يعرفون العربية، ويجيدون كتابتها والتحدث بها، ويحررون رسائلهم وكتبهم بهذه اللغة، ويشجعون العلم والثقافة، ويجتذبون العلماء والباحثين والمحدثين من شتى أنحاء العالم الإسلامي للإقامة بالقاهرة، ويغدقون عليهم الجوائز والهبات. أما الأتراك العثمانيون فكانوا يجهلون العربية، بالرغم من تدينهم بالدين الإسلامي، وكانت اللغة التركية هي لغة المكاتبات الرسمية والمراسلات، ولغة الدواوين.

لذلك لم يكن غريبا أن ينحط شأن اللغة العربية في مصر، في العهد العثماني، ويعتورها الضعف والركود، وتنتابها الركاكة، وينحط الأدب، ويفتر الشعر، ويصبح مجرد كلام منظوم مقفى، خاليا من المعاني الرصينة مقفرا من الخيال الخصيب. ولولا أن اللغة العربية هي لغة القرآن والحديث والدين التي لا يستغني عنها مسلم لتعرف أمور دينه ودنياه، ولولا قيام الأزهر، وحمايته تلك اللغة، بالرغم مما كان يدرس فيه من مواد ضئيلة، لولا ذلك لأصابها الانهيار والزوال. لذلك أصبح لشيوخ الأزهر مركز مرموق، يتزعمون الشعب في الثورات، ويتكلمون باسمه عند الولاة والحكام، وينوبون عنه في الاحتجاج على فداحة الضرائب واستبداد الموظفين الأتراك. كذلك كانوا يتكلمون باسمه وينوبون عنه عند نابليون وخلفائه في عهد الحملة الفرنسية. وأخيرا هم الذين انتخبوا مُحَمَّد علي واليا مصر باسم الشعب، مشترطين عليه أن يحكم بالعدل والقسطاس المستقيم.

كذلك ندر نبوغ العلماء والمفكرين، وأكثر ما كتب في هذا العصر إما هو من قبيل الشروح ونحوها، ويصح أن يسمى هذا العصر بعصر الشروح والحواشي. وانحط أسلوب

الإنشاء حتى أوشك أن يكون عاميا، كما في قصص بني هلال ونحوها، مما وصل إلينا من القصص الموضوعة، في عصور الانحطاط، بعضها وضع في أواخر العصر المغولي، والبعض الآخر في العصر العثماني(٢١). وكان للانحطاط الذي أصاب المستوى الخلقي آثاره على الكتاب والتأليف، فزاد الكتّاب جرأة على التعابير البذيئة، حتى في كتب التاريخ، كما فعل الإسحاقي في كتابه «أخبار الأول»، وظهرت كتب خاصة بالخلاعة والفحشاء «كرجوع الشيخ إلى صباه»، و«عشرة النساء» وغيرها.

ويروي الجبرتي قصة حدثت بين أحمد باشا أحد الولاة الأتراك عام ١٧٥٠م، وبين الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر إذ ذاك، تصور لنا حالة التعليم في الأزهر. فقد لاحظ الباشا –وكان عالما في الرياضيات– أنه طالما سمع عن مزايا مصر العجيبة، ومحاسنها كمنبع للعلم والمعرفة، ولكنه كان يود كثيرا أن يرى النتائج، بنفسه. ومن ثم قال له الشيخ: «حقيقة يا سيدي أن مصر كما سمعت، منبع العلوم والمعرفة؟».

وهنا سأله الباشا: «ولكن أين هي؟ إنك –على قدر ما أستطيع أن أرى– لا تعرف شيئا سوى الشريعة والعلوم الإلهية وغير ذلك من الدراسات القليلة الأهمية، وتحتقر العلوم العملية كلية». وكان على الشيخ أن يعترف بأن الجامع الأزهر لم يكن يعلِّم الرياضيات، اللهم إلا الحساب الذي كان ينفع في ضبط أحكام المواريث. وبعد ذلك عاد الباشا إلى أسئلته فقال: «وماذا عن علم الفلك؟ إنه يلزم لساعات الصلاة والصوم، وأشياء أخرى كثيرة»، وهنا صرح الشيخ بأن قليلين كانوا يدرسون علم الفلك، الذي يتطلب كفاية خاصة، وأجهزة دقيقة، وشروطا جسمانية معينة، وميلا إلى الهدوء والدعة، وذلك لمواصلة أبحاثه. ثم قال للباشا إن في مقدوره أن يرشد إلى عالم من النوع الذي يريد، ولكن ليس من شيوخ الأزهر، وكان والد الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، المؤرخ المشهور. وقد أعجب به الباشا كثيرا، ولازمه طوال مدة ولايته، وخلع عليه خلعة من الفرو، باعها الشيخ فيما بعد بثمانمائة دينار(٢٢).

وفيما عدا الكتاتيب التي كان الصبية يتعلمون فيها القرآن ومبادئ القراءة والكتابة والحساب، لم يكن هناك مدارس يتلقى الطلاب فيها العلم، غير الأزهر. أما المدارس التي

أنشئت في عهد المماليك، لتعليم المذاهب الأربعة فقد اندثرت جميعا. وقلَّ من المساجد في العهد العثماني ما كان يدرس فيه الدين، خص بالذكر من تلك المساجد مسجد مُحَمَّد بك أبي الذهب، الذي قرر منشئه أن يدرس فيه مذاهب الحنفي والمالكي والشافعي.

أما دور الكتب، التي كانت تزخر بها القاهرة في عهد المماليك، في المساجد والتكايا والأضرحة والمدارس والمستشفيات والقصور، فقد اندثرت هي الأخرى، وعفت آثارها، اللهم إلا مكتبة الجامع الأزهر، التي كانت تحتفظ بعدد غير قليل من الكتب. ومع ذلك فقليل من الأسرات كانت تشتغل بالعلم، وتسعفها إمكانياتها لجمع الكتب، من ذلك تاجر غني يدعى الشيخ أحمد الشرايبي، كان له على بركة الأزبكية قصر منيف بين قصور الأمراء، التي كانت تطل على تلك البركة. وقد شغف الشيخ الشرايبي وأفراد أسرته بجمع الكتب، خصوصا النادر منها، ولم تكن لتدع كتابا يظهر دون أن تقتني نسخة منه -مهما غلا ثمنه-، حتى إن العلماء كانوا يجدون بغيتهم في مكتبة الشرايبي دون شك، وكان لأحدهم أن يستعير الكتاب أو يحتفظ به لنفسه[٢٣]، فيسعى الشرايبي لشراء نسخة أخرى منه، وهذا أمر يندر حدوثه في أية مكتبة، وفي أي زمان.

قلنا إنه ندر نبوغ العلماء والمفكرين، وقل ظهور الشعراء والأدباء المجيدين. وإذا أجهد الباحث نفسه، فلن يجد إلا قلة قليلة من هؤلاء وهؤلاء. فمن المؤرخين جد ابن إياس: أبا البركات مُحَمَّد بن إياس زين الدين الناصري، المولود بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨م) والمتوفى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣م)، مؤلف كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، ويعتبر مصدرا أصليا في حوادث الفتح العثماني التي عاصرها المؤلف، فوصفه لها يعتبر والحالة هذه وصف شاهد عيان، وشمس الدين بن أبي السرور البكري المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠م)، مؤلف كتاب «الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة»، ويعتبر كتابه من المصادر الأصلية أيضا في تاريخ الدولة العثمانية بمصر. والجبرتي: الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن برهان الدين الجبرتي، المولود بالقاهرة سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٦م) مؤلف كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، وهو حجة في الحوادث التي وقعت في مصر بين عامي (١٧٥٧م و١٨٢١م)، أي من نهاية العصر العثماني بمصر إلى أوائل حكم مُحَمَّد علي،

ويدخل ضمن ذلك غزو الحملة الفرنسية لمصر. أما الشعراء أو الأدباء فليس من بينهم من يستحق الذكر أو التنويه.

الفنون والصناعات

كذلك أصاب الفنون والصناعات ما أصاب العلم والثقافة من تأخر وانحطاط، وحسبنا ما ذكرناه من ترحيل ألفين من مهرة الصناع والفنانين إلى القسطنطينية، واغتصاب التحف الثمينة والطرف النادرة من القصور والمساجد لتصور الضربة القاصمة، التي كالها سليم الأول للصناعات والفنون التي ازدهرت في عصر المماليك. أضف إلى ذلك الفقر والفاقة، اللذين أذلا أعناق المصريين على أيدي العثمانيين. فكيف تقوم للفن قائمة بعد ذلك والمعروف أن الفن متعة ورفاهية وذوق، لا يستقيم مع الفقر والفاقة. ولا ينتعش إلا بالتعضيد والتشجيع وهيهات أن يتفق له شيء من ذلك في العصر العثماني المظلم الكريه؟!

وقد رأينا أن الفنون تسير جنبا إلى جنب مع النهضة في فن البناء، فلما أدرك الضعف والتأخر فن البناء في عصر الاحتلال التركي، أصيبت الفنون بالركود والتأخر، تبعا لهذا. من ذلك تجد انعدام التماثل مثلا في الزخارف المحفورة التي كانت تحلي التحف الخشبية. وصارت الحشوات الدقيقة، التي كان يتكون منها الموضوعات الزخرفية البديعة في عهد المماليك، كالمربعات والمعينات وشبه المنحرف والأطباق النجمية، وصارت عبارة عن حشوات مربعة أو مثلثة الشكل، مفصلة في خشب التحفة نفسها[٢٤]، بل وانتهى الأمر بأن حلت الألوان محل الحشوات، فصارت أسقف المساجد والقصور تدهن بالألوان البراقة. كذلك استبدل بالسن العظم في حشوات بعض الأبواب والمنابر.

ومن أساليب الزخرفة التي ذاعت في مصر في العهد العثماني كسوة الجدران بألواح القاشاني. على أن القاشاني كان مستعملا بنسبة ضئيلة في نهاية عصر المماليك، يؤيد ذلك ما ذكره **Prisse d Avennes** في كتابه «الفن العربي» من أن قبة السلطان الغوري كانت مبنية بالحجر، المكسو من الظاهر بالقاشاني الأزرق كالمنارة. ولكن لم يذع استعماله إلا في أوائل القرن السادس عشر، وكان ذيوعه مقرونا باستيلاء الأتراك العثمانيين على مصر،

فصارت تزين به جدران المساجد والقصور، وأسبلة الكتاتيب بوجه خاص.

ولم يقتصر استعمال القاشاني في مصر على المباني الجديدة، بل امتد إلى المباني القديمة. فمثلا جامع آق سنقر المشيد في القرن الرابع عشر الميلادي، عندما تداعى وأصلحه إبراهيم أغا مستحفظان سنة ١٠٦٤هـ (سنة ١٦٥٣م)، كسا صدر الإيوان الشرقي بالقاشاني الأزرق الجميل، ومن ثم أطلق عليه اسم الجامع الأزرق[٢٥]، وأغلب القاشاني الذي كان تُكسى به الجدران في هذا العهد مستورد من تركيا غالبا. أما القاشاني المصنوع في مصر كان أقل جودة في صناعته، وأقل لمعانا من القاشاني التركي.

كذلك أصاب صناعة التجليد ركود ظاهر، واختفت بعد الفتح العثماني الجلود المصرية الحقيقية، وصارت الزخرفة على جلود المصاحف تزاول بواسطة القوالب، لينتج عنها زخرفة نباتية بارزة، بعد أن كان يستعمل في ذلك المكاوي الحديدية المحماة بالنار، والتي كان يستعملها الفنان بحرية في إخراج زخارف هندسية بديعة يملأها بالذهب الخاص. ومن أجمل نماذج المصاحف التركية، المصحف الذي أوقفته الملكة صفية أم السلطان محمد خان سنة ١٠٣٢ هـ (١٦٢٢م)، على جامعها الذي شيدته بالقاهرة، وهو محفوظ في الوقت الحاضر بدار الكتب المصرية[٢٦].

وقد اندثرت صناعة المنسوجات التي ازدهرت في العصرين الفاطمي والمملوكي، وكذلك صناعة السجاد، وانتقلت هاتان الصناعتان إلى تركيا، بعد أن قبض سليم على مهرة الصناع ورحلهم إلى بلاده. لذلك صار لتركيا شهرة فائقة في السجاد والمنسوجات في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.

أما الصناعات التي لم يكن منها بُد كي تستقيم حياة الناس، ولا غنى لهم عنها في معاشهم، فقد ظلت باقية في عصر الاحتلال العثماني أيضا، منها: صناعة النسيج، وطحن الغلال، وضرب الأرز وتبييضه، واستفراخ البيض، وصناعة السكر، وعصر الزيوت، ودباغة الجلود، وصناعة الأحذية، والصناعات الخاصة بالبناء، وصناعة البسط والقلوع والحصر، وبناء السفن، وصناعة النحاس وتبييضه، والصياغة وسك النقود، وكانت القاهرة أهم مركز

صناعي في القطر، غير أن معظم هذه الصناعات كانت رديئة النوع، وكان معظمها يستهلك في الأسواق المحلية. أما المصنوعات الجيدة النوع فكانت تستورد من الخارج[٢٧].

---

(١) سيرة القاهرة لستانلي لين بول ص ٢٢٢.

(٢) الأزبكية نسبة إلى الأمير أزبك من ططخ، مشيد جامع أزبك، الذي كان قريبا من البركة وقد هدم عام ١٨٦٩م.

(٣) تاريخ الحركة القومية الجزء الأول ص ٥٩.

(٤) ولد مُحَمَّد بن إياس بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ، وتوفي بها سنة ٩٣٠ (١٤٤٨ -١٥٢٢م) وقد ألف كتابا في تاريخ مصر هو (بدائع الزهور في وقائع الدهور) وهو ثلاثة أجزاء.

(٥) العمارة في عصر مُحَمَّد علي (باشا)، من مقال للأستاذ حسن عبد الوهاب بمجلة العمارة، العدد ٣- ٤ سنة ١٩٤١.

(٦) دليل موجز أشهر الآثار العربية بالقاهرة ص ١٨٨.

(٧) المصدر السابق ص ١٩٢.

(٨) دليل موجز لأشهر الآثار العربية ص ١٩٣.

(٩) المصدر السابق ص ١٩١.

(١٠) دليل موجز لأشهر الآثار العربية ص ٢٠٨.

(١١) جاء في سيرة القاهرة لستانلي لين بول ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرين ص ٢٤٣، أن الأمير عبد الرحمن كتخدا ابن الأمير عثمان كتخدا القزدوغلي وهذا غير صحيح.

(١٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار. الجزء الأول ص ١٤٧.

(١٣) إدوارد وليم لين Manners and Customs of the Modern Egyptians ترجمة عدلي طاهر نور ص ٣٥٣.

(١٤) المصدر السابق ص ٣١٩.

(١٥) المصدر السابق ص ٣١٤ – ٣١٩.

(١٦) إدوارد وليم لين: أحوال المصريين المحدثين وعاداتهم ترجمة عدلي طاهر نور ص ٣٣٢.

(١٧) عن سافاري: رسائل عن مصر. ملخص من كتاب تاريخ الحركة القومية للأستاذ عبد الرحمن الرافعي ص ٢٤ – ٢٧ وكان سافاري قد دار مصر عام ١٧٧٧ م.

(١٨) تاريخ مصر الحديث جـ ٢ ص ٧٠ لجرجي زيدان.

(١٩) مسيرة القاهرة ص ٢٣٨.

(٢٠) التاريخ القومي تأليف الدكاترة عزت عبد الكريم وأبي الفتوح رضوان وأمين عبد اللاه ص ١٠١.

(٢١) تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جرجي زيدان جـ ٣ ص ٢٧٢، ٢٧٣.

(٢٢) سيرة القاهرة لستانلي لين بول ص ٢٤٠.

(٢٣) المصدر السابق ص ٢٣٩.

(٢٤) فهرس دليل الآثار العربية تأليف مكس هرتس (باشا) وتعريب المرحوم علي (بك) بهجت ص ١٦٢.

(٢٥) دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة ص ١٢٩.

(٢٦) فهرس دليل الآثار العربية تأليف مكس هرتس تعريب علي بهجت ص ١٦٢.

(٢٧) دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة ص ١٢٩.

الباب الثامن

القاهرة في القرن التاسع عشر

١ -عصر الحملة الفرنسية

من ١٢١٣ – ١٢١٦ هـ (١٧٩٨ – ١٨٠١م)

كثرت المظالم في أواخر العهد العثماني كثرة لم تبلغها في أي وقت مضى.

واشتد استبداد مراد وإبراهيم بالناس، وإثقال كاهلهم بالضرائب، غير مفرقين بين المصريين والأجانب. وكان الملتزمون يستخرجون جميع ما في جيوب الناس من نقود، متوسلين إلى ذلك بمختلف الحيل والوسائل، فأخفى التجار بضائعهم، وهجر الفلاحون أراضيهم، فأقفرت الأرض من الزرع والنبات، وعم الفقر، واشتد البؤس، وتمنى الناس لو أن هذا العهد انقضى إلى غير رجعة.

ولم يقتصر ابتزاز الأموال وإثقال كاهل الناس بالضرائب على الأهالي، بل تعداهم إلى الأجانب، الذين كانوا يقيمون بمصر. فعلت شكوى هؤلاء من البكوات المماليك، وتوجهوا بشكواهم إلى دولهم، ومنها فرنسا.

وأخذوا يصفون لها ضعف المماليك، وعجزهم عن الدفاع عن البلاد ضد أي غزو خارجي. فأخذت فرنسا تفكر في احتلال مصر والاستيلاء عليها، وتوفرت على دراسة تقارير الرحالة والمبعوثين الفرنسيين، الذين كانت ترسلهم إلى مصر لدراسة أحوالها، وتعرف قوتها، أمثال البارون ده توت (Baron de Tott) الذي زار مصر سنة ١٧٧٧م، وفلني (Volney) الذي نشر رحلته سنة ١٧٨٧م، وجالون (Magallon) قنصل فرنسا في الإسكندرية الذي ألح على حكومة فرنسا في غزو مصر، موضحا الفوائد العظيمة التي تعود عليها من الاستيلاء على مصر(١).

وقد سنحت الفرصة لذلك بقيام الخلاف بين إنجلترا وفرنسا عقب ثورتها في سنة ١٧٨٩م، وإنشاء الأولى الأحلاف ضد الثانية. ولما لم تستطع فرنسا أن تضرب إنجلترا في عقر دارها، لموقعها الحصين، أخذت تفكر في ضربها في الهند، أعظم مستعمراتها إذ ذاك. وتمهيدا لذلك قررت الاستيلاء على مصر، التي تقع على الطريق الموصل بين إنجلترا والهند، ومَنْع وصولها إلى مستعمرتها العظيمة، التي كانت تعتبر درة في تاج بريطانيا.

وقد عهدت الحكومة الفرنسية بتنفيذ خطة غزو مصر إلى نابليون بونابرت، الذي كان نجمه آخذا في التألق حينئذ، وصار بعد قليل إمبراطور فرنسا العظيم. فأخذ يدبر أمور الحملة، وجمع جيشا بلغت عدته نحو ثلاثين ألف جندي، مزودين بالعدد وأدوات الحرب الحديثة، يعاونه في قيادته كثير من خيرة قواد فرنسا أمثال كليبر ومينو وديزيه وكفاررللي، واصطحب معه مائة من أشهر علماء فرنسا، ليكشفوا عن ثروات مصر، ويستغلوا خيراتها أحكم استغلال، من بينهم منج وبرتليه وليبير. وأقلعت الحملة من موانئ طولون ومرسيليا وجنوة في ١٩ مايو سنة ١٧٩٨، ووصلت إلى الإسكندرية في أول يوليو سنة ١٧٩٨.

كان المماليك يعيشون في عزلة عن بقية الأمم الأخرى، منغمسين في لهوهم وملذاتهم، يعتمدون في حروبهم على أساليب الفروسية القديمة، وقوامها الكر والفر السريع، وعلى النزال الفردي، ويجهلون مدى تقدم فنون الحرب والقتال في أوروبا، والأسلحة الحديثة الفتاكة، التي لا تبقي ولا تذر. لما علم المماليك بنزول الحملة في الإسكندرية في ٥ يوليو، قابلوا الخبر بغير اهتمام أو اكتراث، مزدرين شأن الإفرنج عامة، ومحتقرين كفايتهم الحربية، وأقسموا أنهم سيحصدون رؤوسهم حصدا إذا قاتلوهم(٢)، ولكن لم تلبث مدافع الفرنسيين وبنادقهم أن حصدت جموع المماليك في شبراخيت، وكان قد حضر إليها مراد بك على رأس قوة تبلغ ستة آلاف من فرسان المماليك والجنود التركية. لذا تقهقر إلى إمبابة وأخذ يقيم الحصون والاستحكامات، في انتظار الفرنسيين، بينما بقي إبراهيم بك على الضفة المقابلة للنيل، في بولاق، ومعه ما أمكن حمله من الثروة والتحف والكنوز، التي جمعها المماليك وحمّلوها ظهور الدواب أو السفن في إمبابة أيضا، ففر مراد إلى الوجه القبلي بينما هرب إبراهيم إلى سوريا.

وقد تقرر في موقعة إمبابة (أو موقعة الأهرام كما يسميها الفرنسيون) مصير المماليك، فكانت ولا شك القاضية الفاصلة، التي أذنت بزوال دولتهم، وتقلص ظلهم، إلى الأبد.

فلما نفض الأتراك والمماليك عن أكتفاهم واجب الدفاع عن البلاد، وإجلاء الفرنسيين عنها، وهذا ما كان ينتظر منهم من غير شك، أخذ المصريون على عاتقهم النهوض بهذا الواجب، فناهضوا الفرنسيين، وشنوا عليهم الغارات، وأشعلوا نار الثورة، وحمل أهل القاهرة هذا العبء نيابة عن المصريين جميعا. وكانت أول ثورة قاموا بها ضد الفرنسيين ثورة ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨، تلك الثورة التي قصدوا من ورائها القضاء على الفرنسيين، بعد أن حطم الإنجليز الأسطول الفرنسي في واقعة أبي قير البحرية، فانقطعت أسباب الاتصال بينهم وبين فرنسا.

وقد أخذ أهل القاهرة الفرنسيين في هذه الثورة على غرة، وحملوا عليهم حملة صادقة، وأحرز فيها أهل الحسينية قصب السبق، وقتلوا حاكم القاهرة الفرنسي ورئيس أركان حرب نابليون. ولكن نابليون أخذ يلاينهم ريثما يعد للأمر عدته، وينصب مدافعه على جبل المقطم، وشرع يمطر بعد ذلك هذا الحي بنيران مدافعه، ويصوب قذائفه على الأزهر، بدعوى أن شيوخه كانوا يتزعمون الثورة.

فوقع الرعب في صدور الناس، واضطروا إلى وقف القتال، خصوصا بعد أن انتهت الذخيرة من أيدي أهل الحسينية. وبعد أن قبض نابليون على ناصية الموقف، أذاق أهل القاهرة كثيرا من ألوان العذاب، ودخل الجنود الفرنسيون بخيولهم الجامع الأزهر، فزادت هذه الإهانة من حفيظة المصريين وغضبهم على الفرنسيين، وحفزتهم إلى ترقب فرصة أخرى يقضون فيها على الفرنسيين.

شرع نابليون بعد ذلك في تأمين حدود مصر من ناحية الشام، وذلك بإيقاف زحف الحملة التي أعدتها تركيا لغزو مصر من هذه الناحية، فخرج على رأس جيش استولى به على العريش ثم غزة ويافا، ثم تقدم بعد ذلك إلى عكا، وظل يحاصرها أكثر من شهرين (من مارس إلى ١٤مايو سنة ١٧٩٩)، ولكن دون أن يستطيع الاستيلاء عليها، لشدة

مقاومتها، ومساعدة الإنجليز لها من طريق البحر. وانتهى به الأمر إلى الانسحاب، بعد أن فقد من رجاله ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل، ورجع إلى مصر، ليجد جيشا تركيا بانتظاره في أبي قير، فوقعت هنا واقعة في أغسطس سنة ١٧٩٩، انتهت باندحار الجيش العثماني. وفي أواخر هذا الشهر نفسه، رحل نابليون إلى فرنسا، بعد أن تألبت ضدها بعض الدول الأوروبية، وصار مركزها محفوفا بالمخاطر.

خلف كليبر نابليون في قيادة الحملة في مصر، ولكنه أدرك خطورة الموقف، فدخل في مفاوضات مع إنجلترا، بقصد الرحيل عن مصر، انتهت بعقد اتفاق العريش في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠، الذي تعهد الفرنسيون بمقتضاه أن يغادروا مصر بأسلحتهم إلى فرنسا على ظهر مراكب تركية. وبذلك أخذ الأتراك يحتلون المراكز التي كان يخليها الفرنسيون واحدا بعد الآخر.

ولكن ما لبث الإنجليز أن نقضوا الاتفاق، لمَّا تبينوا سوء حال الحملة في مصر، وأصروا على أن يسلموا أسلحتهم وعتادهم، ويغادروا مصر كأسرى حرب. فرفض كليبر ذلك، وطارد الأتراك خارج مصر، وهزمهم هزيمة ساحقة في واقعة المطرية أو عين شمس في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠. انتهز أهل القاهرة اشتباك كليبر مع الأتراك في عين شمس، وخروج الجزء الأعظم من الجيش الفرنسي لمقاتلة العثمانيين، فقاموا في ٢١ مارس سنة ١٨٠٠ بثورة أشد وأعظم من ثورة القاهرة الأولى. وكان من قواد هذه الثورة السيدان عمر مكرم نقيب الأشراف، وأحمد المحروقي كبير التجار، وقد حلت بولاق فيها محل الحسينية في ثورة القاهرة الأولى، وحمل أهلها كل ما وصلت إليه أيديهم من السيوف والبنادق والرماح والعصي، وسرعان ما امتدت الثورة إلى بقية الأحياء، حتى عمت المدينة جميعها، وامتلأت بهم الشوارع والميادين وأسطح المنازل، وانضم إليهم النساء والأطفال فكان لهم نداءات وصيحات تصم الآذان، وأقاموا المتاريس على أبواب المدينة، وفي معظم أحيائها كباب اللوق، وناحية المدابغ، والحجر، والشيخ ريحان، والناصرية، وقصر العيني، وقناطر السباع، وسوق السلاح، وباب النصر، وباب الحديد، وباب القرافة، وباب البرقية، والسويقة، والرويعي، وكانت المتاريس على جانب كبير من المناعة، فقد بناها الثوار في الشوارع، وبلغ علو بعضها اثني عشر قدما، وتحصن الناس حولها وتحمسوا للقتال.

ومما يثير الدهشة والإعجاب إنشاؤهم في أربع وعشرين ساعة معملا للبارود في بيت قائد أغا بالخرنفش، ومعملا لإصلاح الأسلحة والمدافع، وآخر لصنع القنابل وصب المدافع، جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت، وتطوع الصناع للعمل فيه، وقدموا ما لديهم من الحديد والآلات والموازين، هذا فضلا عما استخرجوا من المدافع التي كانت مطمورة في بيوت الأمراء والمماليك، بلغ عدتها عشرين مدفعا(٣)، مما أذهل الفرنسيين، وألقى في قلوبهم الرعب والفزع، وأكد لهم أن بقاءهم بمصر صار أمرا مستحيلا، حتى ولو أخمدوا هذه الثورة، وأخضعوا المصريين لحكمهم بقوة الحديد والنار.

هاجم الثوار قلاع الفرنسيين ومراكزهم الحصينة، بل هاجموا معسكر القيادة العامة للجيش الفرنسي بسراي الألفي بك بالأزبكية، فقتلوا من الفرنسيين عددا كبيرا، ولكن مدافع الفرنسيين كانت تحصدهم حصدا. وأخذت القلاع تضرب المدينة بالمدافع، وتسلط قنابلها على الأحياء الثائرة، واشتد أذى الفرنسيين عندما حضر كليبر إلى القاهرة في ٢٧ مارس سنة ١٨٠٠، بعد الانتهاء من واقعة عين شمس، وأخذ في وضع الخطط لتطويق القاهرة من جميع جهاتها، وضرب الثوار ضربة قاصمة.

ومهد لذلك بإيقاع الفرقة في صفوف الثوار واجتذاب العناصر التركية والمماليك إلى صفه، تلك العناصر التي لم تكن تبغي شيئا من وراء الانضمام للثوار سوى استعادة نفوذها القديم، وسلطانها البائد، وعزها الزائل. وقد نجح كليبر في سياسته، ولم يبق في الميدان سوى المصريين، وعندئذ أخذ يصلي المدينة نارا حامية، ويضرم النيران في الأحياء الآهلة بالسكان. فأحدثت الحرائق تخريبا مروعا في القاهرة، واحترقت أحياء برمتها، وتهدمت بيوت عامرة، ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها، ومن الأحياء التي التهمتها النار، خط الأزبكية وخط الساكت والفوالة والرويعي وبولاق وبركة الرطلي وما جاورها، وباب البحر والخروبي والعدوي إلى باب الشعرية.

ويصف الجبرتي ما نزل بأهل القاهرة من مصائب وأهوال فيقول: "واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب، وشدة البلاء والكرب، ووقوع القنابل على الدور

والمساكن من القلاع، والهدم والحرق، وصراخ النساء من البيوت، والصغار من الخوف، والجزع والهلع، مع القحط وفقد المآكل والمشارب، وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز، ووقوف حال الناس من البيع والشراء، وتفليس الناس وعدم وجدان ما ينفقونه، إن وجدوا شيئا، واستمر درب المدافع والقنابر والبنادق والنيران، ليلا ونهارا، حتى كان الناس لا يهنأ لهم نوم ولا راحة، ولا جلوس لحظة واحدة من الزمن، ومقامهم دائما أبدا بالأزقة والأسواق، وكأن على رؤوس الجميع الطير. وأما النساء والصبيان فمقامهم بأسفل الحواصل، والعقودات، تحت طباق الأبنية إلى غير ذلك".

ولم يُصب حيًّا من أحياء القاهرة مثل ما أصاب حي بولاق، فقد جلَّت نكبته عن كل وصف، وارتكب فيه الفرنسيون من الفظائع والمنكرات ما يشيب من هوله الولدان، ولا يرتكبه سوى البرابرة المتوحشين الأنذال.

وهنا نترك الكلام لشاهد عيان، هو المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي إذ يقول: "هجموا على بولاق من ناحية البحر (النيل)، ومن ناحية بوابة أبي العلاء وقاتل أهل بولاق جهدهم، ورموا بأنفسهم في النيران، حتى تغلب الفرنسيس عليهم، وحصروهم من كل جهة، وقتلوا منهم بالحرق والقتل، وبلوا بالنهب والسلب، وملكوا بولاق، وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصي، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة، واحترقت الأبنية والدور والقصور، وخصوصا البيوت والرباع المطلة على البحر، وكذلك الأطراف، وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالغلبة، فنجوا بأنفسهم إلى الجهة القبلية، ثم أحاط الفرنسيس بالبلد، ومنعوا من يخرج منها، واستولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع، وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات، ومخازن الغلال والسكر والكتان والقطن والأبازير، والأرز والأدهان والأصناف العطرية، وما لا تسعه السطور، ولا يحيط به كتاب ولا منشور".

أمام هذه الكوارث التي حلت بجميع أحياء القاهرة لم يسع الناس إلا التسليم، فشرع العلماء يفاوضون كليبر في الصلح حقنا للدماء، فتم إبرام الاتفاق يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠، وهكذا انتهت ثورة القاهرة الثانية بعد قتال دام شهرا كاملا، وفرض كليبر على

سكان القاهرة غرامة حربية قدرها اثنا عشر مليون فرنك، يُوفي نصفها نقدا، ونصفها عروضا، وألزم سكان المدينة بتسليم عشرين ألف بندقية، وعشرة آلاف سيف، وعشرين ألف طبنجة، وخص بعض كبار الأعيان والعلماء بنصيب فادح من هذه الغرامة. ولا تسل عن ألوان العسف والجبروت التي أذاقها الفرنسيون أهل القاهرة عند تحصيل الغرامة[٤]. مما أملاه عليهم الحقد والانتقام، وكان مبعثه الحفيظة وسود الطوية، مما حدا بزعماء الثورة أمثال السيد عمر مكرم، والسيد أحمد المحروقي، وعدة آلاف من السكان إلى الرحيل أو التفرق في البلاد.

لم ينعم كليبر بلذة النصر الذي أحرزه في موقعة عين شمس، وإخماد ثورة القاهرة، وتثبيت قدم الحملة في مصر، وتقوية الروح المعنوية بين جنوده، إذ عاجله الموت بضربة من خنجر سليمان الحلبي، أحد طلبة الأزهر، بتحريض من العثمانيين. فتولى قيادة الحملة من بعده الجنرال مينو، وفي عهده غزا الأتراك مصر بمساعدة الإنجليز.

ونشبت بينهم وبين الفرنسيين عدة معارك في قانوب (جنوبي أبي قير)، وفي الرحمانية، وفي القاهرة، انهزم فيها الفرنسيون، وطلب بعدها «بليار» القائد الفرنسي في القاهرة الدخول مع الإنجليز والأتراك في مفاوضات، انتهت بقبول الإنجليز أن يرحل الفرنسيون عن مصر طبقا لشروط معاهدة العريش السابقة، التي نقضها الإنجليز، فكبدوا البلاد بسبب هذا النقض، أعظم الكوارث والخسائر. وقد وقع الاتفاق الجديد في ٢١ يونيو سنة ١٨٠١، وتعهد الإنجليز والأتراك بنقل جنود الحملة على ظهر سفن إنجليزية وتركية إلى فرنسا.

أما مينو، وكان يعسكر في الإسكندرية، فقد أبى التسليم، واستمر في المقاومة، بينما الإنجليز يضيقون عليه الحصار، حتى اضطر أخيرا إلى الإذعان في أول سبتمبر سنة ١٨٠١، ومن ثم أخذ الفرنسيون في مغادرة البلاد[٥]، بعد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر من احتلالهم مصر، حاملين معهم أسلحتهم وعتادهم، وأبحاثهم التي أجراها علماؤهم في أثناء إقامتهم بمصر. وقد ضمَّنوا معظم هذه الأبحاث كتابهم الذي نشروه بعد ذلك، بعنوان وصف مصر (Description de l'Egypte)، تلك الأبحاث التي كانت أساسا لنهضة مصر المقبلة.

لقد آذى الفرنسيون المصريين كثيرا، وارتكبوا في مصر أبشع الجرائم والآثام، ونبهوا

العالم، وخصوصا إنجلترا، إلى أهمية موقع مصر الجغرافي، فما فتئت هذه تعمل جاهدة لاحتلالها، حتى سنحت لها الفرصة لإدراك هذا المأرب في يوليو سنة ١٨٨٢. ولكنهم مع هذا استنهضوا همة المصريين، بطريق غير مباشر، للذود عن بلادهم، والدفاع عن كرامتهم ضد أي معتد أجنبي، فرنسيا كان أم إنجليزيا، وأشركوهم معهم في الحكم بشكل صوري، ومنذ ذلك الوقت لا يرضى المصريون بالحكم الدستوري بديلا.

كما وضعوا أساس النهضة الصناعية بما أنشأوا من مصانع، خصوصا بعد أن انقطع اتصالهم بفرنسا وأوروبا، أهمها صناعة المنسوجات والورق والبارود وعمل آلات لسك النقود ولرفع المياه ودبغ الجلود وللجراحة. وللحملة يرجع الفضل في إنشاء المستشفيات الحديثة، والمكاتب، وطبع الجرائد، وإدخال المطبعة العربية، التي قامت على أنقاضها مطبعة بولاق التي أوجدها مُحَمَّد علي(٦).

-٢-

لم تصب مباني القاهرة ومساجدها في أي عهد بما أصيبت به على يد الفرنسيين من هدم وتخريب. هؤلاء القوم الذين لم يراعوا لدور العبادة والمساجد حرمة أو كرامة، رغم تظاهرهم باحترام الدين، وشعائر الإسلام، وقت غزوهم مصر. ولم يكن لهم هم سوى إخضاع المصريين لحكمهم بكل ما أوتوا من قوة وبطش، خصوصا عندما تشتد بهم الأزمات، وتتحرج الأمور، كما يفعلون اليوم نفس الشيء مع أهل الجزائر.

لذلك حوَّلوا المساجد ودور العبادة والقصور إلى حصون وقلاع، يقذفون منها المصريون بالحمم والقذائف عند ثوراتهم ضد الطغيان الفرنسي. كذلك هدموا كثيرا من تلك المساجد عندما اعترضت طريقهم، في أثناء هجومهم على الأحياء الثائرة. بل إنهم حولوا المساجد الجامعة كالأزهر وجامع الظاهر إلى ثكنات تأوي إليها جنودهم وخيولهم، غير آبهين لشعور المسلمين عامة، وشعور المصريين بصفة خاصة. ولقد وصف الجبرتي جامع الظاهر بعد أن حوله الفرنسيين إلى قلعة فقال: "وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية، قلعة،

ومنارته برجا، ووضعوا على أسواره مدافع، وأسكنوا به جماعة من العسكر، وبنوا في داخله عدة مساكن تسكنها العسكر المقيمة به".

كذلك حصنوا قلعة الجبل، وبنوا عليها الاستحكامات، ونصبوا فيها المدافع، كما حصنوا جزيرة الروضة، ووضعوا بطاريات من المدافع في كل طرف من أطرافها، وجعلوا من المقياس شبه قلعة. وحصنوا الشاطئ المقابل للجزيرة. وجعلوا فم المجراة طابية حصينة، سميت طابية المجراة، أو طابية السبع السواقي. وجعلوا قصر إبراهيم بك (قصر العيني)، الواقع تجاه جزيرة الروضة مستشفى عسكريا حصينا، يسع ألف مريض وجريح، وألحق به بيت مُحَمَّد كاشف الأرناؤوطي، وجعلوه مخزنا ومصنعا لفرقة المهندسين، وحصنوا السور المحيط بهما، وركبوا عليه المدافع، فصار حصنا منيعا. كذلك أنشأوا قلعتين فوق باب النصر وباب الفتوح، وما تزال توجد آثار الفرنسيين في الأسوار المتصلة بهما حتى اليوم.

ومن المساجد التي هدموها المساجد المجاورة لقنطرة إمبابة ومسجد المقس، المعروف الآن بجامع أولاد عنان، وجامع الكازروني بالروضة، والجامع المجاور لقنطرة الدكة غربي الأزبكية.

وهكذا كان المصريون كلما قاموا بالثورة في وجوه الفرنسيين أمعن هؤلاء في هدم المساجد والدور، ونهبوا الحوانيت، واستولوا على كل ما تحتويه من بضائع ونفائس، ثم هدموا مساطبها، وقطعوا الأشجار من البساتين، واستولوا على أخشابها، ليستعملوها في بناء الاستحكامات والقلاع. وقد ذكر الجبرتي ضمن حوادث سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠م)، أي في عهد قيادة مينو للحملة الفرنسية، أن خططا بأكملها قد تهدمت، كخط الحسينية، والخروبي (بمصر القديمة)، وبركة جناق (وكانت تعرف ببركة درب عجور بباب الشعرية)، وبركة الفيل. وقد كشفوا سور القاهرة القديم، من باب النصر إلى باب الحديد، وحصنوا أبوابه، وأقاموا حولها الأسلاك الشائكة، وسدوا باب الفتوح بالبناء، وكذلك باب البرقية، وباب المحروق.

ومن العمارات التي هدموها جامع جانبلاط بباب النصر، ومباني رأس الصوة (بالميدان الموجود بين جامع السلطان حسن والقلعة، حيث باب العزب). وهدموا أعالي المدرسة النظامية، ومدرسة القانيبية، أو مسجد قانيباي (الموجود على رأس درب السماكين)، وجامع

الچركسي وجامع خوند بركة، خارج باب البرقية، (وهو بقرافة المجاورين، بقرب شارع السلطان أحمد)، وكذلك أبنية القرافة ومدارسها ومساجدها، والقباب والمدافن الكائنة تحت القلعة، وجامع الرويعي، وقد جعلوه خمارة، وجزءا من جامع عثمان كتخدا القزدوغلي، بالقرب من رصيف الخشاب، وجامع خير بك حديد، بدرب الحمام، بالقرب من بركة الفيل، وجامع البنهاوي والدخطوطي والعدوي، وجامع عبد الرحمن كتخذا المقابل لباب الفتوح. ولم يبق منه إلا بعض الجدران.

وهدموا المساطب في أحياء بأكملها كالصليبة، وقناطر السباع، ودرب الجماميز، ودرب سعادة، وباب الخرق فما يليه إلى باب الشعرية. وتعللوا في ذلك برغبتهم في توسيع الشوارع والأزقة، وغرضهم الحقيق منع الناس من اتخاذ متاريس، في حالة قيام الثورة، كما حدث في ثورتي القاهرة الأولى والثانية.

وقطعوا الأشجار والنخيل من جميع الحدائق والبساتين الكائنة بالقاهرة، وبولاق، وقصر العيني، والروضة، ومصر القديمة وخارج الحسينية، وبركة الرطلي، وأرض الطبالة، وبساتين الخليج. وصادروا أخشابها، وأخذوا أيضا أخشاب المراكب والسفن، مع شدة الحاجة إليها للنقل، وعدم إنشاء مراكب جديدة، فتعطلت المواصلات، مما أدى إلى صعوبة النقل(٧).

ب - عصر محمد علي

١٢٢٠ -١٢٦٤ هـ (١٨٠٥ – ١٨٤٨م)

-٣-

كان من بين أفراد الحملة التي وجهتها الدولة العثمانية سنة ١٨٠١م، لإخراج الفرنسيين من مصر، ضابط ألباني برتبة اليوزباشي، ولد في مدينة قولة، واحترف في مستهل حياته تجارة الدخان، الذي تنتجه بلده بوفرة. ثم انخرط في سلك الجندية، ولم يدر أن مستقبلا عظيما كان ينتظره في مصر، وأنه يسير بخطى سريعة نحو عرشها. ذلكم هو مُحَّد علي منشئ الأسرة العلوية.

كان مُحَمَّد علي يتحلى بكثير من الصفات التي تؤهله للعظمة والنجاح: فقد كان شجاعا، مقداما، بعيد النظر، واسع الحيلة، عريض الآمال.

اشترك في محاربة الفرنسيين في مصر، وأتيحت له في أثناء ذلك دراسة الحالة السياسية فيها، فرآها بعد خروج الحملة وقد تنازعتها قوى متباينة: العثمانيون يريدونها لأنفسهم بحق الفتح، والمماليك يتشبثون بها، استمرارا لماضيهم بنصيب وافر في إخراج الفرنسيين، وإحباط خططهم، يودون لو حلوا محل الفرنسيين في البقاء في مصر.

أما الشعب المصري، صاحب البلاد الحقيقي، وقد أقض مضاجع الفرنسيين، وحمل على أكتافه عبء الدفاع عن البلاد، عندما تقاعس الأتراك في الدفاع عنها، ومالأ المماليك الفرنسيين، وعقدوا معهم الصلح، رعاية لمصالحهم الخاصة، عقد هذا الشعب العزم على التخلص من الاستبداد والاستعمار، بعد أن ذاق طعم الحرية، ولذة الكفاح.

رأى مُحَمَّد علي كل هذا، وكان يعرف بالإضافة إلى الكثير عن ضعف الدولة العثمانية، وعدم قدرتها على الصمود في وجه المستعمرين الأوروبيين، وحماية ممتلكاتهم من عدوانهم. فعول منذ اللحظة الأولى على استخلاص مصر لنفسه، مستعينا في إدراك هذه الغاية بالمصريين، أصحاب البلاد الشرعيين. وما زال يستعمل الحيل والمكايد، ضد الولاة العثمانيين، ويبذر بذور الفرقة بين زعماء المماليك، وبينهم وبين الشعب، حتى قضى على جميع معارضيه، الواحد تلو الآخر. وهو في كل هذه الأثناء، يتودد إلى زعماء المصريين، ويظهر لهم استعداده لمناصرتهم، والأخذ بيدهم، ضد الفساد والطغيان، حتى أجمعوا في النهاية على انتخابه واليا.

فتمثلت طوائف مصر المختلفة من علماء ومشايخ وصناع وتجار، وساروا في شوارع القاهرة إلى منزل مُحَمَّد علي بهيئة مظاهرة وطنية، منادين بسقوط «العثمانلي»، ومعلنين رغبتهم في تولي مُحَمَّد علي، ثم تقدم إليه العلماء، وعلى رأسهم السيد عمر مكرم، والشيخ الشرقاوي في ٥ صفر سنة ١٢٢٠ (١٣ مايو سنة ١٨٠٥)، وانتخبوه واليا على البلاد، بشروط اشترطوها: أن يحكم بينهم بالعدل، وأن يلتزم جادة الحق، وألا يبرم أمرا إلا بمشورتهم.

فلما أعلن نبأ انتخاب مُحَمَّد علي، قصدت الجماهير إلى القلعة، ونادت بسقوط خورشيد باشا، الوالي التركي، لما اقترفه الدلاة –حرسه الخاص– في القاهرة من جرائم وآثام. وطلبوا إليه النزول من القلعة، ومغادرة البلاد. ولكنه أبى واستكبر، وذكر للزعماء أنه "مُعَيَّن واليا على مصر بالخط الشريف –أي بأمر السلطان– ولا يأتمر بأمر الفلاحين!!".

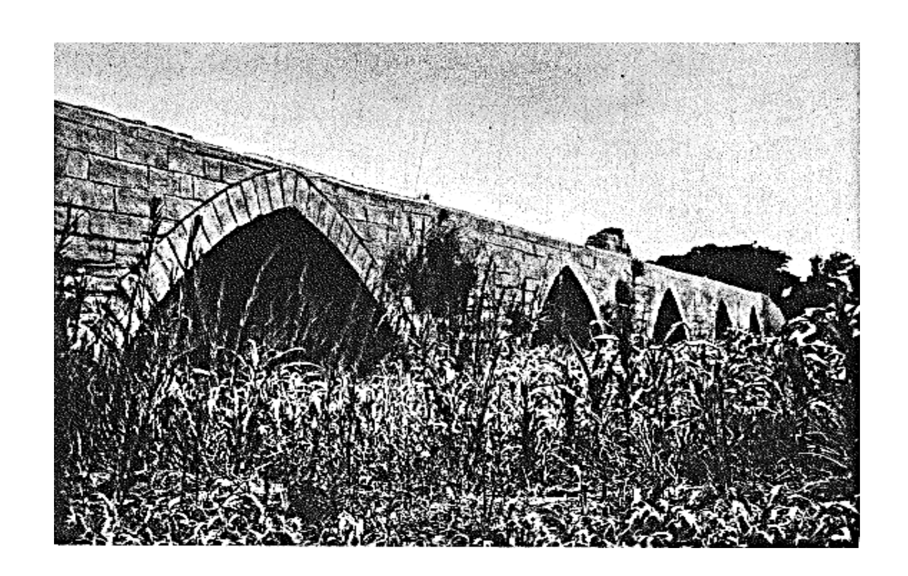
عندئذ هب أهل القاهرة جميعا، وأشعل السيد عمر مكرم فيهم نار الحماسة، وأثار حميتهم، وتزعم الثورة، فتجمعت جموعهم، وحاصروا القلعة، مدة شهرين تقريبا، منعوا خلالها عن الوالي وجنوده الميرة والذخيرة، وتبادل الفريقان الضرب بالمدافع، ولم ينقذ الوالي من الهلاك سوى وصول موافقة السلطان على انتخاب مُحَمَّد علي، في ١١ ربيع الثاني سنة ١٢٢٠ (٩ يوليو سنة ١٨٠٥)، فصدع خورشيد بالأمر، وغادر البلاد، مذموما مدحورا، وهكذا سجل الشعب انتصارا رائعا، ووضع الحجر الأساسي لحريته واستقلاله.

وما إن استتب الأمر لمحمد علي إلا وشرع يحكم البلاد حكما أوتوقراطيا (استبداديا)، فجمع السلطة بأسرها في يديه، وأخذ يقلب لزعماء الشعب ظهر المجن، وينكل بمن يعارضه منهم، متناسيا فضلهم عليه، وأنهم هم الذين أجلسوه على عرش البلاد. فنفى السيد عمر مكرم إلى دمياط، ونزع الأوقاف من أيدي العلماء. وقد استتب له الأمر نهائيا، بعد أن قضى على المماليك غيلة في مذبحة القلعة المشهورة، في ١٠ صفر سنة ١٢٢٦ (أول مارس سنة ١٨١١)، فصار سيد البلاد بلا منازع.

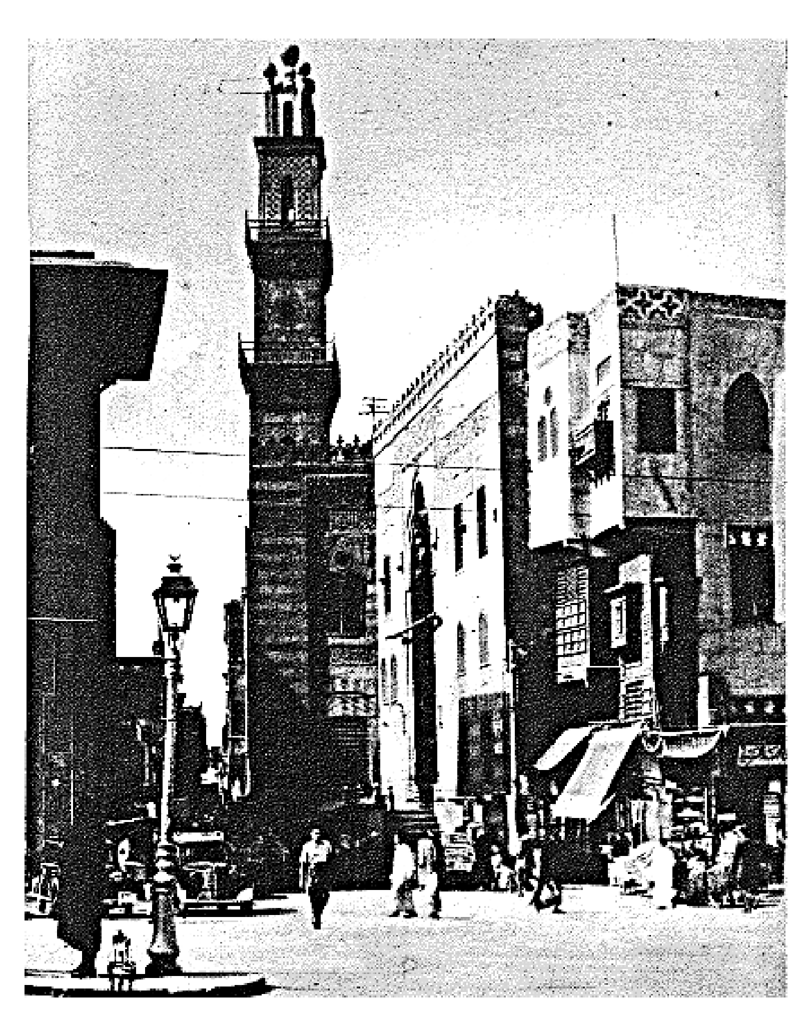
وأخذ ينشئ له جيشا قويا مدربا، وفق أحدث الجيوش الأوروبية، مستعينا بخبرة الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي)، أحد الضباط الفرنسيين المدربين، إذ كان ينوي مد حدود مصر، وتوسيع رقعتها إلى ما كانت عليه أيام عزها ومجدها. فضم إليها بلاد العرب والسودان، واختلف مع السلطان، فانتهى الخلاف بينهما إلى أن غزا بلاد الشام وآسيا الصغرى، وأحرزت الجيوش المصرية على جيوش السلطان نصرا مؤزرا.

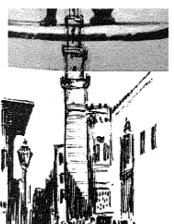
ولولا وقوف الدول الأوروبية في وجهه، لخوفها من تفاقم قوته، وتهديده مصالحها في الشرق، لقضى على الدولة العثمانية، وربما جلس أيضا على كرسي السلطنة. ومع انتصاره

على السلطان في ميادين القتال، إلا إن الدول الأوروبية، وعلى رأسها إنجلترا، أضاعت عليه ثمرة انتصاراته فتجمعت أساطيلها وجيوشها ضده، وأجلت قواته عن بلاد الشام، التي كان يحكمها ابنه إبراهيم، وقررت في معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م ألا يتعدى سلطانه حدود مصر، وفي سنة ١٨٤١م استصدرت من السلطان فرمانا بأن يكون حكم مصر له ولأبنائه من بعده.

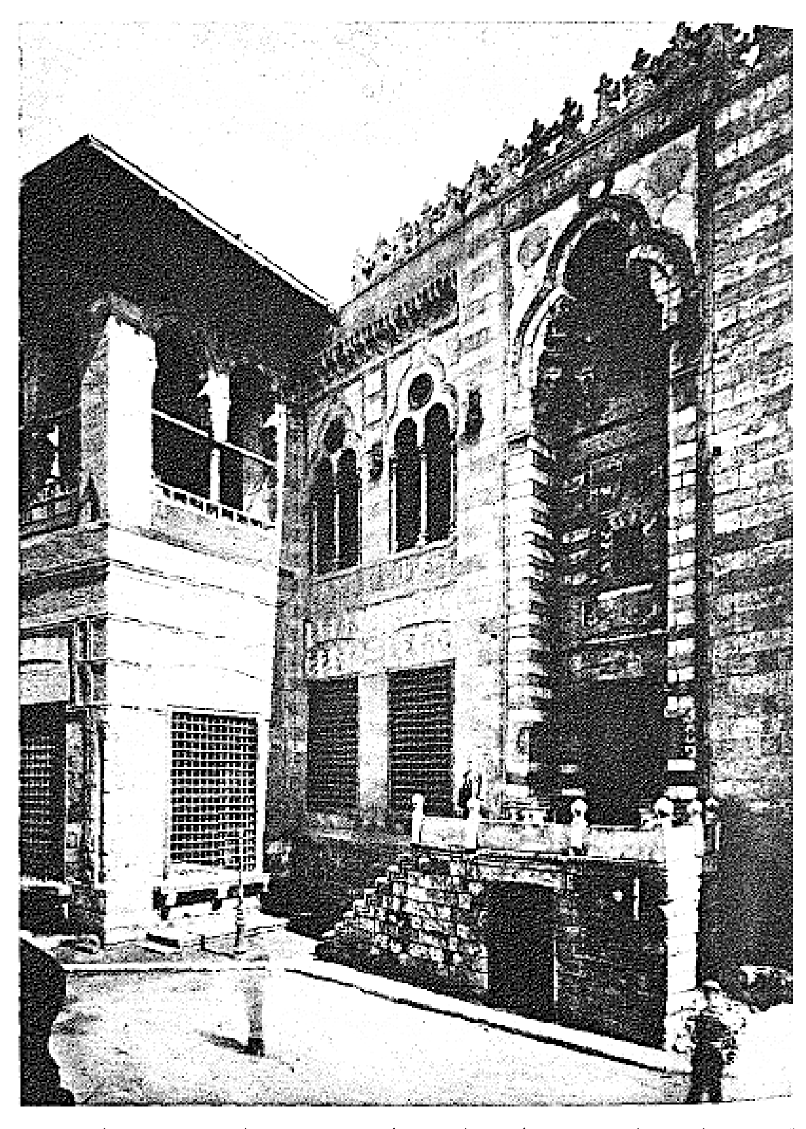


بقية من قناطر أبي النجا شمالي القاهرة وهي من منشآت الظاهر بيبرس.

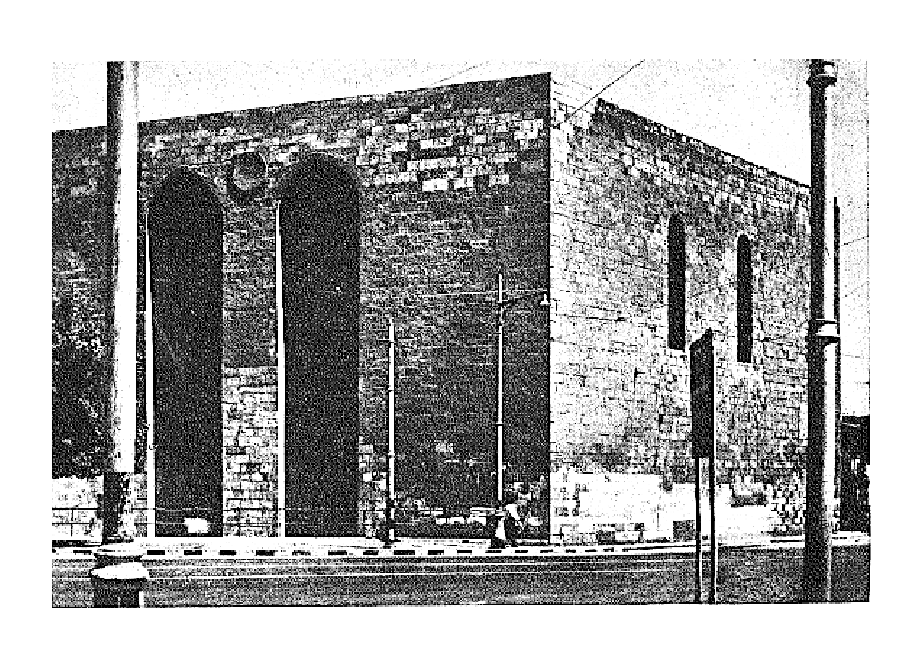




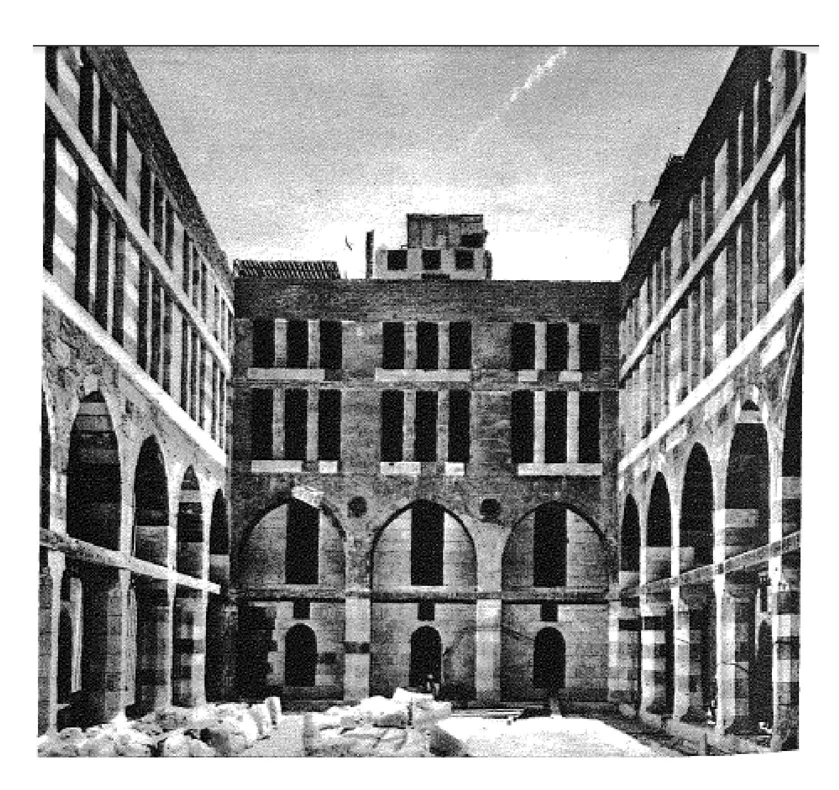
الواجهة والباب الرئيسي والمئذنة المربعة ذات الأربعة رؤوس بمسجد مدرسة الغوري بالغورية، والصورة من مجموعة الأستاذ حسن عبد الوهاب.



قبة وسبيل الغوري بالغورية، ويرى المدخل الرئيسي المرتفع عن مستوى الشارع.. ويتوسل إليه بدرج من السلالم.

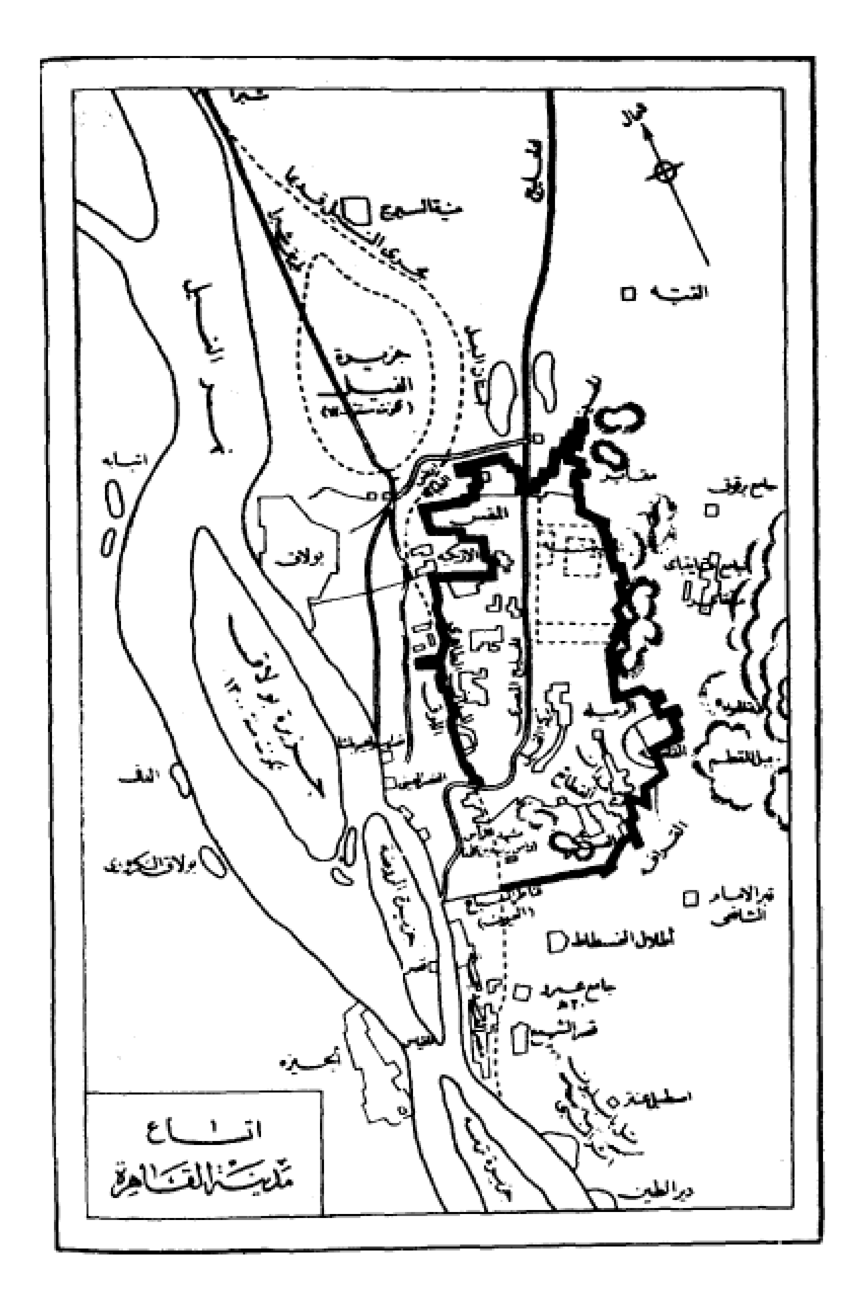


مجرى المياه أو (العيون) بفم الخليج، الذي شيد في عهد الغوري لتوصيل المياه إلى القلمة وفي عهد بعض السلاطين المماليك الآخرين.

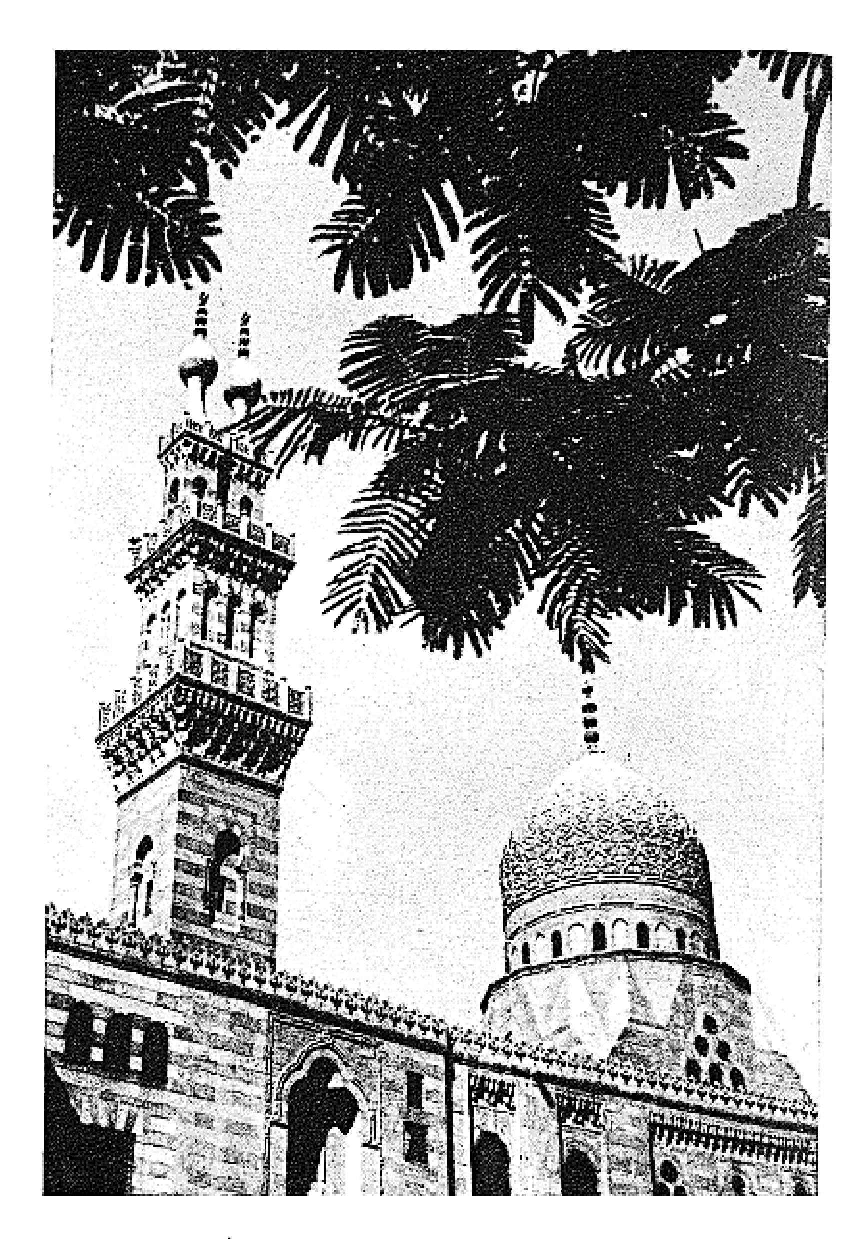




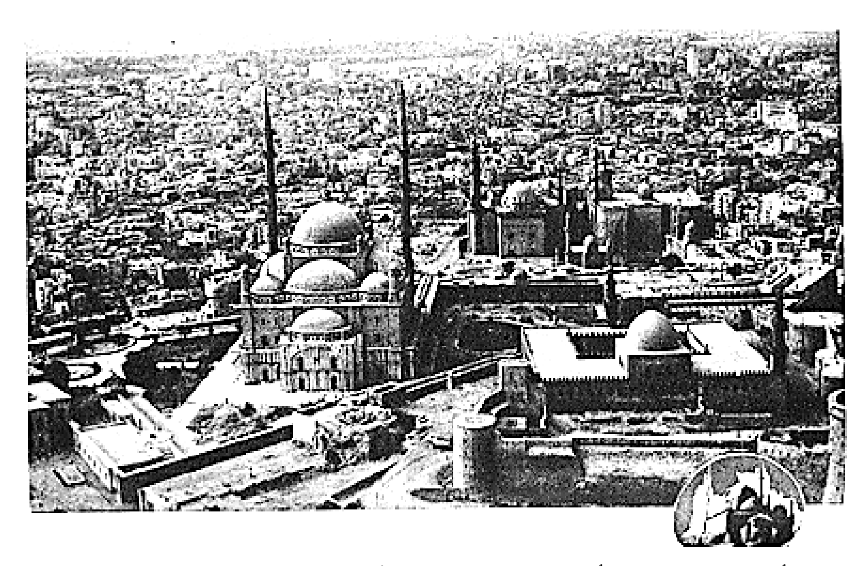
وكالة الغوري بشارع محمد عبده بالغورية أنشأها السلطان الغوري سنة ٩٠٩-١٠هـ (١٥٠٣- ٤م)، وترى الحواصل المعدة لتخزين البضائع وإيواء دواب الحمل في أسفل الوكالة، وفي أعلاها توجد المساكن التي ينزل فيها التجار، وتمثل الصورة الوكالة في أثناء ترميمها وإعادتها إلى سابق عهدها.



يوضح هذا الرسم كيف تحول النيل إلى الغرب، فأصبحت بولاق ثغر القاهرة النهري بدل المقس، وتوضح أيضا جزيرة الفيل التي تخلفت عن هذا التحول، والتي نشأ عليها حيا شبرا وروض الفرج فيما بعد.



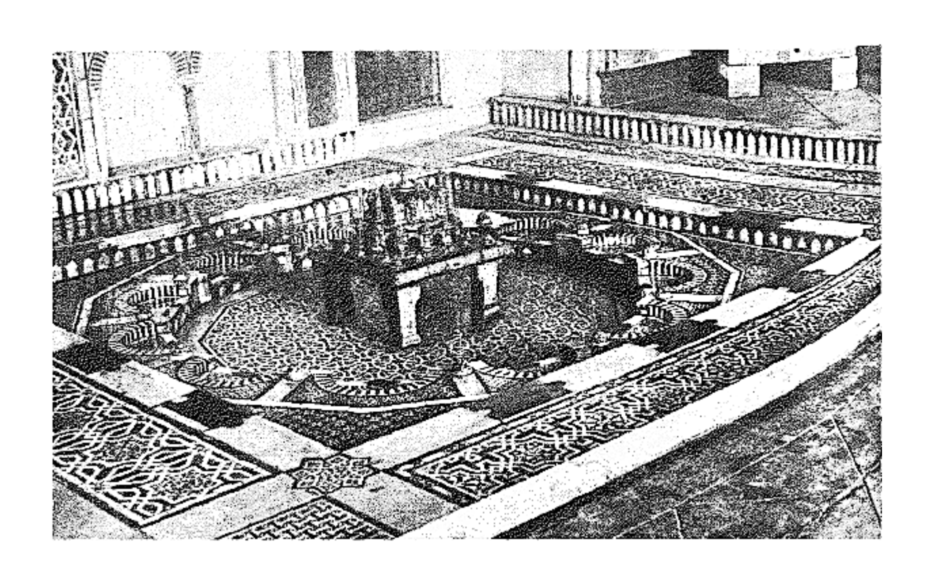
قبة ومئذنة مسجد قاني باي الرماح بميدان صلاح الدين بحي القلعة.. وهو من أجمل المساجد المملوكية.



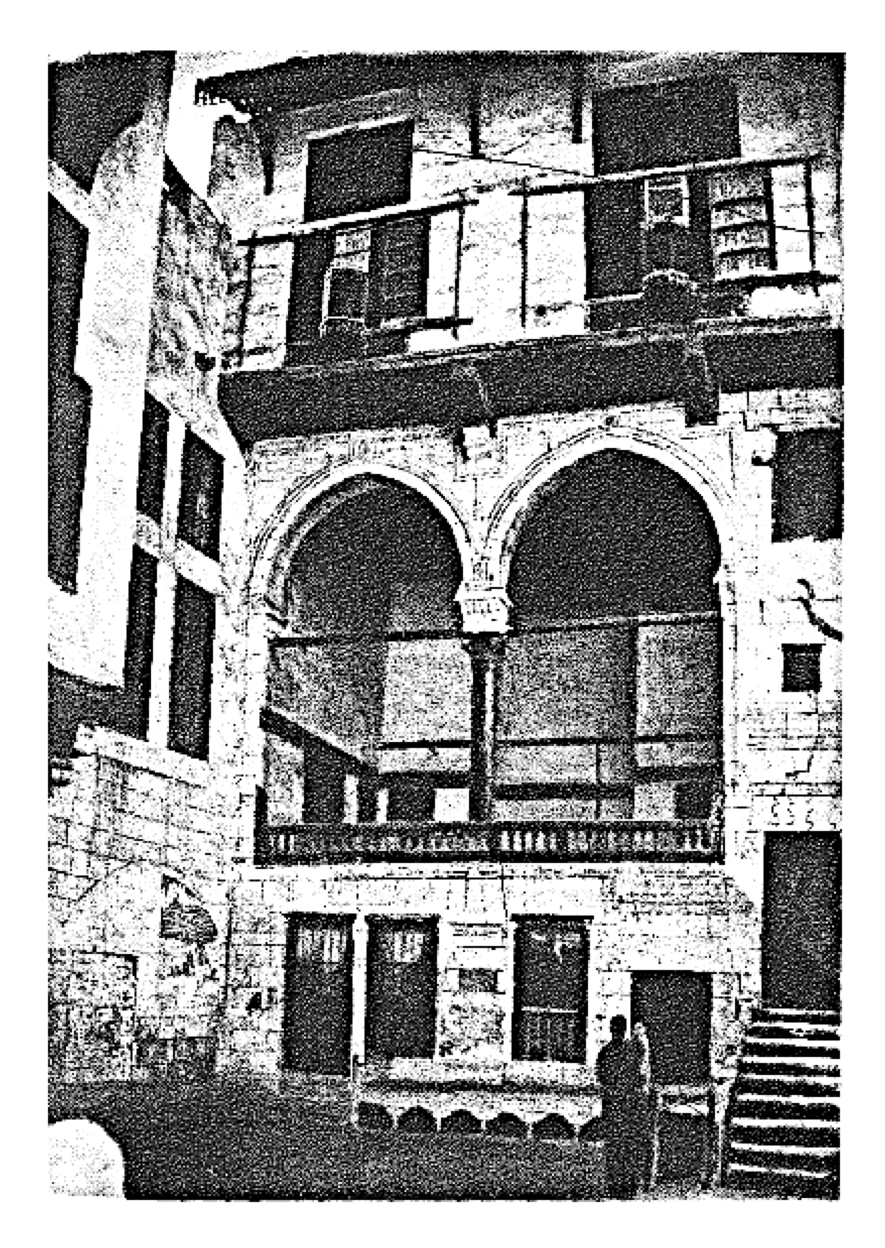
منظر مأخوذ من طائرة للقلعة وأسوارها وما يجاورها من منشآت وما يحيط بها من مساجد، من بينها مدرسة السلطان حسن وجامع الرفاعي وغيرهما، وترى القلعة وهي تشرف على القاهرة جميعها.



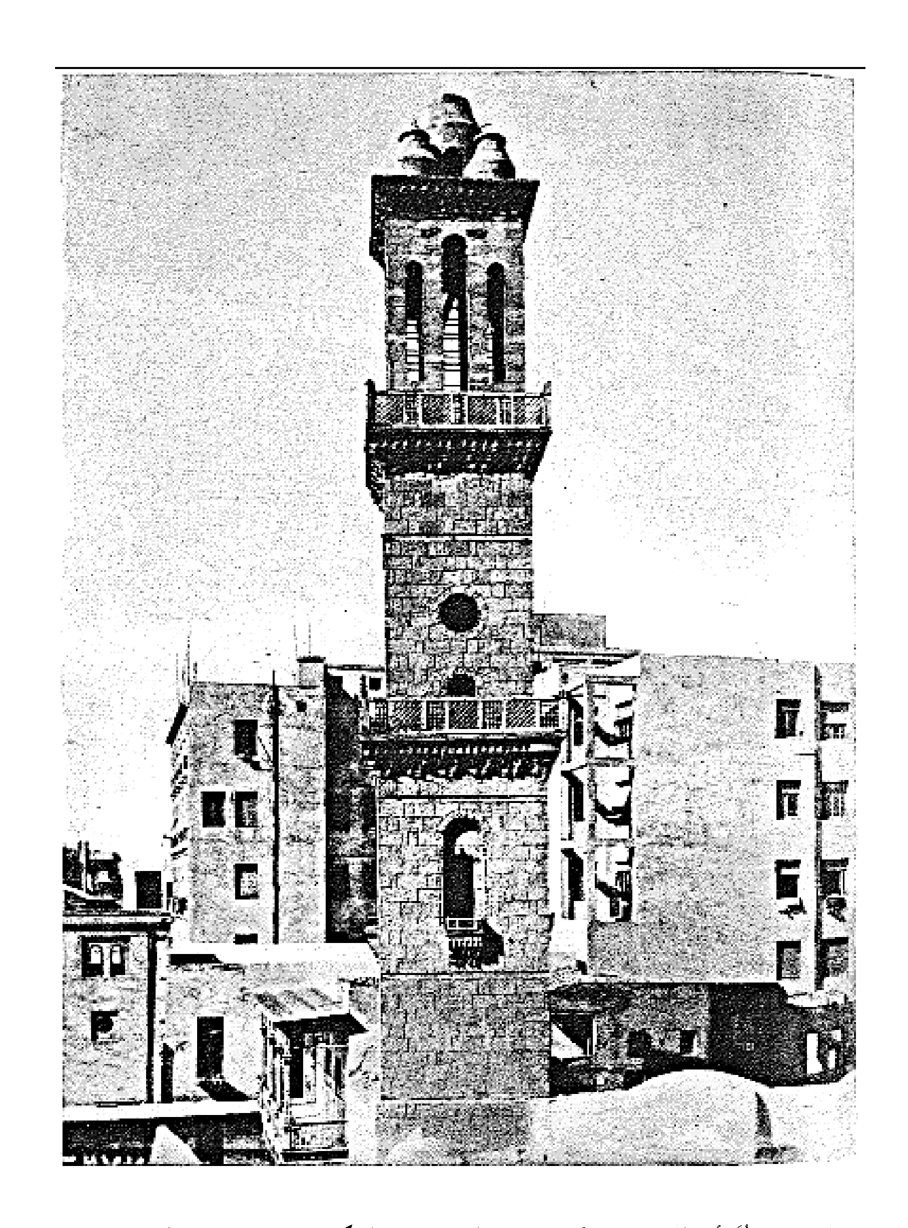
مسجد سنان باشا ببولاق: وترى القبة الضخمة وشبابيكها الجصية ذات الزجاج الملون، وهو ثاني مسجد أنشئ بالقاهرة على الطراز العثماني.



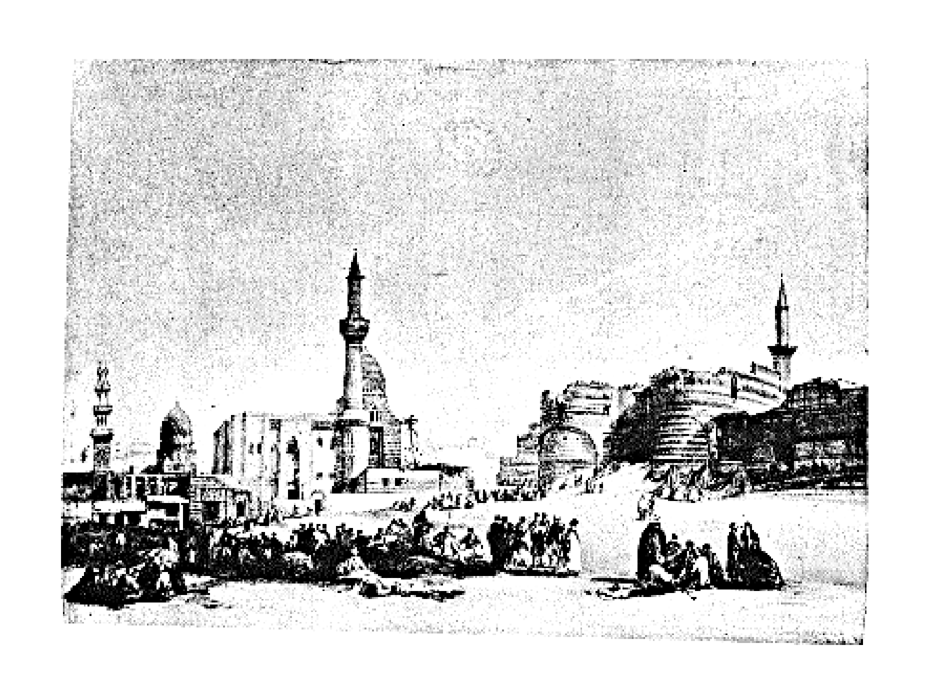
نافورة من العصر المملوكي وهي مصنوعة من الفسيفساء الرخامية البديعة، محفوظة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.



منزل جمال الدين الذهبي بحارة خوشقدم، ويرى المعقد ذو العقدين المتكئتين على عمود من الرخام، ويطل على الحوش من الجهة القبلية.

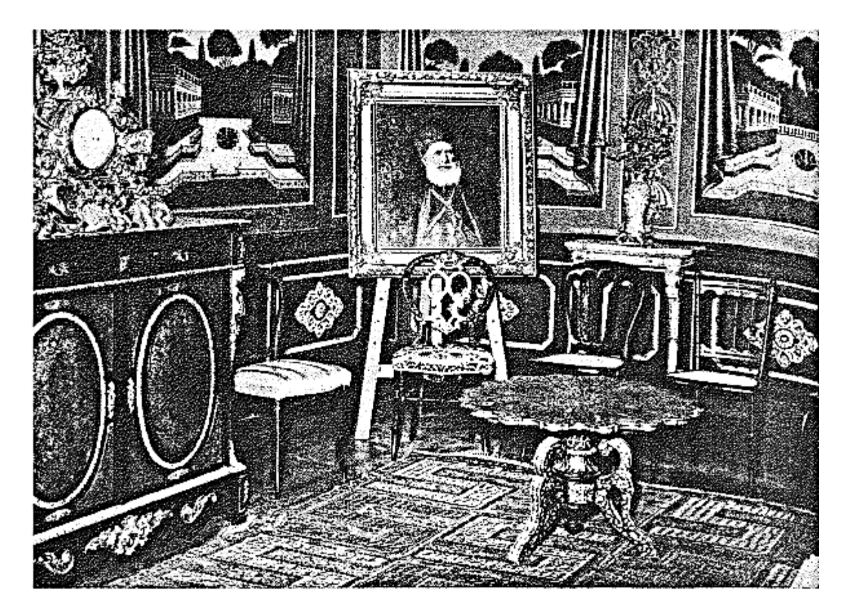


مئذنة جامع محمد أبي الذهب، وهي كما ترى في الصورة مربعة الشكل منتهية بقمة ذات خمسة رؤوس.

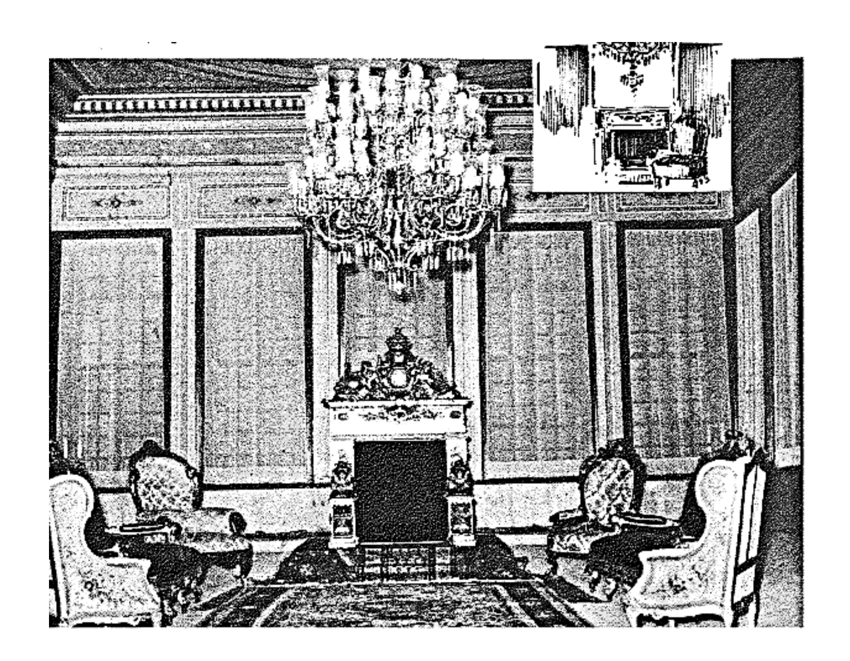




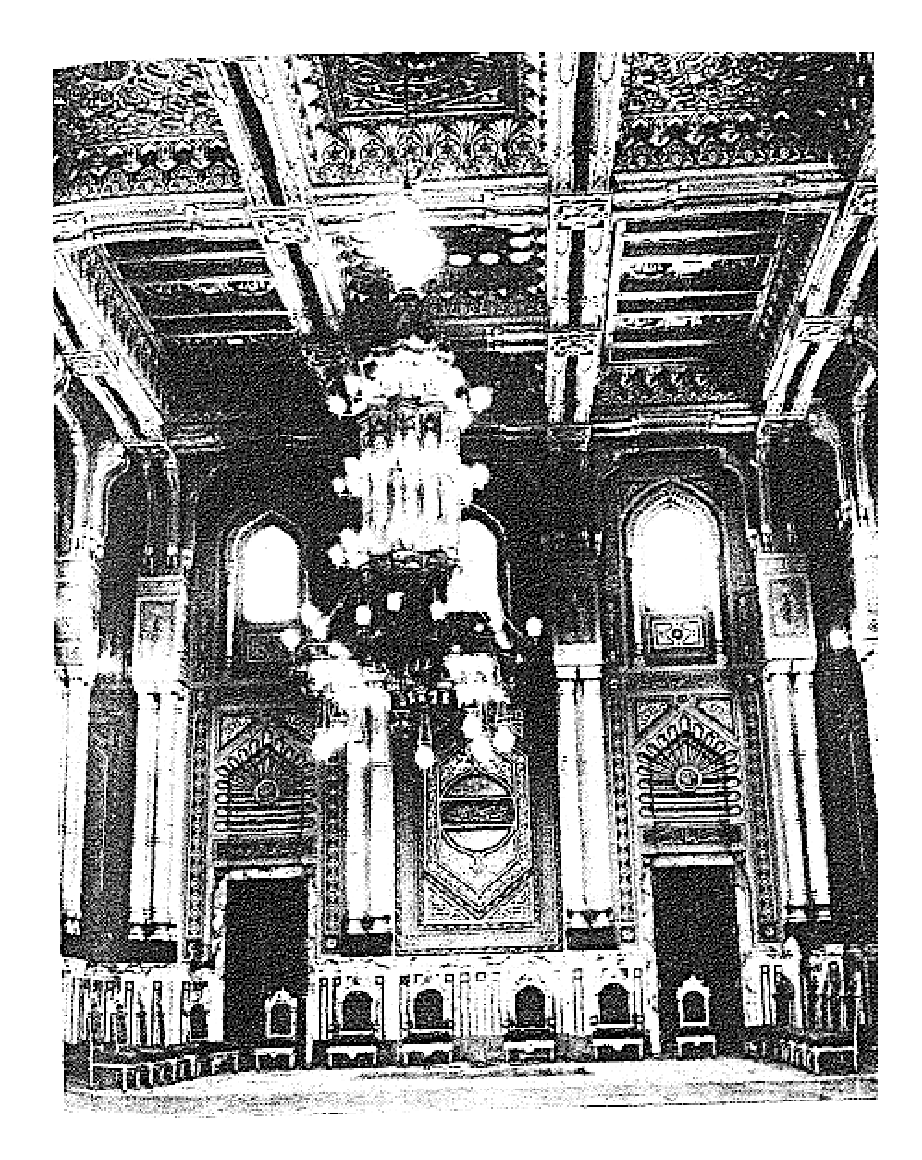
ميدان الرملية بالقلعة، وترى القلعة وباب العزب ومسجدا قاني باي الرماح والمحمودية والناس مجتمعين وسط الميدان يبيعون ويشترون، فقد كان أحد أسواق القاهرة في القرن الثامن عشر.



قاعة الفرمانات بقصر الجوهرة بالقلعة.



قاعة العرش بقصر الجوهرة بالقلعة.

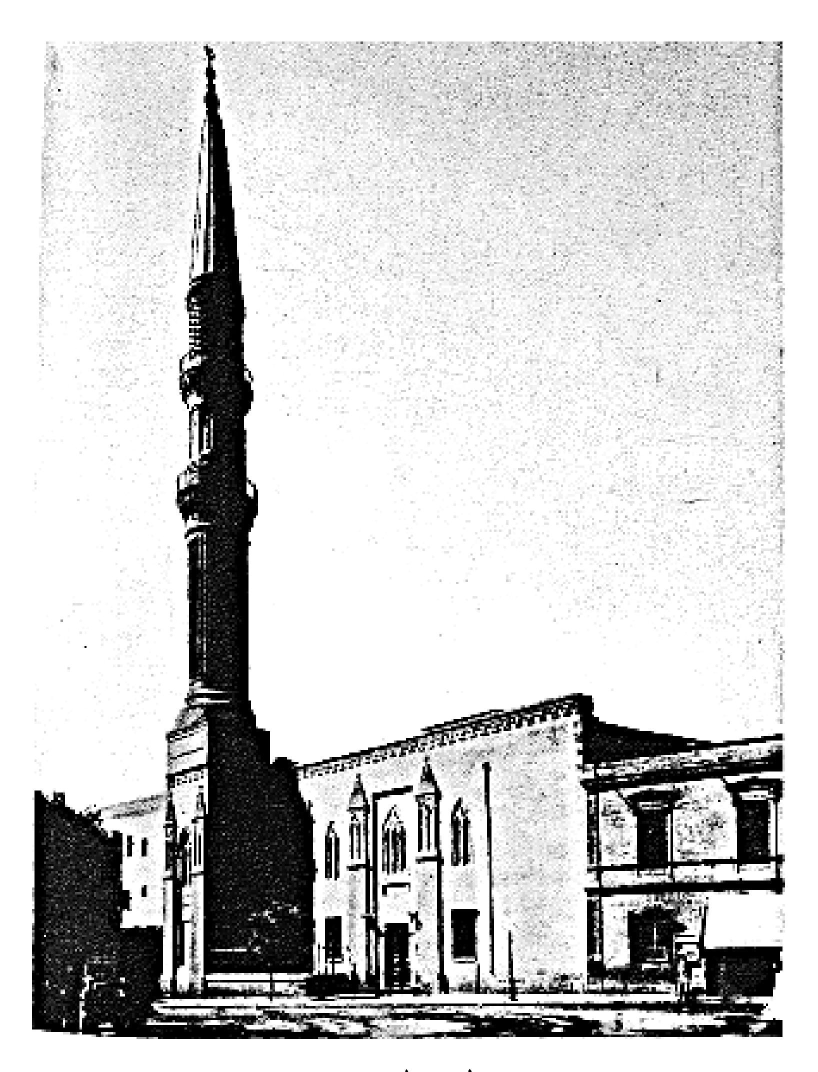


قاعة العرش بمتحف عابدين.





سبيل أولاد عنان بميدان رمسيس بالقاهرة.



المشهد الحسيني.

وقد تعهد مُحَمّد علي البلاد بإصلاحات عظيمة، في همة لا تعرف الملل، مستعينا بنخبة من المستشارين والعلماء الفرنسيين. فتمتعت البلاد لأول مرة منذ ثلاثة قرون بالأمن والاستقرار، وأينعت الزراعة، واهتم بالري: فحفر الترع، وأنشأ القناطر الخيرية، ونشطت التجارة، واهتم بالتعليم، وأرسل البعوث إلى مختلف بلاد أوروبا، كما عنى بأمور الصحة، وأنشأ المصانع العديدة لتزويد الجيش والأسطول بجميع احتياجاته، كما أنشأ بالإسكندرية

ترسانة لصنع السفن، وارتفع اسم مصر عاليا بين الأمم.

وفي أقل من نصف قرن تغير حال مصر، من دولة خاملة الذكر، تضرب في بيداء الجهل والذلة والفقر، إلى دولة بعيدة الصيت، عزيزة الجانب، غنية الموارد، تحتل مكانا مرموقا في المحيط الدولي.

غير أنه كان يشوب عهد مُحَمَّد علي نزعة الاستبداد والقسوة، وانعدام الروح الديمقراطي. وكان للجيش المحل الأول في اعتباره وتقديره، وكان كل ما ازدهر في البلاد من نهضة وحضارة مرده الجيش، الذي كان وسيلته في إشباع عظمته، وإدراك أطماعه الواسعة. فالمدارس المختلفة التي أنشأها، قصد بها أن تخرج ضباطا للجيش، وكذا الشأن في معظم المصانع، فقد شيدها لسد حاجة الجيش من ملابس للجنود ومؤن وذخيرة، فلما أنقص عدد الجيش بمقتضى معاهدة لندن، وقبيل وفاة مُحَمَّد علي أغلقت معظم هذه المصانع، وقضي على نهضته الصناعية.

كذلك كان يسيطر على الاقتصاد المصري سيطرة احتكارية كاملة، حتى قيل إنه كان «الزارع الوحيد، والصانع الوحيد، والتاجر الوحيد». فقد كانت الحكومة تستأثر بالربح والفائدة، دون أفراد الشعب، وفي هذا ما فيه من تثبيط همم العاملين، والقضاء على روح المنافسة. هذا بالإضافة إلى كثرة الضرائب، وتعددها، وتسخير الشعب في أعمال الحكومة.

وما زال مُحَمَّد علي يدير دفة الأمور حتى أدركته الشيخوخة، وانتابه الضعف والوهن، فاعتزل الحكم لابنه إبراهيم، الذي كانت قد اعتلّت صحته هو الآخر، فسافر إلى أوروبا للاستشفاء في سنة ١٨٤٦م، ثم في سنة ١٨٤٨م، وزار إيطاليا وفرنسا وإنجلترا، وكان القوم يستقبلونه هناك كجندي باسل، وقائد شجاع، من أعظم قواد القرن التاسع عشر.

ولكنه لم يمكث في الحكم سوى سبعة أشهر، وتوفي قبل والده في نوفمبر سنة ١٨٤٨، فخلفه عباس الأول بن طوسون بن مُحَمَّد علي في حكم مصر.

ولقد حزن مُحَمَّد علي لوفاة ابنه إبراهيم، فعجل الحزن بوفاته. فتوفي في ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ (٢ أغسطس سنة ١٨٤٩)، ودفن بمسجده الذي شيده بالقلعة.

- ٤ -

القاهرة في عصر محمد علي

كانت أهم ظاهرة طرأت على مدينة القاهرة، في القرن التاسع عشر، امتدادها ناحية الشمال الغربي والغرب، ونشوء أحياء جديدة، لم تكن موجودة من قبل، وذلك بسبب طرح النيل، أي ظهور أرض جديدة، تتكون من عملية إرساب الطمي، الذي يأتي به النيل، عاما بعد عام.

ومعلوم أن نهر النيل، عند فتح العرب لمصر سنة ٢٠ هـ (سنة ٦٤١م)، كان يمر تحت قصر الشمع (ومتبقي من هذا القصر في الوقت الحالي كنيسة المعلقة بمصر القديمة)، وشارع مارجرجس وجامع عمرو، ثم يسير محاذيا بشارع سيدي حسن الأنور إلى نهايته. ثم يسير شمالا إلى النقطة التي يتقابل فيها شارع السد البراني بسكة المدبح، ثم يسير بعد ذلك متجها في طريقه إلى الشمال، فيمر في حارة المغربي، بجنينة قاميش، فشارع بني الأزرق بجنينة لاظ، فشارع جنان الزهري، فشارع مصطفى (باشا) كامل (الشيخ عبد الله سابقا)، فحارة البير قدار، فشارع البلاقسة، فشارع عماد الدين إلى نهايته البحرية، ثم ينعطف إلى ميدان رمسيس (باب الحديد سابقا).

ومن هناك ينعطف إلى الشمال الشرقي، مارا بميدان رمسيس، ثم يمر بجوار محطة كوبري الليمون من الجهة البحرية الغربية، ثم يسير في شارع غمرة بطول مائتي متر، ثم يسير إلى الشمال محاذيا لمخازن بضائع محطة مصر من الجهة الشرقية، ثم يسير محاذيا لشارع مهمشة من الجهة الغربية، ثم يسير بعد ذلك محاذيا لجسر السكة الحديد الذاهبة إلى الإسكندرية من الجهة الشرقية. وعند وصول النيل إلى نقطة واقعة على هذه السكة، تجاه عزبة الخمايسة، يميل إلى الغرب، حتى يصل إلى سكن ناحية منية السيرج. وهناك يسير غربي سكن هذه الناحية، ثم يسير إلى الشمال بدوران خفيف إلى الغرب، حتى يتقابل مع مجراه الحالي عند فم ترعة الإسماعيلية.

وبعد هذا التاريخ طرأ على الشاطئ المذكور تحولات بسبب طرح البحر، تتبعها المرحوم العلامة الأستاذ مُحَمَّد (بك) رمزي، مفتش المالية الأسبق، فوجد أن النيل طرح أرضا جديدة ثماني دفعات، بجوار الشاطئ القديم(٨)، حتى استقر في وضعه الحالي، بسبب بناء جسر النيل والعناية بصيانته دائما.

يستنتج من ذلك أن جميع الأراضي الواقعة غربي مجرى النيل القديم، الذي سبق تحديده، قد استحدثت من بعد فتح العرب لمصر، أي في مدى الثلاثة عشر قرنا الأخيرة. وتأخذ هذه الأراضي المستجدة في الاتساع كلما اتجهنا شمالا، من مصر القديمة حتى ميدان محطة مصر. وتبلغ هذه الأراضي أقصى اتساعها في الشمال. فإذا سرت في شارع ٢٦ يوليو (شارع فؤاد الأول سابقا) إلى ناحية الغرب، ابتداء من تقاطعه بشارع عماد الدين وانتهت عند حي الزمالك، في مواجهة إمبابة، فإنك بذلك تسير في أرض مستجدة، طرحها النيل من بعد فتح العرب لمصر، حتى قرب نهاية القرن التاسع عشر.

وكان شاطئ النيل الغربي ينتهي عند قرية الدقي بالجيزة. وحتى أوائل عصر مُحَمَّد علي، لم يكن قد ظهر في عالم الوجود أحياء شبرا وروض الفرج وبولاق.

حي شبرا وروض الفرج:

وأخذت مدينة شبرا في الازدهار، منذ تولي مُحَمَّد علي ملك مصر، وكانت أول خطوة في سبيل ذلك تمهيده شارع شبرا الحالي سنة ١٨٠٨م، ليكون طريقا بين القاهرة وقصره الذي بناه بقرية شبرا الخيمة، الواقعة في شمال فم ترعة الإسماعيلية، وغرس على جنبي هذا الطريق أشجار اللبخ والجميز، وكان يعرف وقت إنشائه بجسر شبرا.

وأنشأ مُحَمَّد علي مصنعا لتبييض المنسوجات، التي كان تصنع في معامل النسيج المصرية، وكان هذا المصنع ملاصقا لسراي الأمير السابق طوسون (باشا)، التي تشغلها الآن مدرسة شبرا الثانوية الأميرية، ولا يزال مكانه يعرف إلى اليوم باسم المبيضة، بقسم روض الفرج.

وفي سنة ١٨٥٨م بنى مُحَمَّد سعيد (باشا) والي مصر، قصر النزهة على شارع شبرا،

وهو الذي تشغله اليوم المدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا.

وفي سنة ١٨٦٩م أنشأ الأمير طوسون (باشا) بن مُحَمَّد سعيد (باشا) والي مصر، ووالد الأمير السابق عمر طوسون سراية بشبرا، التي تشغلها اليوم مدرسة شبرا الثانوية، سالفة الذكر.

وقد ازداد العمران بعد ذلك، بما أقامه سراة القوم وأغنياؤهم وكبار الموظفين والأعيان والتجار من قصور فخمة، وبساتين زاهرة، على جانبي شارع شبرا. وأقيمت بينها المقاهي والنوادي، التي كان يقصدها أهل القاهرة للتنزه في تلك الجهات الخلوية. ومما ساعد على انتشار العمران فيها بسرعة لا مثيل لها، مد خط الترام في شارع شبرا سنة ١٩٠٢م، وفي شارع روض الفرج، وساحل روض الفرج في سنة ١٩٠٣م، مما سهَّل اتصالها بقلب القاهرة، وجعلها على قيد دقائق منها، واكتظاظ مدينة القاهرة بالسكان، وقلة المساكن بها مع اطراد زيادة عدد السكان، مما اضطر الناس أن يولوا وجوههم نحو هذه الأراضي الخلاء، والحي الجديد، فتحولت جميع البساتين والأراضي الزراعية الواقعة على جانبي هذين الشارعين، وعلى غيرهما من الشوارع المتفرعة منهما، إلى أرض للبناء.

أقيمت عليها العمارات الشاهقة، حتى صارت شبرا في مدى خمسين السنة الأخيرة، مدينة عظيمة العمران، شاهقة البنيان، عامرة بالسكن.

وقد استتبع وجود هذا الحي إنشاء معاهد العلم والمساجد والكنائس والمستشفيات ومراكز رعاية الطفل. وانتشرت في شوارعها المحال التجارية والحوانيت العامرة، بكل ما يحتاج إليه السكان من مأكل ومشرب وملبس، كما كثرت بها الأندية والمقاهي وأماكن الرياضة واللهو ودور السينما.

وقد ألحت أزمة المساكن على سكان القاهرة في عشر السنوات الأخيرة، التي تلت الحرب الأوروبية الثانية، فلم يتركوا أرضا فضاء إلا استغلوها في إقامة المباني، لذلك ازداد انتشار العمران في شبرا حتى اتصلت العمائر بشبرا الخيمة، التي كثر فيها إنشاء المصانع والمعامل والمخازن، تمشيا مع تقدم الصناعة بمصر في العصر الحالي.

-٥-

المنشآت المعمارية في عهد محمد علي

قصر شبرا:

تقدم القول أن مُحَمَّد علي أنشأ في قرية شبرا الخيمة قصرا، كان عبارة عن بستان، غرس فيه شتى أنواع الأزهار والأشجار. وأقام غربي هذا البستان قصرا كبيرا خاصا بالحرم. ولكنه تلاشى بعد وفاته. وإنما بقي إلى الآن الجوسق (الكوشك) الذي شيده وسط هذا البستان سنة **١٢٢٣** هـ (١٨٠٨م)، وهو بناء مستطيل، مسطحه **١٣٥٣٠** مترا مربعا، يتوصل إلى داخله من أربعة أبواب متقابلة في وجهاته، ويتوسط هذا «الكوشك» بركة ماء كبيرة من الرخام، بوسط جزيرة مستديرة من الرخام أيضا، تحملها تماثيل من التماسيح، ومحاطة بسياج من الرخام. وفي الأركان الأربعة للبركة أسود رابضة تخرج المياه من أفواهها. وفي أرضية المثلثات التي ربضت عليها هذه الأسود، حفرت أنواع من الأسماك بحركاتها المختلفة، وهي تسبح في الماء.

ويحيط بالبركة من جهاتها الأربع عمد رشيقة من الرخام، تحمل سقفا حافلا بالنقوش. وفي النواصي الأربع حجرات كبيرة: الشرقية القبلية وتعرف بصالة الجوز، لأن أرضياتها مفروشة بخشب الجوز، والثانية الشرقية البحرية، والثالثة الغربية البحرية، وتعرف بصالة البلياردو، والرابعة، القبلية الغربية، وهي حجرة المائدة. وقد زخرت جميعها بالنقوش البديعة، والمناظر الطبيعية، وصور بعض أنجال مُحَمَّد علي. وقد استخدم مصورين أتراكا وأوروبيين لتصويرها[٩].

قصور أخرى:

وبنى لكريمته زينب هانم قصرا بالأزبكية، وآخر لكريمته نازلي على ساحل النيل، هدمه سعيد (باشا)، وبنى محله قشلاق قصر النيل "وقد هدم وأدخل مكانه في ميدان التحرير".

وقد حذا حذوه كثير من الأمراء، وكبار رجال الدولة، في تشييد القصور الفخمة: فبنى

إبراهيم (باشا) قصر القبة، كما بنى قصرا آخر في جزيرة الروضة والمقياس، عرف بقصر المغارة، والقصر العالي. وبنى عباس (باشا) قصرا بالخرنفش آل فيما بعد إلى أسرة البكري، ولم يبق منه الآن سوى مدخله، وقد أقيمت على أرضه مدرستان.

وبنى أحمد (باشا) يكن دارا عظيمة في عطفة عبد الله (بك) المتفرعة من شارع القلعة (محمد علي سابقا). وتعرف اليوم الأرض التي كان مقاما عليه هذه الدار بأرض اليكنية. وبنى أخوه إبراهيم يكن (باشا) دارا بسويقة اللالا، وبنى أحمد طاهر (باشا) قصرا في الأزبكية، وبنى خورشيد (باشا) السناري دارا في عابدين، كما أنشأ شريف (باشا) قصره بجهة الهدَّارة بعابدين[١٠]، ولا تزال الأرض التي كان مقاما عليها تعرف بأرض شريف إلى اليوم، وقد أقيم عليها كثير من المنازل والعمارات الفخمة.

وفي زمن عباس الأول بنيت عدة قصور أخرى بالحلمية الجديدة والعباسية.

وعرفت المباني التي من هذا النوع وقت إنشائها بالمباني الرومية، لاختلاف طرازها عما كان معروفا في عهد المماليك.

قصر الجوهرة:

يوجد هذا القصر قبلي مسجد محمد علي بالقلعة. وقد ذكر الجبرتي أن محمد علي هدم ديوان الغوري الكبير، وما اشتمل عليه من مجالس، وكذا ديوان قايتباي، وأقام مكانهما هذا القصر على الطراز الرومي، مستعملا الأخشاب بدل الأحجار، والصخور والعقود على طريق بناء «إسلامبول والإفرنج»، وطليت جدرانها بالبياض الرقيق والأدهان والنقوش[١١].

وأكبر حجرات هذا القصر صالة العرش، أو حجرة الفرمانات، وسقفها بيضاوي الشكل، به نقوش مذهبة، تمثل آلات حربية، وآلات موسيقية، تتوسطها سرة خشبية مذهبة، بها مجموعة من الفواكه، وهي تشرف على ميدان صلاح الدين.

وقد حليت جميع الحجرات بالمناظر الطبيعية المختلفة، كما صورت على أعتاب إحدى الحجرات سفن حربية، لعلها قطع من الأسطول المصري.

وقد كان مُحَمَّد علي يستقبل في هذا القصر كبار الزائرين الأجانب، كما استقبل فيه الخديو إسماعيل السلطان عبد العزيز في ٤ شوال سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢م)، الذي أقام به سبعة أيام.

قصر الحرم:

هذا القصر داخل القلعة، ويشرف على جبل المقطم، وعلى الحطابة وعلى مدخل القلعة. أمر مُحَمَّد علي بإنشائه سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧م).

ويتكون من ثلاثة أجنحة متصلة بعضها ببعض، ولكل جناح حوش وحديقة. وجميع الأسقف والجدران بهذا القصر مزخرفة بمناظر طبيعية، تمثل الفروع النباتية، والأزهار والأشجار. وبالدور الأرضي للجناح الشرقي حجرة الفسقية، وهي عبارة عن قاعة بها أربعة أواوين، يتصدرها سلسبيل رخامي، نقشت به طيور وزخارف بارزة، وتتدفق المياه من أفواه هذه الطيور إلى أحواض متدرجة تحت بعضها البعض، تصب في قناة تحتها، نقشت بها الأسماك السابحة، وتصب في الفسقية، وسط القاعة.

دار المحفوظات:

وتوجد بجوار القلعة، وقد أمر مُحَمَّد علي بإنشائها سنة ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨م). وتسود واجهاتها روح المباني الحربية. وتتحد في تفاصيل واجهتها وأسوارها وبابها مع مباني القلعة. وتتألف من دورين، وبكل دور حجرات أعدت للمحفوظات.

دار الضرب:

توجد هذه الدار شرقي بحري ديوان الكتخدا الملحق بالكوشك (سراي الجوهرة) بالقلعة. وهي بناء مستطيل له حوش مكشوف، يحدق به حجرات متجاورة، يعلوها قباب، مبنية بالطوب، فتحت بأعلاها مناور، ويتوسط الحوش حجرة بيضاوية مبنية بالحجر. وما تزال بعض هذه الحجرات باقية إلى الآن. وقد كان للنقود والمسكوكات التي كانت تضرب في هذه الدار شهرة عالمية، لدقة سكها، وجودة صنعها، وضبط عيارها.

الأسبلة:

ولو أن الأسبلة عثمانية الطراز، إلا إنها لم تكثر في مصر إلا في عهد مُحَمَّد علي. وإليه ينسب سبيله بالعقادين، على رأس حارة الروم بالغورية، أمر بإنشائه سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠م) صدقة على روح ابنه طوسون، المتوفى سنة ١٢٣١هـ (١٨١٦م)، وسبيله بالنحاسين، أمام مسجد الناصر مُحَمَّد بن قلاوون، ومدرسة الظاهر برقوق، أنشأه سنة ١٢٤٤هـ (١٨٢٨ – ١٨٢٩م)، صدقة على روح ولده إسماعيل الذي توفي بالسودان سنة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٢م). وواجهتا السبيلين نصف دائرية تقريبا. بهما شبابيك من النحاس المصبوب، بأشكال زخرفية ويعلو كل شباك لوحة رخامية، بها كتابات تركية، تعلوها زخارف وطرر. ويغطي الجميع رفرف خشبي، حُلي بزخارف مذهبة. وألحق بكل سبيل مدرسة لتعليم الأطفال القرآن الكريم.

ومن أشهر الأسبلة التي أنشئت في مصر في هذا العصر:

١ -سبيل السلحدار، على رأس حارة برجوان. أنشأه سليمان أغا السلحدار سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩م).

٢ -سبيل والدة مصطفى فاضل (باشا). أمام مسجد بشتاك بدرب الجماميز، أنشأته ألفت هانم، والدة الأمير السابق مصطفى فاضل (باشا) سنة ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣م).

٣ -سبيل أم عباس، بشارع الصليبة، أنشأته والدة عباس بن عم إسماعيل (باشا) سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٩م)[١٢].

مسجد محمد علي بالقلعة:

كان الشروع في إنشاء هذا المسجد سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠م). والمسجد في مجموعه مستطيل البناء. وينقسم إلى قسمين: القسم الشرقي، وهو المعد للصلاة، والغربي وهو الصحن، تتوسطه فسقية للوضوء. ولكل من القسمين بابان، أحدهما قبلي، والآخر بحري.

والقسم الشرقي مربع الشكل، طول ضلعه من الداخل ٤١ متراً، تتوسطه قبة مرتفعة، قطرها ٢١ متراً، وارتفاعها ٥٢ متراً، محمولة على أربعة عقود كبيرة، متكئة أطرافها على أربعة أكتاف مربعة، يحيط بها أربعة أنصاف قباب، ثم نصف قبة خامس يغطي المحراب، وذلك خلاف أربع قباب أخرى صغيرة بأركان المسجد.

وقد كسيت جدران المسجد من الداخل والخارج، وكذلك الأكتاف الأربعة الداخلية الحاملة للقبة، إلى ارتفاع ١١ متراً، بالرخام الألبستر الوارد من محاجر بني سويف.

ويعلو مدخل الباب الغربي المؤدي إلى الصحن دكة المبلّغين، بعرض المسجد، مقامة على ثمانية أعمدة من الرخام، فوقها عقود. والمحراب الرخام الألبستر، يجاوره المنبر الرخامي الجديد، وبالقرب منه المنبر الخشبي القديم.

ومساحة الصحن 53 X 54 متراً، يحيط به أربعة أروقة، ذات عقود محمولة على أعمدة رخامية، تحمل قبابا صغيرة منقوشة من الداخل، ومغطاة من الخارج بألواح من الرصاص، مثل القبة الكبيرة. وبوسط الصحن قبة مقامة على ثمانية أعمدة من الرخام، تحمل عقودا تكون منشورا ثماني الأضلاع. فوقه رفرف به زخارف بارزة. وبداخل هذه القبة قبة أخرى رخامية، ذات ثمانية أضلاع، وبها طراز مكتوب به بالخط الفارسي آية الوضوء.

وقد أصاب هذا المسجد خلل اقتضى هدم قبته الكبيرة، وما حولها من أنصاف قباب، وقباب صغيرة، وإعادة بنائها سنة ١٩٣٨م.

ويبلغ ارتفاع مئذنته ٨٥ متراً من مستوى أرض المسجد. وهو مبني على طراز مسجد السلطان أحمد بالقسطنطينية.

الفنادق:

ومن أشهر الفنادق التي أنشئت في هذا العهد فندق شبرد. أنشأه في عام ١٨٤١ شخص إنجليزي يُدعى «شبرد»، لينزل فيه المسافرون في طريقهم إلى الهند وبلاد الشرق. وكان يطلق عليه أول الأمر اسم «الفندق البريطاني الجديد»، ثم أضاف إليه اسمه، فصار يعرف باسم «فندق شبرد البريطاني». فلما صادف هذا الفندق إقبالا، نقله في نفس العام

إلى مكانه الذي ظل فيه بشارع الجمهورية شمال غربي حديقة الأزبكية، عند احتراقه ضمن الحريق المروع، الذي نكبت به القاهرة في يناير عام **١٩٥٢**.

وقد كان ذلك المبنى في الأصل قصرا للأميرة زينب ابنة مُحَمَّد علي، ثم استخدم في وقت من الأوقات مدرسة لتعليم اللغات. وكان قبل ذلك قصرا لمحمد (بك) الألفي، الذي احتلته هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي، عند احتلال الحملة الفرنسية مصر، وفيه قتل كليبر، كما بينا ذلك آنفا.

وقد ظل الفندق ملكا لشبرد حتى سنة **١٨٦١**م، حين آل إلى مستر «ف. زك»، فما لبث ورثة هذا الأخير أن أعادوا بناء المكان بأسره في سنة **١٨٩١**م. ثم وسع الفندق عدة مرات بعد ذلك، لازدياد عدد السائحين الذين كانوا يفدون على مصر منذ افتتاح قناة السويس. وما من عظيم أو سياسي أو رحَّالة أو أديب مشهور إلا ونزل في فندق شبرد عند مروره بمصر، وأعجب "بمطابخه الفخمة، ومخازن مؤنه، ومشروباته، وبكل معداته الحديثة، وحماماته الخاصة الملحقة بكل غرف النوم تقريبا، والأجنحة البديعة التأثيث، مما لا يوجد له مثيل إلا في لندن وباريس ونيويورك فحسب"[١٣].

وقد أعيد بناء هذا الفندق بعد حريق القاهرة في يناير سنة **١٩٥٢**، على شاطئ النيل الشرقي، بجوار فندق سميراميس في حي قصر النيل.

جـ- عصر إسماعيل

من ١٢٧٩ – ١٢٩٦ (١٨٦٣ – ١٨٧٩م)

-٦-

خلف سعيد عباس الأول في حكم مصر، وكان رجلا ضعيف الخلق، سهل الانقياد، تعوزه العزيمة والإرادة القوية، فأدى تساهله إلى تدخل الأجانب في شئون مصر، وجرهم على البلاد شرا مستطيرا، وويلات كانت سببا مبدئيا في خراب مصر المالي الذي تفاقم في عهد إسماعيل.

وفي مقدمة هؤلاء الأجانب، فردناند دي لسيبس، الذي استطاع بما كان له من حظوة عند سعيد، أن يستخلص منه امتياز حفر قناة السويس، ويقيد مصر بعقد مهين، كلفها أموالا طائلة، وأرواح مائة وعشرين ألفا من المصريين. سُخّروا في حفرها، فذهبوا ضحية السخرة والجوع والمرض والتعذيب، هذا فضلا عما جرته هذه القناة بعد إتمام حفرها على مصر من مصائب وكوارث، في مقدمتها احتلال الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢م.

وفي يناير سنة ١٨٦٣ توفي سعيد، خلفه ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم ابن مُحَمَّد علي، وكانت له أطماع واسعة، لم تدر في خلد أحد غير جده الأكبر مُحَمَّد علي. فكان إسماعيل مثله، يرمي إلى تكبير مصر وإسعادها عن طريق إسعاد نفسه وأسرته. ولم تكن مصر في نظره سوى ضيعة عظيمة يجب عليه إنماؤها، والانتفاع بثمرها(١٤). لذلك عنى بالزراعة، وإدخال المحصولات الجديدة، وتوسيع زراعة القطن التي جنى من ورائها أرباحا عظيمة، منتهزا فرصة وقف إنتاج أمريكا لهذه السلعة، بسبب الحروب الأهلية فيها، التي استمرت من سنة ١٨٦١ حتى سنة ١٨٦٥م. ثم نشره زراعة قصب السكر، وما تبع ذلك من إنشاء مصانع السكر في طول الوجه القبلي، وقد بلغت ١٨ مصنعًا. ثم إنشاء مصانع لعمل الورق والمنسوجات والطرابيس والبارود والأسلحة على اختلاف أنواعها .

ولكي يستطيع تنفيذ مشروعاته العديدة، التي كان تنفيذها يتسم بالعجلة والسرعة، عمل على اجتذاب رؤوس الأموال الأجنبية إلى مصر، فأغرق في الاستدانة حتى عجز في النهاية عن سداد ديونه، فكان ذلك سببا في تدخل الحكومات الأوروبية، وخصوصا حكومتي فرنسا وإنجلترا، في شئون مصر، ولقد تفاقم تدخلهما إلى حد أن أوعزتا إلى السلطان بعزله، فتم لهما ما أرادتا.

ولكي يتمتع إسماعيل بحرية تامة في إدارة شئون البلاد، ويحصر وراءه عرش مصر في أولاده من بعده، استخلص من السلطان فرمانا بذلك، كلفه أكثر من عشرين مليونا من الجنيهات، أنفقها في الأستانة، لتقديم الهدايا للسلطان، والرشوة لحاشيته، كي يدرك أهدافه. كذلك كلفه تعديل شروط امتياز قناة السويس، وإزالة الإجحاف الذي أصاب مصر من

جرائها، ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات، قضى بها نابليون الثالث، الذي ارتضاه إسماعيل حكما بينه وبين فردناند دي ليسبس!!

كما كلفه الاحتفال بافتتاح القناة للملاحة مليونا آخر من الجنيهات، إذ دعا ملوك أوروبا وملكاتها إلى هذا الاحتفال، وشيد القصور الفاخرة لإقامتهم مدة شهرين في مصر، تمتعوا بحسن ضيافة إسماعيل وكرمه الشرقي، وأقام لهم ملهى الأوبرا في القاهرة، وكلف الموسيقار فردي بوضع أوبرا عايدة لتمثل أمامهم فيها، كما عبَّد الطريق بين القاهرة ومنطقة الأهرام، وغرس على جانبيه الأشجار، لتضفي عليه الظل الظليل في أثناء ذهابهم لمشاهدة الأهرام وأبي الهول.

وهكذا ترى أن إسماعيل كان حريصا على أن يظهر أمام ضيوفه بصفة خاصة، وأمام العالم بصفة عامة، بمظهر الأبهة والفخامة، لكي يدفع عن نفسه تهمة العجز عن تسديد ديونه، التي قاربت على مائة مليون من الجنيهات، وأوقعته في ارتباك مالي خطير، ودفعته إلى الإكثار من الضرائب التي أثقل بها كاهل الفلاحين، والحيل البارعة التي ابتدعها لاستخلاص آخر قرش في جيوبهم، والقسوة التي كان جباة الضرائب يتخذونها في إرغام الناس على دفعها، حتى لم ينج أحد، سوى الأموات، من وطأة الضرائب، والتعذيب في سبيل دفعها. غير أن كل هذا لم يكن ليحول بين إسماعيل وبين الهاوية التي تردى فيها أخيرا، وانتهت بعرشه إلى الانهيار.

ومع ذلك فقد نعمت البلاد في عهد إسماعيل بنهضة عظيمة، شملت الحياة من مختلف نواحيها، وكانت أساسا لنهضتها في العصور التالية، نخص بالذكر النهضة التعليمية والثقافية، فقد أولى إسماعيل التعليم عناية فائقة في جميع درجات التعليم، وكان أول من اهتم بتعليم البنات، فأنشأ لذلك المدرسة السنية، وأول من حاول التوفيق بين القديم والحديث، فأنشأ لذلك مدرسة دار العلوم، وكان ساعده الأيمن في تنظيم المدارس ونشر التعليم المرحوم علي (باشا) مبارك، وزير المعارف في عهده. كما كان للسيد جمال الدين الأفغاني تأثير كبير في بث التعاليم الحرة، وحض الناس على الاغتراف من مناهل العلم والاستمساك بالحرية والاستقلال، ونبذ الذلة والضعف، وقد تتلمذ عليه كثير من الأدباء والعلماء وفي مقدمتهم الشيخ محمد عبده.

وقد برز في هذا العصر كثير من العلماء والأدباء نخص بالذكر منهم: رفاعة الطهطاوي، وعلي (باشا) مبارك، والشيخ مُحَّد عبده، وإبراهيم المويلحي، ومحمود (باشا) الفلكي، وإسماعيل (باشا) الفلكي، ومُحَّد علي (باشا) البقلي، وعيسى (باشا) حمدي، ومُحَّد (باشا) قدري.

ومن مظاهر الحضارة والتقدم انتشار الصحف. فقد كان للحكومة صحيفة رسمية هي "الوقائع المصرية". ومن الصحف الأخرى صحف الأهرام، ومرآة الشرق، وأبو نضارة، وروضة الأخبار، وقد أدت هذه الصحف واجبها من حيث تنوير الرأي العام، ونقد أعمال الحكومة، وأعمال مندوبي إنجلترا وفرنسا، وتدخلهما في شئون الحكومة المصرية.

-٧-

القاهرة في عهد إسماعيل

وضع إسماعيل نصب عينيه، بمجرد أن آل إليه حكم مصر، أن يجمل القاهرة والإسكندرية، وأن يجعلهما مماثلتين لأعظم مدن أوروبا، غير مدخر في سبيل ذلك مالا أو جهدا. والواقع أن إسماعيل أدخل على القاهرة كثيرا من التحسينات والتعديلات: فردم البرك، وأنشأ فيها القصور والبساتين، ومهد الطرق ورصفها، وأنشأ الميادين، وأقام بوسطها التماثيل، فغدت القاهرة وكأنها باريس الشرق، كل ذلك ليظهر أمام الملوك والأمراء العظام الذين دعاهم لحضور فتح قناة السويس بمظهر الملك العظيم، ولتضارع القاهرة باريس في جمالها وتنسيقها، فتكون عاصمته مقرا مناسبا لعظمة مليكها. وفي سنين قليلة تغيرت معالم القاهرة فعلا.

شوارع القاهرة:

بدأ إسماعيل بمد الطرق الطويلة المستقيمة. والواقع أن القاهرة كانت تفتقر إلى مثل هذه الشوارع، ولم يكن يوجد بها سوى شارع واحد طويل، هو شارع الحسينية. ومن الشوارع التي أنشأها شارع الفجالة الجديد، وشارع كلوت بك، وشارع مُحَّد علي (القلعة

حاليا) وشارع عبد العزيز[١٥]، وشارع عابدين، وبها سهل الانتقال من أقصى المدينة إلى أقصاها، وفي وقت قليل، وجهد ضئيل.

حيا المحطة والأزبكية:

وفي مكان المروج الخضراء التي كانت تكتنف ميدان محطة مصر، أقيمت المباني الضخمة، والقصور ذات الحدائق، تفصلها طرق غرست على جانبيها الأشجار. أما الأزبكية، المعروفة في عهد مُحَمَّد علي بقهواتها الوطنية، ونوافذ بيوتها ذوات الشرفات الدقيقة الصنع، المطلة على البركة، والتي كانت متنزها عاما لسكان القاهرة، فقد أنشئ على أثرها مبان وخانات، على النسق الفرنسي، ولم يبق منها إلا نافورتان وحديقة أنشئت على نظام حدائق أوروبا، وحديقة فرسايل خاصة. وخلف الفوارتين أنشئت دار الأوبرا، وأمامها أقام إسماعيل تمثالا لوالده إبراهيم (باشا) وهو على صهوة جواده. وإذا سار الإنسان جنوبا رأى قصر عابدين، الذي أبدع إسماعيل في تنسيقه، واتخذه مقرا رسميا[١٦].

أحياء جديدة:

وأنشأ أحياء بأكملها: كحي الإسماعيلية، والتوفيقية، وعابدين. وميدان الأوبرا. ونظم جهات الجزيرة والجيزة، بعد أن أنشأ بهما قصوره العظيمة. وأنشأ حديقة بالجيزة. وردم بركة الرطلي وأنشأ بها الشوارع المستقيمة. وأصلح ميدان الرميلة، الواقع بجانب القلعة، ووسعه، وغرس به الأشجار، وأوصله بشارع مُحَمَّد علي، فصار من أفسح ميادين القاهرة، وأنشأ الطريق المعبد، بين القاهرة والأهرام، ورصفه بالأحجار.

وكان إنشاؤه سنة ١٨٦٩م، لمناسبة زيارة الإمبراطورية يوچيني مصر، لحضور حفلات افتتاح قناة السويس.

وأهم الأحياء التي أنشأها حي الإسماعيلية، وقد سمي باسمه، وكانت جهاته من قبل أراضي خربة، تحتوي على كثبان من الأتربة، وبركة للمياه، وكيمان من السبخ. فخططها، وأنشأ فيها الشوارع والحارات، على خطوط مستقيمة، وأغلبها متقاطع على زوايا قائمة. ودقت شوارعها وحاراتها بالحجر «الدقشوم». ونظمت على جانبها الأرصفة. ومدت في

أرضها أنابيب المياه، وأقيمت فيها أعمدة المصابيح، لإنارتها بغاز الاستصباح، فأصبحت كما يقول علي (باشا) مبارك في خططه، من أبهج أخطاط القاهرة وأعمرها، وسكنها الأمراء والأغنياء[١٧].

القصور:

ومن أهم القصور التي أنشأها قصر عابدين، وقد جعله مقره الرسمي، بدلا من سراي القلعة، التي بناها مُحَمَّد علي، وقصر الجيزة، وقصر بولاق التكرور، وقصر الجزيرة، الذي أنشأه ليكون محل إقامة ضيوفه من ملوك أوروبا وملكاتها في أثناء زيارتهم لمصر، وقصر القبة، وقصر حلوان، وقصر الإسماعيلية، وقصر الزعفران بالعباسية، وسراي الرمل بالإسكندرية.

وكما كان قصر شبرا الخيمة، الذي أنشأه مُحَمَّد علي سببا في تعمير حي شبرا، كذلك كان قصر القبة، وقصر الإسماعيلية سببا في تعمير حي القبة، وحي الإسماعيلية، فأخذ الأغنياء وكبار رجال الدولة والتجار في بناء القصور الفخمة، والدور الفاخرة. وانتهى الأمر بهذين الحيَّن أن أصبحا من أهم القاهرة وأكثرها سكانا، وأفخمها دورا، وأرقاها شأنا.

الكباري:

ولكي يربط الجزيرة بالقاهرة، أنشأ قنطرة (كوبري) قصر النيل. وقد تم إنشاؤه على يد شركة فيڤ ليل الفرنسية سنة ١٨٧٢م، وتكلف مائة وثمانية آلاف من الجنيهات، وكوبري البحر الأعمى الذي سمي بالكوبري الإنجليزي في أثناء احتلال الإنجليز لمصر، ويطلق عليه اليوم اسم كوبري الجلاء، وقد قامت بإنشائه شركة إنجليزية، وتكلف أربعين ألفا من الجنيهات، وتم إنشاؤه أيضا سنة ١٨٧٢م[١٨].

الإنارة:

وهو أول من أدخل الإنارة بغاز الاستصباح، وكان قد أنشأ «ليبون» وشركاه شركة في الإسكندرية سنة ١٨٦٤م، وأسس فرعا بالقاهرة سنة ١٨٦٨م، فأضيئت شوارع القاهرة بهذا الضوء الساطع. وأما توزيع المياه بالأنابيب، فقد عم أيضا في سنة ١٨٦٥م، حين

أنشئت شركة مياه القاهرة[١٩].

ضاحية حلوان:

واهتم بضاحية حلوان الحمامات، لما تبينه من جفاف هوائها، ومزايا مياهها الكبريتية، فشيد بها قصرا فخما على النيل لوالدته في تلك الضاحية سنة ١٨٣٧م، وربطها بالقاهرة بخط حديدي يبدأ من محطة الميدان الحالية، الواقعة في ميدان صلاح الدين بجوار القلعة، ونشر الإعلانات عن حمامات حلوان الجديدة، فتسابق الناس من وطنيين وأجانب على حلوان للاستحمام، وأنشأوا بها المساكن والقصور. وعلى طول الطريق من القاهرة إلى حلوان الحمامات.

الشاطئ الغربي للنيل تجاه القاهرة:

كان النيل بعد أن يمر تحت مباني السكن بالجيزة، يسير إلى الشمال، مائلا إلى الغرب قليلا، فيمر شرقي مبنى كلية الزراعة، ثم يسير مخترقا أرض حديقة الحيوان، ثم يمر شرقي مبنى كلية الهندسة إلى أن يصل إلى شارع الدقي، فيسير محاذيا له من الجهة الشرقية. ثم يسير مارا شرقي مبنى وزارة الزراعة، فمتحف فؤاد الزراعي، فعزبة الحوتية، ثم يسير مائلا إلى الشرق، حتى يتلاقى بمجراه الحالي جنوب سكن مدينة إمبابة.

لما تولى الخديو إسماعيل حكم مصر في أول سنة ١٨٦٣م، أمر بتحويل مجرى النيل الأصلي من الغرب، حيث كان يمر تحت سكن ناحية الدقي إلى الشرق، حيث يجد الآن شارع الجيزة، وشارع النيل (فاروق الأول سابقا). وفي سنة ١٨٦٣ بدأ ديوان الهندسة بإجراء عملية التحويل بإقامة جسر في النيل بين مدينتي الجيزة وإمبابة. وفي سنة ١٨٦٥م تمت هذه العملية، وأخذ النيل يسير في مجراه تحت الشارعين السابق ذكرهما.

وكانت نتيجة إقامة هذا الجسر أن تخلف عن النيل المنطقة الغربية منه، التي كانت بين قرية الدقي وبين الشارعين المذكورين. ثم قامت شركة فرنسية بردم القسم الجنوبي من تلك المنطقة، بمعاونة رجال العونة، في المسافة الواقعة بين مدينة الجيزة وشارع ثروت. وأما القسم الشمالي من تلك المنطقة، أي في المسافة الواقعة بين شارع ثروت وإمبابة، فقد طمرت

أرضها بتحويل مياه الفيضان إليها بطريقة هندسية. وبذلك أصبحت هذه المنطقة أرضا زراعية، تتوسطها قرية العجوزة وعزبة الحوتية، وقد تحولتا اليوم إلى مناطق سكنية عظيمة، وقامت فيها العمارات الشاهقة والقصور المنيفة، تتخللها الميادين الفسيحة، والشوارع المستقيمة والمتنزهات البديعة.

الزمالك:

وقد ترتب على هذا التحويل أن تسلط النيل على الجزء الجنوبي من الجزيرة الكبيرة وساحلها الشرقي تجاه بولاق، وأكل منها جزءا نقله إلى الجهة البحرية منها، فتكونت أرض المنطقة الواقعة في شمال شارع ٢٦ يوليو (شارع فؤاد سابقا)، المعروفة الآن بالزمالك، والزمالك كلمة ألبانية معناها الأخصاص أو العشش المصنوعة من البوص والقش. وذلك لأن مُحَمَّد علي بنى حوالي سنة ١٨٣٠ م قصرا بين المزارع في الجهة الشمالية من أرض الجزيرة الكبيرة، حيث يوجد الآن نادي ضباط الجيش والحديقة الملحقة به، واتخذه مكانا للنزهة. وكان بالقرب من هذا القصر أخصاص وعشش، يصطاف فيها رجال حاشيته.

الحدائق:

وقد أنشأ إسماعيل في الجزء الجنوبي من الأرض التي تخلفت بالردم من مجرى النيل القديم، شمالي مدينة الجيزة، سراي الجيزة، بمبانيها الفخمة، وحديقتها التي لم يكن لها مثيل. ثم أنشأ شماليها حديقة الأورمان، أي الغابة. وجلب إليها أنواع الأشجار من آسيا وأوروبا وأمريكا. وفي سنة ١٩٠٣م تسلطت يد الزمان على السراي المذكورة، والقصور التي كانت في حديقتها الغناء، فأصبحت أثرا بعد عين، ولم يتبق سوى جزء منها، كانت تشغله إلى سنتين مضتا مدرسة الأورمان النموذجية، وقد تهدم هو الآخر، بسبب توسيع شارع وزارة الزراعة. ولا يزال يوجد من تلك الآثار حديقة السراي الداخلية، وهي التي تعرف اليوم باسم حديقة الحيوان، وفي شماليها حديقة الأورمان، وكذلك المباني التي تشغلها اليوم ديوان مديرية الجيزة، ومصلحة المساحة، فهي وما يقع في شماليها من مبان حتى بلدة إمبابة كانت تقع في مجرى النيل القديم.

وقد احتفظ النيل بعد ذلك بشاطئه الغربي الحالي، كما احتفظ بشاطئه الشرقي تجاه القاهرة منذ سنة ١٨٧٠م حتى اليوم، بحالتيهما الحاضرة، بسبب دوام صيانتهما، وتنظيم سير مجرى النيل بينهما.

دور التحف والآثار والمكتبات:

وفي ميدان أحمد ماهر (وكان يعرف خطأ باسم باب الخلق وصحة التسمية باب الخرق) أقيم مبنى عظيم. يعرف نصفه الشرقي، المواجه لسراي المحافظة[٢٠] بالمتحف الإسلامي (وكان يعرف باسم دار الآثار العربية)، ونصفه الغربي بدار الكتب العامة (وكانت تعرف باسم دار الكتب الخديوية ثم السلطانية).

المتحف الإسلامي:

وكان يطلق عليه إلى عهد قريب دار الآثار العربية، ويشغل الدور فوق الأرضي من المبنى سالف الذكر، ويحتوي على تحف إسلامية نادرة، من الخشب والمعادن والجص والخزف والزجاج والبلور والمنسوجات والسجاد، تنتمي إلى جميع العهود الإسلامية، منذ الفتح الإسلامي لمصر إلى العصر العثماني، خصوصا مجموعة المشكاوات الزجاجية المملوكية، التي لا نظير لها في متاحف العالم.

وقد كان بدء التفكير في إنشاء دار تجمع التحف الإسلامية سنة ١٨٦٩م، فجمعت في الإيوان الشرقي من جامع الحاكم. ولما صدر مرسوم سنة ١٨٨١م بتشكيل لجنة حفظ الآثار العربية، اتخذ الأمر طريقا جديا، وتضاعفت الجهود في جمع التحف، حتى ضاق بها الإيوان الشرقي، فبني لها مكان خاص في صحن الجامع المذكور، ثم بني المبنى الحالي، ونقلت إليه التحف من جامع الحاكم، ونسقت تنسيقا بديعا، وافتتح في ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٣، وهو يعتبر من أعظم متاحف العالم، لكثرة ما يحتويه من التحف الإسلامية النادرة، التي يتتبع بها الإنسان تطور الحضارة الإسلامية، في مختلف العصور.

دار الكتب:

كذلك اقتضى التقدم العلمي في هذا العصر جمع الكتب، لتكون مرجعا لطلبة العلم والباحثين، فجمعت الكتب من المساجد والتكايا والقصور، وأمر الخديو إسماعيل سنة ١٨٧١م بوضعها في إحدى غرف قصر مصطفى فاضل (باشا)، بدرب الجماميز (حيث كانت توجد مدرسة الخديوية القديمة)، وأضاف إليها مجموعة أوروبية. ثم نقلت إلى المبنى الحالي، بعد أن أضاف إليها كثيرا من الكتب التي طبعت في المطبعة الأميرية ببولاق، مما صنَّفه أو ترجمه كثير من علماء العصر، وأدبائه ومؤرخيه.

المتحف المصري:

ويوجد في ميدان التحرير (ميدان الإسماعيلية سابقا). وقد تم بناؤه عام ١٩٠٢م، وكان ماريبت (باشا) أول من كون نواته الأولى، فجمع بعض التحف المصرية القديمة، وأودعها في مكان ببولاق سنة ١٨٥٨م، وظل يجد في جمع التحف والآثار، حتى ضاق بها متحف بولاق، فضلا عن تعرضها للتلف. فنقلت إلى قصر إسماعيل بالجزيرة، ثم اقتضى الأمر تشييد مبنى فسيح مستقل، يتسع لما جمع منها وما سيجمع في المستقبل، وتعرض فيه عرضا فنيا جذاب، فبنى المبنى الحالي، الذي يعتبر أعظم متحف للآثار المصرية في جميع أنحاء العالم، ويؤمه السائحون من جميع أركان المعمورة، ودارسو تاريخ مصر القديم، والمعجبون بالآثار المصرية[٢١].

دار الأوبرا المصرية:

اهتم إسماعيل بالحياة الفنية اهتماما بالغا، وعنى بالتمثيل والموسيقى والغناء، بصفة خاصة، فأنشأ دار الأوبرا سنة ١٨٦٩، لمناسبة افتتاح قناة السويس، كما قدمنا، مبالغة في جلب السرور والانشراح لضيوفه، من ملوك أوروبا وملكاتها. ولقد كلفه إنشاء هذه الدار مائة وستين ألف جنيه، ومثلت فيها في مساء ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أول أوبرا واسمها «ريجوليتو»، وكانت الإمبراطورية أوجيني زوج نابليون الثالث على رأس من شهدوا تمثيلها. وكلف «فردي» الموسيقار الإيطالي بتلحين أوبرا عايدة، التي ألفها ماريبت (باشا). وقد

مثلت بالقاهرة لأول مرة في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١.

ومن الغريب أن أغلب الجوقات التي استحضرها إسماعيل للتمثيل في هذه الدار كانت أوروبية، وكانت تمثل بلغات لا يفهمها الشعب، فلمن كانت تمثل إذن؟ كانت تمثل لإسماعيل وحده، ولقليل من أفراد حاشيته، وكفى!!

وكان يغدق عليها الأموال الطائلة، وقد بلغ ما صرف على أفراد إحدى الجوقات، في شتاء سنة من سني إسماعيل ١٢٠ ألف جنيه!! أما التمثيل باللغة العربية، فلم يكن له شأن يذكر.

غير أن فن الموسيقى والغناء، أصاب في عهد إسماعيل تقدما لا بأس به، وقد وضع فيه أساس النهضة الموسيقية الحالي. وأشهر المغنين في ذلك العهد، عبده الحمولي (١٨٤٥ – ١٩٠١م)، الذي ظل يدخل الطرب والسرور على نفوس الناس ثلاثين عامًا. ومن المغنيات السيدة «ألماس» وقد تزوج منها عبده الحمولي. ومن الموسيقيين: مُحَمَّد العقاد، عازف القانون، الذي اكتملت شهرته في الأيام التالية(٢٢). ومن الأغاني التي كانت شائعة في هذا العصر الموال الآتي وقد غناه عبده الحمولي:

ليه حاجب الظرف يمنعني وأنا مدعي   لري روض المحاسن من دما دمعي
كم أفتكر في احتجابك وأشتكي وأنعي   سلمت بالروح ورضيت بالملام والنوح
قول لي بحق المحبة ما سبب منعي(٢٣)

ومن الأدوار والموشحات "جمالك يا فريد عصرك"، و"كادني الهوى"، و"أنت فريد في الحسن"، و"الله يصون دولة حسنك"، و"رايح فين يا مسليني"، و"يا طالع السعد افرح لي"، و"يا قمر داري العيون".

ومن الأغاني الشعبية "سالمة يا سلامة"، و"يا ليلة بيضا"، و"وحوي يا وحوي"، و"يا بتاع النعناع"، و"الحنة يا الحنة يا قطر الندى"، و"اتمخطري يا حلوة يا زينة يا وردة من جوة جنينة"، و"يا نخلتين في العلالي يا بلحهم دوا– يا نخلتين على نخلتين والأربعة طرحوا سوا".. إلخ.

د. عهد الاحتلال

-٨-

اعتلى توفيق عرش مصر، بعد أن أُقصي عنه والده إسماعيل في ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩م، ولقد ورث توفيق تركة ثقيلة، في مقدمتها الديون التي أبهظ بها إسماعيل كاهل مصر، وكانت وسيلة لتغلغل التدخل الأوروبي في شئونها. ولقد بلغ هذا التغلغل ذروته، عندما نجحت إنجلترا وفرنسا في إقصاء إسماعيل عن العرش، بعد ما بدا منه أخيرا من تشجيع المصريين على مناهضة النفوذ الأوروبي، والوقوف في وجهه.

ولم ينجح توفيق في إزالة سخط الرأي العام، بل إنه ازداد وتفاقم، وانتهى الأمر بقيام الثورة العرابية، التي تزعمها الزعيم أحمد عرابي ورفاقه من قواد الجيش، والتي كانت تهدف إلى الحد من النفوذ الأجنبي، وافتئاته على حقوق البلاد، وتثبيت الحكم الدستوري فيها، وضمان مبادئ الحرية والعدل والمساواة للجميع[٢٤]. ولكن هذه الثورة لم تصادف نجاحا، لأسباب يضيق المقام عن سردها، وكان مآلها الفشل.

بل إن إنجلترا، التي ديدنها الصيد في الماء العكر، استغلت الخلاف الذي نشب بين زعماء الثورة وبين الخديو توفيق، وتظاهرت بحمايته، وحشدت جيوشها وأساطيلها، واحتلت البلاد في سبتمبر سنة ١٨٨٢، وحققت أملا ظلت تتحين الفرص لتحقيقه ثمانين عامًا، منذ أن انجلت عنها الحملة الفرنسية في سنة ١٨٠١م. ولم تسنح لها الفرصة إلا في عهد توفيق.

وكان لها من ضعف شخصيته، وفتور همته، وهوان الوطن في نظره، وارتمائه في أحضان أعداء البلاد، خير حافز لاعتدائها على مصر، واستباحة مقدساتها.

ولقد عمل الإنجليز طوال مدة احتلالهم لمصر، في عهد توفيق، وفي عهد ابنه عباس حلمي الثاني من بعده، على تثبيت قدمهم فيها، فسيطروا على الأداة الحكومية والجيش والبوليس، وتغلغلوا في جميع الوظائف الحكومية، وحبسوا العلم والتعليم عن الشعب، وضربوا عليها سياجا من الجهل والعوز، لكيلا يطالب بحقه في الحرية والاستقلال. مما دفع الزعيم مصطفى كامل وخليفته مُحَمَّد فريد إلى المجاهرة بنقد أعمال الاحتلال، وإظهار العالم

على مساوئه ومظالمه، التي يرتكبها في سبيل تدعيم مركزه في مصر.

وعندما احتل الإنجليز مصر، ادعوا أنهم إنما جاءوا لتثبيت عرش الخديو، وأنهم لا يلبثون أن ينجلوا عنها بمجرد أن تتثبت أركان هذا العرش. ولكن الواقع ونفس الأمر أن الإنجليز كانوا يهدفون، فيما يتخذونه في مصر من خطوات، إلى ضمها إلى دائرة إمبراطوريتهم المرنة! وحسبوا أنهم قد نجحوا في إدراك غايتهم، عندما قامت الحرب الأوروبية الأولى، في ديسمبر سنة ١٩١٤م، فسارعوا إلى إعلان حمايتهم عليها، ونقلوا إلى أيديهم جميع ما كان للسلطان عليها من حقوق، وعزلوا عباسا عن عرشها، وولوا مكانه عمه الأمير حسين كامل سلطانا على مصر، ثم خلفه بعد وفاته في ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧م أخوه الأمير أحمد فؤاد.

ولقد قدم المصريون إلى الإنجليز كثيرا من العون خلال هذه الحرب، حتى خرجوا منها ظافرين، وتحملوا كثيرا من الغرم والعنت، ولذلك فإنهم كانوا يتوقعون بمجرد انتهاء الحرب أن يوفي الإنجليز بعهودهم في الجلاء، وأن يعيدوا إليهم حريتهم واستقلالهم. ولكنهم أخذوا كعادتهم يماطلون ويسوفون، فلم يسع المصريين إلا أن يقوموا بالثورة في مارس سنة ١٩١٩.

وقد استخدم الإنجليز الحديد والنار في قمعها، ونفوا سعد زغلول زعيم الثورة وبقية زملائه من أعضاء الوفد المصري إلى جزيرة مالطة. ولكن لم تكن تلك الأساليب الوحشية لتثني المصريين عن أهدافهم، فما زالوا يناوئون الإنجليز، ويقاطعونهم، ويرفضون التعاون معهم، حتى اضطروا إلى التراجع عن سياستهم الاستعمارية في النهاية، والإقرار بأن «الحماية علاقة غير مرضية بينهم وبين مصر»، واعترفوا في تصريح من جانبهم أصدروه في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، بإلغاء الحماية واستقلال مصر. واحتفل باستقلالها في ١٥ مارس سنة ١٩٢٢، ونودي بفؤاد الأول ملكا على مصر، وألفت لجنة لوضع دستور للبلاد، وافتتح أول برلمان مصري في ١٥ مارس سنة ١٩٢٤.

ولكن، كان هذا الاستقلال مقيدا بتحفظات تتيح للإنجليز أن يستمروا في تدخلهم في شئون البلاد، والتحكم في أمورهم، ويظل الجيش الإنجليزي رابضا على أرض الوطن، يهدد

بالتدخل كلما أراد الإنجليز. لذلك حاول المصريون استكمال هذا الاستقلال في مفاوضات متواصلة، بينهم وبين الإنجليز، ولكنها كانت تنتهي دائما بالفشل. ولما لاح في الأفق شبح الحرب العالمية الثانية، وكان الإنجليز يتوقون إلى صبغ مركزهم في مصر بصبغة شرعية، عقدوا معها في ٢٦ أغسطس من عام ١٩٣٦ معاهدة تحالف وصداقة، وضعوا بمقتضاها أيديهم على جميع موارد البلاد في أثناء هذه الحرب (١٩٣٩ –١٩٤٤م)، وأفادوا من إمكانياتها، حتى فازوا في نهايتها بالنصر.

ومنذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية، والمصريون يجاهدون في طرد الإنجليز من بلادهم، ولم يتم ذلك إلا في ١٣ يونيه سنة ١٩٥٦، في عهد الثورة المباركة، كما سيأتي بعد.

-٩-

القاهرة في عهد الاحتلال الإنجليزي

توقفت حركة الإنشاء والتعمير في عهد الاحتلال الإنجليزي، خصوصا في فترتي الحربين الأوروبيتين الكبيرتين وما بينهما، ولم يطرأ تعديل كبير على خريطة القاهرة. وظلت شوارعها وميادينها كما كانت في القرن التاسع عشر. ولم يبنَ من المساجد إلا القليل، وروعي في بناء القصور الطراز الأوروبي.

ولكن من الناحية الأخرى رصفت الشوارع «بالمكدام»، فصارت مستوية لا تشوبها حفر أو فجوات، تسير عليها العربات والسيارات في سهولة ويسر، ومدت فيها قضبان الترام، تسير عليها المركبات الكهربائية، التي حلت هي والعربات والسيارات والأتوبيسات محل الدواب، التي كانت الوسيلة الوحيدة للانتقال، في القرن السابق. وكان تعدد وسائل النقل، وسرعتها، سببا في ربط أطراف القاهرة بعضها ببعض، وزيادة التعمير وإنشاء ضواح جديدة، كضاحيتي عين شمس وهليوبوليس.

وغرست أشجار البلخ والصفصاف والجميز على جوانب الشوارع والميادين، لتحمي المارة من وهج الشمس في فصل الصيف، ويتعهدها عمال مصلحة التنظيم بالصيانة

والكنس والرش، وحمل القمامة إلى ظاهر القاهرة وخارجها، فلبست حلة قشيبة من النظافة، هذا فضلا عن تحسن الأحوال الصحية في أحيائها.

الشوارع:

من أهم الشوارع التي أنشئت شارع الخليج المصري (شارع بورسعيد حاليا)، مكان الخليج الكبير، أو خليج أمير المؤمنين، الذي كان يبتدئ من فم الخليج عند مصر القديمة، ويسير نحو الشمال الشرقي، وقبل أن يبلغ نظارة المالية (وزارة الاقتصاد)، ينعطف نحو الشرق الجنوبي حتى جامع السيدة زينب، فيعود إلى سيره نحو الشمال الشرقي، فيمر بجانب بركة الفيل، ثم سراي درب الجماميز، فتكية الحبانية، ثم يقطع شارع مُحَمَّد علي (شارع القلعة حاليا)، فيمر بجانب سراي منصور باشا (وتشغلها الآن محكمة الاستئناف الوطنية)، إلى أن يقطع شارع السكة الجديدة قرب اتصاله بشارع الموسكي، فيمر تاركا كنيسة اللاتين، وكنيسة السريان إلى يساره، وكنيسة الأرمن إلى يمينه إلى أن يصل إلى بداية سكة مرجوش، فيتركها إلى يمينه، ثم يقطع سور القاهرة عند باب الشعرية، ويسير خارج القاهرة إلى شارع الظاهر، فيمر تاركا جامع الظاهر إلى يمينه، حتى يلتقي بترعة الإسماعيلية.

وكانت فائدة هذا الخليج في الأيام الأخيرة قاصرة على ري المدينة وبعض ضواحيها. وكانوا يحتفلون بفتحه سنويا عند وفاء النيل. فلما توزعت المياه في القاهرة بالأنابيب إلى المنازل، لم تبق له فائدة. فأذنت الحكومة لشركة ترامواي القاهرة بردمه سنة ١٨٩٦م، ومد خط الترامواي فوقه، وهو فرع المعروف بترامواي الخليج الآن[٢٥].

ومن الشوارع الهامة الأخرى التي أنشئت في هذه الحقبة من الزمن، شارع فاروق (حاليا شارع الجيش). أنشئ سنة ١٩٢٦م، ويوصل بين ميدان العتبة، وميدان الحسينية، وبذلك سهل الاتصال بين القاهرة والعباسية، وضواحي القاهرة الشمالية. وشارع الأزهر، ويوصل بين ميدان العتبة الخضراء وحي الأزهر، ومدت فيهما خطوط الترام أيضا.

وقد وسع ميدان العتبة بعد هدم المحكمة المختلطة، وانتقالها إلى مبنى جديد بشارع فؤاد الأول (شارع ٢٣ يوليو حاليا)، عند تقاطعه بشارع الملكة (شارع ٢٦ يوليو حاليا)،

ويشغل الآن هذا المبنى القضاء العالي، بعد أن ألغيت الامتيازات الأجنبية، وزالت المحاكم المختلطة من مصر، كذلك وسع ميدان الحسينية وميدان الأزهر.

المساجد:

ولقد اقتصر إنشاء المساجد في هذه الفترة غالبا على صيانة المساجد والقصور القديمة، وترميمها، والمحافظة عليها، والحيلولة دون سقوطها أو انهيارها. لذلك أصدر الخديو توفيق في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٨١م مرسوما بتشكيل لجنة حفظ الآثار العربية، وكانت واجباتها تسجيل الآثار الإسلامية بمصر، والعمل على حفظ هذه الآثار وصيانتها وترميمها. ولقد أدت هذه اللجنة خدمات جليلة للآثار الإسلامية، وإليها يرجع الفضل في الإبقاء على كثير من تلك الآثار والمحافظة عليها، وإعادة الكثير منها إلى سابق عهدها بحذق ومهارة، حسب أصول الفن الإسلامي.

ومن المساجد التي تم إصلاحها وتجديدها:

المشهد الحسيني:

وقد أمر بتجديده الخديو إسماعيل سنة ١٢٧٩هـ (سنة ١٨٦٢م)، والزيادة من مساحته. وفتح شارع السكة الجديدة، وروعي في التصميم الجديد ترك القبة على حالتها، فلم يتناولها التجديد. ونقل إليه منبرا جميلا كان في جامع «أزبك بن ططح» بالأزبكية. وكذلك أمر إسماعيل بشراء العمد الرخامية من إستامبول على حسابه الخاص. وقد تم بناء المسجد سنة ١٢٩٠ هـ، ومنارته سنة ١٢٩٥هـ (١٨٧٣ – ١٨٧٨م).

مسجد الإمام الشافعي:

وأمر الخديو توفيق بتجديد مسجد الإمام الشافعي، فتم ذلك في سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩١م) على ما هو عليه الآن. وهو مسجد جميل، وجهاته مبنية بالحجر، حليت أعتاب الشبابيك بكتابات كوفية، وله منارة رشيقة، عملت على مثال المنارات المملوكية، ومنبره مطعم بالسن والأبنوس.

مسجد أبي العلاء:

قامت وزارة الأوقاف بتجديد مسجد أبي العلاء بحي بولاق وتوسيعه في سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م)، على أثر سقوط سقف إيوانه الشرقي أثناء الاحتفال بمولده في ١٣ يوليو سنة ١٩٢٢. وقد أصبحت مساحته ١٢٦٤ متراً، بعد أن كانت ٨٤٣ متراً. وقد وضعت لجنة حفظ الآثار العربية تصميم المسجد، مراعية فيه المحافظة على طراز القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، إذ إن المسجد الأصلي كان قد أنشئ سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥م)، وهو مكون من أربعة أواوين، سقوفها مرفوعة، على عقود من الحجر الأحمر والأبيض، وترتكز على عمد رخامية، تحدق بصحن غُطي بسقف مذهب، تحيط به شبابيك بمربع الصحن.

وينسب هذا المسجد إلى الشيخ الصالح حسين أبي علي المكني بأبي العلاء.

مسجد الرفاعي:

هو أعظم ما أنشئ من المساجد في القرن العشرين، يقع أمام مدرسة السلطان حسن. ومنشئته السيدة خوشيار هانم، والدة الخديو إسماعيل.

فقد عهدت إلى المرحوم حسين (باشا) فهمي، وكيل ديوان الأوقاف سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩م) لوضع تصميمه. ولكن توقف العمل فيه عدة مرات بسبب وفاة منشئته، وبسبب إجراء تعديلات على تصميمه. وظل العمل موقوفا ربع قرن إلى أن عهد إلى هرتس (باشا) باشمهندس الآثار العربية بإصلاح المسجد وإكماله، في ١٣ يوليو سنة ١٩٠٦. فتم بناؤه في ختام سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١م)، في عهد الخديو عباس حلمي الثاني، وافتتح لصلاة الجمعة في غرة المحرم سنة ١٣٣٠هـ (١٩١٢م).

وكانت في المكان الذي أنشئ به هذا المسجد زاوية عرفت بزاوية الرفاعي، نسبة إلى ولي الله السيد أحمد بن السيد علي أبي الحسن الرفاعي، لذلك عرف المسجد بهذا الاسم أيضا.

ولقد أراد مصمم هذا المسجد أن يحاكي مدرسة السلطان حسن في ضخامتها وارتفاعها، فبنيت مداخله عالية، تكتنفها العمد الحجرية والرخامية، بتيجانها العربية، وحليت

أعتابها بمزررات الرخام، وغطيت مداخلها بقباب وسقوف أحسن اختيارها، وحسن زخرفها وتلوينها وتذهيبها.

ويتوسط الواجهة الغربية المدخل العام، تكتنفه العمد الرخامية، وقد نقشت قواعدها الرخامية بزخارف متنوعة. وقد حفل بأنواع الرخام والمقرنصات. ويتوسط الجدار الشرقي المحراب، وهو محراب كبير، يكتنف كلا من جانبيه عمودان: أحدهما أبيض، والآخر أخضر داكن.

وعلى جوانب المسجد، وفي وسطه، أقيمت أكتاف بنواصيها عمد رخامية، وكسيت الأكتاف بينها بالرخام الدقيق. ويقوم على جانب المحراب منبر كبير، طعمت حشواته بالسن والأبنوس وخشب الجوز. ويحيط بجدران المسجد بخاريات مذهبة منقوشة. وكرسي المصحف، من نوع صناعة المنبر. ودكة المبلغ من الرخام، مقامة على عمد رخامية. وقد حفلت بالنقوش المذهبة. وتتدلى من سقف المنبر ثريات نحاسية عربية، ومشكاوات زجاجية مدهونة بالمينا.

أما الجانب البحري من المسجد، فقد شرعت فيه ستة أبواب، منها أربعة توصل إلى المدافن، واثنان يوصلان إلى رحبتين بين تلك المدافن. وقد دفن بتلك المدافن أفراد أسرة مُحَمَّد علي[٢٦].

مسجد الفتح:

يقع هذا المسجد بشارع جامع عابدين، ويلاصق قصر عابدين (قصر الجمهورية حاليا). وكان يعرف بجامع عابدين، نسبة إلى أمير اللواء عابدين (بك)، الذي جدد هذا المسجد سنة ١٠٤١هـ (١٦٣١م). لما أنشأ الخديو إسماعيل قصر عابدين، ترك الجامع متداخلا في حدود القصر.

وفي أوائل سنة ١٩١٨م، عهدت وزارة الأوقاف إلى لجنة حفظ الآثار العربية بتجديد هذا المسجد، فاحتفظ بالمدخل القديم، بشارع جامع عابدين، وبالمنارة بالواجهة الشرقية. وروعي في تصميمه أن يكون على مثال المساجد العثمانية. وأضيف إلى مساحته ضعفها من

أرض السراي.

وللمسجد ثلاث واجهات: الغربية وتشرف على حديقة قصر الحديقة وبها مدخل. والبحرية، وبها باب يؤدي إلى فضاء بسيط. والشرقية، وبها القبة، والباب، والمنارة.

ويحيط بالقبة أربعة أواوين، ذات سقوف معقودة، حافلة بالزخارف الملونة، تنتهي أطرافها بقباب صغيرة، تشغل أركان الجامع الأربعة.

وفي الجدار الشرقي المحراب، يجاوره منبر من الرخام المُحلى بنقوش ذهبية، مقتبسة من منبر مسجد سليمان (باشا) بالقلعة. وجميع الأرضيات مفروشة بالرخام الدقيق، المكون من دوائر ومثمنات ومستطيلات على شكل دالات. ويحيط بالمسجد من أعلاه شبابيك جصية تنوعت أشكالها. وقد كان الفراغ من عمارته سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م)[٢٧].

---

(١) تاريخ مصر السياسي تأليف الأستاذ مُحَمَّد رفعت جـ ١ ص ٣٣ – ٣٥.

(٢) المصدر السابق حـ ١ ص ٥٤.

(٣) تاريخ الحركة القومية ص ١٥١ – ١٨٢.

(٤) تاريخ الحركة القومية للأستاذ عبد الرحمن الرافعي حـ ٢ ص ١٨٤.

(٥) وقع جلاء الفرنسيين بين ١٤، ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٠١.

(٦) تاريخ مصر السياسي حـ ١ ص ٨٥.

(٧) تاريخ الحركة القومية حـ ١ ص ٣١٠، والجبرتي ص ١٥٩ حـ ٣.

(٨) انظر المقال القيم للمرحوم الأستاذ مُحَمَّد (بك) رمزي، عن الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة، المنشور بمجلة العلوم، السنة التاسعة عددي سبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٤٢.

(٩) انظر مقال الأستاذ حسن عبد الوهاب عن العمارة في عهد مُحَمَّد علي بمجلة العمارة عدد ٣ – ٥ سنة ١٩٤١.

(١٠) المصدر السابق.

(١١) الجبرتي حوادث ١٢٢٧ هـ (١٨١٢م).

(١٢) العمارة في عهد مُحَمَّد علي من مقال للأستاذ حسن عبد الوهاب بمجلة العمارة عدد ٣ – ٥ سنة ١٩٤١.

(١٣) مجلة كتابي. من مقال للمحرر عن الفندق الذي شهد أحداث قرن عدد ٦٥ ص ١٣ إلى ص ٢٢.

(١٤) دليل موجز لأشهر الآثار العربية بمصر ص ٢١٦.

(١٥) سمي كذلك تخليدا لزيارة السلطان عبد العزيز لمصر في عهد الخديو إسماعيل.

(١٦) تاريخ مصر السياسي جـ ٢ ص ٣٣.

(١٧) عصر إسماعيل للأستاذ عبد الرحمن الرفاعي حـ ٢ ص ٢٤، ٢٥.

(١٨) تاريخ مصر السياسي حـ ٢ ص ٣٥.

(١٩) عصر إسماعيل للأستاذ عبد الرحمن الرفاعي حـ ٢ ص ٢٥.

(٢٠) أصاب هذه السراي تصدع بسبب زلزال عنيف حدث في أكتوبر ١٩٥٧م، وبسبب تقادم العهد على مبانيها فأزيلت وهدمت.

(٢١) دور التحف في مصر للقائم مقام عبد الرحمن زكي.

(٢٢) عصر إسماعيل للأستاذ عبد الرحمن الرافعي حـ ١ ص ٣٠١ -٣٠٢.

(٢٣) الموسيقى الشرقية والغناء العربي في عهد إسماعيل تأليف قسطندي رزق حـ ١ ص ٥٩.

(٢٤) تاريخ مصر السياسي للأستاذ مُحَمَّد رفعت حـ ٢ ص ١٥٢.

(٢٥) تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان حـ ٢ ص ٢١١- ٢١٢.

(٢٦) تاريخ المساجد الأثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب.

(٢٧) تاريخ المساجد الأثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب.

الباب التاسع

قاهرة الثورة

من ١٣٧١ – ١٣٧٧هـ (من ١٩٥٢ –١٩٥٨م)

-١-

لما توفي الملك فؤاد في ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦، نودي بابنه فاروق الأول ملكا على مصر. وكان فاروق وقتئذ ما يزال في السابعة عشرة من عمره، ولم يتول سلطته الدستورية إلا عندما أتم ثمانية عشر عاما من عمره، وكان ذلك في ٢٩ يولية سنة ١٩٣٧. من ذلك يرى أنه كان شابا غرا، تعوزه التجربة، وينقصه العقل الراجح، ويحتاج إلى التوجه السديد، وخلطاء من أهل العلم والمعرفة، والخلق القويم. ولكن لسوء حظ البلاد أحاطت به بطانة من أحط الناس علما وخلقا، زينوا له الفساد واقتراف الآثام، وعملوا على إرضاء شهواته والانحدار به إلى دركات الرذيلة، استغلالا منهم للنفوذ والسلطان، وانتجاعا لمنافعهم الشخصية، معرضين البلاد لخطر داهم، وشر مستطير. ورضخت الحكومة لإرادته، بل وعاونته أحيانا على إدراك مآربه، كي تبقى في دست الوزارة أطول مدة ممكنة، جنبا للمنافع الخاصة، والسيطرة والنفوذ. فعم الفساد أرجاء البلاد، وانتشرت الرشوة، وتفاقمت المحسوبية، ووقف دولاب الإصلاح، وازداد تدخل الإنجليز في شئون البلاد، واشتدت وطأة الفقر والجهل والمرض.

عندئذ جأر الشعب بالشكوى، من مليكه وحكامه والإنجليز، الذين تآمروا عليه، وتضافروا جميعا على سلب أرزاقه وأقواته، ومصادرة حريته، والحط من كرامته، والزراية بمقدراته، وكان لابد والحالة هذه من علاج حاسم سريع، يحمي البلاد من الهاوية التي كانت تنتظرها، ولم يكن يستطيع القيام بالحل الناجع السريع سوى الجيش، ذي القوة والبأس، الذي كان قد بلغ تذمر ضباطه الأحرار ذروته من الفساد، خصوصا بعد الهزيمة التي مني بها

الجيش المصري في فلسطين، بسبب الأسلحة الفاسدة التي قدمت إليه، والتي كان يتجر فيها فاروق وحاشيته.

لهذا قام الجيش بثورته المباركة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، وأطاح بعرش فاروق في ٢٦ منه، وضرب على أيدي الفساد والمفسدين، وخلص البلاد من المستغلين والأفاقين، وتجار السياسة والمنافقين. وتسلم زمام أمورها أبناؤها البررة المخلصون، الذين قادوها من نصر إلى نصر، فاستعادت عزها الغابر، ومجدها التليد.

ولقد كان انتقال الحكم إلى أيدي أبناء البلاد ضربة قاصمة لسياسة الإنجليز في مصر، إذ فقدوا كل نصير لهم في البقاء فيها، هذا بالإضافة إلى تصميم الشعب على التخلص من عار الاحتلال، وذل الاستعمار. فلقد خيّر رجال الثورة الإنجليز بين الرحيل عن البلاد فورا، أو الدفاع عن أنفسهم ضد شعب صمم على التخلص من الاستعمار، ولو سالت دماء أبنائه أنهارا. فلم يسع الإنجليز أمام هذا التصميم، إلا أن يذعنوا لإرادة الشعب، وانجلوا فعلا في ١٣ يونيو سنة ١٩٥٦، فكان نصرا مبينا أحرزه رجال الثورة الأبطال، وتخلصت البلاد من وصمة عار ظلت عالقة بجبينها أربعة وسبعين عامًا.

ولقد كان اليوم الذي انجلى فيه آخر جندي بريطاني عن أرض الوطن يوما مشهودا، وعيدا قوميا شاملا، عم فيه الفرح البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وأقيمت معالم الأفراح في جميع مدن الجمهورية وقراها، ولبست القاهرة حلة قشيبة من الزينة، فخفقت فوق مبانيها الأعلام والبنود نهارا، وسطعت فيها الأنوار ليلا، مدة أربعة أيام. ووفدت عليها آلاف مؤلفة من سكان الأقاليم، والبلاد الصديقة، ليشاركوا أهلها الفرح والغبطة في عيدها الأكبر، عيد الجلاء وزوال كابوس الاستعمار.

وكان استكمال الاستقلال يقتضي أن تضع مصر يدها على قناة السويس، التي تجري في أرضها، والتي حفرها أبناؤها، ولكنها حرمت من جني ثمارها، واستغلتها إنجلترا لاحتلال مصر. وكانت دائما أداة للتدخل الأجنبي في شئونها. وكانت شركة القناة في الواقع حكومة داخل حكومة. لذلك لم يكن هناك بد من أن تستعيد مصر قناتها المغتصبة. فأعلن الرئيس

جمال عبد الناصر، رئيس الجمهورية المصرية، في مساء ٢٦ يولية سنة ١٩٥٦ تأميم القناة. فأفقد هذا العمل وعي إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، وأطار صوابهم، ولم يستحوا غداة إعلان تأميم القناة أن يتصايحوا قائلين: إن جمال عبد الناصر قد سرق القناة!! القناة المصرية، التي تجري في أرض مصر، والتي حفرها المصريون بأرواحهم التي أزهقت، ودمائهم التي أرهقت، وعرقهم الذي تصبب من جباههم، وأجسامهم التي دكتها السخرة والجوع. ولكن هذا هو منطق الاستعمار ودأبه في قلب الحقائق، لتبرير عدوانه، وإدراك مآربه الخسيسة.

ولذلك بيتت إنجلترا وفرنسا العدوان على مصر، واستخدمتا لهذا الغرض ربيبتهما إسرائيل. فجمعوا جموعهم، وحشدوا جيوشهم، ودفعتا إسرائيل لغزو غزة وسيناء في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦. وما لبثتا أن تدخلتا في القناة، وفق الخطة الموضوعة، فهاجمتا بورسعيد في ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦ من الجو والبحر، وظنتا أنهما تستطيعان اغتصاب القناة في يوم وليلة، ويتقابل المعتدون الآثمون على ضفاف القناة. ولكن بورسعيد الباسلة حطمت خططهم، وصمدت للمعتدين الغادرين، وقاوم أهلها مقاومة رفعتهم إلى مصاف أبطال التاريخ، وأذهلت المعتدين الأنذال، بالرغم مما صبوه عليها من نيران حامية، من بوارجهم ومدرعاتهم وطائراتهم المقاتلة والنفاثة، فقد كانت الحرب تدور من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت، بل ومن حجرة إلى حجرة، كما اعترف بذلك «كيتلي» قائد الحملة الإنجليزي، مما كبد العدو خسائر جسيمة، وأكد له أن مهمته محفوفة بأشد المخاطر، وأنه سيلقى مقاومة أشد عنفا في بقية مدن القناة.

وشنت طائرات العدو، في نفس الوقت، غارات متواصلة، على المدن المصرية الأخرى، وخصوصا مدينة القاهرة، التي أخذوا يمطرونها بوابل من جحيم نيرانهم، ليل نهار، فهدموا منشآت ومنازل ومصانع ومباني لا حصر لها. وركزوا الضرب على ضاحية مصر الجديدة وأبي زعبل والعباسية، حيث توجد ثكنات الجيش والمطارات ومحطة الإذاعة المصرية.

وكانت أكبر أماني العدو إلقاء الفزع والرعب في نفوس الشعب، دفعا له على الخضوع والاستسلام. ولكن خاب فأله وطاش حدثه، فلم يهن الشعب أو يستسلم، بل هب عن بكرة أبيه، يدا واحدة، ورجلا واحدا، يستعد لملاقاة العدو ومنازلته، كما فعل أهل بورسعيد الأبطال.

ولقد هال شعوب العالم هذا العدوان المبيَّت، وهبت جميعا لمناصرة الشعب المصري ومساندته ضد البغاة الظالمين، وانعقدت هيئة الأمم المتحدة لتحول دون وقوع الكارثة التي تهدد العالم بحرب عالمية ثالثة، فدمغت سبع وستون دولة، في تلك الهيئة، إنجلترا وفرنسا وإسرائيل بالعدوان المنكر، والبغي الأثيم، ومخالفة ميثاق الهيئة، واتخذت في ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ قرارا بوقف العدوان فورا.

لكل هذه الأسباب، لم يسع إنجلترا وفرنسا إلا الإذعان والتسليم، بل إنهما رضيتا بقرار الأمم المتحدة بوقف القتال، لأنه يتيح لهما الخروج من المأزق الذي انزلقتا إليه، بغطرستهما وحمقهما، ولحقهما بسببه سخط الشعوب وازدراء الأمم المحبة للسلام، وكاد يدفع بهما إلى انهيار اقتصادي رهيب. واضطرتا أخيرا إلى سحب قواتهما من الأراضي المصرية في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٥٦، تتعثران في أذيال الخيبة والفشل، ويجلل رؤوسهم عار الهزيمة، وذل الشنار. ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله. وليس الله بغافل عما يعمل الظالمون.

وقد احتفلت القاهرة في ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٧ بما أسبغه الله على مصر من نصر مؤزر، على أهل البغي والعدوان، ومرور عام على هزيمة المستعمرين الآثمين، وسلام الوطن من كيد الكائدين. وزار الرئيس المفدى جمال عبد الناصر، رئيس الجمهورية المصرية، مدينة بورسعيد في هذا اليوم، ليكرم أبناءها الشجعان، ويترحم على شهدائها الأبرار، وأذاع منها خطبة جامعة، شرح فيها العدوان الآثم شرحا مؤثرا، وأزاح الستار عن مكائد المستعمرين، ونواياهم الخبيثة، مما زاد الشعوب لهم ازدراء واحتقارا. ومع كل ذلك فقد أرسل من بورسعيد صيحة مدوية، يطلب فيها إلى تجار الحروب والمستعمرين أن يخلصوا للسلام، وأن يكفوا عن مؤامراتهم وألاعيبهم، رحمة بالبشرية، ويحذرهم من حرب لا تبقي ولا تذر، تهلك الحرث والنسل، ولن تخلف سوى البؤس والشقاء، للعالم أجمع بلا استثناء.

ومن أبرز الحوادث الأخرى التي حدثت في عام ١٩٥٧ – ١٩٥٨، انعقاد مؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية الأفريقية بالقاهرة، من ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٥٧ إلى أول يناير سنة ١٩٥٨، حضره مندوبون عن ٤٦ شعبا من أفريقية وآسيا يمثلون إرادة ١٥٠٠ مليون من البشر، يعلنون إرادة هذه الشعوب في الحرية والاستقلال، والقضاء على الاستعمار،

ونبذ الحروب والأحلاف، والدعوة إلى السلام والصفاء، ورسم طريق الجهاد أمام تلك الشعوب لتحيا حياة كريمة سعيدة، وتسهم في تقديم البشرية ورقيها. ولقد كان اختيار الشعوب الآسيوية والأفريقية للقاهرة، لكي يعقد فيه هذا المؤتمر جلساته التاريخية، دليلا على ما صارت تحتله القاهرة من مكان مرموق، ليس في الشرق الأوسط فحسب، بل في قارتي آسيا وأفريقيا، وإن شئت فقل في العالم أجمع، بفضل السياسة الرشيدة، سياسة الحياد الإيجابي، التي تلتزمها مصر بكل دقة، وتدعو إليها، والتي نالت بسببها إعجاب دول العالم وتقديرها، بل إنها انتزعت احترام الدول المعادية لها في نفس الوقت.

والآن نكمل الصورة التي تصور الثورة، أسبابها والظروف التي أحاطت بها، والنتائج التي تمخضت عنها، فنذكر أن الثورة أخذت على عاتقها منذ قيامها في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ أن تغير دستور سنة ١٩٢٣، الذي أصبح لا يتماشى مع أهداف الثورة وأمانيها. فصدر بيان باسم الشعب في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٥٢ يعلن سقوط هذا الدستور، ويعهد إلى الحكومة بتولي السلطات، إلى أن يتم إعداد دستور جديد، يحقق تلك الأهداف.

وفي ١٦ يناير سنة ١٩٥٣ صدر إعلان دستوري من القائد العام للقوات المسلحة إلى الشعب المصري، يعلن فيه قيام فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات، حتى يمكن إقامة حكم ديمقراطي دستوري سليم.

وما إن أخذت الأمور في الاستقرار حتى اتخذت خطوة أخرى لتحقيق أهداف الثورة، فصدر في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ قرار من مجلس قيادة الثورة، يعلن باسم الشعب، إلغاء النظام الملكي وحكم أسرة مُحَمَّد علي، مع إلغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة، كما يعلن الجمهورية، على أن يكون للشعب الكلمة الأخيرة في تحديد نوع الجمهورية، واختيار شخص الرئيس، عند إقرار الدستور الجديد.

وفي نهاية السنوات الثلاث التي حددت من قبل لفترة الانتقال، أي في ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ أعلن الدستور الجديد، وقد جرى استفتاء الشعب فيه، وفي اختيار رئيس الجمهورية في ٢٣ يونيو سنة ١٩٥٦، فوافق عليه بالإجماع، كما وافق على اختيار جمال عبد الناصر

رئيسا لجمهورية مصر بالإجماع أيضا. وقد كان المأمول أن تسير الأمور هينة لينة، فيعقب ذلك إجراء الانتخاب العام لأعضاء مجلس الأمة، لولا حدوث الاعتداء الغاشم في ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦، وبقاء الجنود المعتدية على أرض الوطن حتى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٦، وانجلاؤها عنها في٢٢ منه. فكان لابد أن تمضي فترة من الوقت، تستعيد فيها البلاد هدوءها ونشاطها، ثم تواصل جهودها. نحو استكمال الحياة الدستورية. وفي ١٦ مايو سنة ١٩٥٧ أجريت الانتخابات، وفي ٢٣ يونيو سنة ١٩٥٧ افتتح مجلس الأمة، وبدأ نواب الشعب يباشرون مهامهم أعمالهم، وبذلك استكملت البلاد حياتها الدستورية، وأرسيت الحياة الديمقراطية فيها على أساس سليم.

وفي ١٦ يناير سنة ١٩٥٨ احتفلت مصر بمرور عامين على إعلان الدستور، وأقيمت معالم الزينة في القاهرة، وعقد مجلس الأمة في مساء ذلك اليوم جلسة خاصة، قدم فيها الرئيس جمال عبد الناصر ميدالية تذكارية، إقرارًا بفضله وجهوده في استكمال البلاد حريتها، وإعلان دستورها، وإقامة حياة ديمقراطية سليمة فيها.

ولقد كان المستعمرون الطغاة، عندما شنوا عدوانهم على مصر في نوفمبر سنة ١٩٥٦، ينتوون أن يثنوا بالاعتداء على سوريا الشقيقة، بعد أن تستسلم لهم مصر، إذ تنهج سوريا نفس السياسة التي تدين بها مصر، وهي سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز. لذلك كان طبيعيا أن توحد مصر وسوريا جهودهما، لمناهضة قوى الشر والطغيان. فنادى رجالات القطرين بتوحيد الصفوف، وتكوين جبهة واحدة ضد المستعمرين. ولا جديد في هذا، فقد عاش القطران دولة واحدة في كثير من العصور، واستطاعا بذلك أن ينزلا بالمستعمرين والمغيرين هزيمة ساحقة، كما فعلا ذلك ضد المغول والصليبيين. لذلك عمل زعماء القطرين جهدهم لتوحيدهما، ولم يصادفا في سبيل تحقيق هذه الغاية أية عقبات، بعد أن توحدت آمال الشعبين وآلامهما، وخلصت النيات، وتساندا في كثير من المناسبات. فأثمرت الجهود، وتحققت الأهداف.

وفي أول فبراير سنة ١٩٥٨ وقع الرئيسان شكري القوتلي، وجمال عبد الناصر في القاهرة، بين مظاهر الفرح والابتهاج، وثيقة الاتحاد بين مصر وسوريا، وتأليفهما دولة عربية

موحدة، أطلق عليها الجمهورية العربية المتحدة. فكان لإعلان هذا النبأ رنة فرح سرت بين القاهرة ودمشق، غمرت القلوب، وطربت لها الأفئدة.

وفي ٢١ فبراير من نفس السنة، استفتى الشعب في جزئى الجمهورية الشمالي والجنوبي، في سوريا ومصر على الوحدة ورئاسة الجمهورية.

فأسفر الاستفتاء عن أغلبية ترتقي إلى حد الإجماع عن الرضا التام بالوحدة وعن انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة. فاجتاحت الشعبين المصري والسوري موجة من الغبطة والانشراح، لم يسبق لهما مثيل، وازدانت دمشق والقاهرة أسبوعا كاملا بالبنود والأعلام في النهار، وتلألأت سماؤهما بالأنوار الساطعة في الليل، وامتلأت الساحات بالجماهير، تبارك الجمهورية الجديدة، وتدعو لها باليمن والخلود، وللشعبين السوري والمصري بالسعادة والهناءة، في ظل هذه الوحدة المقدسة، والسلامة من كيد الكائدين، ومؤامرات المستعمرين والحاقدين.

وفي ٥ مارس صدر دستور مؤقت للجمهورية العربية المتحدة، مكون من ثلاث وسبعين مادة، نص في أول مواده على أن الدولة العربية المتحدة جمهورية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة، وشعبها جزء من الأمة العربية. وفي المادة الرابعة والستين على أن مدينة القاهرة عاصمة الجمهورية العربية المتحدة، وفي المادة السادسة عشرة على أن مقر مجلس الأمة مدينة القاهرة أيضا.

ـ ٢ ـ

القاهرة في عهد الثورة

لو أنه أتيح لجوهر الصقلي أن يُبعث من مرقده يوما واحدا ليشهد ما حل بمدينته، ولو أن الحياة ترَد أيضا لصلاح الدين الأيوبي يوما أو بعض يوم، ليرى ما آلت إليه قاهرته القديمة، إذن لأخذ العجب من كلّ منهما كل مأخذ، كيف اتسعت رقعتها في كل اتجاه، وكيف استقامت شوارعها وطرقاتها، وكيف تخللتها الميادين الفسيحة الأنيقة، وكيف يظللها

النظام الدقيق المتين. وفي عبارة مختصرة كيف استحالت بين عشية وضحاها إلى مدينة عالمية، فاقت كل ما كانا يتمنيان لمدينتهما من نمو وازدهار، وبهجة وجمال.

والواقع أن ما أدخل على القاهرة من تعديل وتحسين، في مدى خمس السنوات الأخيرة، ليدخل في باب المعجزات، وأعمال السحر. وإن الذين تغيبوا عن القاهرة، من أوروبيين أو شرقيين، في غضون تلك السنوات، ثم عادوا إليها بعد ذلك، ليعجبون كل العجب، كيف تغيرت معالمها، وارتقت إلى مستوى أرقى مدن العالم وحواضره. في مدى هذه الفترة القصيرة من الزمن. ولا جدال في أن هذه التحسينات، وتلك التعديلات، قد فاقت في أهميتها وقيمتها، بل وفي كمِّها كل ما أدخل على القاهرة من تحسينات خلال مائة العام الأخيرة، التي تنتهي بقيام الثورة في ٣ يولية سنة ١٩٥٢.

عيوب القاهرة في العهود السابقة :

ضاقت القاهرة بسكانها، والتوت شوارعها، وطرقاتها، وتعقدت مواصلاتها، وكثرت كيمانها وخرائبها، واختنق جوها، ولم يعد هناك مُتنفس لقاطنيها. وكانت الحاجة إلى الإصلاح ماسة وحيوية، وسبله ظاهرة جلية، ولكن الروتين الحكومي وما عرف عنه من تعقيد وبطء، كان واقفا لكل إصلاح بالمرصاد، والحكام تنقصهم الشجاعة والإقدام، وتعوزهم الغيرة على الصالح العام. فكان لابد من ثورة إصلاحية شاملة، وكان لابد من ثائر مصلح، يثور على الأوضاع الجامدة، ويقدم مصلحة الوطن على كل اعتبار. وقد توافر كل ذلك في شخص عبد اللطيف البغدادي، وزير الشئون البلدية والقروية السابق، ونائب رئيس الجمهورية الحالي، وأحد رجال الثورة الأبرار، الذي ما مست «عصاه السحرية» مشروعا من المشروعات إلا وكان النجاح مآله، والذي خلق القاهرة خلقا جديدا، فاستحق أن يخلد ذكره، وأن يقرن اسمه بالقاهرة بجوار اسم جوهر وصلاح الدين.

كان غريبا حقا أن تكون القاهرة واقعة على نهر النيل العظيم، وسكانها مبعدون عنه، لا يتمتعون بنسماته الرطبة، ولا يجلون عيونهم بمناظره الخلابة البديعة.

وكان مؤلما حقا ألا يكون للقاهرة سوى مدخل واحد، تكتنفه العشش والأكواخ

والأقذار التي تسيء إلى سمعة القاهرة، إذ كانت أول ما يقع عليه نظر السائحين، عند اقترابهم منها.

وكان عجيبا أيضا أن تكون ميادين القاهرة على قلتها ضيقة، تسودها الفوضى وسوء النظام، تغص بالباعة الجائلين، الذين يحتلون أفاريز الميادين، ويفترشون طوارها، بسلعهم ومواقدهم، ويحشدون حولهم جموعا من السابلة والمتسكعين.

وكانت الشوارع ضيقة، ملتوية، تزدحم بالرائحين والغادين. ويزيدها ضيقا وجلبة وسائل المواصلات العتيقة، وفي مقدمتها عربات الترام، الكريهة المنظر، الشديدة الضوضاء، التي لا يسلم من أذاها راكب أو راجل.

وكانت التلال والكيمان تحيط بالقاهرة، إحاطة السوار بالمعصم، تقذف عليها من أتربتها وأقذارها ما تختنق معه الأنفاس، وتعمى به الأبصار، في يوم عاصف، تشتد ريحه. وكان غريبا أن تقوم هذه الكيمان حول القاهرة في وقت ضاقت فيه رقعتها، واكتظت بالسكان، ولم يعد بها شبر أرض يتسع لبناء مسكن جديد.

وكان غريبا أن تختلط المعامل والمصانع والورش بالمساكن والبيوت، وتقذف في سماء القاهرة دخانها ورمادها، فتظلم السماء، ويفسد الهواء، وتتراكم الأقذار على المنازل وجدران المباني.

ولا تسل عن الحفر التي تملأ الطرقات، والمباني المتداعية، التي تهدد حياة الناس وأرواحهم، والخربات العتيقة التي ترى منبثة في كل مكان، والتي تعتبر مستودعا خصبا للقاذورات، ومأوى جيدا للضالين وقطاع الطرق، مما يؤذي الصحة، ويهدد الأمن العام. والمباني القائمة في عرض الشوارع والدروب، كأنها السدود المنيعة والحواجز المتينة، التي تسد منافذ الهواء، وتقف حائلا في طريق ضوء الشمس وحرارتها، وتطل الطريق على سكان القاهرة.

كل ذلك كان يظهر القاهرة في ثوب خلق رث، يضفي عليها ظلا حزينا كئيبا، لا يتفق وما لها من مكانة رفيعة بين دول العالم المتمدين، ومركز ممتاز بين الدول الشرقية بصفة خاصة.

لذلك شمر الوزير الخطير عبد اللطيف البغدادي عن ساعد الجد، وعالج الموقف بروحه

الوثابة، روح الثورة العتيدة، وأعلن الحرب على الروتين الحكومي، وجمع حوله حشدا من المهندسين الأكفاء، ذوي الهمة القعساء، والوعي الفني. وفي مدى خمس سنوات خلق من القاهرة مدينة جديدة، وألبسها تاجا من النضارة والبهاء، فصارت بحق عروس مدن الشرق، وندا لكبريات مدن أوروبا وأمريكا.

- ٣ -

الإنشاء والتعمير في عهد الثورة

كورنيش النيل:

وفي مقدمة الأعمال الخالدة التي تشهد لعبد اللطيف البغدادي ومعاونيه بالتفاني وعلو الهمة، والجلد والمثابرة، والتي ستذكرها له الأجيال القادمة بالثناء والتقدير، كورنيش النيل العظيم، الذي كان حلما يراود خيال سكان القاهرة منذ أجيال، فأصبح اليوم حقيقة واقعة، أضفى على القاهرة روعة وجمالا، وعلى سكانها قوة وصحة، وخلق وسيلة سريعة للمواصلات من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، من القناطر حتى حلوان، وما يقع بينهما من قرى ومدن.

ويمتد هذا الكورنيش مسافة ٤٠ كيلو متراً بحذاء النيل، من القناطر حتى حلوان، وقد تم تنفيذه على مرحلتين: الأولى من روض الفرج إلى أثر النبي بمصر القديمة، والثانية من أثر النبي حتى حلوان. ويبلغ طول القسم الأول ١٥ كيلو متراً، والثاني ٢٥ كيلو متراً وعرضه ٤٠ متراً. وقد خصص جانب منه للذهاب وجانب للإياب، وقد تكلف ما يقرب من مليوني جنيه.

وقد اقتضى إنشاؤه هدم كثير من المباني التي كانت تطل على النيل، مثل المطبعة الأميرية، والورش الأميرية في بوقال، وغيرها من المصانع الأهلية، وحديقة السفارة الإنجليزية في حي قصر الدوبارة ومستشفى القصر العيني، وكلية الطب، وصوامع الغلال بساحل أثر النبي،

وإقامة ميناء جديد للغلال والفاكهة والمحصولات الزراعية بعرض ١٤٥متراً، وعلى أحدث النظم التخطيطية، حتى يكون نواة للميناء الكبير الذي سيمتد إلى نهاية منطقة دار السلام.

وعند مدخل الكورنيش بالمعادي أقيمت بوابة جميلة على شكل شراعين متداخلين، يضاءان بأنوار الفلورسنت ويلقيان في قارب. وقد أزيلت الأبنية التي كانت تعترض شق الطريق في منطقة المعادي، وأزيلت أسوار المعسكرات القائمة، ابتداء من المعادي حتى مخر السيل بطرة. وأقيمت لها أسوار جديدة، بعد أن ارتدت مبانيها إلى الخلف، كما تم إزالة الأبنية المتداعية، والتلال التي كانت تعترض شق الطريق في منطقة طرة الفاروقية، وأزيلت أسوار ليمان طرة، ومبنى مسكن مدير الليمان. ونقلت مصلحة مياه الليمان إلى موقع آخر، كما تم نزع ملكية بعض الأبنية بمنطقة طره الحجارة.

وقد افتتح كورنيش أثر النبي –المعادي– في عيد الثورة الرابع، أي في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٦، وقد كان مقرا لفتحه شهر مارس سنة ١٩٥٧، أي إنه فتح قبل موعده بثمانية أشهر. وفي هذا دليل على طريقة تنفيذ المشروعات الحيوية في عهد الثورة، طريقة سداها ولحمتها الإخلاص والتفاني.

فقد كان المهندسون والمقاولون والعمال، الذين أسهموا في تنفيذ هذا المشروع يواصلون العمل ليل نهار. ويتناوب العمل فيه كل يوم، في الليل والنهار، أكثر من ألفي عامل، بالإضافة إلى مئات العمال الذين تولوا في المصانع إنتاج المواد، التي استخدمت في إنشاء هذا الطريق، يحدو الجميع الإخلاص للوطن، وأداء الواجب على أكمل وجه. فجاء كورنيش النيل تحفة فنية تضارع أعظم كرانيش العالم، مثل كورنيش مرسيليا وفلوريده.

وقد جاء في صيف عام ١٩٥٦ أيام اشتدت فيها الحرارة اشتدادا لم يسبق له مثيل، فهرع أهل القاهرة إلى كورنيش النيل، يقضون ليالي بأكملها على ضفة النيل، يستنشقون نسيمه العليل، ويستمتعون بمناظره الخلابة، ورؤية أنوار الفلورسنت، وهي تنعكس على صفحة الماء، فتحيله إلى نهر من الفضة الخالصة، وتحيل الليل نهارا. فقد تمت إنارة الطريق بطريق الإضاءة المختلطة، المدهونة بالفلورسنت، حيث أقيم على امتداد الطريق، ابتداء من

أثر النبي حتى حلوان أكثر من ٣٠٠ عمود إنارة مزدوج، بمصباحين جانبيين، قوة كل منهما ٤٥٠ وات، واتبع نفس الشيء في الجزء الآخر، الممتد من روض الفرج إلى أثر النبي.

ميادين القاهرة:

تعتبر الميادين بالنسبة لمدينة ما كالرئة بالنسبة للإنسان، يتجمع فيها الهواء الخالص، فينقي الدم من الشوائب، ويخلصه من الأدران كذلك تفعل الميادين، التي يتجمع فيها الهواء الصافي، فيتوزع على أرجاء المدينة، بواسطة شوارعها وبقية مسالكها.

وتشبه الميادين أيضا البحيرات في مجاري الأنهار، يتجمع فيها الماء فيترسب ما به من فتات الصخور والأملاح، ثم يخرج بعد ذلك رائقا صافيا، لا كدر فيه. هذا بالإضافة إلى تهدئتها من حدة التيار، وحدها من قوته، كذلك الميادين، فإنها كلما اتسعت، هدأت من ضغط المواصلات على الشوارع التي تصب فيها، أو تنبع منها.

وهي فضلا عن هذا تضفي على المدينة جمالا وبهاء، بما يقام فيها من نصب وتماثيل، وما يغرس حواليها من أشجار، وما ينثر في وسطها من زهور. وهي أيضا المكان الفسيح لتجمع الشعب في الاجتماعات الوطنية، والمناسبات التاريخية، والاستعراضات الحربية، كلما جد من الظروف ما يستلزم شحذ الهمم، وإثارة الحماسة، وإذكاء الروح الوطني. وأخيرا فهي عنوان رقي الدولة، ودليل من أدلة تقدمها ورقيها.

لذلك لم يكن غريبا أن تكون الميادين أول ما يعني به الوزير عبد اللطيف البغدادي، في برنامج إصلاحاته العديدة، في عهد الثورة، فلقد أعاد تخطيط ميادين باب الحديد، والتحرير، والأوبرا، والعتبة، والسيدة زينب، وأحمد ماهر، وصلاح الدين بالقلعة، والأزهار، والجيزة، وأبي العلا، والعباسية، والنزهة، وأبي بكر الصديق بمصر الجديدة.

أولى هذه الميادين عناية فائقة، فوسع من مساحة الكثير منها، وهدم لهذا الغرض العمائر والمباني التي اقتضى التوسيع إزالتها، وعدل سير المواصلات بها، وأنشأ في وسطها المتنزهات النضرة، وأضاءها ليلا بالأنوار الكهربائية القوية، ووضع نظاما دقيقا لسير الناس حواليها، فمدت لهم أفاريز مرصوفة رصفا فنيا جميلا. وكان أكثر هذه الميادين حظا من

الإصلاح والتعديل ميداني المحطة، والتحرير (الإسماعيلية سابقا).

ميدان المحطة (حاليا ميدان رمسيس)

كان لابد من بذل عناية خاصة لتعديل تخطيط هذا الميدان وإصلاحه، لأنه أول جزء من القاهرة تقع عليه أعين السائحين بعد مغادرتهم محطة القاهرة. ومع ذلك كان أسوأ ميادين القاهرة تخطيطا ونظاما. يتجمع حوله الباعة الجائلون من كل صنف، وفي مقدمتهم بائعو الخبز والشواء، والفاكهة والطعمية، والمشروبات المثلجة، والسلع الصغيرة، وبعض أدوات الزينة والتحف. ويأوي إلى كل هؤلاء جيش من المتسكعين والشحاذين والمتشردين والنشالين من الصبية والنساء والرجال. وكلها مناظر تؤذي العين، وتضر بسمعة مصر، إذ كانت أول ما تقع عليه عيون السياح، فيظنون في القاهرة وسكانها الظنون، ويلتقطون هذه المناظر بآلات التصوير، ويذيعونها في بلادهم عند عودتهم إليها. ولا تسل عما تحدثه من تأثير سيئ لمصر وبنيها، في البلاد الأوروبية والأمريكية.

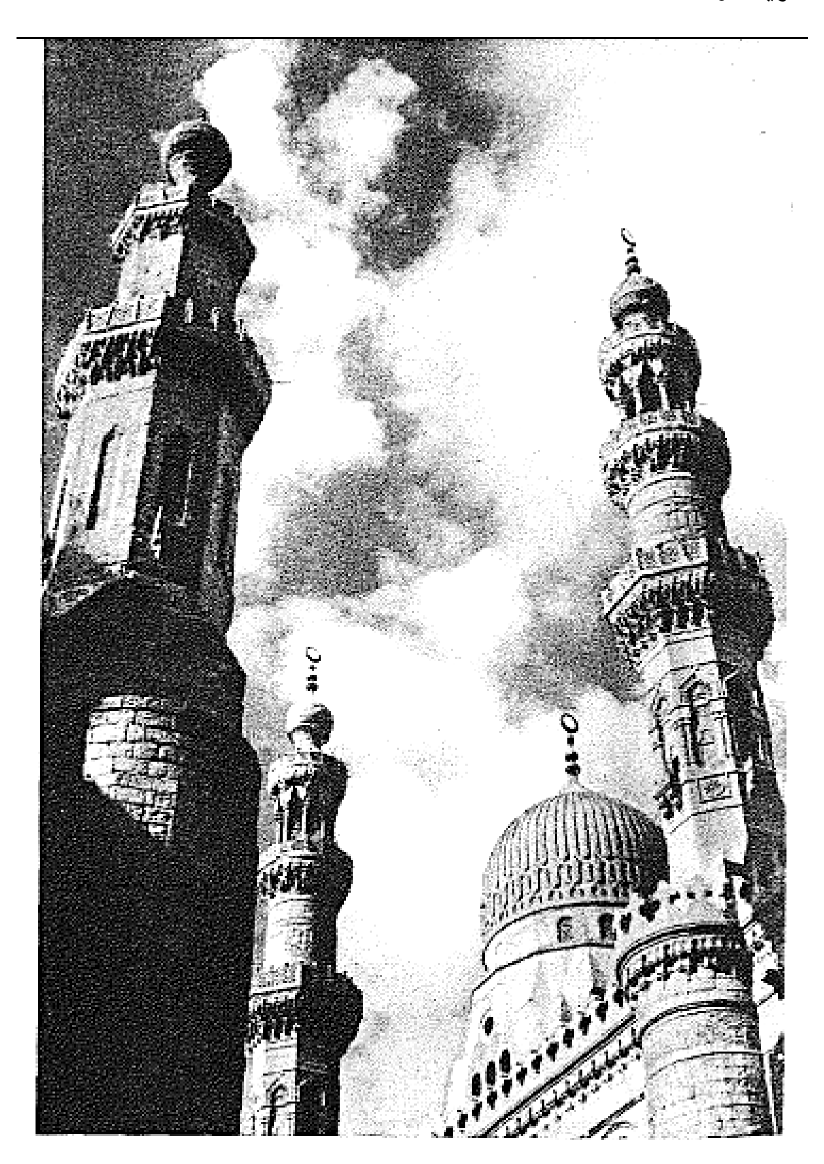
فأعمل البغدادي عصاه السحرية في هذا الميدان، فهدمت أبنية شامخة كانت تكتنفه من غربيه، ومن قبليه كمبنى قسم الأزبكية. ونقل سوق السمك، وكان مجاورا لمبنى هندسة السكة الحديد إلى مكان جديد بغمرة.

فازدادت مساحة الميدان، وانتظمت دائرته. ومدّ في وسطه متنزها تتوسطه نافورة بديعة. ونقل إليه تمثال رمسيس الثاني من البدرشين، ليكون أول ما تقع عليه أنظار السائحين. ولا يجهل أحد من هو رمسيس، رافع راية مصر، وعنوانها قوتها وسؤددها في التاريخ القديم، وصاحب إمبراطوريتها العظيمة. وقد بذل في نقله إلى هذا المكان جهودا جبارة، واتخذت تدابير محكمة لضخامة التمثال، وضرورة العناية به، كي يصل سليما من غير سوء. وأزيلت أوكار الباعة والمتسكعين، وأصبح الميدان بعد ذلك تحفة للناظرين، وعنوانا كريما للقاهرة والمصريين.

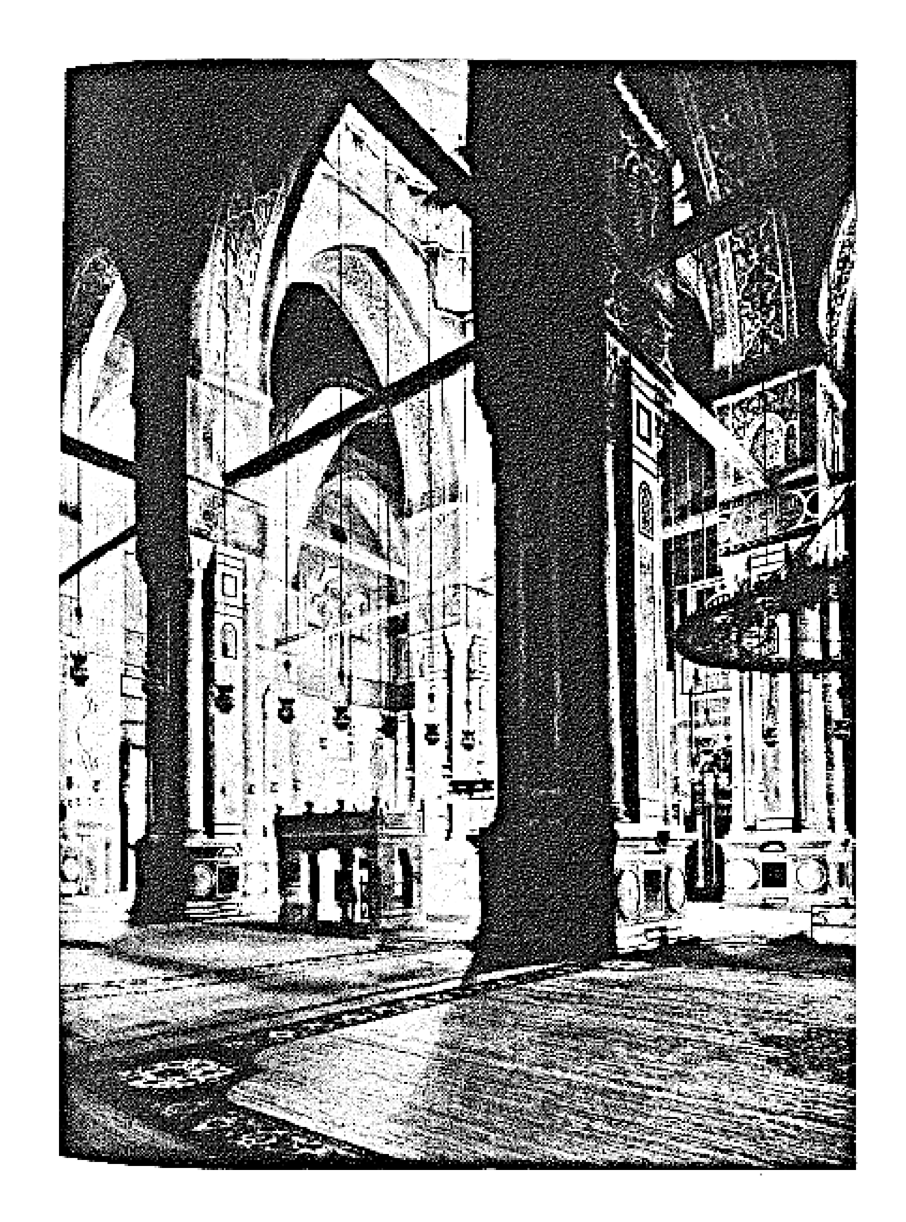
ميدان التحرير:

وقد كان يطلق عليه قبل الثورة ميدان الإسماعيلية. وقد تهيأت لهذا الميدان فرصة

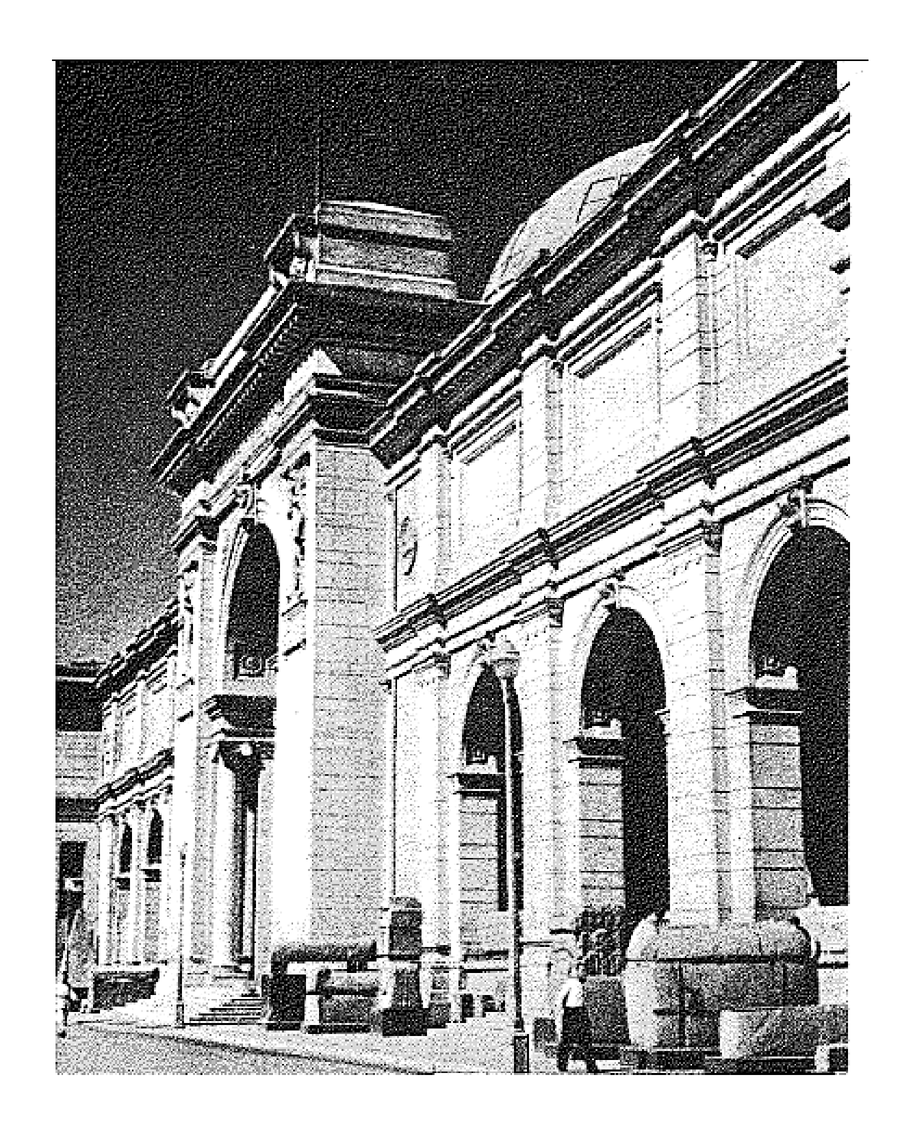
ذهبية لأن تتسع رقعته، وذلك بعد هدم ثكنات قصر النيل، التي كان يحتلها الجيش الإنجليزي طوال مدة الاحتلال، والتي كانت في عهد إسماعيل وتوفيق ثكنات للجيش المصري. فأزيلت هذه الثكنات.



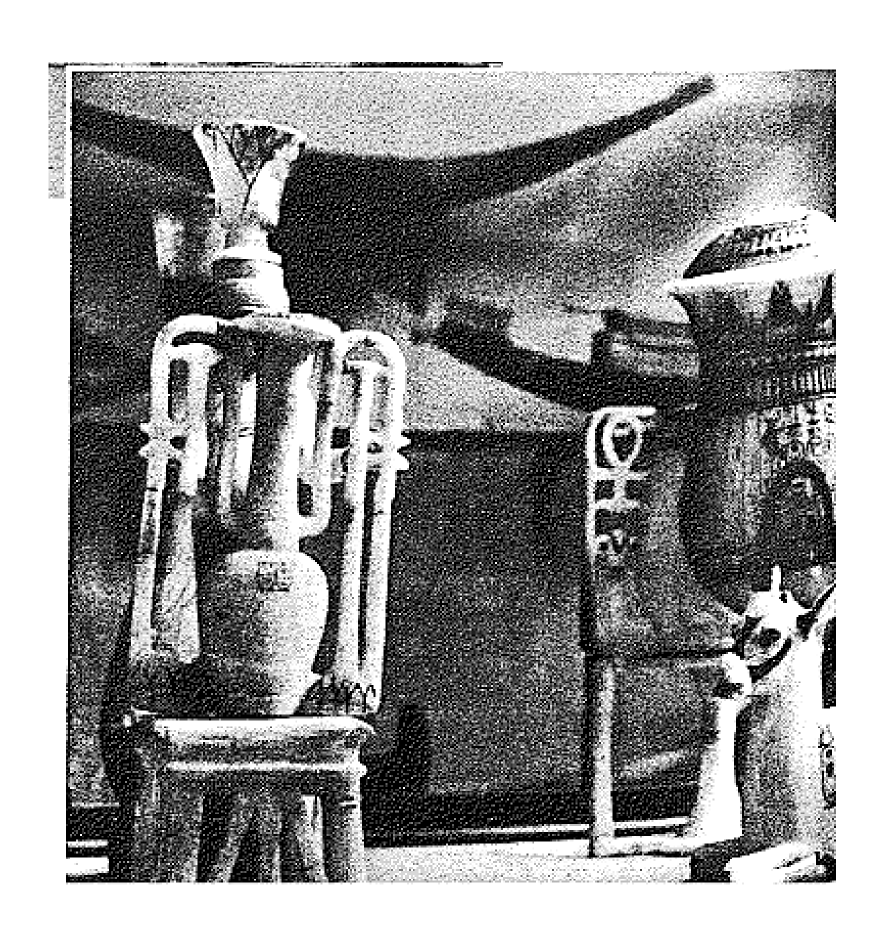
مئذنتا جامع الرفاعي بالقلعة، وبينهما القبة، وينتهي كل منهما بهلال. ويغطي القبة نقوش بديعة.



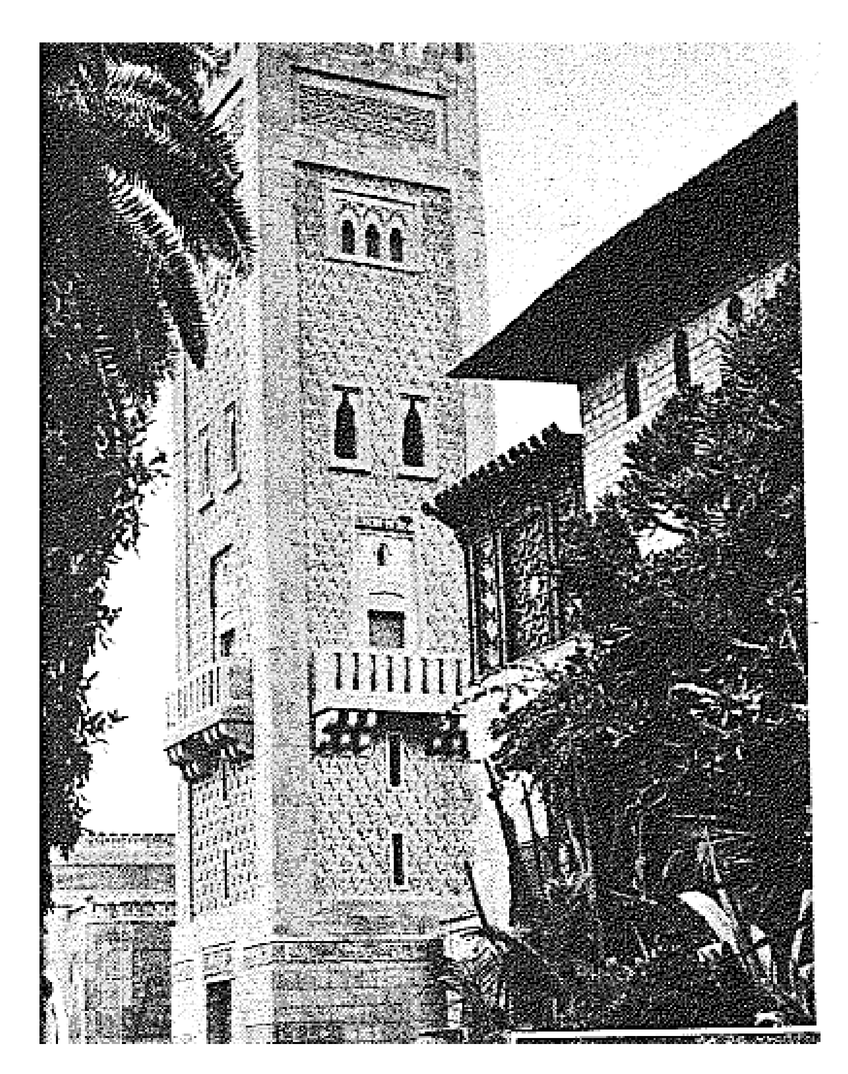
مسجد الرفاعي من الداخل.



مبنى المتحف المصري بميدان التحرير بالقاهرة.

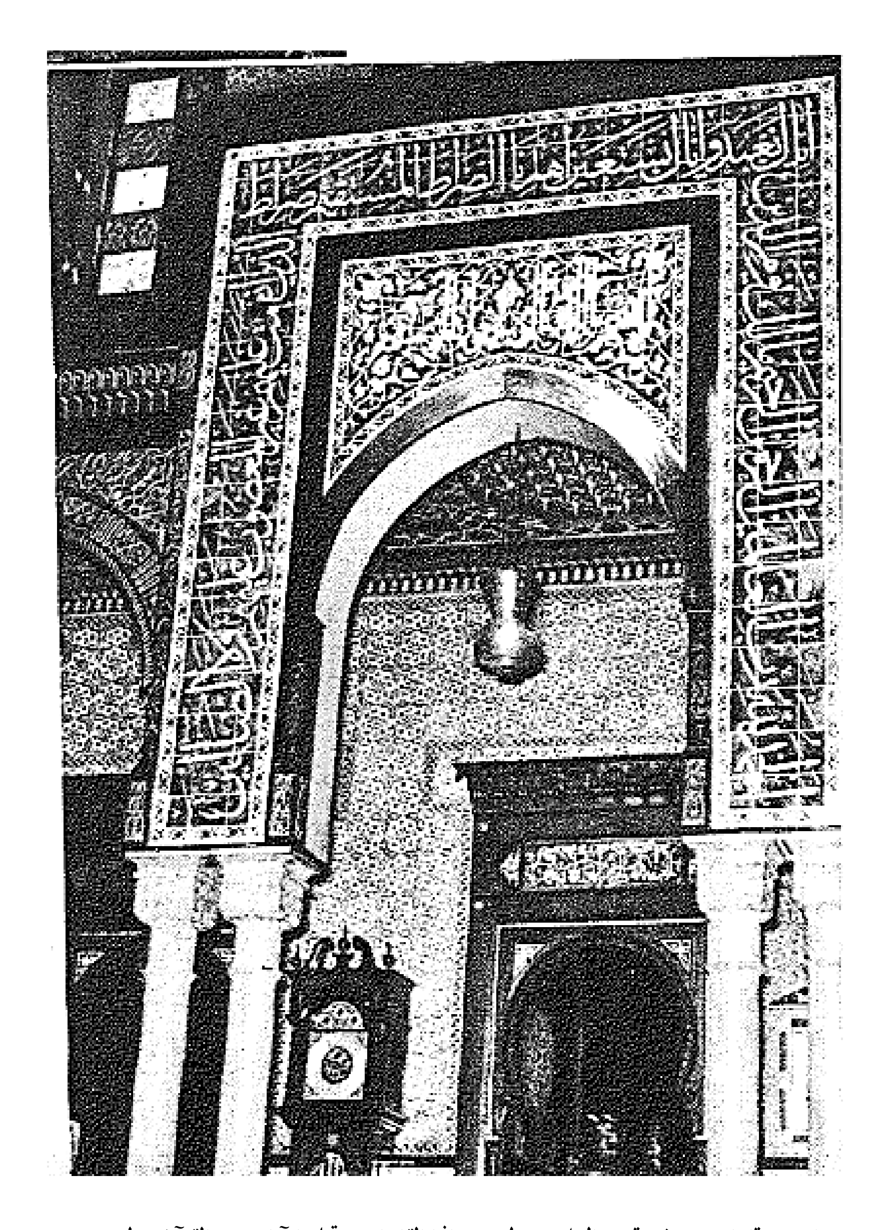


بعض التحف بالمتحف المصري بالقاهرة.

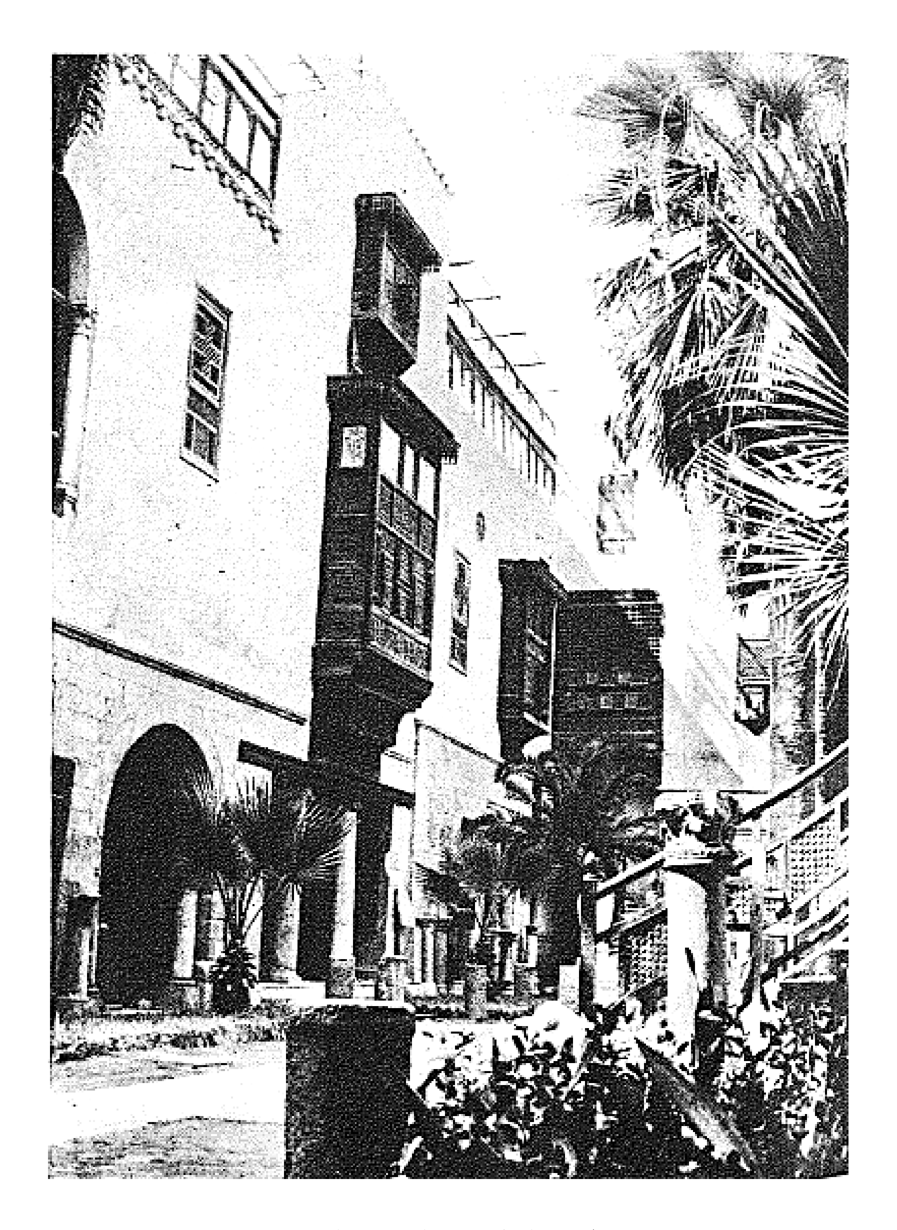




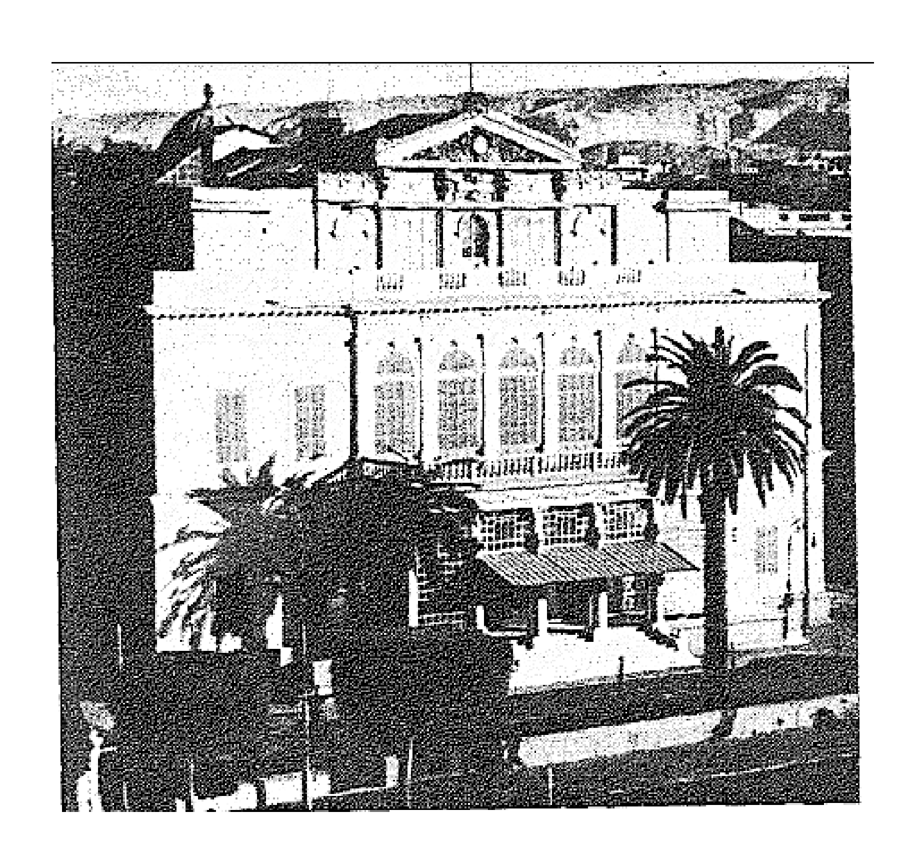
مدخل متحف قصر النيل.

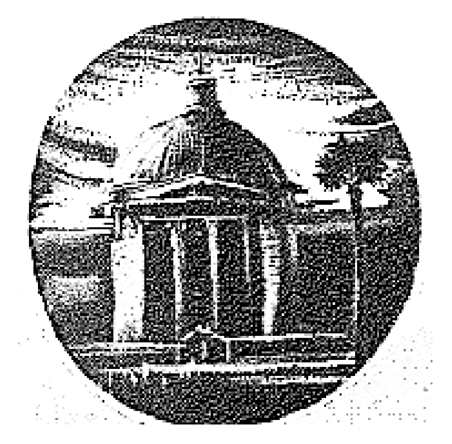


إحدى قاعات متحف قصر النيل، ويغطي جدرانها القاشاني، وتحليها آيات من القرآن بخط بديع.



المتحف القبطي بمصر القديمة من الداخل.





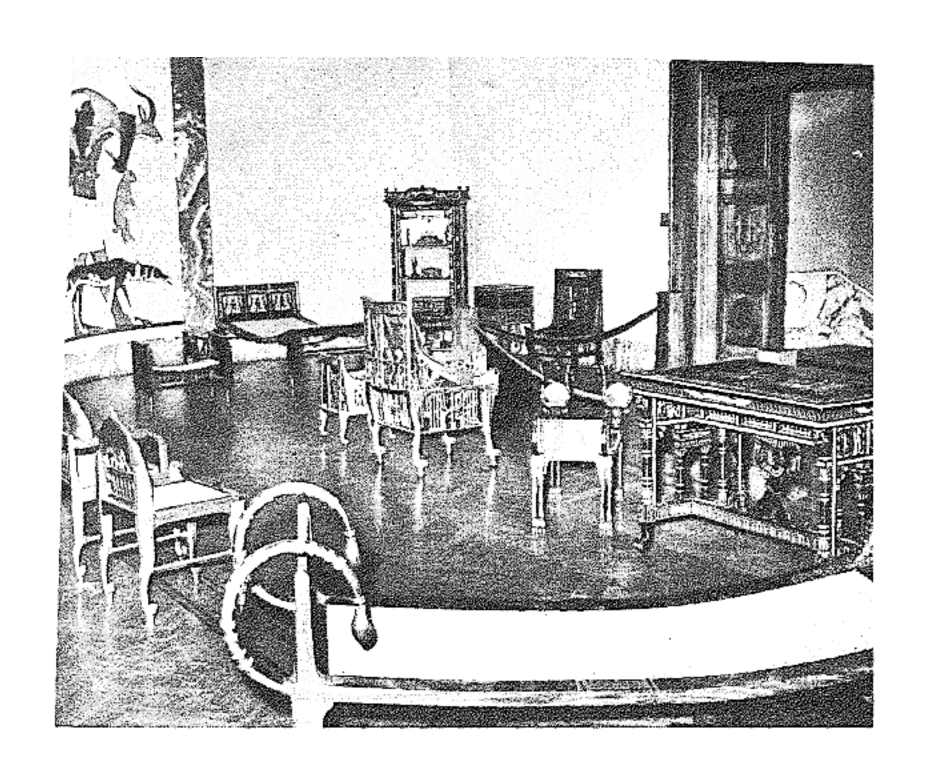
دار الأوبرا بالقاهرة.



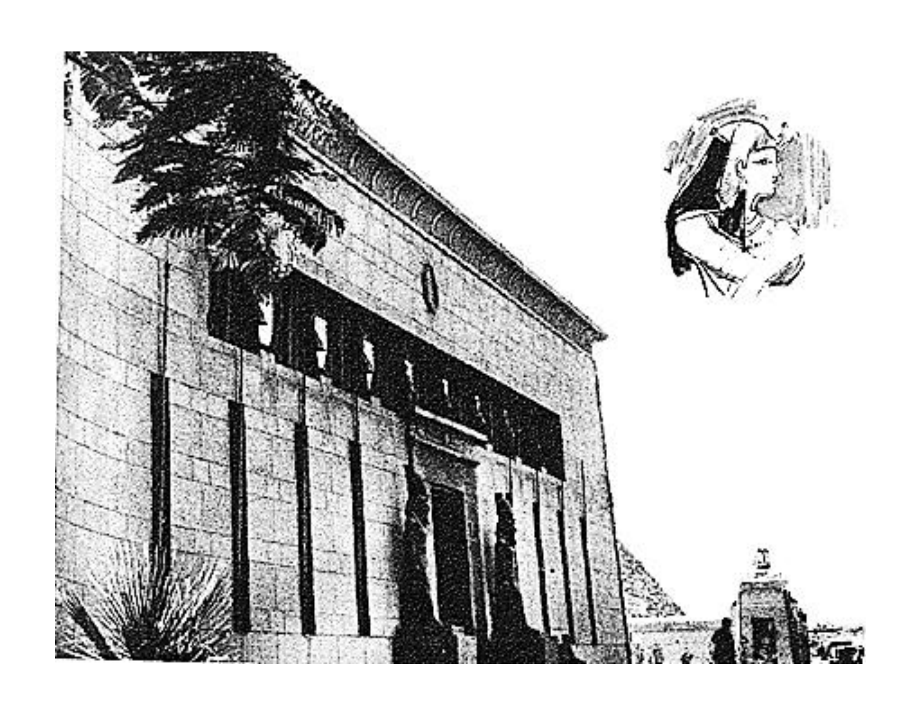
مبنى مجلس الأمة بالقاهرة، والمسجد الملحق به.



جامعة القاهرة: وترى قاعة الاحتفالات الكبرى تعلوها قبة كبيرة، ومبنى إدارة الجامعة يحيط بهما كليات الحقوق والآداب والتجارة والعلوم.. ويشاهد أيضا برج الساعة التي تسمع دقاتها في جميع أنحاء البلاد العربية.



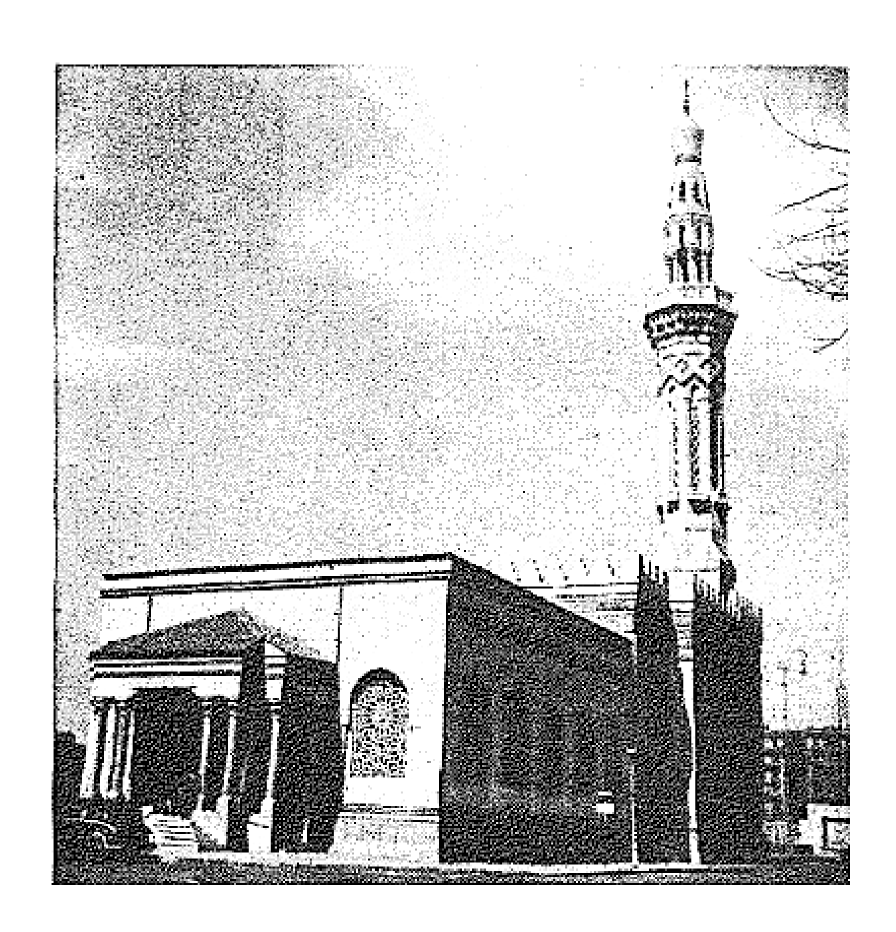
إحدى قاعات استراحات الهرم وقد صنع أثاثها على الطراز المصري القديم.



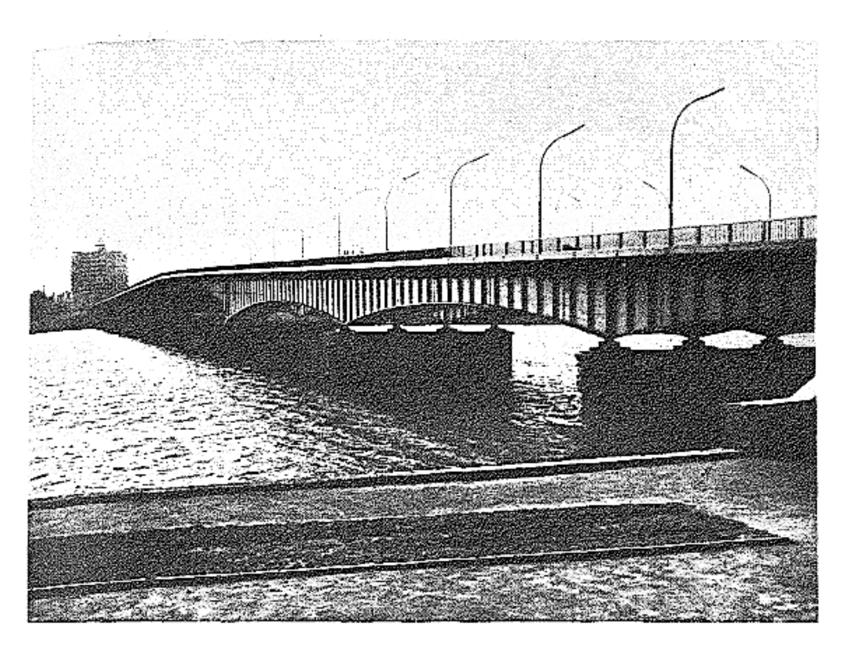
واجهة استراحة الهرم، وهي مشيدة على طراز المعابد المصرية القديمة.



ميدان التحرير بالقاهرة: وتشاهد الفسقية ومبنى المجمع ووزارة الخارجية والعمائر العظيمة الأخرى التي تحيط بالميدان.



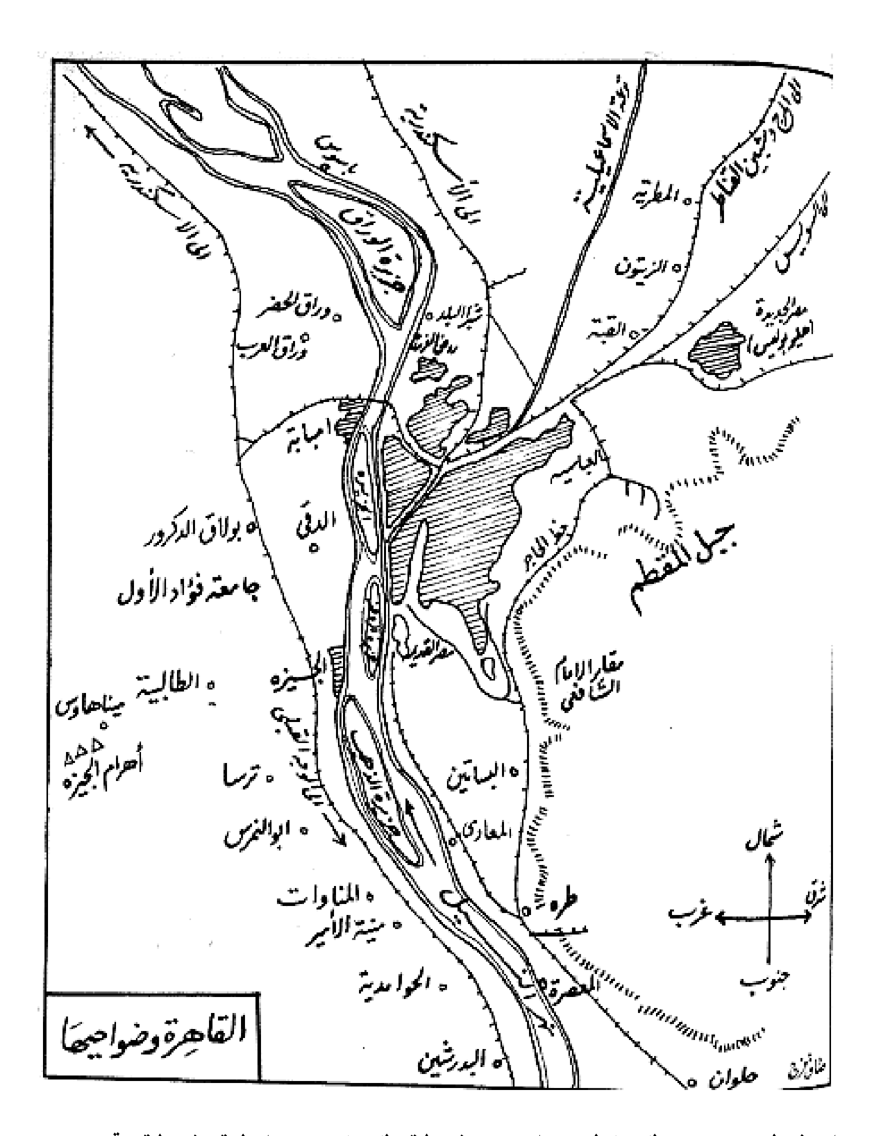
جامع السيد عمر مكرم بميدان التحرير.



كوبرى الجامعة بالجيزة، وهو أحد المنشآت الحديثة في عهد الثورة.



كوبري التحرير (قصر النيل سابقا)، ويرى في نهايته الشرقية ميدان التحرير وفندق سميراميس.

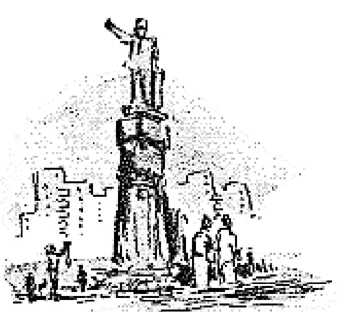


يمثل هذا الرسم ضواحي القاهرة التي دخل بعضها في نطاق القاهرة، وسيدخل الباقي في نطاقها تجاوبا مع اتساعها وامتدادها.

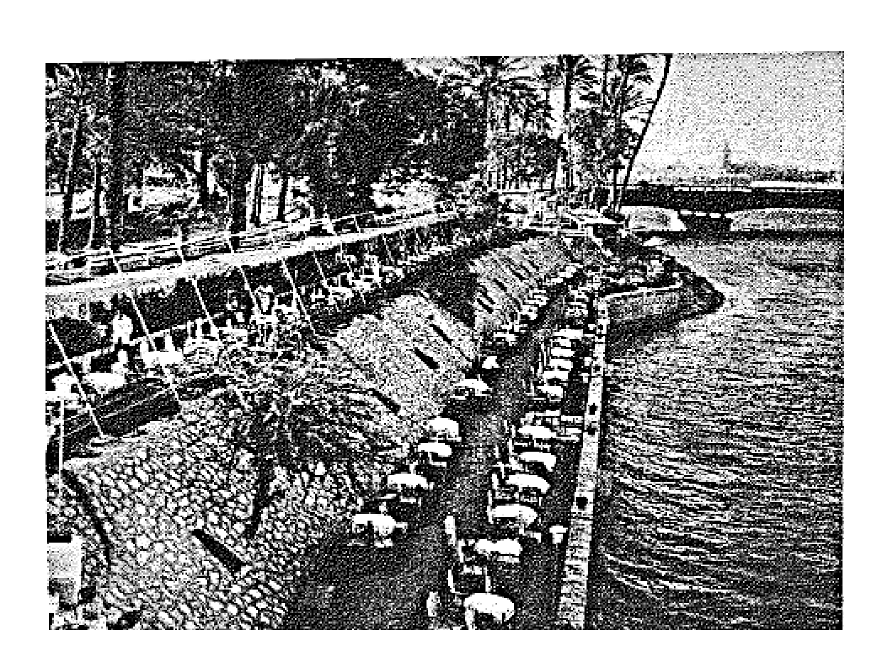


شارع بورسعيد (الخليج سابقا) بعد توسيعه وتنظيمه في عهد الثورة.





شارع بورسيعد (الخليج سابقا) بعد ردمه سنة ١٩٠٢م. ويبدو ضيقا ملتويا لا يتسع لمرور عربتين متجاورتين.

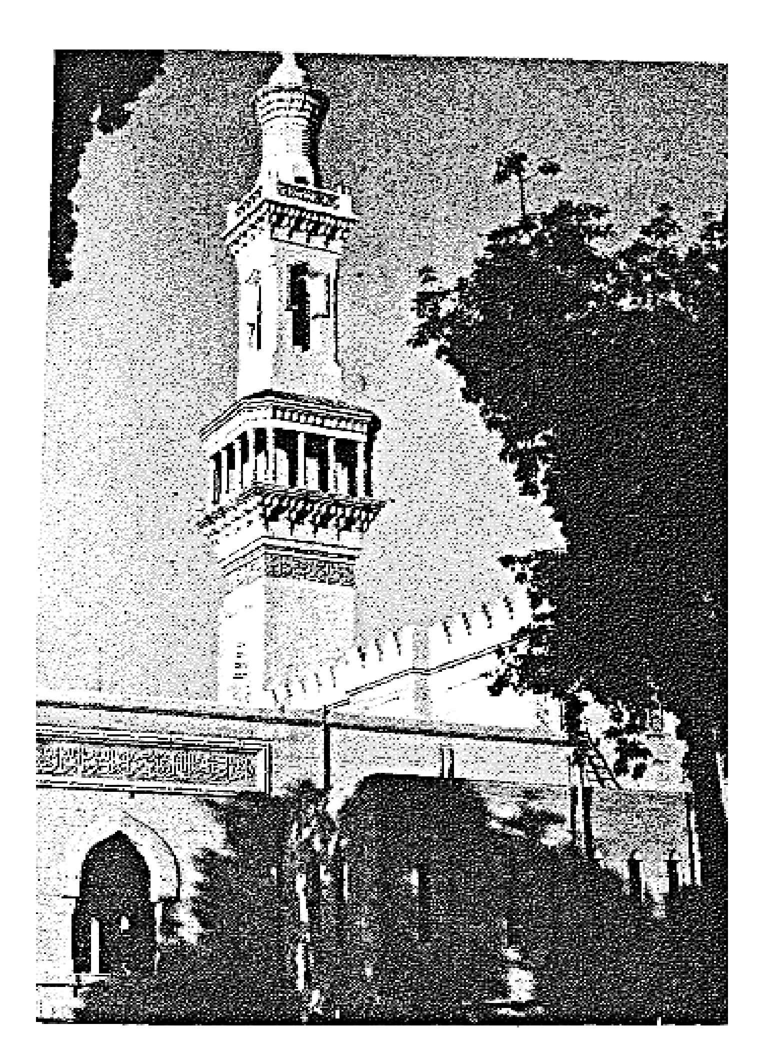


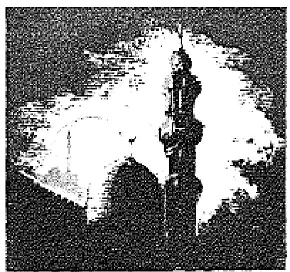
كازينو قصر النيل، أحد المنشآت التي أقيمت على بعد إنشاء الكورنيش للاستمتاع بمناظر النيل والمشاهد الطبيعية الخلابة.



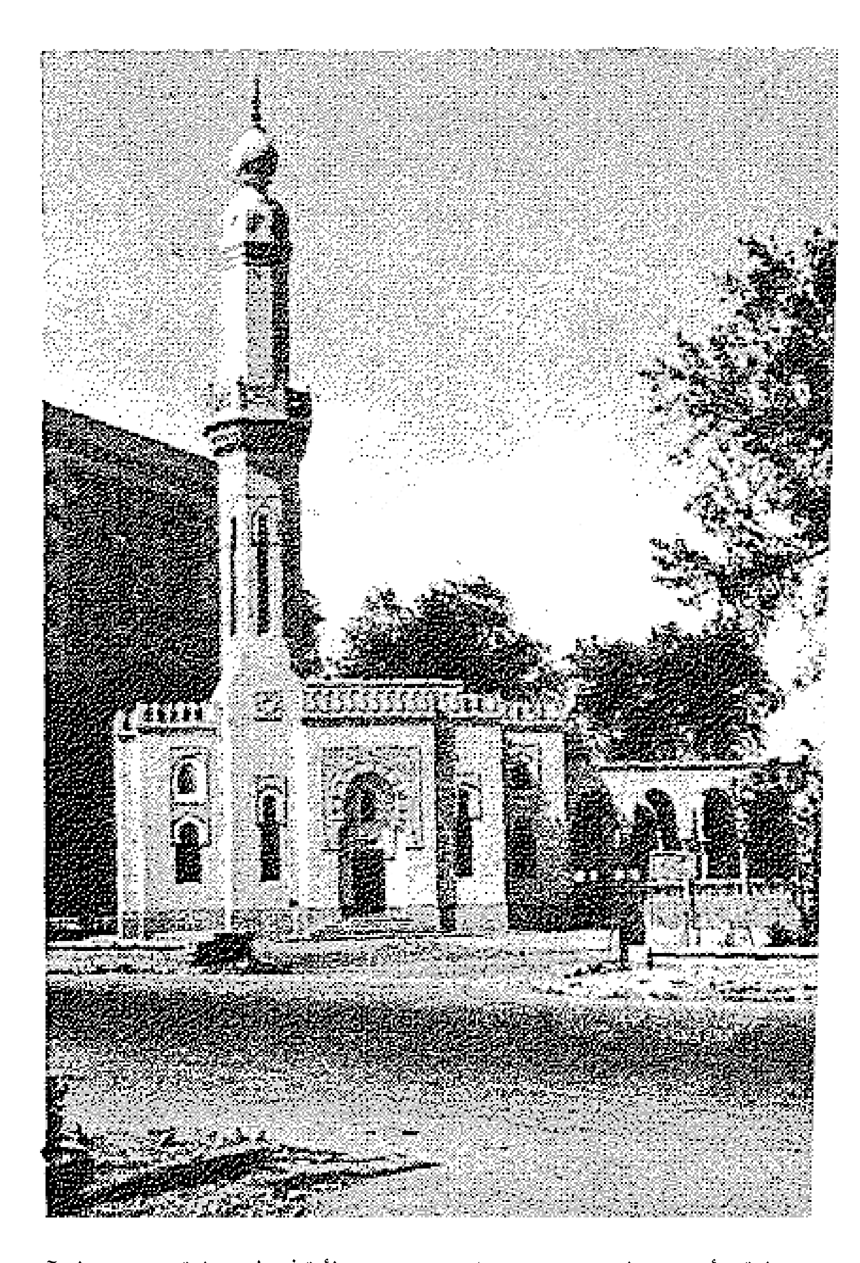


ميدان مصطفى كامل وشارع قصر النيل، وهو أحد الشوارع الهامة بالقاهرة.





مسجد الزمالك، هو أحد المساجد الجميلة الحديثة التي أنشئت في عهد الثورة.



مسجد الدقي، أمام وزارة الزراعة، ويرى من خلفه جزء من مبنى الأوقاف المجمع بالدقي وهو من المنشآت الحديثة.

وأنشئ في مكان الجزء الأكبر منها متنزه عام، تتوسطه نافورة، غاية في البهاء والجمال، تتلون مياهها في أثناء اندفاعها بالألوان الجميل، وتتشكل بالأشكال البديعة، فإذا ما أقبل المساء، خصوصا في ليالي الصيف، توافد ألوف الناس من أطراف المدينة وتجمعوا حول هذه النافورة، وربما قضوا الليل بأكمله، يستمتعون بالنسيم العليل، والمنظر الجميل.

ويرى في وسط الميدان نصب كان قد أمر فاروق بإعداده قبل الثورة بقليل، ليمتطيه تمثال لجده إسماعيل، يقابله في ميدان الجمهورية (عابدين سابقاً) تمثال لوالده فؤاد. وكانت فكرة فاروق أن ينظر والده من ميدان عابدين فيرى إسماعيل رابضا في ميدان الإسماعيلية، فيتناجيان ما شاءت لهما النجوى ويتسامران. ولما كان الطريق الموصل بين التمثالين ضيقا، ولكي تتاح الفرصة للتمثالين أن يرى أحدهما الآخر في جلاء ووضوح، فقد اقتضت إرادة فاروق، أن يوسع شارع البستان، وتهدم المنازل القائمة على جانبيه، ويشرد سكانها، ويبلغون أكثر من ألفي أسرة، في وقت ضاقت القاهرة بساكنيها، وكان المسكن الخالي أندر وجودا من الكبريت الأحمر. وقد صدر فعلا قانون بإخلاء تلك المساكن من ساكنيها، وإجراء عملية الهدم. ولم يُجْد صراخ تلك الأسر وعويلها أمام جبروت فاروق، وممالأة وزرائه له في طيشه ونزقه، ولكن الله كان له ولهم بالمرصاد، فأطاح بعرشه قبل أن تتحقق رغبته، وأنقذ الناس من ظلمه وبغيه.

وهكذا كانت أعمال فاروق ووزرائه، لا تصدر عن رغبة في خير الناس وصالحهم، وإنما رائدهم من ورائها المظهر الكاذب، والمنفعة الشخصية. فإذا مهد طريق فلمنفعة أمير أو وزير، وإذا شقت ترعة فلمصحة إقطاعي أو ذي نفوذ، أما مصلحة الشعب ومنفعته فليستا محل تقدير أو تفكير.

وشيد بميدان التحرير مسجد أقيم إحياءً لذكرى بطل من أبطال الكرامة والاستقلال، ذلكم هو الشهيد السيد عمر مكرم. وأقيم أيضا على أرض هذا الميدان مبانٍ جديدة لوزارة الإرشاد القومي، والإذاعة المصرية، وبلدية القاهرة، وفندق ضخم، ومبنى لجامعة الدول العربية، وبذلك أصبح هذا الميدان من أجمل الميادين في عواصم الشرق الأوسط، بل وفي عواصم أوروبا وأمريكا.

مداخل القاهرة:

وأمر آخر كان يحتاج إلى علاج سريع، وحل حاسم، ذلك هو مداخل القاهرة، فقد حُلَّت هذه المشكلة التي طال عليها الأمد حلا موفقا ناجعا. فأنشئت للقاهرة أربعة مداخل في وقت واحد، هي:

أولا– مدخل طريق الكورنيش: ويبتدئ من نقطة مرور الباسوسية، الواقعة عند التقاء طريق مصر– الإسكندرية الزراعي فترعة الإسماعيلية، فروض الفرج، فشبرا، فكوبري أبي العلاء، فكوبري قصر النيل، فداخل القاهرة.

ثانيا– المدخل المحاذي للسكة الحديد: والذي يصل بين محطة شبرا ونفق السبتية، وسيخصص للنقل السريع إلى وسط المدينة. وقد اقتضى إنشاؤه هدم العشش الواقعة على جانبي الخط الحديدي، في أثناء قدومه إلى القاهرة، والتي كانت وصمة عار في جبين العاصمة، لمواجهتها كل زائر للبلاد عند وصوله إلى حاضرة البلاد.

ثالثا– طريق ترعة غمرة المردومة: ويبدأ من محطة مجاري الأميرية على ترعة الإسماعيلية، وينتهي بشارع الخليج المصري. وقد أصاب هذا الطريق هدفين، أولهما: تيسير حركة النقل السريع، وثانيهما التخلص من ترعة غمرة الملغاة، ذات المياه الراكدة والتي كانت قائمة في وسط المساكن، وتساعد على انتشار الأمراض. وقد أمكن بعد ردمها خلق منطقة صناعية جديدة، على أرض مساحتها حوالي ٤٠٠ ألف متر مربع، لها طريق خاص.

رابعا– طريق جسر ترعة الإسماعيلية: ويسير على الجسر الأيمن لترعة الإسماعيلية بعرض ٢٨ مترا، ويبدأ من فم ترعة الإسماعيلية عند طريق الكورنيش حتى يصل إلى كوبري مسطرد، بطريق المعاهدة، ومنه إلى مصر الجديدة. ويربط هذا الطريق جميع المداخل البحرية الأربعة بعضها ببعض.

وقد تبع إنشاء هذه المداخل أعمال أخرى كثيرة، مرتبطة بها، حتى يسهل على الناس والسيارات والمركبات الوصول إلى داخل القاهرة في سهولة ويسر وأمان، من تلك الأعمال:

١- إنشاء كوبري علوي ثابت طوله ٤٠٠ متر، ليصل طريق الكورنيش على جانبي ترعة الإسماعيلية، وإنشاء كوبري آخر على نفس الترعة طوله ٥٠٠ مترا، ليصل المدخل المحاذي لخط السكة الحديد على جانبي الترعة.

٢- هدم العشش القذرة، الموجودة في الناحية البحرية من مدخل المدينة، والتي كانت تواجه القادمين إلى القاهرة بالسيارات.

٣- إنشاء محطة نهائية لوقوف أتوبيسات وجه بحري القادمة إلى القاهرة، دون دخولها المدينة، ولوقوف ترام شبرا والأتوبيسات القادمة من القاهرة، ومصر الجديدة إلى شبرا، وتتسع هذه المحطة لوقوف أكثر من ٤٠ أتوبيسا.

٤- مد شارع الترعة البولاقي ليصل إلى محطة شبرا. وقد اقتضى هذا المشروع ردم الترعة البولاقية التي تقع في وسط المساكن.

٥ - توسيع شارع شبرا الحالي إلى ٤٠ مترا، ابتداءً من محطة سكة حديد شبرا إلى دوران روض الفرج، ونقل الترام إلى وسط الطريق، وحصره بين جانبين أحدهما للذهاب والآخر للإياب. وذلك لعدم إمكان الاستغناء عن هذا الشارع، حتى بعد إنشاء مداخل القاهرة.

شوارع القاهرة:

أما إصلاح شوارع القاهرة، فكان مجهود الوزير عبد اللطيف البغدادي في هذه الناحية مثارا للإعجاب والدهشة. كما اتسم هذا المجهود بالسرعة الفائقة، والتنفيذ العاجل، والدراسة الدقيقة، والتفكير السليم. لذلك أصابت هذه الإصلاحات الهدف المطلوب، وحققت نفعا أكيدا، ومصلحة عامة، كانت تتطلبها القاهرة منذ أمد طويل.

وقد كان من أظهر عيوب شوارع القاهرة: ضيقها، والتواؤها، وعدم استقامتها، واكتظاظها بالمارة، واندساس عربات الترام، الكريهة المنظر، البطيئة السرعة، بينهم، تدهم هذا، وتقتل ذلك، وتصطدم بالسيارات وعربات النقل، فتضطرب المواصلات، وتتعطل مصالح الناس. وقد علت الشكوى من هذه الفوضى، وسوء الحال. ولم تكن الحكومات

السابقة لتحرك ساكنا. وكل ما كانت تفعله أن تنفق الوقت في الدرس والبحث واستدعاء الخبراء، فإذا جاء دور التنفيذ تعللت بقلة المال، وضرورة الانتظار، حتى يغير الله من حال إلى حال. فتوضع المشروعات على الرف، أو في أدراج الوزراء، ليعفي عليها النسيان. فلما جاءت الثورة، استخرجت هذه المشروعات من غياهب السجن، وتعهدت بالتنفيذ السريع ما كان منها مدروسا وصالحا للتنفيذ، وابتكرت كثيرا مما كان يتطلبه تقدم القاهرة ورقيها، ولم يستطع الروتين الحكومي أو شركات الاحتكار الصمود في وجه الثورة، أو عرقلة شيء من مشروعاتها.

لذلك سارع البغدادي بنزع قضبان الترام من شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا)، ومن الثلث البحري لشارع عماد الدين، ومن شارع نهضة مصر (الملكة سابقا)، وشارع عبد العزيز، وحولت خطوط الترام التي كانت تسير بهذه الشوارع إلى شارع الجلاء وشارع القلعة. وقسم شارعي ٢٦ يوليو، ونهضة مصر إلى قسمين: قسم للذهاب وآخر للإياب، كما أعيد رصفهما وتنسيقهما، وأضيئا بالأنوار بالساطعة في الليل. ومد شارع ٢٦ يوليو كي يخترق حديقة الأزبكية، ولكي يتصل رأسا بميدان العتبة. وقد بدأ هذا الشارع رصفه وتنسيقه، وهو من أهم الشوارع التجارية بالقاهرة، نظيفا، جميلا، هادئا، منظما، تتلألأ الأنوار الساطعة فيه ليلا، فيخيل إليك أنك لست في الليل، وإنما في رابعة النهار.

شارع الخليج المصري (شارع بورسعيد الحالي) [١]

كان شارع الخليج المصري يمثل إهمال الحكومات السابقة وإخلال شركات الاحتكار بتعهداتها، واهتمامها باستنزاف أموال الشعب دون رعاية خيره.

فقد كانت شركة الترام قد قطعت على نفسها عهدا عندما استخلصت من الحكومة المصرية امتياز مد خطوطها على هذا الشارع، أن تملأه نورا وضياء بالليل، ولكنها ملأته ظلاما وقتاما. فأصبح المرء لا يجرؤ على السير فيها منفردا، وإلا دهمه اللصوص وقطاع الطرق. هذا فضلا عن التوائه وانثنائه كأنه ثعبان الكوبرا، وقيام الخرائب والمنازل المتداعية على جانبيه، وكان يضيق بعربتي ترام تسيران جنبا إلى جنب.

وكانت الحكومات السابقة قد شمرت عن ساعد الجد، ووسعت شارع الخليج فيما بين

ميدان السيدة زينب، وميدان أحمد ماهر. وقد قضت في توسيع هذه المسافة أكثر من عشر سنوات. وبقي القسم الثاني الممتد من ميدان أحمد ماهر حتى غمرة كما هو إلى أن جاءت الثورة، فأولت الأمر كل عنايتها، فأنجز في عامين اثنين أضعاف ما أنجزته حكومات ما قبل الثورة في عشرات السنين.

وقد كان إنشاء مدخل القاهرة من جهة غمرة، حافزا للبغدادي أن يسارع بتوسيع شارع الخليج للإفادة منه، كأحد الطرق الرئيسية الموصلة بين مداخل القارة وطرفها الجنوبي. وقد واجه في سبيل تنفيذ المشروع صعابا جمة، منها هدم سوق الجمالية، بشارع بين الصورين، ذلك السوق التاريخي القديم، الذي تتركز فيه تجارة الجملة للبقالة والعطارة، وأنواع أخرى من السلع منذ مئات السنين.

وبدأ التوسع من الجنوب إلى الشمال، فهدمت الخرائب والمباني المتداعية، التي تقوم على جانبيه، والتي كانت تحول دون الهواء وضوء الشمس من أن ينفذا إلى الأحياء المجاورة له، والتي عاش أهلها أجيالا طويلة محرومين منهما. وأزيل سوق بين الصورين، وأعيد إنشاؤه على قطعة أرض فسيحة، على مقربة من السوق القديم، تطل على شارع الخليج الجديد. وقد أصبح شارع الخليج اليوم من أهم شوارع القاهرة وأفخمها، وميادينه من أجمل ميادين القاهرة وأعمرها. وكان سند هذا العمل الرائع، الذي يستثير كل إعجاب وإكبار، التفاني والجلد والإخلاص.

ويجري الآن توسيع شارع السد في حي السيدة زينب، ليكون امتدادا لشارع الخليج من ناحية الجنوب حتى فم الخليج، وبذلك يصبح أطول شوارع القاهرة، وبواسطته يمكن اختراق المدينة من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها في سهولة ويسر، وفي أقل وقت ممكن.

ومن الشوارع الأخرى، التي تناولها الإصلاح والتجديد الشوارع الآتية:

١ - شارع التحرير (الخديو إسماعيل سابقا): وسع هذا الشارع ابتداء من ميدان كوبري الجلاء إلى خط سكة حديد الوجه القبلي ببولاق التكرور. وقسم إلى قسمين: أحدهما للسيارات الذاهبة والآخر للآيبة.

وقد كسي الجزء الأوسط من أوله حتى نهايته ببساط سندسي أخضر، يسر الناظرين. وأضيء ليلا بالأنوار الكهربية القوية، وإنك لتستطيع أن تقدر فائدة هذا العمل الجليل، إذا أنت ركبت سيارة، وسرت بها من أول هذا الشارع إلى آخره، في مساء يوم من أيام الصيف، فإنك تجد جميع سكان قرية الدقي وما جاورها من القرى، وقد غادروا بيوتهم وأكواخهم، وهرعوا إلى هذا المتنزه الجميل، يفترشون بساطه السندسي، ويستنشقون ريح الطياب التي ترطب أنفاسهم، وتنعش أرواحهم، وكأني بكل خلجة من خلجات نفوسهم، تدعو للثورة ورجالها المصلحين.

٢ - شارع الدقي: وتفرع عن توسيع شارع التحرير بالدقي، توسيع شارع الدقي نفسه، ابتداء من ميدان الدقي حتى حديقة الأورمان، وقسمته أيضا قسمين: للذهاب وللإياب.

٣ - طريق السيالة بالروضة: وتم إنشاء طريق بالروضة، يصل بين قصر مُحَّد علي، وقصر المانسترلي.

٤ - ومد شارع سيدي إسماعيل الإمبابي، حتى يصل شارع النيل بإمبابة إلى مدينتي العمال بإمبابة والأوقاف بالدقي.

٥ - شارع ابن الحكم: وتم توسيع شارع ابن الحكم الموصل بين المطرية ومصر الجديدة.

٦ - شارع دوبريه: وتم إنقاذ شارع دوبريه ليتصل بشارع الجمهورية.

٧ - الطريق بين مطار القاهرة الدولية ونفق العباسية: وقد عدل هذا الطريق، فمنع الترام الأبيض من المرور به، وقصر على تسيير الأوتوبيس، وخصص جانب للذهاب، والآخر للإياب. وأنشئ شريط من الحدائق في وسط الشارع، تتخلله نافورات على مسافات متقاربة، هذا مع رصف الطريق بأكمله.

٨ -طريق المعاهدة: وتم رصف شارع المعاهدة بعد توسيعه، ابتداء من أول كوبري مسطرد حتى ميدان المطرية.

٩ - طريق النزهة: وأنشئ على شاطئ النيل الغربي، بمحاذاة حديقتي الفردوس والنهر، طريق

جميل لمن يريدون النزهة سيرا على الأقدام، والتمتع بالخضرة والماء ووجه الطبيعة الجميل عند شروق الشمس أو غروبها. ويمتد هذا الطريق الشاعري من كوبري قصر النيل حتى كوبري أبي العلاء.

١٠ - وأنشئ طريق من فم الخليج ليوصل شارع القصر العيني بشارع السيدة عائشة في حي الخليفة، ومنه إلى القلعة، ولم يكن ثمت قبل إنشاء هذا الشرع طريق يوصل رأسا بين الجيزة وفم الخليج وبين القلعة، اللهم إلا باختراق ميدان السيدة زينب، لذلك يعد الطريق الجديد من أجل المشروعات وأنفعها.

وفضلا عن ذلك فقد رصف عدد لا يحصى من الشوارع في وسط القاهرة وضواحيها، فاستوت، وانبسطت، وأصبح لا نقر بها ولا حفر، تسير المركبات بها في سهولة ويسر، وبلطت أفاريزها بالبلاط الجميل، وقام على نظافتها عمال مجهزون بمكانس ميكانيكية، استحضرتها بلدية القاهرة حديثا.

إنشاء أحياء جديدة

حي الفوالة:

كان هذا الحي وصمة في جبين القاهرة، إذ يتكون من عشش ومبان متداعية، وحارات وأزقة قذرة، ضيقة، يفترشها باعة الخضر والفواكه والدجاج والأسماك، الذين يخلفون وراءهم أكواما من القمامة والفضلات، تنفث في جو هذا الحي الروائح الكريهة، وتبرز الحوانيت بضائعها في عرض الطريق مما يجعل السير فيه متعذرا.

ولو كان هذا الحي قائما في أحد أطراف المدينة لهان الأمر، ولكنه يقع في بقعة يحيط بها أجمل شوارع القاهرة، كشارع قصر النيل، وميدان مصطفى كامل، وشارع محمد فريد (عماد الدين سابقا)، وشارع رشدي، وأحفلها بالنشاط الاقتصادي والتجاري، وتوجد بها كثير من المصارف الهامة كالبنك الأهلي وبنك مصر، والبنك العربي، وبنك الجمهورية، كما توجد بها الأبنية الشامخة والعمارات الفخمة.

لذلك لم يكن غريبا أن يسارع الوزير البغدادي في هدم هذا الحي، وإزالة مبانيه المتداعية، وعششه الخلقة، وإعادة تخطيطه تخطيطا حديثا، يتفق وأهمية الشوارع المحيطة به، والمباني الفخمة التي تجاوره. وعما قريب يصبح حي الفوالة الجديد ثمرة شهية من ثمرات الثورة، التي ينشرح لها الصدر، وتبتهج لرؤيتها العين.

كيمان زينهم:

وهذه الكيمان قد طال عليها الأمد، فهي بقايا من مدينتي العسكر القديمة والقطائع، اللتين تدخلتا بعضهما في بعض، ثم تخربتا هما والفسطاط، بعد الحريق الذي أمر به شاور سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩م). فقد ظلت هذه الكيمان قائمة حوالي ثمانية قرون، وتتوالى الدول والحكومات، لا يفكر أحد منها في إزالتها، وتخليص البلاد من منظرها الكريه، وما يسببه وجودها من أذى وضرر: فهي تزداد حجما يوما بعد يوم، بما يتراكم عليها من أتربة وبقايا، حتى صارت معينا للأقذار، ووكرا للصوص، وقطاع الطرق، ومباءة لأهل الرجس والفساد، يحتمون في جحورها من أعين رجال الحفظ والأمن، ويعتصمون فيها من يد العدالة والقانون. هذا فضلا عن أن إزالتها تفسح في رقعة القاهرة، وتزيد من مساحتها، وتحل أزمة المساكن، التي تفاقمت وتعقدت، حتى غدت أعقد من ذنب الضب.

ظلت هذه الكيمان قائمة كالوتد، لا تقوى حكومة من حكومات العهود الغابرة على مسها بأذى، بل ولا تعيرها التفاتا إلى أن جاءت حكومة الثورة، التي بثت روح التضحية والإيثار في نفوس الشباب، فسارعت جموعهم، تحدوهم الرغبة في تجميل مدينتهم، وأعملوا سواعدهم الفتية في إزالة تلك الكيمان، وتسوية الأرض، وشق الطرق فيها. وكم كان جميلا، وباعثا على السرور، أن ترى الشبان وهم يهوون بفؤوسهم على الأحجار فيزعزعونها، ويقتلعونها من أماكنها، ويحملونها على ظهورهم وأكتافهم إلى أماكن أخرى، ويدفعون عربات صغيرة، محملة بالأتربة والحصى إلى الأماكن المنخفضة ليسووها. ألا بارك الله في الشباب، الذي يبذل الروح والنفس والقوة في سبيل رفاهية الوطن، وإعلاء قدره.

وقد أمدت الحكومة المدينة الجديدة بالمياه والكهرباء، وشيدت مساكن شعبية بلغت

ألف مسكن، لذوي الدخل المحدود، الذين أضرت بهم مشكلة المساكن ضررا بليغا، كما شيدت ألف مسكن أخرى، بنهاية الترعة البولاقية، للأسر التي زالت مساكنهم في الأحياء التي هدمت، والشوارع التي وسعت، وألفين بمنطقة القبة. وستؤجر جميعها بأجور مخفضة، حتى يتوفر لشاغليها السكن الصحي الملائم، بأجر مخفض. وهكذا تكون حكومة الثورة قد تغلبت على مشكلة المساكن، التي كانت تبدو عسيرة الحل، بطريقة عملية، مزدوجة النجاح.

تلال المقطم:

وهذه تلال المقطم، الرابضة في مكانها منذ فجر التاريخ، والتي كانت تقف حائلا دون نمو القاهرة وامتدادها من جهة الشرق، قد طأطأت الرأس للثورة، واستجابت لدعوتها في التخلي عن مكانها، لتسهم في توسيع رقعة العاصمة، وتمهيد السبيل أمامها، للزحف شرقا.

وتقع هذه التلال، كما هو معلوم، شرقي مدينة القاهرة، ومتوسط ارتفاعها عن مستوى سطح البحر حوالي ١٨٠ متراً. وتتكون من صخور جيرية. وقد وطد الوزير الثائر العزم على إزالة هذه التلال، وتحول الهضاب إلى منطقة سكنية، وبقعة سياحية، إذ إن ارتفاعها يكسب هواءها جودة ونقاء، لا يتيسران لهواء أية منطقة أخرى، هذا فضلا عن تمكين قاصديها من استجلاء مفاتن القاهرة وآثارها من ذلك الارتفاع.

وسينفذ المشروع على مراحل، تستغرق كل مرحلة حوالي خمس سنوات.

وقد أعد التقسيم الأول، وهو عبارة عن ثلاث هضاب هي: هضاب القلعة والأهرام والزهراء، وبدئ فعلا في تنفيذ مشروع تقسيم هضبة الأهرام، التي ترتفع عن مستوى سطح البحر بمقدار مائتي متر، وأزيلت صخورها لتمهيد الأرض، ورصفت الشوارع، وشيد كثير من المنازل، وجلب الطمي، وملئت به مساحات واسعة من الفجوات الرخوة في الهضاب، وغرست فيها الأشجار، ونسقت الحدائق، ووضعت المشروعات لمدها بالمياه ونور الكهرباء.

ويسير العمل قدما في تنفيذ مشروع الكازينو العالمي، وكذلك الفندق والنادي الليلي، وذلك في مبنى واحد مساحته أربعة آلاف متر مربع.

ولأول مرة سيدخل التلفريك أو المركبات الطائرة إلى القاهرة، حيث يستخدم في نقل

الناس من قلب القاهرة إلى منطقة المقطم. وقد أعدت لهذا الغرض الآلات والمركبات وهياكل الأعمدة المصنوعة من الصلب.

وستبنى محطة القيام في حديقة الأزبكية، لتسير منها المركبات في خط مزدوج مستقيم وعلى ارتفاع حوالي ٢٠ مترًا، مخترقة شارع الأزهر حيث يمكن النزول في محطة خاصة، ومنها تسير المركبات في خط مفرد دائري، وتمر بمحطات هضبات المقطم ثم تعود إلى حديقة الأزبكية، وسيتم تشغيل التلفريك قبل نهاية عام ١٩٥٨.[٢]

وهكذا تثبت الثورة مرة أخرى أنها لا تعترف بكلمة مستحيل، وأنها قد محت هذه الكلمة من قاموسها. إذ من كان يصدق أن تتزحزح تلال المقطم من مكانها الذي تثبت فيه آلاف السنين؟!

إستاد القاهرة:

وكان نقصا معيبا ألا يكون للقاهرة إستاد، يتفق ومكانة مصر العالمية في الرياضة، أسوة بمدن العالم الكبرى، لكي تجري فيه المباريات الدولية، ولكي يجتمع فيه شباب مصر، يعرضون فيه نشاطهم الرياضي، وينشدون أناشيدهم الحماسية، ويتسع لأكبر عدد من المصريين، ليشاهدوا الاستعراضات الرياضية والعسكرية، والاجتماعات الشعبية، في الظروف الوطنية، والمناسبات التاريخية.

ولقد كان إستاد القاهرة من أهم الموضوعات التي عنيت بها حكومة الثورة، لاتصالها بتربية الشباب التربية الرياضية، ولاتصالها بعزة البلاد القومية. فعزمت على إنشاء مدينة جديدة، يقام بوسطها الإستاد المنشود.

فوقع الاختيار على الفضاء العظيم، الواقع بين العباسية ومصر الجديدة. لتنشأ فيه مدينة «نصر«، وليقام في وسطها إستاد يتسع لمائة ألف شخص من المتفرجين، ولخمسين ألفا من المشتركين في المهرجانات. وقد روعي في تخطيط المنطقة أن تسمح بانصراف هذا العدد الكبير من الأشخاص، بعد الانتهاء من العرض في هدوء ونظام، وفي دقائق معدودات.

ولهذا أعيد تخطيط طرق المواصلات المختلفة، خارج هذه المدينة، وربطها بشبكة الطرق المحيطة بها، كما روعي أن تكون مدينة نموذجية رائعة، تحيط بها الحدائق الجميلة، بالإضافة إلى مناظر الجبل الأحمر الخلابة، كما ستتخللها النافورات البديعة، والآثار الفرعونية المختلفة، لتكون أيضا متنزها للشعب، يقصد إليه المواطنون للترويح عن النفس، في غير أوقات المباريات(٣).

وسيتكلف إنشاء المدينة، وإقامة الإستاد والملاعب الأخرى المتفرعة عنه، والمباني الكثيرة التي ستلحق به خمسة ملايين من الجنيهات. وقد بدئ فعلا في تنفيذ المرحلة الأولى منها هذا العام. والمأمول أن تتم، وتصبح حقيقة واقعة سنة ١٩٦٢، حيث تقام فيها الاحتفالات بمرور عشرة أعوام على الثورة المباركة إن شاء الله.

كوبري الجامعة:

ولتسهيل انتقال طلاب جامعة القاهرة من قلب المدينة إلى الجامعة وبالعكس، وتوفيرا لوقتهم الذي ينفقونه في الدوران حول منيل الروضة والجزيرة والجيزة، للوصول إلى جامعتهم، وتخفيفا لضغط المواصلات على الكباري والشوارع الموصلة للجامعة، أنشأت حكومة الثورة كوبري الجامعة العلوي، وهو أطول كوبري بالقاهرة، إذ يبلغ طوله ٥٠٠ متر، وطول مدخليه ٣٠٠ متر، وعرضه ٣٠ متراً، وقد تكلف مليون جنيه، وهو كوبري علوي ثابت، لا يفتح أو يقفل لأغراض الملاحة، ومع ذلك يسمح للمراكب بأن تسير من تحته، مقام على سبع دعامات، ذات فتحات مختلفة الأبعاد.

ويصل هذا الكوبري بين شارع قصر العيني بالقاهرة، وشارع الجامعة بالجيزة رأسا، إذ إن مدخله الشرقي يقع على امتداد شارع الأمير السابق مُحَّد علي بالمنيل، مارا فوق طريق كورنيش جزيرة المنيل، الواقع خلف مستشفى المنيل الجديد. ويقع مدخل الكوبري الغربي على امتداد شارع الجامعة بالجيزة، مارا فوق شارع النيل.

وبإتمام هذا الكوبري أصبح ميسورا للراجلين من طلبة كليات جامعة القاهرة وغيرهم الوصول من شارع قصر العيني إلى الجيزة، في فترة لا تزيد على عشر دقائق. كما يعمل هذا

الكوبري على تخفيف الضغط عن باقي الكباري بالعاصمة، ويساعد على تنظيم حركة المرور. وقد تمَّ بناؤه وأعد للمرور في مايو سنة ١٩٥٨.

وقد استتبع إنشاء هذا الكوبري، وإعداد مداخله، إعادة تخطيط عزبة المنيل القديم، التي تطل على المدخل الشرقي للكوبري، وتقسيمها للبناء بشروط معينة، وهدم الفيللا المقامة على شارع المنيل بالجيزة، والتي كانت تعترض المدخل الغربي للكوبري.

تحسين طرق المواصلات:

لا ريب أن شق الشوارع الجديدة كان خطوة موفقة نحو تحسين المواصلات في القاهرة. وقد أعقب هذه الخطوة، تحويل خطوط الترام إلى أطراف المدينة. ومصر هي الدولة الوحيدة من بين دول العالم المتمدين، التي ما زالت تستخدم هذا الترام العتيق، حتى اليوم. وقد استبدلت به الدول الأخرى التروللي باس. وقد شرعت مصر في اتخاذ العدة لتسيير التروللي باس في بعض شوارع القاهرة، تمهيدا لتعميمه في جميع الشوارع في المستقبل القريب. لذا طرحت البلدية، مناقصة في الأسواق العالمية لهذا الغرض. وبالتدريج سيحل التروللي باس محل هذا الترام، الذي أصبح لا يتفق وجلال النهضة الحديثة في مصر.

وقد تخلصت الحكومة من شركات الأتوبيس القديمة، التي كانت تستنزف أموال الجمهور، دون مراعاة صالحه، إذ كانت سياراتها هالكة، لا تعمد إلى تجديدها أو إصلاحها، وأحلت محلها سيارات جديدة فاخرة مريحة، نيفت على ٧٠٠ سيارة، ربطت جميع أطراف المدينة بعضها ببعض، فصار سكانها يتنقلون من مكان إلى مكان في سهولة ويسر، وفي وقعت معقول، في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار.

كذلك تم تسيير أكثر من ٣٠٠ سيارة أجرة جديدة، من أحدث طراز. وبهذا تحسنت المواصلات في القاهرة تحسنا ملموسا، وحُلَّت مشكلة أخرى من المشكلات التي كانت تقلق بال السكان، وتقض مضاجعهم، وتؤثر في حياتهم اليومية أسوأ تأثير.

وفضلا عن تسهيل شارع الكورنيش الانتقال إلى ضاحيتي حلوان والمعادي، في وقت قصير، فقد تمت أخيرا كهربة سكة حديد حلوان، وانتظمت القطارات الذاهبة إليها،

وقصرت المدة إلى حول النصف للقاطنين بهاتين الضاحيتين.

المدارس والمساجد المنشأة حديثا

المدارس:

وصلت المدارس إلى قبيل قيام الثورة إلى حالة يرثى لها. فلقد ازدحمت بالتلاميذ ازدحاما يعوق السير بالتعليم السير المنشود، واكتظت الفصول الناشئة اكتظاظا يحول بين المدرسين وأداء واجبهم على الوجه المرضي.

وانحصر واجب المدرسين في فرض المدرسين على حشود التلاميذ، الذين تجمعوا في الأبنية العتيقة، التي كان يطلق عليها ظلما اسم المدارس.

وصار قبول تلاميذ جدد، في مفتتح كل عام دراسي من المشاكل التي تواجهها وزارة التربية والتعليم كل عام، ولكنها لا تستطيع لها حلا. وكل ما كانت تستطيع عمله هو مضاعفة عدد التلاميذ في الفصول، وعدم ترك مرفق من مرافق المدرسة، دون تحويله إلى فصول، مثل دورات المياه، والردهات، والمطاعم. بل وأقيمت أكشاك خشبية في الأفنية لتكون فصولا. ومع هذا فلم يُجد كل ذلك في حل مشكلة قبول التلاميذ.

والغريب أن تعلن الحكومات المتعاقبة كل عام، أنها دبرت أماكن لجميع التلاميذ، ولا يوجد تلميذ بدون مكان، إلى غير ذلك من أقوال الدعاية، التي كانت تتذرع بها لتوطيد مراكزها، ودفع النقد عنها.

والواقع أنه منذ انقضاء الحرب الأوروبية الثانية سنة ١٩٤٥م. حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢، لم تُبن مدرسة واحدة في القاهرة، وكانت الطريقة التي تتبعها وزارة التربية والتعليم، كلما وجدت حاجة إلى إنشاء مدرسة جديدة، هي استئجار المنازل، وتحويلها إلى مدارس، بأجور مرتفعة، كثيرا ما تكون الشفاعة والمحسوبية وغيرهما من الطرق التي كانت متبعة في الحكومة إذ ذاك، العامل الأول في استئجارها. ولا تفكر الحكومة في استغلال الأراضي الفضاء والخرائب، في بناء المدارس. ويصرح المسئولون في وزارة التربية بملء أفواههم أن

سياسة الاستئجار أوفر وأكثر اقتصادا من تشييد المدارس. ومعلوم أن المنزل مهما كان حظه من الفخامة، ومهما زركشت سقوفه وجدرانه، وكان له حديقة يانعة، فإنه لا يصلح حتما لأن يكون معهدا من معاهد التعليم، لأن لهذه شروطا خاصة تستلزمها طرق التربية، لا تتوفر في المنازل أو القصور، مهما كان حظها من الفخامة.

لذلك واجهت وزارة التربية والتعلم في عهد الثورة مشكلة تتطلب حلا سريعا، وعلاجا ناجعا، فعملت على إنشاء مؤسسة لأبنية التعليم، عهدت إليها بأن تنشئ بأموالها في كل سنة ٤٠٠ مدرسة خلال عشر سنوات، في جميع أنحاء الجمهورية، وبذلك يكون في تمام عشر سنوات أربعة آلاف مدرسة جديدة، يكمل بها عدد المدارس الابتدائية عشرة آلاف مدرسة، تتسع لتعليم أبناء الشعب وبناته.

وقد باشرت هذه المؤسسة عملها في جد وتفان، فأنشأت بضع مئات من المدارس الابتدائية، تصلح كل منها أن تكون بعد ساعات الدراسة، ناديا ومركزا اجتماعيا عاما. وقد خص القاهرة من تلك المدارس بضع عشرات، أنشئت في أحياء شبرا والعباسية وعابدين، والسيدة زينب، والخليفة، ومصر القديمة، والدقي، والعجوزة، والزمالك وغيرها.

والمدارس الجديدة أنموذج جيد لما يجب أن تكون عليه هندسة المدارس.

وتحمل طابعا يتفق وروح الثورة المجددة المتحررة. فهي فضلا عن متانة جدرانها، يتخللها النور وضوء الشمس، وتتوفر فيها أسباب الصحة.

وتستكمل جميع المرافق اللازمة للمدرسة كي تؤدي رسالتها على الوجه الأكمل، ولتكون مركزا للإشعاع في الحي الذي تقوم فيه، إذ إن أفنيتها الواسعة تكفل لأهل الحي أن يجتمعوا بهيئة التدريس في المدرسة لدراسة مشاكل أبنائهم وبناتهم، وللاستماع إلى محاضرات عامة توسع من ثقافة أهل الحي، ولحضور الحفلات التي تقيمها المدرسة، كي يقف أولياء الأمور على مدى نشاط أبنائهم في النواحي الاجتماعية والثقافية والرياضية.

المساجد:

وقد كانت بعض الأحياء خالية من المساجد، فيضطر سكانها لإقامة الصلاة على قطع

من الأرض الفضاء، يسورونها بما تيسر من البوص والغاب وقطع الأخشاب والأحجار.

لذلك سارعت وزارة الأوقاف إلى سد هذا النقص، وشيدت في كل حي من تلك الأحياء مسجدا، بسيط المظهر، ولكنه جميل في محتوياته وأثاثه وزخارفه: أحدها في الروضة، وثانيها في الدقي، وثالث بالزمالك. ورابع بمنتصف شارع النزهة، المحاذي لحديقتي الأندلس والنهر، وخامس بميدان التحرير، تخليدا لذكرى زعيم المقاومة الشعبية، والكرامة الوطنية المرحوم السيد عمر مكرم.

وحرصت وزارة الأوقاف على أن تكون هذه المساجد بيوتا للعبادة، ودورا للتثقيف الديني. فزودتها بمكتبات تجمع بعض الكتب الدينية، من مصاحف وكتب التفسير والفقه، ورتبت فيها دروسا دينية، يلقيها بعض علماء الدين.

وألحقت بهذه المساجد مظلات جميل، حتى لا يصلي الناس على الأفاريز، وفي عرض الطريق، إذا ما ضاق بهم المسجد، وإنما يصلون تحت هذه المظلات، التي تحميهم من وهج الشمس صيفا، ومن المطر شتاء.

المباني المجمعة:

ويشاهد زائر القاهرة اليوم مباني، غاية في الضخامة والمتانة والارتفاع، لا عهد لها بها، يشبه الواحد منها قصر التيه أو اللابيرانت الذي بناه أمنمحيت الثالث، عند هوارة في الفيوم، بل إنه يشبه قلعة ضخمة أو مدينة عظيمة.

وهذه المباني المجمعة على نوعين: أحدهما حكومي، يضم عددا كبيرا من مصالح الحكومة وفروعها، كمبنى المجمع بميدان التحرير، ومبنى وزارة الصحة بشارع مجلس الأمة، ونوع ثان قامت بتشييده وزارة الأوقاف، إسهاما منها في تفريج أزمة السكن، واستثمارا لأراضيها الفسيحة، واستغلالا لأموالها المدخرة، في المشروعات الوطنية النافعة. فأنشأت مجمعين عظيمين بحي الدقي.

وقد أعدت مشروعات لإنشاء مجمعات أخرى، تكون بمثابة مدن مستقلة، لما يتوافر فيها من أنواع الحياة ووسائلها، من أسواق وشركات ومصارف ومكاتب وغيرها. وأول هذه

المشروعات مدينة العتبة والآخر عمارات شبرد.

وأنشأت وزارة الأوقاف أيضا عددا من العمارات السكنية الحديثة، في أحياء مختلفة من مدينة القاهرة، لكي ينتفع بها المواطنون على اختلاف طبقاتهم، فزادت من جمال القاهرة وبهائها، ولأنها بنيت مكان خربات ومبان متهدمة، كانت تؤذي النظر، ولا تسر النظر. وقد تم خلال العام الماضي والحالي من هذه العمارات:

عمارة الرفاعي بالقلعة، وعمارة بإمبابة، وثالثة بأرض النقشبندية بشارع درب الجماميز، ورابعة بجوار مدفن الشيخ بركات بجاردن سيتي، وخامسة شرقي سوق الخضر بالعتبة، وسادسة بميدان الخازندار. وهناك عمارات في دور الإعداد والتنفيذ، منها عمارة شارع ماسبيرو بالقاهرة.

ـ ٤ ـ

القاهرة مركز الحكم للجمهورية العربية المتحدة

ظلت القاهرة منذ نشأتها الأولى، حتى اليوم، أي منذ حوالي ألف عام، مقر الحكم. وهي اليوم عاصمة الجمهورية العربية المتحدة الفتية، ومركز الحكومة الاتحادية أو الهيئة التنفيذية، ومكان الهيئة التشريعية أو مجلس الأمة، ومستقر قيادة الجيش الباسل.

ونظرا لأن نظام الحكومة الحالي في الجمهورية العربية المتحدة هو النظام الجمهوري الرئاسي، أي أن رئيس الجمهورية هو رئيس الهيئة التنفيذية، أو بمعنى آخر رئيس الوزراء، فإن رئيس الجمهورية على هذا الاعتبار يقيم في القصر الجمهوري، بميدان الجمهورية أو القصر الجمهوري بالقبة، ويقيم باعتباره رئيس الهيئة التنفيذية في مبنى رئاسة مجلس الوزراء، القائم في نهاية شارع مجلس الأمة، عند التقائه بشارع القصر العيني، وأمام مبنى مجلس الأمة.

وتتألف الهيئة التنفيذية من الوزارات المختلفة. وتقع أغلبها في حي الوزارات، في المنطقة التي يحدها من شرقيها شارع نوبار (باشا)، ومن غربيها شارع القصر العيني، ومن جنوبيها

شارع المبتديان، ومن شماليها شارع الشيخ ريحان. فتوجد في هذه المنطقة وزارة الداخلية، ووزارة الصحة، ووزارة العدل، ووزارة المالية والاقتصاد، ووزارة التربية والتعليم، ووزارة الدفاع، ووزارة التجارة، ووزارة الأشغال، ووزارة المواصلات، ووزارة الشئون البلدية والقروية والتخطيط، ووزارة الشئون الاجتماعية، ووزارة التموين، ورئاسة مجلس الوزراء.

وتوجد الوزارات الأخرى خارج هذه المنطقة: فتقع وزارة الزراعة في حي الدقي بالجيزة، وكذلك وزارة الصناعة إذ تقع بشارع التحرير بالقرب من كوبري التحرير (الكوبري الإنجليزي سابقا)، ووزارة الإرشاد القومي، واللجنة العليا للإصلاح الزراعي في القصر الجمهوري، ووزارة الخارجية بميدان التحرير بالقرب من كوبري قصر النيل (كوبري التحرير حاليا)، ووزارة الأوقاف بشارع مُحَمَّد صبري أبو علم بالقرب من ميدان الأزهار.

ولكل من هذه الوزارات مصالح وإدارات تابعة لها، ومتفرعة عنها، منبثة في قلب المدينة أو قائمة في ضواحيها، في مبان خاصة بها. غير أن كثيرا منها يوجد بمبنى المجمع بميدان التحرير، وهو يضم عددا كبيرا من المصالح الحكومية، التابعة لوزارات مختلفة، كما يوجد بمجمع وزارة الصحة، بشارع مجلس الأمة كثير من المصالح التابعة لوزارة الصحة. وبعمارة التأمين بميدان لاظوغلي كثير من المصالح التابعة لوزارات كثيرة. وبحي الدقي والجيزة أغلب المصالح التابعة لوزارة الزراعة.

مجلس الأمة:

ويوجد مجلس الأمة بسراي وزارة الأشغال، في الناحية القبلية منها، بشارع مجلس الأمة، تجاه مبنى رئاسة مجلس الوزراء. وقد كان يجاوره مبنى مجلس الشيوخ، الذي تحول الآن، بعد أن ألغي ذلك المجلس، إلى مقر المجلس الدائم للخدمات العامة.

ثكنات الجيش المصري:

وتوجد ثكنات الجيش المصري في المنطقة الممتدة من العباسية حتى منشية البكري، وعلى طول الطريق الموصل بينهما، وعلى كل جانبيه، يبهر ناظريك، الحصون والقلاع، والثكنات والمعسكرات، تعج بالمدافع والدبابات والأسلحة المختلفة، وترى الجنود والضباط

والقواعد في حركات دائبة، ونشاط مستمر، الكل على أهبة الاستعداد، لكل طارئ مفاجئ وفي مصر الجديدة وألماظة، توجد ورش الجيش ومصانعه، وحظائر الطائرات والمطارات الحربية والمدنية، وترى أسراب الطائرات تحوم في سمائها، وتقطع سكون الفضاء بأزيزها.

وقد شيد للمدرسة الحربية أخيرا مبنى ضخم بمصر الجديدة، يتفق وروح الثورة، من حيث ضخامته واتساعه، وفخامته ومتانة بنيانه. وتوجد كلية الطيران بمدينة بلبيس، على مسيرة ساعة تقريبا من القاهرة.

جامعة الدول العربية:

ونظرا لما تعلقه الدول العربية على مصر من أهمية في إدراك أمانيها، وبلوغ أهدافها، وتمكين للقومية العربية، وإعلاء لشأن العرب، واستعادة حضارتهم القديمة، فقد اتفقت على أن يكون مقر جامعة الدول العربية والإدارات المتصلة بها بمدينة القاهرة. فيوجد مبنى الجامعة في قصر البستان بشارع يوسف الجندي بالقرب من ميدان الأزهار. كما يوجد قصر الضيافة التابع للجامعة بسراي المناسترلي بالروضة.

المؤتمر الإسلامي:

كذلك انتهى التفكير إلى ضرورة قيام هيئة تربط بين الدول الإسلامية بعضها ببعض، بصرف النظر عن جنسياتها، ودون التقيد بجامعة الدول العربية، فقامت أخيرا هيئة المؤتمر الإسلامي، وكان طبيعيا، أن يكون مقرها القاهرة، قلب العالم الإسلامي النابض، وقطب رحاه، وواسطة العقد بين هذه الدول، وساحة لقائها، وقد اتخذ المؤتمر الإسلامي مقرا له بحي الزمالك بشارع حسن صبري.

الأقسام الإدارية لمدينة القاهرة

الأقسام الإدارية، ومساحة كل قسم، وعدد السكان حسب الإحصاء العام لسنة ١٩٤٧(*)

الأقسام والشياخات	مساحة الشياخة بالكيلو متر المربع	عدد السكان	جملة عدد السكان
الأزبكية: وتشتمل على الشياخات الآتية: التوفيقية. الجيارة. الزهار. الظاهر. الفجالة. القبلية. القللي. قنطرة الدكة. كلوت بك.	١,٧٠٣	٧٥٤٢٢	
الجمالية: وتشتمل على الشياخات الآتية: البيرقدار. الجمالية. الخرنفش. الخواص. الدراسة. اللطان. برقوق. الشعراني. العطوف. الكوردي. المشهد الحسيني. اليهود الربانيين. اليهود الربانيين. اليهود القرائين. باب الفتوح. بين السورين. خان الخليلي. قايتباي. قصر الشوق.	٤,٤٦٩	١٠٧٦٩٢	
الخليفة: وتشتمل على الشياخات الآتية : الإمامين. البساتين. البقلي. التونسي. الحطابة. الحلمية. الخليفة. السيدة عائشة. الصليبة. القادرية. المحجر. درب الحصر. درب غزية. عرب اليسار.	٢٥,٤٢٠	١٢٢١٩٤	
الدرب الأحمر: ويشتمل على: الأزهر. الباطنية. الحمزاوي. الداودية. الدرب الأحمر. السروجية. العمري. الغريب. الغورية. القربية. المجاورين. المغربلين. باب الوزير. تحت الربع. حارة الروم. درب سعادة. درب شغلان. سوق السلاح.	٢,٧١٠	١٢٢٠٨٠	٤٢٧٣٨٨
السيدة زينب: ويشتمل على الشياخات الآتية: الإنشاء. البغالة. الحنفي. الدرب الجديد. السباعين.	٤,٠٥٠	١٩٢٧٠٥	٤٢٧٣٨٨

السيدة زينب. العتريس. العيني. الكبش. جاردن سيتي. خيرت. درب الجماميز. زينهم. سنقر. طولون.			
الموسكي: ويشتمل على : العشماوي. كوم الشيخ سلامة. المناصرة. درب الجنينة. درب المهابيل.	٠,٥٨٨	٣٥٩٦٣	-
الوايلي: يشتمل على الشياخات الآتية: الحدائق. الخاصة. الدمرداش. الزعفران. السرايات. السكاكيني. العباسية البحرية. العباسية الشرقية. العباسية الغربية. العباسية القبلية. القبيسي. المحمدي. الوايلي. بين الجناين. جناين الوايلية. حدائق القبة. غمة. كوبري القبة. منشية الصدر.	١٥,٧٧٨	٢٠٧٣٨٠	-
باب الشعرية: ويشتمل على الشياخات الآتية: البنهاوي. الجامع الأحمر. الرملي. الشنبكي. العوالي. الطمار. العدوي. الفاروقية. المنسي. باب البحر. باب الشعرية. بركة الرطلي. درب الأقماعية. درب النوبي. درب مصطفى. سيدي مدين.	١,١٨٤	١٣٢٨٢٤	٩٩٦٢٦٠
بولاق: ويشتمل على الشياخات الآتية: أبو العلا. الأحمدين. الترجمان. الجلادين. الجواير. الحوتية. الخطيري. السبتية. السندبيسي. الشيخ علي. العدوية. الفرنساوي. القلاية. تاج الدول. جزيرة إمبابة. جزيرة ميت عقبة. حوض الزهور. درب الشيخ فراج. درب نصر. سنان باشا. سوق. العصر. شركس. عزبة عبد النعيم. عشش النخال. كفر الشوام. كفر الشيخ. كفر الشيخ إسماعيل. ميت عقبة. ميت كردك.	١٣,٧٠٨	٢٣٢٤٢٣	٩٩٦٢٦٠
روض الفرج: ويشتمل على الشياخات الآتية: ابن الرشيد. أسعد. ساحل روض الفرج. قصورة الشوام. المبيضة. برهام. جزيرة بدران. روض الفرج.	٤,٧٨٩	١٩٣٩٠٦	–

طوسون.			
شبرا: وتشتمل على الشياخات الآتية: الأميرية. الباد. الزاوية الحمراء. الشرابية. الشماشرجي. العزب. جسر شبرا. شريف باشا. منية السيرج.	٢٥٧١٨	٢٢٧٠٠٣	–
عابدين: وتشتمل على الشياخات الآتية: الإسماعيلية. البلاقسة. الجزيرة الجديدة. الجيزة. الخرطة الجديدة. الدقي. الدواوين. الزمالك البحرية. الزمالك القبلية. المساحة. الشيخ عبد الله. الفوالة. باب اللوق. بين السرايات. ثروت باشا. حارة السقايين. خرطة البرنسات. رحبة عابدين. عبد الرحيم صبري. عجوزة الزمالك. عجوزة الصعايدة. عجوزة الكفارورة. عزبة البرنسيسة فاطمة هانم. غيط العدة. قصر الدوبارة. محطة بولاق الدكرور. معروف.	٦,٨٠١	١٥٩٣٠٠	١,٦٤٩٥٩٢
مصر الجديدة: وتشتمل على الشياخات الآتية: البستان. الحلمية. الزيتون الشرقية. الزيتون الغربية. الزيتون القبلية. العزب. ألماظة. المطرية. المنتزه. تل الحصن. خارجة المطرية. عرب الطوايلة. عزبة النخل. عين شمس الشرقية. عين شمس الغربية. كفر فاروق. منشية البكري.	٥٥,٠٦٦	١٦٤٩١٩	–
مصر القديمة: وتشتمل على الشياخات الآتية: أبو السعود والمدابغ. أثر النبي. الأنور. الخوخة والقناية. الديورة. الروضة. الكفورة. وساعي البحر. المعادي. المنيل. دار السلام. فم الخليج. كوم غراب.	١٦,٦٤٨	١١٦٨٤٣	–
	١٧٨,٦٣٢ ك.م م	١,٦٤٩٥٩ ٢	٢,٠٩٠,٦٥٤ نسمة

(*) تعداد سكان المملكة المصرية (الجمهورية المصرية) لسنة ١٩٤٧، الجزء الأول، الكراسة رقم ١٥، محافظة القاهرة.

-٦-

القاهرة مركز الثقافة في مصر

مركز مصر الثقافي في الشرق

تسنمت مصر في القرن الحالي مركز الزعامة في المحيطين العلمي والثقافي، في الشرق عامة، والعالم الإسلامي خاصة، عن جدارة واستحقاق، بما أنجبت من علماء ومفكرين وكتاب وأدباء وشعراء وفقهاء ومن رجال القانون، وما تزخر به المكتبة العربية من بحوث علمية، ورسالات أدبية، ودراسات فقهية، وموضوعات تاريخية وجغرافية وفلسفية، وقصص طويلة وقصيرة، موضوعة ومترجمة عن اللغات الأخرى، وما تخرجه المطابع المصرية من صحف ومجلات ودوريات، بلغت حدا كبيرا من الأناقة، وحسن التبويب، وغزارة المادة، وقوة الأسلوب، ووفرة ما أنشئ فيها من معاهد ثقافية وجمعيات علمية، ومحافل أدبية، ونوادٍ اجتماعية تضرب في كل فن من فنون العلم والمعرفة، وقد شاركها في هذه النهضة أعلام الثقافة ممن أنجبتهم البلاد العربية الشقيقة.

ولقد تركزت النهضة العلمية، والحركة الثقافية في القاهرة، حتى غدت بحق منار العلم، ومبعث النور في الشرق الإسلامي، منها تنتشر شمس الحضارة والعلم على ربوعه، ويفد عليها طلابه من كل حدب وصوب، يرتشفون العلم في معادها، وينهلون من معين معرفتها، ثم يعودون إلى بلادهم لينشروا ما تعلموه بين أهليهم ومواطنيهم، ذاكرين لمصر كرم ضيافتها، وحسن وفادتها، وفتحها لهم أبواب معاهدها على مصاريعها وتيسير مهمتهم بكل ما أوتيت من جهد.

جامعة القاهرة

وفي الأورمان بالجيزة، وعلى مسيرة نصف ساعة من قلب القاهرة، تقوم كالطود الشامخ جامعة القاهرة، أم الجامعات المصرية، وأكبر جامعات الشرق، بكلياتها الإحدى عشرة، على مساحة كبيرة من الأرض، وهذه الكليات هي:

١- كلية الآداب.
٢- كلية الحقوق.
٣- كلية التجارة.
٤- كلية العلوم.
٥- كلية الطب البشري.
٦- كلية الصيدلة.
٧- كلية طب الأسنان.
٨- كلية الهندسة.
٩- كلية الزراعة.
١٠- كلية الطب البيطري.
١١- كلية دار العلوم.

وتوجد جميع هذه الكليات بالأورمان، فيما عدا كلية دار العلوم التي توجد في حي المنيرة، وكليات الطب، وطب الأسنان، والصيدلة، فتوجد في القصر العيني، والمستشفيات الجامعية، وتوجد في منيل الروضة، وقسم الجغرافيا التابع لكلية الآداب وقسم الآثار فيوجدان في ميدان الرماحة، بشارع الجيزة.

وتوجد مباني كليات الحقوق والآداب والتجارة والعلوم، وكذا الإدارة العامة، والمكتبة الرئيسية على مساحة من الأرض، تبلغ أربعة وأربعين فدانًا، وتشغل مباني المستشفيات الجامعية وملحقاتها بمنيل الروضة أربعة وأربعين فدانًا أخرى[٤]، أما كليات الهندسة والزراعة والطب البيطري، فتوجد في مبان منفصلة بالجيزة، قريبة من المبنى العام.

قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة

وملحق بمبنى الإدارة العامة قاعة كبرى للحفلات والمؤتمرات الدولية، والمحاضرات العامة، مساحتها ٣١٠٦ مترا مربعا، تتسع لنحو ٣٥٠٠ شخصا، وقد أعدت إعدادا خاصا للإذاعة ولعرض الأشرطة السينمائية.

المكتبة العامة

ويوجد في حرم الجامعة مبنى المكتبة العامة، في بناء كبير مستقل، على أحدث طراز،

خلف كلية الآداب، وتشتمل على كل ما هو محفوظ في المكتبة الرئيسية، وفي المكتبات الفرعية بالكليات من الكتب المطبوعة والمخطوطة، والنشرات الدورية، والجرائد والخرائط والنماذج، والصور الحفرية والفوتوغرافية، والنقود والأنواط وأوراق البردي والأحجار الأثرية، والأشرطة السينمائية وأشرطة التسجيل ولوحات الفانوس السحري وغير ذلك.

وتزيد مجموعة الكتب التي تحويها المكتبة الرئيسية وحدها على ٢٢٥.٠٠٠ مجلد في مختلف الآداب والعلوم والفنون، باللغات الأوروبية والعربية والتركية والفارسية والأردية والحبشية وغيرها، هذا عدا مجموعات كبيرة من المجلات العلمية والمجلات ذات الصفة العامة، مثل مجلات الآداب والفنون والاجتماع.

ولما كانت جميع كليات الجامعة غير موجودة في مكان واحد، فقد أنشئت مكتبات فرعية في مختلف الكليات، بلغ عددها خمسة عشر مكتبة، وبإضافة الكتب التي توجد بالمكتبات الفرعية إلى مجموعات الكتب المحفوظة بالمكتبة الرئيسية، يبلغ المجموع أربعمائة وستة وثلاثين ألف مجلد.

المعاهد الملحقة

ويتبع بعض كليات الجامعة معاهد عالية، أهمها:

١- كلية الآداب: ويتبعها معهد الدراسات الأفريقية السودانية.

٢- كلية الحقوق: ويتبعها معهد الدراسات الأفريقية السودانية.

٣- كلية العلوم: ويتبعها معهد الدراسات الجنائية، ومعهد الدراسات الإدارية والمالية، ومعهد العلوم السياسية.

٤- كلية الطب: ويتبعها معهد القاهرة للصحة وطب البلاد الحارة والمستشفيات الجامعية بمنيل الروضة، ومدرسة المولدات والممرضات بمستشفى قصر العيني.

إستاد الجامعة

وللجامعة إستاد كبير يشتمل على ميادين وساحات للألعاب الرياضية ملحق به أبنية فخمة لاجتماع الاتحادات الرياضية، وإدارة شئونها، وهذا الإستاد والمباني الملحقة به مقام

على مساحة من الأرض تبلغ ثلاثة وأربعين فدانا، في الجهة الغربية من شارع عبد الخالق ثروت بالجيزة.

المدينة الجامعية

أنشئت هذه المدينة على اثني عشر فدانا في الإستاد الجامعي، لسكنى الطلاب الطلاب والطالبات، ممن يفدون على الجامعة من خارج القاهرة، أسوة بجامعات أوروبا الكبرى، وقد تم إلى الآن من المدينة الجامعية مبنيان وكذلك مبنى المطعم والنادي، والجامعة في سبيل إتمام بقية مباني المدينة.

مطبعة الجامعة

كانت الجامعة تعتمد في إنجاز مطبوعاتها على المطبعة الأميرية، وبعض المطابع الأهلية، حتى أواخر سنة ١٩٤٥، حيث أنشئت للجامعة مطبعة خاصة، تقوم بطبع جميع المطبوعات الإدارية بالجامعة وبقية الكليات، وكذلك الرسائل والمجلات والكتب والأبحاث العلمية.

حفائر الجامعة

تقوم كلية الآداب، بجامعة القاهرة، بدراسة عملية للكشف عن تاريخ مصر القديم، واستجلاء حقائقه، ولذلك تقوم بعثات تابعة للكلية بالحفائر في ثلاث مناطق، تمثل كل منطقة عصرا خاصا هي:

١– حفائر المعادي، وتمثل عصر ما قبل التاريخ.

٢– حفائر الأهرام، وتمثل عصر صدر التاريخ الفرعوني.

٣– حفائر تونا الجبل، وتمثل نهاية العصر الفرعوني وبداية العصر اليوناني.

وقد نجحت البعثات الثلاث في الكشف عن حقائق خطيرة، أضافت إلى تاريخ مصر القديم معلومات هامة، وما تزال تواصل عملها في صبر وأناة.

جامعة عين شمس

وفي حي العباسية، شمال شرقي القاهرة، توجد الجامعة الثانية في القاهرة، وهي جامعة عين شمس، وتشتمل على عدد من الكليات مماثل العدد الكليات في جامعة القاهرة، بنقص كليتين هما: كليتا الطب البيطري، والصيدلة، وزيادة معهدين للتربية: أحدهما للبنين، والثاني للبنات.

وتوجد الإدارة العامة لهذه الجامعة مبنى سراي الزعفران بالعباسية، كما توجد به أيضا كلية العلوم. وتوجد كليتا الحقوق والهندسة بشارع السرايات بالعباسية. وتوجد كلية الآداب بشارع شبرا، وكلية التجارة بشارع إسماعيل سري بالمنيرة، وكلية الطب مستشفى الدمرداش بشارع نهضة مصر (الملكة سابقا)، ومعهد التربية للمعلمين بشارع أمين سامي المنيرة، ومعهد التربية للمعلمات بشارع إسماعيل مُحَمَّد بالزمالك، وكلية الزراعة بمسطرد.

المعاهد العليا:

وبالإضافة إلى هاتين الجامعتين، توجد معاهد عالية أخرى، تشرف عليها وزارة التربية والتعليم مباشرة هي:

١- كلية المعلمين العليا منشية البكري. ٢- المعهد العالي للتربية الفنية للمعلمين. ٣- المعهد العالي للتربية الرياضية للمعلمين بالهرم. ٤- المعهد العالي للتدبير المنزلي والفنون للفتيات ببولاق. ٥- المعهد العالي المعلمات الموسيقى. ٦- المعهد العالي للفنون الجميلة للمعلمات ببولاق. ٧- المعهد العالي للتربية الرياضية للمعلمات بالجزيرة. ٨- المعهد العالي للخدمة الاجتماعية للفتيات بجاردن سيتي. ٩- كلية الفنون الجميلة بالزمالك. ١٠- كلية الفنون التطبيقية بالأورمان. ١١- المعهد العالي لفن التمثيل. ١٢- المعهد العالي للموسيقى. ١٣- مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة. ١٤- مدرسة الألسن بالدقي. ١٠- المعهد الثقافي العالي للبنات بالزمالك.

الجامعة الأزهرية:

وتوجد الجامعة الأزهرية التي ما زالت تؤدي رسالتها منذ عشرة قرون في شرق القاهرة،

في حي الأزهر. وتوجد الإدارة العامة في مبنى ضخم مقابل الجامع الأزهر. وفيما يلي بيان بالمعاهد والكليات التي تنظمها الجامعة الأزهرية:

١- القسم العام بالأزهر الشريف. ٢- معهد القاهرة بالدراسة. ٣- معهد البحوث الإسلامية بشارع البرموني بحي عابدين. ٤- كلية الشريعة الإسلامية بالدراسة. ٥- كلية اللغة العربية بالدراسة. ٦- كلية أصول الدين بشبرا. ٧- هذا عدا أقسام الإجازات ومعهد القراءات.

مدارس التعليم العام:

وتوجد بالقاهرة، بالإضافة إلى معاهد التعليم العالي مدارس لجميع مراحل التعليم الأخرى: ابتدائية وثانوية وفنية، وفيما يلي بيان مدارس القاهرة، علما بأنه نظرا لاتساع القاهرة في الوقت الحالي، فقد قسمت إلى منطقتين: شمالية وجنوبية[٥]، وتشرف على مدارس كل قسم إدارة تعليمية خاصة: المنطقة التعليمية للقاهرة الشمالية ومقرها بالعباسية، والمنطقة التعليمية للقاهرة الجنوبية ومقرها مبنى المجمع ميدان التحرير:

	نوع التعليم (1)	عدد المدارس	عدد الفصول	جملة التلاميذ		الجملة العامة
				بنون	بنات	
١	حضانة	٦٠	٠١٤٢	٢٩٢٧	١٨٤٤	٤٧٧١
٢	ابتدائي أميري	٢٨٦	٣٠١٥	٨١٦٠٧	٥٨٤٣٢	١٤٠٠٣٩
٣	ابتدائي حر معان	٣٥٠	٢٦٣٢	٥٩٠٥٤	٣٣٠٩٩	٩٢١٥٣
٤	ابتدائي حر غير معان	١١٣	٠٤٣٤	٩١١٨	٥١٤٦	١٤٢٦٤
٥	معاهد شواذ ومؤسسات	٢٦	٠١٣٨	١١٣١	٢١٢٦	٣٢٥٧
٦	ابتدائي رواق	٠٤	٠٠٤٢	٤٣٠	٩٩٦	١٤٢٦
٧	إعدادي أميري	٨٢	١٢٤٣	٢٧٤٢١	١٥٣٥٥	٤٢٧٧٦
٨	إعدادي حر معان	٩٨	٠٧٠٥	١٩١١٣	٩٨٧٢	٢٨٩٨٥
٩	إعدادي حر غير معان	٥٢	٠٠٩٠	١٥٤٥	٨٥	٢٣٨٠
١٠	ثانوي أميري	٣١	٠٦٦٤	١٧٠٦٥	٥٥٢٨	٢٢٥٩٣
١١	ثانوي حر معان	٢٤	٠٢٦٨	٦٣٩٠	١٤٢٣	٧٨١٣
١٢	ثانوي حر غير معان	٠٣	٠٠٢٦	٨٠٨	٢٦٨	١٠٧٦
١٣	إعدادي فني صناعي	٠٥	٠٠٩٧	٩٥٤	–	٩٥٤
١٤	إعدادي فني تجاري	٠٢	٠٠٠٨	–	٢١٦	٢١٦
١٥	ثانوي فني صناعي	٠٦	٠١٤٩	١٩١٩	–	١٩١٩
١٦	ثانوي فني تجاري	٠٦	٠٠٩٩	١٨٩٦	٥٦٣	٢٤٥٩
١٧	ثانوي فني زراعي	٠١	٠٠١٠	٢٢٠	–	٢٢٠
١٨	ثانوي فني نسوي	٠٥	٠٠٦٧	–	١٥٥٣	١٥٥٣
١٩	معلمين ومعلمات عامة	٠٨	٠١٢١	١١٢٠	٢٨٦٢	٣٩٨٢
٢٠	معلمين ومعلمات خاصة	٠١	٠٠١٥	٥٠٦	–	٥٠٦
٢١	معلمين ومعلمات فرنسية	٠٢	٠٠٢١	٤٤٩	٢١١	٦٦٠
٢٢	مدارس أجنبية	٩٣	١٣٥٠	١٧٢٧٤	٢٤٧٥٨	٤٢٠٣٢
	الجملة	١٢٤٣	١١٣٠٦	٢٥٠٩٤٧	١٦٥٠٨٧	٤١٦٠٣٤

(١) المفكرة الإحصائية للتعليم، الصادرة عن إدارة الإحصاء بوزارة التربية والتعليم المصرية، للعام الدراسي ١٩٥٥ – ١٩٥٦.

الهيئات الثقافية العلمية

وفي القاهرة عدد غير قليل من الهيئات التي تسهم في خدمة العلم والثقافة العامة، يتوفر أعضاؤها على الدرس والبحث، وتلقى فيها المحاضرات العامة، وتحتوي مكتباتها على عدد وافر من الكتب والمراجع، وتصدر النشرات والكتب والمجلات العلمية والثقافية. ونذكر هنا على سبيل المثال بعضا من تلك الهيئات:

(أ) الهيئات الثقافية:

١- الاتحاد الثقافي المصري: بشارع إلهامي، بقصر الدوبارة، بالقاهرة، ويقوم بتنظيم سلسلة من المحاضرات والمناظرات والأحاديث، يلقيها أعضاء الاتحاد أنفسهم، أو من يُدعى لذلك من رجال الفكر والعلماء.

٢- الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية: ١٠٢ شارع فاروق الأول بالعجوزة، بالقاهرة. وهي قسم من الأمانة العامة، لجامعة الدول العربية. ومن أخص واجباتها ترجمة أمهات الكتب العالمية في اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، وجمع صور للمخطوطات، وتدعيم العلاقات الأثرية بين البلاد العربية، وعقد المؤتمرات، وإقامة المعارض الثقافية.

٣ – الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية: ٨٨ شارع القصر العيني بالقاهرة. وتقوم بدراسة المسائل الاجتماعية في مصر، وإثارة اهتمام الجمهور بها، وإعداد المشتغلين بالخدمة الاجتماعية، وتدريبهم، ومن أهم مشروعاتها إنشاؤها مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة سنة ١٩٣٧، وإجراؤها تجارب لإصلاح القرية.

٤ – جمعية المعلمين: ٢ شارع عدلي باشا بالقاهرة، وتنظم موسما سنويا للمحاضرات والبحوث والمناظرات، وتدعو رجال العلم والتربية، من مصريين وأجانب، إلى إلقاء المحاضرات التي تفيد رجال التعليم والمهتمين بشئونه، وتصدر عنها مجلة، هي مجلة العلوم.

٥– جمعية المكتبات المصرية: بقصر الدوبارة. ومن أغراضها توثيق الروابط بين المشتغلين

بالمكتبات، وإفساح المجال أمامهم، لرفع مستواهم العلمي والمادي، مما يساعد على النهوض بالمكتبة إلى المستوى اللائق برسالتها في المجتمع المصري. وتصدر الجمعية نشرة باللغتين العربية والإنجليزية.

٦- رابطة التربية الحديثة: ١٣ ميدان التحرير بالقاهرة. وتعمل على النهوض بأساليب التربية، وتعتمد في تحقيق أغراضها على إلقاء المحاضرات، وإقامة المؤتمرات، وتنظيم الرحلات العلمية والأبحاث التربوية، وإصدار كتب في التربية.

٧- قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية: ١١٣ شارع القصر العيني بالقاهرة. وهدفه نشر الثقافة العامة للجمهور عامة، وتنوير الأذهان في المشكلات التي يواجهها المجتمع المصري، مستعينة بالمحاضرات العامة والسينما الثقافية، والبحوث الخاصة والكتب والنشرات.

(ب) الهيئات العلمية:

١- الأكاديمية المصرية للعلوم: بدار الحكمة: ٤٢ شارع القصر العيني بالقاهرة. وهدفها تشجيع البحوث العلمية، بكل الوسائل الممكنة، ونشر هذه البحوث في مجلة الأكاديمية.

٢- جمعية الآثار المصرية: ١١ شارع الألفي بالقاهرة. ومن أهم أغراض الجمعية إلقاء المحاضرات عن الفنون والآثار الإسلامية، والمساعدة على نشر الوثائق العلمية والمؤلفات المتعلقة بالفنون والآثار الإسلامية.

٣- جمعية الآثار القبطية: ١٠ شارع والدة باشا بالقاهرة. وتعمل على دراسة كل ما يتصل بالعصر القبطي في تاريخه ولغته وفنونه، بإلقاء المحاضرات، ونشر المؤلفات المتصلة بالآثار القبطية، والمساهمة في صيانة الآثار القبطية.

٤ - الجمعية الجغرافية المصرية: بشارع القصر العيني، بحديقة وزارة الأشغال العمومية. أنشئت في ١٩ مايو سنة ١٨٧٠ لدرس وتنشيط العلوم المتعلقة بالجغرافيا. ولا سيما جغرافية إفريقية ومصر والأقطار المجاورة لها. وتتخذ الجمعية لتحقيق أغراضها وسائل

منها: إنشاء الدروس وتنظيم المحاضرات والمناقشات، ونشر المؤلفات والرسائل، وإصدار مجلة خاصة بالجمعية، وتنظيم الرحلات في إفريقيا بقصد الارتياد والاستطلاع والدرس، وتنظيم المؤتمرات والمعارض، والاشتراك فيما يعقد منها في مصر والخارج، والاتصال بأكبر الجمعيات الجغرافية في العالم.

٥- الجمعية الرمدية المصرية: دار الحكمة. شارع قصر العيني. القاهرة. وتهدف إلى تتبع التطور العلمي والفني لطرق العلاج الحديثة. وتتعاون مع مثيلاتها من الجمعيات والهيئات الرمدية في الخارج، في إقامة المؤتمرات والاجتماعات الرمدية الدولية.

٦- جمعية الصيدلة المصرية: بدار الحكمة. شارع القصر العيني بالقاهرة. ومن أغراضها تنمية الروابط بين الصيادلة المصريين، وصيادلة البلاد العربية، وتوحيد المصطلحات العربية والسعي لسن دستور أدوية مصري، لضبط وتوحيد العقاقير ومستحضراتها.

٧- جمعية الاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع:١٦ شارع نهضة مصر بالقاهرة. وتنحصر أغراضها في الدراسة النظرية والعملية لمسائل الاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع.

٨- جمعية أوراق البردي: ٢٧ شارع المنيرة بالقاهرة: ومن أهم أهدافها تشجيع البحث العلمي في نطاق أوراق البردي، وما تكشف عنه من معلومات تتناول تاريخ مصر القديم.

٩- جمعية علم الحشرات: ١٤ شارع نهضة مصر بالقاهرة: وتقوم أبحاث خاصة بعلم الحشرات في مصر. وتحقق أغراضها عن طريق المحاضرات، وإصدار مجلة سنوية بأبحاثها في كل عام.

١٠ – جمعية الدراسات التاريخية: بمباني المعرض الزراعي بالجزيرة، وقد أنشئت لتنظيم الدراسات المتعلقة بالتاريخ وتشجيعها، وخاصة التاريخ المصري، بنشر المؤلفات والبحوث وإصدار مجلة دورية، وتنظيم المؤتمرات والمعارض، وتنظيم المحاضرات والمناقشات المتعلقة بالموضوعات التاريخية.

١١ – جمعية المهندسين المصرية: ٢٨ شارع نهضة مصر بالقاهرة. ومن أهم أغراضها ترقية الفن الهندسي. وتعني بوضع مواصفات قياسية مصرية لجميع الأعمال الهندسية، على غرار المواصفات الهندسية بالدول الكبرى. وللجمعية مكتبة بها مجموعة قيمة من الكتب والمجلات الهندسية.

١٢ – المجمع العلمي المصري: ١٧ شارع السلطان حسين بالقاهرة. وقد تأسس سنة ١٧٩٨ م عند غزو الحملة الفرنسية لمصر، في القاهرة. ثم أعيد تكوينه بالإسكندرية سنة ١٨٥٩م، ثم نقل إلى القاهرة سنة ١٨٨٠م، واستقر في داره الحالية. وفي سنة ١٩١٨ أعيد إلى المجمع اسمه القديم. وقد أخرج علماء المعهد سنة ١٨٠٩م المؤلف الضخم المعروف باسم «وصف مصر»، والذي يعتبر أهم مرجع لكل من تناول أي موضوع يهم مصر.

ويعمل المجمع الآن تحت إشراف وزارة التربية والتعليم، ويتلخص نشاطه الثقافي في تنظيم سلسلة من المحاضرات العلمية، ونشر مجلة تجمع تلك المحاضرات. وللمجمع مكتبة حافلة، يتردد عليها عدد كبير من أعضاء المجمع وأساتذة الجامعات وطلبتها.

١٣– مجمع اللغة العربية: شارع الجيزة. وأهم أغراض هذا المجمع. أن يحافظ على سلامة اللغة العربية، وأن يجعلها وافية مطالب العلوم والفنون في تقدمها. ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر. وأن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية. وأن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة، وأن يبحث كل ما من شأنه تقدم اللغة.

ويصدر المجمع مجلة لنشر ما يقره من البحوث اللغوية، والمصطلحات العلمية، والألفاظ والتراكيب التي يرى استعمالها أو تجنبها.

١٤– معهد الصحراء: بمصر الجديدة. وقد أنشئ لدراسة الصحاري دراسة علمية، ودراسة الوسائل التي تساعد على تنمية موارد الثروة الزراعية والحيوانية والمعدنية في الصحاري.

(جـ) الهيئات الفنية:

١- جمعية محبي الفنون الجميلة: شارع قصر النيل بالقاهرة. أنشئت لتشجيع الفنون، أي الرسم والحفر والتصوير والهندسة المعمارية، والتطبيق العملي للفن على وجه العموم، وتربية الذوق الفني. وذلك بإقامة معارض محلية دولية، وإلقاء محاضرات، وبطرق أخرى.

٢- معهد الموسيقى العربية: شارع نهضة مصر بالقاهرة. وفي مقدمة أغراضه نشر الموسيقى العربية وضبطها، وإيجاد بيئة راقية تضم أنصارها ومحبيها، وتوحيد جهودهم، ويكون واسطة التعاون بينهم. وقد عمل منذ إنشائه على محاربة الأغاني المبتذلة، ومساعدة كل من تبدو منهم محاولات ناجحة نحو اختراع آلة جديدة من آلات الموسيقى العربية، مساعدة مادية وأدبية، وتدوين الموشحات والأدوار القديمة بالنوتة.

وبالمعهد متحف يضم الآلات الموسيقية لمختلف الأمم والعصور، ومكتبة موسيقية جمع فيها الكثير من الكتب الموسيقية باللغة العربية واللغات الأجنبية.

(د) دور الكتب العامة:

١- دار الكتب المصرية: وتوجد في ميدان أحمد ماهر (باب الخلق سابقا)، ويوجد لها فروع في بعض أحياء القاهرة، وفي كثير من مدن الجمهورية. وبلغت ثروة الدار وفروعها في أواخر سنة **١٩٥٣** م **١٩٧٠٧**ء مجلدا، باللغات العربية والشرقية والأوروبية.

وبالدار أقسام للمخطوطات والأوراق البردية، والنقود والميداليات والأنواط، وقسم المعرض الذي يقوم بترتيب الصور الزيتية والتحف الفنية، والألواح المطبوعة، والصور الشمسية، والتعريف بها والمحافظة عليها.

وملحق بالدار مطبعة مجهزة بأحدث الآلات، لطبع الكتب التي تحققها الدار وتنشرها، كما تقوم بتجليد كتب الرصيد وترميمها. ومن الكتب التي أصدرتها: النجوم الزاهرة، وتفسير القرطبي، والأغاني، والمنهل الصافي، والفاضل والمفضول، ونهاية الأرب للنويري، والخصائص لابن جني، وأساس البلاغة للزمخشري.

٢- مكتبة التحرير بمصر الجديدة: وقد تكونت مجموعات كتبها من مكتبة المرحوم طلعت حرب (باشا)، ومن مجموعات أخرى أهديت إليها من الهيئات المختلفة. وبلغ رصيد المكتبة في نهاية عام ١٩٥٣ م ٨٢٥٣ كتابا، منها ٣٢٨٣ باللغة العربية، ٤٩٧٠ باللغات الأجنبية.

٣ - مكتبات الهيئات الحكومية: وتشتمل على مكتبات الوزارات الحكومية المختلفة. ومن أهمها: مكتبة وزارة التربية والتعليم، وقد بلغ عدد مجلدات القسم العربي بها ١٤٩١١ مجلدا، ومجلدات القسم الإفرنجي ٢٠٩١٤ مجلدا، أكثرها باللغتين الإنجليزية والفرنسية.

٤ - مكتبات الهيئات الحرة: وتشتمل على مكتبات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، والدار البطريركية الملحقة بالدار البطريركية بالقاهرة، ومعهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنكيين بشارع مصنع الطرابيش بالعباسية.

٥- مكتبات الجامعات وتشمل:

أ- المكتبة العامة بجامعة القاهرة، ومكتبات الكليات المختلفة، وقد تقدم الكلام عنها.

ب- مكتبات كليات جامعة عين شمس، وهي كليات التجارة والزراعة بشبين الكوم والعنب بالعباسية والهندسة.

جـ- مكتبات الجامعة الأزهرية، وتشتمل على مكتبة الجامع الأزهر، ومكتبة كلية الشريعة، ومكتبة كلية اللغة العربية. ويبلغ عدد الكتب مكتبة الجامع الأزهر ١١٧٢٣ كتابا في نحو مائة ألف مجلد. منها نحو ٢٢ ألف مجلد مخطوط، بينها كثير من نوادر المخطوطات.

د- مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ويبلغ مجموع ما بها الآن نحوا من ٣١٠٠٠ مجلدا، في مختلف الفنون، باللغة العربية واللغات الأجنبية.

٦- مكتبات المعاهد العليا:

أ- مكتبة كلية الفنون الجميلة: وقد بلغ رصيدها ٤٧٤٦ كتابا، معظمها باللغات الأوروبية، وهي موزعة على فنون العمارة والزخرفة والنحت والتصوير والموسيقى وغيرها.

ب - مكتبة كلية الفنون التطبيقية: وقد بلغ رصيدها من الكتب والمجلات الفنية ٣٠٠ كتابا ومجلة، باللغات العربية والأجنبية.

ج - مكتبة معهد التربية للمعلمين بالمنيرة: وبلغ رصيدها من الكتب نحوا من ٤٠٧٠٠ كتابا باللغات العربية والأجنبية، تبحث في علوم التربية والنفس.

(هـ) المتاحف:

تزدان القاهرة بعدد كبير من المتاحف، تعالج النواحي الأثرية والفنية والعلمية، ونسوق فيما يلي أمثلة من كل قسم:

المتاحف الأثرية:

١- متحف الفن الإسلامي (دار الآثار العربية سابقا): ميدان أحمد ماهر بالقاهرة، وقد تقدم ذكره في وصف القاهرة في عهد إسماعيل، ويبلغ عدد ما به من تحف ١٩٦٣٠ تحفة. ويعتبر هذا المتحف أعظم متحف إسلامي في العالم. وقد قام المتحف بحفريات في أطلال مدينة الفسطاط، فكشف عن جانب كبير منها، وعثر على آلاف التحف النفيسة. واشترك في خلال السنوات الماضية في المعارض الدولية، لتعريف القوم بما يضمه من كنوز أثرية، ولنشر الدعاية للوطن وللحضارة الإسلامية الزاهرة التي قامت على ضفاف النيل.

٢ - متحف الآثار الإسلامية بكلية الآداب: بجامعة القاهرة، ويضم نحو ألفي قطعة من الصور والخزف والسجاد والأقمشة والزجاج والأحجار والمعادن والخشب والعاج، وكلها من صناعة البلاد الإسلامية المختلفة، فيما بين القرنين الثاني والثالث عشر بعد الهجرة.

٣- متحف جاير أندرسون: بجوار جامع ابن طولون، بالقاهرة. أنشأه ميچور جاير أندرسون، ثم وهبه للحكومة المصرية. وبه مجموعات قيمة من بعض العصور الإسلامية والحديثة، وقد تقدم ذكره عند الكلام على منازل العصر العثماني.

٤ - المتحف القبطي مصر القديمة: أنشأ نواة هذا المتحف المرحوم مرقس سميكة (باشا) سنة ١٩٠٨ م، داخل أسوار حصن بابليون الروماني، بمساعدة فريق من هواة الفنون والآثار القبطية، للعمل على جمع كل أثر أو وثيقة تميط اللثام عن تاريخ مصر في العصور المسيحية. وقد ظل ملكا للبطريركية القبطية حتى سنة ١٩٣١ م، ثم ضم إلى وزارة التربية والتعليم.

وبالمتحف ٩٦٢٦ قطعة من التحف الجصية والأحجار والأقمشة والمنسوجات القبطية، والزجاج والخزف والأخشاب والمعادن، عدا قسم المخطوطات القبطية الثمينة المحلاة بزخارف جميلة. وللمتحف مكتبة بها ٥٣٠٠ مجلد منها نحو ١٠٠٠ مخطوط باللغات القبطية أو العربية أو اليونانية.

٥- المتحف المصري: ويوجد بميدان التحرير بالقاهرة. وقد بني سنة ١٩٠٠ وافتتح في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠١، وسبق ذلك جهود كبيرة في جمع الآثار المصرية التي كانت نهبا للسرقة، خصوصا من تجار العاديات الأوروبيين، وتسرب هذه الآثار إلى فرنسا وأوروبا وأمريكا.

وقد أشرف على جمع التحف مسيو ماريت بتكليف من سعيد سنة ١٨٥٨ م، ثم من إسماعيل سنة ١٨٦٣م. وكانت محفوظة بمتحف ببولاق، ثم خلف ماريت ماسبيرو، فنقلت إلى سراي الجزيرة ثم إلى المبنى الحالي بعد بنائه، حيث تعاون ماسپيرو وأحمد كمال (باشا) على تنظيم التحف وترتيبها. وهو مبني على أرض تبلغ مساحتها ١٣٠٠٠ مترا مربعا، ويعتبر من أهم متاحف العالم. وقد أصبحت مجموعته تفوق المجموعات المصرية المعروضة في المتاحف الأجنبية.

ويتألف المتحف من طبقة أرضية، وطبقتين علويتين. وقد خصصت الطبقة الأرضية

للمعروضات الثقيلة، والآثار الكبيرة الحجم، مرتبة حسب الترتيب التاريخي للأسرات. ويتوسط الطبقة الأرضية ساحة واسعة، تشتمل على بعض التماثيل الضخمة. وتحتوي الطبقة الثانية على آلاف من المعروضات الرائعة من تماثيل ولوحات. أما الطبقة العليا فتحتوي في قسمها الشمالي الشرقي على أهم كنوز المتحف، وهي آثار الملك توت عنخ آمون، وعلى قاعة الجواهر التي تضم أروع مجموعة من الجواهر. وللمتحف دليل عام يمكن الرجوع إليه لمعرفة محتوياته، وله مكتبة كبيرة يبلغ رصيدها نحو ٢٢٤٠٨ كتابا، كلها باللغات الأجنبية، وخاصة الفرنسية والألمانية والإنجليزية، وبها مجموعة من الوثائق البردية باللغة اليونانية.

٦- متحف بيت الأمة: يقع هذا المتحف في بيت الأمة، بشارع سعد زغلول، حيث كان يسكن الزعيم سعد زغلول. ونظرا لما ارتبط به هذا المنزل من ذكريات كبيرة في الحركة الوطنية فقد اشترته الحكومة المصرية، وأشرفت على تنظيمه وتجديده، ليصبح في الصورة التي كان عليها خلال حياة الزعيم الراحل وقرينته أم المصريين.

المتاحف العلمية:

١ - متحف التعليم: ويقع في ١٨ شارع إسماعيل أباظة بالقاهرة، والغرض من إنشائه توضيح الحياة الثقافية والتعليمية في مصر، منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، لا سيما تاريخ العصور الحديثة، منذ إنشاء ديوان المعارف سنة ١٨٣٧ م. ولذا فهو يشمل المخلفات التاريخية من وثائق وسجلات وكتب دراسية، فضلا عن نماذج الأدوات الدراسية المستخدمة في مختلف العهود. وهو مقسم بحسب العصور أو بحسب مراحل التعليم، ويشتمل على سبعة عشر قسما، تمت جميعا إلى التعليم بصلة وثيقة.

٢- متحف الثقافة العربية بجامعة الدول العربية: ١٠٢ شارع البحر الأعظم بالعجوزة. القاهرة، وهدف هذا المتحف جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بشئون الثقافة، ونظم المعارف والتعليم في مختلف الأقطار العربية، وتهيئتها للباحثين، ثم إعطاء فكرة واضحة

عن حالة المعارف والمدارس، في كل قطر من الأقطار العربية، مصحوبة بمقارنات إحصائية ورسوم بيانية.

٣- متحف الحيوان: بحديقة الحيوان بالجيزة. ويشغل مبنى خاصا داخل حديقة الحيوان وهو قسمان:

القسم العلمي: يحتوي على مجموعات للطيور المصرية وغيرها.

وقسم المعروضات: ويحتوي على ثلاثة أبهاء، بها هياكل عظمية للثدييات المصرية والزواحف والأسماك والطيور المصرية المحنطة.

٤ – متحف الري بالقناطر الخيرية: ويشتمل على نماذج لجميع أعمال الري والصرف بمصر والسودان. كما يحتوي على نماذج لأعمال الري الصناعية من خزانات وقناطر وكباري وغيرها.

٥ – متحف طبقات الأرض: بحديقة وزارة الأشغال بالقاهرة. وهو قسم من مصلحة المناجم والمحاجر بوزارة التجارة والصناعة. والغرض من إنشائه دراسة أنواع الصخور والتربة المصرية، والبحث عن الرواسب من معادن وغيرها. وبالمتحف. ما يزيد على عشرين ألف عينة چيولوجية موزعة على خمس صالات رئيسية. وبه أيضا خرائط چيولوجية وقطاعات بارزة.

٦- متحف القاهرة الصحي: ويقع في شارع المتبولي بالقاهرة، وتشرف عليه وزارة الصحة العمومية، ويشتمل على أجهزة الأجزاء الجسم، وبعض الأمراض، بثا للثقافة الصحية بين الجمهور.

٧- متحف القطن: مباني الجمعية الزراعية بالجزيرة، ويتمثل فيه الدور المهم الذي تلعبه مصر في زراعة القطن والصناعات المتفرعة عنه. كل ذلك ممثل بالصور والنماذج والمناظر المجسمة، وأشرطة السينما واللوحات الإحصائية.

المتاحف الفنية:

١- المتحف الحربي بالقلعة: يشتمل هذا المتحف على تحف وأسلحة وملابس وأدوات ومناظر ولوحات وخرائط، تعين على تتبع الفنون الحربية وأدوات الحرب من قديم الزمان حتى الوقت الحاضر، وأشهر الوقائع الحربية التي حدثت في عصور التاريخ، خصوصا في مصر.

وبالمتحف مكتبة تشتمل على آلاف الكتب العربية والإفرنجية، التي تبحث في التاريخ المصري وجغرافية وادي النيل، ومجموعة من المجلات العسكرية.

٢- متحف الحضارة المصرية: بالسراي الكبرى بالجزيرة. وهدفه الرئيسي إظهار وحدة التاريخ ووحدة الحضارة في وادي النيل، وإبراز كل عصر بطابعه الخاص. وهو لذلك ينقسم إلى تسعة الأقسام التي ينقسم إليها تاريخ مصر، ابتداء من عصر ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث. وبكل قسم نماذج لأشهر آثاره، وطرق الحياة فيه، وأهم الحوادث التاريخية، وعادات الناس وتقاليدهم، وأشهر الوقائع التاريخية.

٣ – متحف البريد: ويوجد بميدان العتبة بالقاهرة. ومعروض به كل ما له صلة بالبريد، قديما وحديثا، من طوابع وأدوات حمل البريد، ووسائل نقله، ونماذج لعربات البريد، والكسي التي كان يرتديها موزعو البريد، ومجموعة صور لخطوط الحمام الزاجل، وبواخر نقل البريد، ومجموعة أوراق البردي، والحاضر والوثائق والمنشورات واللوائح البريدية. ويتبع المتحف مكتبة الإدارة العامة للمصلحة وهي تحتوي على مجموعة نادرة من الكتب.

٤- المتحف الزراعي بالدقي: والغرض من إنشائه تمثيل الزراعة المصرية في مختلف نواحيها، وذلك بعرض شتى الحاصلات الزراعية التي تنتجها التربة المصرية، وطرق الري والصرف بالبلاد والصحاري والواحات، وما يوجد بها من زراعات وصناعات وغيرها.

وبالمتحف خمسة أقسام رئيسية: قسم الزراعة المصرية القديمة، وقسم المملكة النباتية، وقسم المملكة الحيوانية، وقسم المجموعات النباتية، وقسم التصوير، والمكتبة، وقسم الصيانة.

٥ – متحف السكك الحديدية: مبنى محطة مصر بالقاهرة. وقد أنشئ لعرض وسائل النقل القديمة والحديثة، وبه أكثر من ٦٠٠ نموذج، صنعت معظمها بورش مصلحة السكك الحديدية، كما حصل المتحف على طائفة من النماذج للسكك الحديدية الأجنبية.

وينقسم المتحف إلى تسعة أقسام تبدأ باستعراض وسائل النقل قبل استخدام البخار حتى الوقت الحاضر، ووسائل الاتصال منذ استعمال الإشارات الضوئية حتى التليفون اللاسلكي.

٦– متحف الفن الحديث: ٤ شارع قصر النيل، بالقاهرة. وقد أنشئ في أحضان جمعية محبي الفنون الجميلة. وبه مئات من الصور الزيتية والتماثيل والميداليات والآنية وقطع الأثاث، وطائفة من الكتب هي نواة المكتبة.

المتاحف السياحية:

بعد أن أقصي فاروق عن العرش في ٢٦ يولية سنة ١٩٢٥، صودرت ممتلكاته، وممتلكات أسرته في مصر. فاستولت حكومة الثورة على قصوره وقصور أسرة مُحَمَّد علي، وما كانت تحتوي عليه من أثاث ورياش، وتحف ومجوهرات. إذ إن هذه القصور ما شيدت إلا من دماء الشعب وعرقه. وبينما كان ينعم فيها هؤلاء القوم بالعيش الرغد مترفعين عن الشعب، يولونه الازدراء والاحتقار، ويسلبونه أقواته وأرزاقه، كان هذا الشعب يعيش في أكواخ وجحور، عيشة البؤس والضنك.

لذلك لم يكن بد من أن ترد هذه القصور وما اشتملت عليه من تحف ونفائس إلى الشعب، لتكون ملكا له، ينعم بارتيادها، واستجلاء ما فيها من مفاتن ومحاسن. وقد حولتها الحكومة فعلا إلى متاحف عامة، تشرف عليها مصلحة السياحة، التابعة لوزارة الشئون الاجتماعية. وهذه القصور هي:

١– متحف قصر الجمهورية (قصر عابدين سابقا): ويقع في ميدان الجمهورية (ميدان عابدين سابقا) وسبق أن ذكرنا أن هذا القصر بناه إسماعيل، خديو مصر الأسبق، واتخذه هو ومن أتى بعده من الخديويين والسلاطين والملوك مقرا رسميا لهم، بدل

القلعة، ويحتوي هذا القصر على جناحين هامين هما: الحرملك، والسلاملك، وملحق بالأخير جناح خاص للضيافة وأهم قاعاته القاعة البيزنطية، وقاعة العرش، وقاعة قناة السويس، وقاعة الولائم.

٢- متحف قصر الجوهرة: سبق وصف هذا القصر ضمن الكلام عن المنشآت المعمارية في عهد مُحَمَّد علي. وهو موجود بالقلعة، وذكرنا أن أكبر حجراته صالة العرش أو حجرة الفرمانات.

ويستطيع جمهور الشعب زيارة هذا المتحف اليوم، في أي وقت شاء، بعد أن كانت لا تطأه سوى أقدام باشوات مُحَمَّد علي وأفراد أسرته، ليرى المكان الذي كان يحكم منه حكما سداه البطش ولحمته العسف والاستبداد.

٣- استراحة الهرم: أحد الأركان أو الاستراحات التي كان فاروق يأوي إليها لينعم ملاذه وشهواته، بعيدا عن أعين الرقباء. وقد أقيمت بجوار الهرم الأكبر، وروعي في تصميمها أن تتفق وطراز المنطقة الأثرية المحيطة بها، ألا وهو الطراز الفرعوني القديم، وأنشئت على نسق المعابد المصرية القديمة، وحليت جدرانها برسوم فرعونية، تمثل مناظر الصيد والحفلات، وأثثت بأثاث شبيه بأثاث توت عنخ آمون.

ويغزو الشعب اليوم هذه الاستراحة، بعد أن كانت قلعة من القلاع المغلقة، وحصنا من حصون الإقطاع الحصينة، ليستريح إليها أفراده، بعد تجوال في منطقة الأهرام.

٤ – استراحة حلوان: وهذه استراحة أخرى لفاروق، شيدها بالقرب من مدينة حلوان، إحدى ضواحي القاهرة، المشهورة بطيب هوائها، ومياهها المعدنية المفيدة. وحرص أن تكون أيضا واقعة على النيل مباشرة.

واختيار هذا الموقع حالفه كثير من التوفيق: فهو يجمع بين هواء النيل الرطيب، وهواء الصحراء الجاف، هذا إلى سهولة الوصول إليه بطريق البر وطريق النيل على السواء.

٥- قصر المنيل: وهو أحد قصور أفراد أسرة مُحَمَّد علي. كان يملكه مُحَمَّد علي توفيق الأمير وولي العهد الأسبق. ويقع بمنيل الروضة، ويشغل مساحة شاسعة من الأرض، ويشبه

بأبراجه وأسواره العالية، قلعة حصينة من قلاع العصور الوسطى.

ويغلب الطراز المغربي على تصميم هذا القصر في عقوده وأعمدته. ويكسو جدرانه القاشاني البديع. وتزينه الآيات القرآنية الكريمة. وتوجد به كثير من التحف الخشبية والحرفية والمعدنية من القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وكثير من اللوحات الزيتية لأفراد أسرة مُحَمَّد علي، وبعض الشخصيات الأوروبية بريشة أشهر الرسامين.

ويحيط بالقصر حديقة أنيقة، جمعت كثيرا من الأزهار النادرة، ونباتات الزينة الجميلة، والأشجار العالية، نسقت أجمل تنسيق.

٦- متحف وضريح مصطفى كامل: كان مصطفى كامل مدرسة وطنية، بما أنشأه من جرائد ومجلات، وما شيده من مدارس لتربية الشعب تربية وطنية، وما دبجته يراعته من مقالات، وما ألقاه على أعواد المنابر من خطب نارية مهاجما الاستعمار والمستعمرين، لذلك كان واجبا محتوما أن يتتبع الشباب آثار هذا الزعيم العظيم، ويدرس تعاليمه، وينسج على منواله. وهذا ما حدا بحكومة الثورة أن تجمع كل آثاره، بما في ذلك كتبه ومكتبته، وأن تودعها هذا المتحف المجاور لقبره، ليكون كعبة يزورها أفراد الشعب، ويستلهم منها دروس العزة والكرامة والوطنية الخالصة.

محطة الإذاعة المصرية:

أنشئت عام ١٩٣٣م، وتوجد بقرية أبي زعبل من ضواحي القاهرة، ولها محطات فرعية للتقوية في المنيا وأسيوط وسوهاج والأقصر، أما إستوديوهات التسجيل فتوجد برقم ٤ شارع الشريفين بالقاهرة.

وتعد الإذاعة المصرية معهدا شعبيا من طراز فريد، ويكاد لا يخلو منزل في القاهرة وسائر المدن والقرى المصرية من جهاز للراديو للاستماع إلى الإذاعة المصرية. وتغذي الإذاعة جميع طبقات الشعب بالثقافة والمعلومات المنوعة، كلا ما يلائمه، وباللغة التي تناسبه. وترفه عنه بالموسيقى والأغاني والتمثيل، وتزوده بالنشرات الإخبارية والاقتصادية والجوية. هذا فضلا عن توجيه الشعب الوجهة الصحيحة في الحوادث الوطنية والأزمات

الدولية، وبث الحماس وإشعال الحمية ورفع الروح المعنوية، وتثبيت القومية العربية، ومناهضة الاستعمار في أرجاء العالم العربي.

فالإذاعة المصرية قوة لها خطرها، إذ يدوي صوتها في جميع بقاع الأرض بجميع اللغات، بالإضافة إلى اللغة العربية، لذا يهابها المستعمرون ويحسبون لها ألف حساب. وكان أول هم للقراصنة الإنجليز والفرنسيين، عندما هاجموا مصر هجومهم الغادر في ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦، أنهم سددوا إليها قنابلهم يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٦، وظنوا أنهم أسكتوا الصوت الذي طالما أقض مضاجعهم، وألب الأحرار عليهم في كل مكان. ولكن لشد ما كان غيظهم عندما نجح مهندسو المحطة الأبطال في إصلاح التلف، وإعادة المحطة إلى سابق عهدها، بعد ضربها بأربع وعشرين ساعة فقط، تحت وابل الطوربيدات والقنابل الحارقة.

وللمحطة مكتبة بها آلاف الأشرطة التي سجلت عليها أهم الأحاديث السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية، والقرآن الكريم لأشهر المقرئين، والحفلات الموسيقية والمسرحيات السينمائية والتمثيلية. كما أن لها مجلة تصدر كل أسبوع حاملة للناس أهم الأحاديث والبرامج المصرية والأجنبية، موضح أمامها مختلف الموجات.

مصلحة الاستعلامات المصرية:

وإذا كانت الإذاعة المصرية قد أثبتت أنها أداة لها شأنها الخطير في بث الوعي القومي بين الشعب المصري خاصة، والشعوب العربية عامة، فثمت منشأة أخرى لا تقل خطرا عن الإذاعة في نشر الدعاية لمصر، والأمة العربية بين شعوب العالم الأخرى، في جميع أنحاء المعمورة، خصوصا في أوروبا وأمريكا، تلك هي مصلحة الاستعلامات المصرية، الموجودة في رقم ٢٢ شارع سليمان (باشا) بالقاهرة.

وتقوم هذه المصلحة بتوزيع النشرات والمجلات والكتب، وعرض الأفلام السينمائية، بجميع اللغات الحية، موضحة فيها أهداف مصر وأمانيها، وجهودها في نشر السلام العالمي. وفضلا عن ذلك فهي لا تترك فرية، بذيعها المستعمرون وأعداء مصر، ليشوهوا سمعتها، إلا وتتصدى للرد عليهم، وتفند أكاذيبهم، وترد كيدهم إلى نحورهم. ولا أدل على خطر هذه

المصلحة، وشدة بأسها، من تأليبها الرأي العام العالمي على إنجلترا وفرنسا، بنشرها صورا للأعمال البربرية التي اقترفتها جيوشهما، عند غزوهما بورسعيد في ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٦، لاغتصاب قناة السويس، مما جعلهما موضع احتقار جميع شعوب العالم، وازدرائها الشديد.

مصلحة السياحة: ٥ شارع عدلي بالقاهرة

أنشئت هذه المصلحة، وهي إحدى إدارات وزارة الإرشاد القومي، لتقوم على راحة السائحين، الذين يفدون على مصر كل عام لينعموا بمشاهدة آثارها، والاستمتاع بشتائها الدافئ، وتسهل لهم الانتقال من مكان إلى آخر، وترشدهم إلى الأماكن التي يجدر بهم زيارتها. ولها بوليس سياحي خاص، يضم نخبة ممتازة من الضباط والجنود، ذوي الأخلاق السامية، والدراية بشئون السياحة. يصطحبون السياح منذ قدومهم إلى مصر حتى مغادرتهم لها. كذلك تقرر أجور الفنادق وأسعار المأكل والمشرب في المطاعم، ولها مفتشون يفتشون هذه المحال، فلا يجرؤ أحد على غش السائحين، وإلا عوقب بأشد العقاب.

ولا تدخر هذه المصلحة وسعا في الاحتفاء بالسائحين، فتقيم لهم الحفلات، وتقدم لهم الهدايا، وتمدهم بالمطبوعات والخرائط والكتب والصور والمجلات، فيغادرون البلاد وألسنتهم تلهج بمدح حكومتها والثناء على شعبها. ويصبحون خير إعلان لمصر في بلادهم، يدحضون الأكاذيب التي يفتريها المستعمرون والأفاكون والمضللون على مصر وحكومتها وشعبها.

و- الصحف والمجلات ودور النشر والطباعة:

ويوجد بالقاهرة عدد كبير من دور النشر. ولكثير منها مطابع مجهزة أتم تجهيز بالمطابع والآلات الحديثة الصنع. وتخرج كل عام مئات الكتب في كل علم وفن، ويقوم بعضها على نشر التراث العربي في ثوب قشيب، ويشرف على مراجعته وتحقيقه علماء راسخون. هذا بالإضافة إلى المطبعة الأميرية ومطبعة دار الكتب المصرية.

ويصدر في القاهرة من الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية عدد غير قليل، تغذي أفراد الشعب بالأنباء والمقالات السياسية والأدبية والاجتماعية والعلمية، يشترك في تحريرها قادة الفكر ورجال الأدب والعلماء والسياسيون. ولم تبلغ الصحف والمجلات من

الكثرة والقوة، وإتقان الطباعة وجمال المظهر، وسلاسة الأسلوب ورصانة التعبير وسمو اللغة مثل ما بلغته في الوقت الحاضر.

م - التمثيل والسينما:

لم تعد المسارح ودور السينما أماكن للهو والترفيه فحسب، بل إنها تعتبر أيضا وسيلة هامة لتثقيف الشعب وتهذيبه، وتوجيهه الوجهة المثلى، وذلك نظرا لما تعالجه في قصصها من مشكلات الأسرة والمجتمع، وتحليل تلك المشكلات تحليلا دقيقا، وما تعرضه من قصص تاريخية، وأعمال البطولة الفذة، وتصوير الأحاسيس الرقيقة، والعواطف الدافقة، وتبصير الناس بعواقب الأمور وخواتيمها.

وتمتاز السينما بتقدم عظيم جعلها أداة ضرورية للثقافة، وتتبع أدوار الحضارة في العصر الحالي، وذلك بعد تلوين الفيلم وإنطاقه، فصارت تعرض اليوم كثيرا من الأفلام العلمية والتربوية والوطنية والتاريخية والإخبارية.

وتعج القاهرة اليوم بصالات عرض السينما، هذا عدا المعاهد والمدارس والجمعيات، التي حرصت على أن يكون لها هي الأخرى صالات تعرض فيها أفلاما خاصة، بالإضافة إلى ما يلقى فيها من محاضرات.

ولقد أصبحت صناعة الفيلم المصري من أهم الصناعات في القاهرة في الوقت الحاضر، لكثرة ما تدره من أرباح على المؤلفين والممثلين والمنتجين والمصورين والمخرجين ودور العرض.

أما دور التمثيل فهي أقل من دور السينما عددا في القاهرة، لانصراف كثير من الممثلين إلى السينما، لكثرة ما يجنونه فيها من أرباح، وقلة ما يكابدونه من عناء. وما تزال دار الأوبرا المصرية تحتل المكان الأول بين دور التمثيل في القاهرة، مع تقادم العهد عليها، وهرمها. ولذلك أصبح الأمر يقتضي إنشاء دار جديدة فخمة للأوبرا، تتفق ومركز القاهرة في الجمهورية العربية المرموقة، فهو أداة هامة لتوجيه الشعب الوجهة الصالحة، ورفع مستواه الخلقي والمعنوي، والسمو بذوقه الفني.

-٧-

القاهرة مركز الاقتصاد في الجمهورية العربية المتحدة

ليست القاهرة مركز الحكم، ومنبع النور والعرفان فحسب، بل هي أيضا مركز الاقتصاد والمال، والسوق العظمى للتجارة. ومكان التوجيه والتشجيع للزراعة والصناعة في الجمهورية العربية المتحدة.

فالسلع التجارية بجميع أنواعها، ومن شتى أنحاء العالم، من الشرق والغرب ترسو في الإسكندرية أو بورسعيد أو السويس، ثم تأخذ طريقها إلى القاهرة بالسكة الحديد أو السيارات، فتتجمع فيها، وتعرض في المخازن للبيع.

وفي مقدمة التجارة الشرقية البهار، والبن، والشاي، والكاكاو، وجوز الهند، والبذور الزيتية، والجوت، وكلها ترد إلى القاهرة عن طريق السويس، وما تزال سوقها السوق التقليدية القديمة، في الجمالية والتربيعة، والغورية، وتوجد بشارع القصبة القديم، أو شارع المعز لدين الله حاليا.

ومن أوروبا وأمريكا ترد المنسوجات الحريرية والصوفية والقطنية والفراء، والمصنوعات المعدنية من آلات وعدد وأدوات وسيارات. وكذا الأخشاب والفواكه طازجة ومحفوظة، وأنواع الجبن المختلفة والزيتون وزيت الزيتون واللحوم والأسماك المحفوظة والمجففة، والأدوات المنزلية وأدوات الزينة والدخان وكثير غير ذلك. ترد جميعها عن طريق الإسكندرية وبورسعيد، وتحمل إلى القاهرة، حيث تعرض للبيع، إما بالتجزئة، وإما بالقطاعي، في محال خصصت لذلك. ولهذه المحال وكلاء يجوبون القطر من أقصاه إلى أقصاه، يعرضون بضائعهم على تجار التجزئة في مدن الوجهين القبلي والبحري.

وتوجد محال بيع السيارات وأدواتها والآلات والماكينات، خصوصا ماكينات الري والحرث والدرس، وما إلى ذلك في شوارع عماد الدين (حاليا مُحَمَّد فريد)، وعدلي، والجمهورية، وشارع نهضة مصر، و٢٦ يوليو وشارع قصر النيل.

وتوجد مخازن بيع الملابس والمنسوجات بأنواعها في شارع ٢٦ يوليو، وشارع الموسكي، وميدان العتبة، وشارع البواكي، والغورية، وميدان الخازندار. وبعض هذه المخازن يضارع أعظم المتاجر في كبريات العواصم الأوروبية.

كذلك توجد محال كثيرة لبيع الأغذية المحفوظة، وهي المعروفة بمحال البقالة، وهي منبثة في كل حي من أحياء القاهرة، إلا إنها تتفاوت من حيث السعة الكبر من حي إلى آخر. وقد كانت هذه التجارة إلى عهد قريب وقفا على الجالية اليونانية بمصر، لتنسيقهم السلع بمحالهم، ونظافتها، وحسن ترتيبها. وأكثر ما تحتوي عليه محالهم الجبن والزبد والزيتون والزيت والمربيات والفواكه والبن والشاي، واللحوم المجففة والأسماك المحفوظة في العلب. وقد اقتحم المصريون هذا الميدان، وضربوا فيه بسهم وافر، حتى غدت معظم محال البقالة في القاهرة في أيديهم وأيدي بعض الفلسطينيين.

أما محال الجملة لهذه التجارة فتوجد في شارع بين السورين، كما كان الحال في العهد المملوكي، وما تلاه من العهود، وذكر المقريزي في خططه أنه كان يوجد بشارع القصبة (شارع المعز لدين الله حاليا)، وهو أعظم أسواق مصر في عهده، اثنا عشر ألف حانوت. وكان يبدو لنا هذا الرقم أنه مُغالى فيه، أو كبير جدا، ولكنه لا يبدو كذلك إذا ذكرنا أن عدد الحوانيت في القاهرة قد بلغ اليوم ٨٨٠٣١ محلا، طبقا لإحصاءات السجل التجاري(٦)، ولا شك أن هذه الزيادة تتناسب مع زيادة عدد السكان أضعافا مضاعفة، عما كانت عليه في القرن الرابع عشر .

سواحل القاهرة:

ولم يكن للقاهرة حتى عام ١٩١٨ سوى ساحلين للغلال: الأول بروض الفرج، وكان مخصصا لرسو جميع السفن المشحونة بالغلال والمسلي والبلح والعسل والبصل والماشية والخضر والفواكه وغير ذلك من السلع. والثاني بأثر النبي، وكان مخصصا لرسو السفن المشحونة بأنواع التبن والحطب والبوص وأدوات العمارة، كالجبس والجير والطوب والأواني الفخارية وما شابه ذلك.

ولقد اقتضت زيادة عدد السكان وانتشار العمران، الإفادة من النقل النهري، لتموين القاهرة بحاجياتها من مواد الطعام وأدوات البناء، فزيد تبعا لذلك عدد السواحل، فأصبحت خمسة وهي: سواحل روض الفرج، وأثر النبي، والجيزة، وغمرة، وشبرا، والأخيران معدان لشحن وتفريغ الحبوب بأنواعها.

وقد أنشأت مصلحة التجارة سنة ١٩٣٢م، بكل من ساحلي روض الفرج وأثر النبي سوقا منظمة لتجارة الحبوب، يقوم العمل فيهما على أحدث الأساليب التجارية.

أسواق الجملة للخضر والفاكهة:

١- سوق العتبة: لم يكن بمدينة القاهرة قبل سنة ١٩٣١م أسواق منظمة لتجارة الجملة في أصناف الخضر والفاكهة. وكانت هناك سوق واحدة تشغل ميدانا صغيرا خلف سوق العتبة الخضراء. وكانت أسواق الفاكهة والمقات تشغل عدة وكالات صغيرة في نواحي القاهرة.

٢- سوق المدبولي: لذلك أنشأت وزارة التجارة عام ١٩٣١م بالاتفاق مع الجهات الحكومية الأخرى سوق الجملة للخضر والفاكهة، بجهة المدبولي بشارع الجمهورية، متوخية في ذلك غرضين أساسيين هما: التنظيم التجاري، والمحافظة على الصحة العامة. ولما صارت هذه السوق مقصد الزراع من مختلف أنحاء القطر، أخذت تضيق بما يودع فيها من خضر وفاكهة. لذلك شرعت وزارة التجارة في بناء سوق أخرى.

٣- سوق الخضر والفاكهة بروض الفرج: أقامت وزارة التجارة بالاتفاق مع وزارة الأوقاف هذه السوق سنة ١٩٤٧، على مساحة من الأرض بلغت ١٨ فدانًا بجهة روض الفرج. فجاءت سوقا فسيحة تضم تجارة الجملة في الخضر والفاكهة بمختلف أنواعها(٧).

٤- سوق الخضر والفاكهة بجهة أثر النبي: وكانت وزارة التجارة قد أنشأت سنة ١٩٣٥ سوقا آخرى لتجارة الجملة في الخضر والفاكهة بجهة أثر النبي، يجري العمل فيها وفقا للأنظمة المتبعة في سوق روض الفرج.

الغرفة التجارية لمدينة القاهرة:

كان لابد أمام ازدياد عدد المتاجر والتجار، هذه الزيادة الكبيرة في مدينة القاهرة، من أن تنشأ غرفة تجارية، لتحل محل نظام الطوائف، الذي كان سائدا في القاهرة حتى القرن التاسع عشر، ولتنظيم التجارة، والعمل على ترقية الشئون الاقتصادية العامة.

فبدأت المحاولة نحو تحقيق هذا الغرض سنة ١٩١٣. ثم خرجت حيز الوجود سنة ١٩١٩، حيث تأسست غرفة مدينة القاهرة، وانتخب المغفور له عبد القادر الجمال (باشا)، سر تجار مصر إذ ذاك، أول رئيس لها. وصدر أول قانون للغرف التجارية سنة ١٩٣٣م. وبمقتضاه صار اشتراك جميع التجار فيها إجباريا، ولكل تاجر حق الترشيح لعضوية مجلس إدارتها بشروط خاصة.

وانتهى الأمر بغرفة القاهرة إلى تشييد البناء الفاخر الحالي بميدان الأزهار بالقاهرة، وفق أحدث النظم للغرفة التجارية العالمية. وفضلا عما يشتمل عليه من مكاتب الغرفة والطبقات الثلاث المؤجرة، وقاعة العرض الفسيحة، فهو يشتمل أيضا على قاعة محاضرات على أحدث طراز، تتسع لنحو ألف شخص. وتدعو الغرفة المختصين من الأساتذة وكبار الموظفين والتجار، لإلقاء المحاضرات، موضحة بالفانوس السحري، على جمهور التجار وغيرهم، في تلك القاعة الفاخرة.

وتقوم الغرفة بأعمال هامة منها: تنظيم التجارة، فتشترك في اللجان الحكومية المختلفة لتحديد الأسعار، ووضع القوانين المتعلقة بتجارة بعض السلع كالبن والصوف والشاي، ورعاية صالح التجار والصالح العام في نفس الوقت. والاشتراك في المعارض المحلية والأجنبية، والاتصال بالغرف التجارية الأجنبية لتنشيط التبادل التجاري بين مصر ودول العالم، وتعريف التجار المصريين بالأسواق الأجنبية، وأشهر المصانع في العالم وأنواع منتجاتها وأثمانها وكل ما يتعلق بها.

بورصة القاهرة:

هي عبارة عن سوق للأوراق المالية، تتم فيها عمليات البيع والشراء، بين البائعين

والمشترين، حسب الأسعار الحاضرة، التي يحددها العرض والطلب.

وتختص هذه البورصة ببيع وشراء الأوراق المالية من أسهم وسندات الشركات المساهمة، والمدرجة في جدول البورصة الرسمي، والتي لا يقل رأس مال إحداها عن ثمانين ألف جنيه. وتحديد الأسعار خاضع كما هو معلوم للعرض والطلب. وحرصا على حقوق المتعاملين يقضي نظام البورصة بأن يدفع كل سمسار ألف جنيه، كتأمين، يتقاضى عنه فائدة سنوية قدرها ٥٪، ويشرف على أعمال البورصة وأعمال القومسيون «اللجنة التنفيذية» نيابة عن وزارة المالية، مندوب خاص، لضمان حسن سير العمل فيها.

المصارف:

ولقد اقتضى اتساع محيط التجارة في مصر ونشوء علاقات تجارية بين مصر وكثير من بلاد العالم في آسيا وأوروبا وأمريكا، وكذا تقدم الزراعة وتعميم الصناعة، ازدياد عدد المصارف في القاهرة، وتعدد فروعها في الأقاليم، لقيامها بالأعمال المصرفية، وتمويل التجارة والصناعة بالأموال.

وتوجد أغلب المصارف في قلب الأحياء التجارية، في شوارع قصر النيل وسليمان (باشا) والموسكي وطلعت حرب وروض الفرج ومصر الجديدة.

وأكبر هذه المصارف البنك المركزي «البنك الأهلي»: **٣١** شارع قصر النيل، ثم بنك مصر: **١٥١** شارع مُحَمَّد (بك) فريد.

الصناعة:

ويوجد في القاهرة وضواحيها من المصانع الكبير، ومن الورش ما يكاد يشمل كل نوع من أنواع الصناعات التي تباشر في الجمهورية المصرية، مثل صناعات الغزل والنسيج والتريكو والزجاج والجلود والمعادن، والأثاث والأسمنت والبلاط والمواد الغذائية والمشروبات والزيوت.. إلخ.

وكثير من المصانع والورش منبث في الأحياء السكنية في القاهرة، وهذا ما يعيب

القاهرة، ومما تعمل الحكومة على تفاديه في الوقت الحاضر، عند إعادة تخطيط القاهرة. ولذلك لا يمكن تحديد المناطق الصناعية. ومع ذلك فنورد فيما يلي أهم الصناعات والأحياء الموجودة بها:

١- حي بولاق: ويشتهر بأعمال الطباعة (المطبعة الأميرية، ومطبعة الأهرام، ومطبعة أخبار اليوم)، والصناعات المعدنية كسبك المعادن، وصناعة عربات السكك الحديدية (الورش الأميرية)، وصناعة السفن وإصلاحها (الترسانة، وشركة كوك للملاحة النهرية).

٢- حي السبتية: الصناعات المعدنية، وإصلاح القاطرات وعربات السكك الحديدية (ورش السكك الحديدية).

٣- حي معروف: إصلاح السيارات وصيانتها وصناعة الفطائر.

٤- الموسكي: صناعة الأحذية والحقائب الجلدية وحياكة الملابس.

٥- الدرب الأحمر والحلمية: صناعة الأثاث والأدوات الخشبية، والمخابز.

٦- القلعة والخيمية: صناعة الخيام وصناعة البناء.

٧- النحاسين: صناعة الأواني النحاسية والموازين.

٨- خان الخليلي والصاغة: صناعة التحف وصياغة الحلي الذهبية والمجوهرات.

٩- تحت الربع: خرط الأخشاب، والمصنوعات الرخامية والأدوات المنزلية.

١٠- سوق السلاح: صناعة بعض أنواع الأسلحة وسبك المعادن.

١١- مصر القديمة: قطع الأحجار، وصناعة الأواني الفخارية، وصناعة الطوب والجير.

١٢- العباسية: صناعة البلاط والطوب الصناعي، وإصلاح السيارات والطرابيش.

١٣- الحوامدية: تكرير السكر.

١٤- طرة: صناعة الأسمنت، والمواسير الفخارية، وتقطير الكحول.

١٥- الجيزة: صناعة السجائر (مصنع ماتوسيان)، وصناعة الحصر، والطوب الأحمر وإصلاح القوارب.

١٦- إمبابة: صناعة التريكو (مصنع الشوربجي). والفواكه المحفوظة والبلح المجفف. والطوب الأحمر، صباغة وتجهيز المنسوجات (شركة الشرق للغزل والنسيج).

١٧- بولاق الدكرور: المياه الغازية (مصانع الكوكاكولا).

١٨- ضاحية الأهرام: صناعة الأفلام السينمائية، والمياه الغازية (شركة البيبسي كولا).

١٩– حلوان: صناعة الحديد (مصنع الحديد والصلب). نسج الحرير (شركة مصر).

٢٠– أبو زعبل: أحجار الرصف، وصهر الحديد.

٢١– شبرا الخيمة: تعتبر ضاحية القاهرة الصناعية. وتقوم فيها كثير من المصانع والصناعات الكبيرة من ذلك صناعة الزجاج (مصانع السيد ياسين)، والغزل والنسيج، وصناعة الكاوتشوك والبطاريات السائلة، والسماد العضوي، والورق، والبلاستيك.

٢٢ -حي الأزهر: طبع الكتب وتجليدها.

٢٣ - حي درب البرابرة بالموسكي: صناعة الحلوى والفطائر والطباعة وصناعة الورق.

٢٤ - حي عابدين: توجد به كثير من الصناعات المختلفة من ذلك: صناعة الأثاث وحياكة الملابس والطباعة، وإصلاح السيارات، وعمل الأحذية وحقائب السيدات، وصناعة الطرابيش والمخابز وترصيع الحلي، وإصلاح الساعات وصناعة الكليشيهات.

وفيما يلي إحصاء لعدد المؤسسات الصناعية بالقاهرة، وعدد العمال والمشتغلين فيها:

النوع	عدد المصانع	عدد العمال	عدد المشتغلين
الأثاث	٢٨٦١	٥١٤٩	٨١٤٦
عجينة الورق والكرتون	٠٠٥	٤١١	٤٢٩
طبع الكتب والجرائد	٣٤٣	٨٤٥٥	١٢٦٦٤
دباغة الجلود	١٠٤	١٦١٦	١٧٢٦
الكاوتشوك	١٠٤	٥٠٦	٦٣٢
البلاستيك	٠٠٨	١٤٤	١٥٥
الطوب الأحمر	٠٢٩	٧٤٦	٨١٩
الزجاج	٦٧	٨٧٢	١٠٠٤
الأسمنت	٠٣	٢٢٠١	٢٣١٨
الملابس	٤٢٥٦	٧٩٦٣	١٦٦٣١
البلاط	١٣٣	١١٥٦	١٢٨٨٢٨٨
الأحذية	٢٦٧٣	٥٣١٣	٨٢٠٧
خراطة الأخشاب	١٧٤	٦٠٥	٨١٦
المخابز	٩١٦	٦٧٢٤	٨٢٧٠
الحلوى	٥١٣	٤١١٠	١١٣٥٧
إصلاح السيارات	٤٢٤	٣٤٥٦	٤٢٥٢
الجملة	١٢٦١٣	٤٩٤٣٨	١٣٦٥٧٢٤

معارض القاهرة:

رأيت أن القاهرة أعظم سوق تجارية في الجمهورية المصرية. وفضلا عن ذلك فهي تؤدى دور الموجه للصناع والزراع في جميع أنحاء الجمهورية، بما هو قائم ويقوم فيها من مصانع وورش ومعارض، حفلت بشتى المصنوعات والحاصلات والمنتجات الزراعية.

ومن هذه المعارض ما هو دائم، يفتح أبوابه طوال العام، لتلقي الزائرين، كمتحف القطن بالجمعية الزراعية بالجزيرة، والمتحف الزراعي بالدقي، ومتحف وزارة التجارة والصناعة، ومعرض الغرفة التجارية بالقاهرة. ومنها ما يقام في فترات معينة، على أرض الجمعية الزراعية المصرية بالجزيرة أيضا، وتعد له العدة، ليكون معرضا عاما شاملا، يمكن الشركات والمصانع من عرض أجود ما أخرجته من مصنوعات ومنتجات، ليحفز الصناع والزراع إلى مسايرة التقدم الذي تحرزه الصناعة والزراعة على الدوام.

المعرض الزراعي الصناعي:

تؤدي الجمعية الزراعية المصرية خدمة لا تقدر بتخصيصها مساحة كبيرة من سراياها بالجزيرة، لإقامة معرض عام، كل خمس سنوات، للحاصلات والمنتجات الزراعية، وللصناعات. وقد أقيمت هذه المعارض في سنوات ١٩٢٦، ١٩٣١، ١٩٣٦، ١٩٤٩.

ولقد كان معرض سنة ١٩٤٩م أفخم تلك المعارض جميعا، وأحفلها، إذ لم تتسع له سراي الجمعية على رحابتها، بل امتد فشغل أيضا حديقة الجزيرة المقابلة لها. ونسقت المعروضات تنسيقا بديعا. واشتركت فيه جميع الهيئات والمصالح الحكومية والشركات الصناعية، والمؤسسات الأهلية، والغرف التجارية، فجاء معرضا حافلا شاملا، أمه مئات الآلاف من الزوار، من مختلف أنحاء القطر، والأقطار المجاورة، ووقفوا على أحدث المنتجات الزراعية والصناعية.

معارض محلية أخرى:

وتستغل بعض الجهات الاقتصادية سراي الصناعات الصغرى بأرض المعرض بالجزيرة،

لإقامة معارض خاصة، بين آن وآخر، من ذلك: المعرض النوعي للصناعات، وقد أقامته الغرفة التجارية للقاهرة في أبريل سنة ١٩٤٠. ومعرض الأزياء، وقد أقامته هذه الغرفة أيضا في أواخر مارس سنة ١٩٣٩.

معرض منتجات المركز الاجتماعي:

وفي يونيه سنة ١٩٤٦ أقامت المراكز الاجتماعية، التي أنشأتها مصلحة الفلاح التابعة لوزارة الشئون الاجتماعية، معرضا في سراي الصناعات الصغرى بأرض المعرض بالجزيرة، لمنتجات الصناعات الريفية التي تباشرها وتنشرها في القرى، لزيادة دخل الفلاح الصغير، والعامل الزراعي الأجير، بتعليمه وأسرته صناعة منزلية يباشرونها في أوقات فراغهم.

وقد عرضت في هذا المعرض معروضات شتى من منتجات تلك الصناعات، مثل الأكلمة، والأقمشة، والأثاث المصنوع من الجريد، وأعمال التريكو، والدواسات الليف، والفرش، ومنتجات الفواكه المجففة، والشربات، والمربيات.. إلخ. وقد زار هذا المصنع آلاف من الزائرين، ولقيت معروضاته إقبالا كبيرا منهم.

معارض وزارة التربية والتعليم:

كذلك تعرض وزارة التربية والتعليم في سراي الصناعات الصغرى، بين وقت وآخر، منتجات المدارس الصناعية، خصوصا صناعة الأثاث والمنسوجات والأبسطة والأكلمة وغيرها، متيحة الفرصة للمواطنين أن يبتاعوا مصنوعات متينة، بأسعار معقولة، وبشروط مقبولة، ولتنتشر بين الصناع أساليب الصناعة الحديثة.

المعارض الأجنبية:

ولا تقتصر الجمعية الزراعية على إقامة المعارض المحلية، بل إنها تلبي نداء الدول الأجنبية، في إقامة معارض لها بسراياها.

وقد أقيمت في سنتي ١٩٥٦، ١٩٥٧ عدة معارض بسراي الصناعات الصغرى والكبرى لتشيكوسلوفاكيا، والصين الشعبية، واليابان، والجمهورية الألمانية الشرقية والغربية.

وعرضت كل من تلك الدول أحدث صناعاتها ومنتجاتها، وتهدف من وراء ذلك إلى الإعلان عن صناعاتها، وتقريب منتجاتها إلى متناول يد المستهلك المصري، وإيجاد سوق لها في مصر، وعقد الصلات التجارية المتينة بينها وبين الجمهورية العربية المتحدة ودول الشرق الأوسط.

---

(١) أصبح اليوم يعرف باسم شارع بورسعيد تخليدا لدفاع أهلها المجيد ضد القراصنة الإنجليز والفرنسيين في نوفمبر سنة ١٩٥٦، عندما هاجموا قناة السويس بعد تأميمها فأنزل بهم أهل بورسعيد هزيمة ساحقة.

(٢) انظر مجلة الشئون البلدية والقروية العدد الأول.

(٣) انظر مجلة الشئون البلدية والقروية العدد الأول.

(٤) تقويم جامعة القاهرة ١٩٥٤– ١٩٥٥.

(٥) قسمت القاهرة أخيرا الى ثلاث مناطق تعليمية هي: القاهرة الشمالية والقاهرة الوسطى والقاهرة الجنوبية، ووزعت مدارس القاهرة ومعاهدها التعليمية على هذه المناطق الثلاث، واتخذت منطقة القاهرة الوسطى مقرا لها بشارع شبرا.

(٦) نشرة الغرفة التجارية للقاهرة بمناسبة مرور عامين على بعث الثورة المباركة.

(٧) المصدر السابق.

الباب العاشر

قاهرة الغد

استعرضنا فيما سبق، نشأة القاهرة، والمدن التي قامت قبلها، وأوضحنا أن هذه المدن بما فيها القاهرة، اتجهت من أقصى جنوب الوادي إلى شماله، فيما بين تلال المقطم من الشرق، والشاطئ الشرقي للنيل من الغرب. ولمَّا شيدت القاهرة المعزية أصبحت الفسطاط والقطائع كضاحيتين بالنسبة للقاهرة.

وقد كانت حركتا الإنشاء والتعمير تسير سيرا وئيدا، إذ لم يكن عدد السكان يزداد زيادة كبيرة، بل لقد كانت الأوبئة والطواعين، التي كانت تنتاب البلاد، وخصوصا القاهرة، بين آن وآخر، عاملا في نقصان عدد السكان حينئذ.

وفي عهد المماليك، أخذت القاهرة تغزو صحراء العباسية، وأخذت المباني تتناثر هنا وهناك، حتى وصلت إلى حدود مديرية القليوبية حاليا.

وكان ذلك إيذانا بامتداد المدينة في الاتجاه الشمالي الشرقي، في مستقبل أيامها. وقد حدث ذلك فعلا ابتداء من القرن التاسع عشر. وفي القرن العشرين الحالي، إذ أنشئت ضواحي العباسية ومصر الجديدة والقبة وحدائق القبة والمطرية وعين شمس، وازدحم أغلبها بالسكان ازدحاما كبيرا، بسبب اختناق القاهرة بساكنيها، فنفست هذه الضواحي عنها، وأسهمت في حل الضائقة التي نجمت عن الزيادة المطردة في عدد سكان العاصمة.

كذلك اتجهت المدينة في اتجاه آخر، صوب الشمال الغربي، حيث أنشئ حيَّان عظيمان، هما حيَّا شبرا وروض الفرج، وامتدت المباني حتى وصلت إلى شبرا الخيمة، وغصا بالسكان، وأضحيا كمدينة قائمة بذاتها، عامرة بالمباني والمنشآت الحديثة، آهلة بالسكان.

ولم يعد النيل حائلا دون امتداد المدينة ناحية الغرب أيضا، فقد كان بناء القناطر العديدة (الكباري) عاملا هاما في استيطان الناس الأراضي الممتدة على الشاطئ الغربي للنيل، تجاه القاهرة. فأنشئت أحياء الدقي والعجوزة والروضة والمنيل، وصارت جميعا أحياء عامرة، آهلة بالسكان.

كذلك امتدت المدينة جنوبا، فعمرت المعادي وطرة وحلوان، وزحف إليها الناس، وتكاثر عددهم، وستزداد هذه المدن ازدهارا بعد أن أنشئ كورنيش النيل، الذي قرَّب المسافة بينها وبين القاهرة. كذلك عمِّر شارع الهرم بما أنشئ على جانبيه من عمائر شاهقة، ومبان فخمة، وتحويل كثير من القرى هناك إلى مناطق سكنية عامرة. وقد كان للجمعيات التعاونية السكنية يد في الإنشاء والتعمير، بما أنشأته من منازل لأعضائها في أحياء متفرقة في العجوزة والدقي ودار السلام والقبة وغيرها.

وقد كان تعدد طرق المواصلات الحديثة، وتوافرها، وسرعتها عوامل أساسية في امتداد القاهرة في كل اتجاه، حتى لم تعد تعتبر هذه الأحياء ضواحي للقاهرة، فإن أقصاها لا يبعد عن القاهرة اليوم بأكثر من دقائق معدودات.

قلنا إن عدد سكان القاهرة في زيادة مطردة: فقد كانوا ٣٩٨,٦٨٣ نسمة سنة ١٨٨٢، ٥٨٩٥٧٣ سنة ١٨٩٧، ٦٧٨,٤٣٣ سنة ١٩٠٧. ٧٩٠,٩٣٩ سنة ١٩١٧، ١,٠٦٤,٥٦٧ سنة ١٩٢٧، ١,٣١٢,٠٩٣ سنة ١٩٣٧، ٢,٠٩٠,٦٥٤ سنة ١٩٤٧[١].

ويستنتج من ذلك أن زيادة عدد سكان القاهرة في خمسين السنة الأخيرة بلغت مليونا ونصفا. وإذا اتخذت هذه الزيادة مقياسا فسيبلغ عدد السكان في خمسين السنة القادمة ثلاثة ملايين ونصفا. وستدعو هذه الزيادة المنتظرة إلى التفكير الطويل فيما ستكون عليه القاهرة سنة ٢٠٠٠ م، وتعديل تخطيطها بما يتناسب والزيادة المرتقبة، التي نعتقد أنها ستفوق المنتظر بكثير، لعوامل متعددة، لم تكن متوفرة في الماضي، بل إن مستقبل مصر الزاهر، وعهدها الجديد المبارك، بما ينطوي عليه من نهوض وتقدم في جميع نواحي الحياة،

ليبشر بزيادة في عدد السكان قد تزيد عما قدمناه، قياسا على الزيادة في خمسين السنة الماضية. وهذا ما يشغل اليوم بال وزارة الشئون البلدية والتخطيط، وتعمل جاهدة بمعونة هيئة التخطيط التي أنشأتها لدراسة التدابير اللازمة وتحقيقها بالتدريج.

وقد انتهت هذه الهيئة بعد دراستها الموضوع إلى وضع تقرير رأت فيه وجوب الشروع في تخطيط القاهرة تخطيطها جديدا، يحدد المناطق السكنية والصناعية، والأحياء التجارية، وأحياء الأعمال، والجبانات، وشبكة الطرق البرية الرئيسية، وشبكة خطوط المواصلات جميعا. وطالبت بضرورة تحديد الهجرة إلى القاهرة، وتوزيع الخدمات العامة توزيعا عادلا في الأحياء المختلفة.

والحقيقة أن الزيادة المطردة في عدد سكان القاهرة لا ترجع فقط إلى زيادة نسبة المواليد على نسبة الوفيات، بسبب الاهتمام الفائق بالحالة الصحية بوجه عام في جميع أنحاء البلاد، وإنما ترجع أيضا إلى توالي الهجرة إلى القاهرة، إذ يرتكز فيها النشاط الحكومي والصناعي والتجاري والثقافي والعلمي والفني. ثم إن عدم تحديد الأحياء، وتدخل المناطق الصناعية في المناطق السكنية، وشغل الجبانات مساحة واسعة من تلك المناطق، وكذا المعسكرات الحربية، مع عدم وجود احتياطي في المناطق السكنية يستوعب الزيادة الناشئة، كل ذلك يستدعي، كما قدمنا، ضرورة النظر في إعادة تخطيط القاهرة.

وقد اتخذت خطوات ناجحة بالفعل نحو تنفيذ هذه الخطة، فبدئ في نقل الجبانات مثل جبانة السيدة نفيسة وجبانة باب النص من قلب القاهرة، الأولى إلى أرض البساتين والثانية إلى العباسية بأرض الغفير.

كذلك أخذ في نقل بعض المصانع إلى غمرة في الأرض التي تخلفت عن ردم ترعة الإسماعيلية، هذا بالإضافة إلى المصانع التي أقيمت في شبرا الخيمة، التي ستصبح مستقبلا ضاحية القاهرة الصناعية. ولقد تحولت كثير من الخرائب والكيمان والأحياء التي كانت منبثة في أرجاء القاهرة إلى مبان سكنية شاهقة، استوعبت كثيرا من السكان الذين أجلوا عن مساكنهم التي تهدمت، بسبب إزالة بعض الأحياء القديمة أو إنشاء الشوارع والميادين

الجديدة، كما خططت هضبة المقطم ونظمت فيها الميادين والشوارع، ونسقت المتنزهات والحدائق، وأنشئت الفنادق والمقاهي وأقيمت القصور والمنازل.

وقد أزيلت أحياء بأكملها من القاهرة، كانت وصمة في جبينها، وأعيد تخطيطها أو اخترقتها الشوارع أو أنشئ في مكانها الميادين الفسيحة، من ذلك: حي الفوالة بعابدين، وعشش الترجمان وحي الزهار ببولاق، وعرب اليسار وعزبة الصفيح بالعباسية، وتلال زينهم بالسيدة زينب.

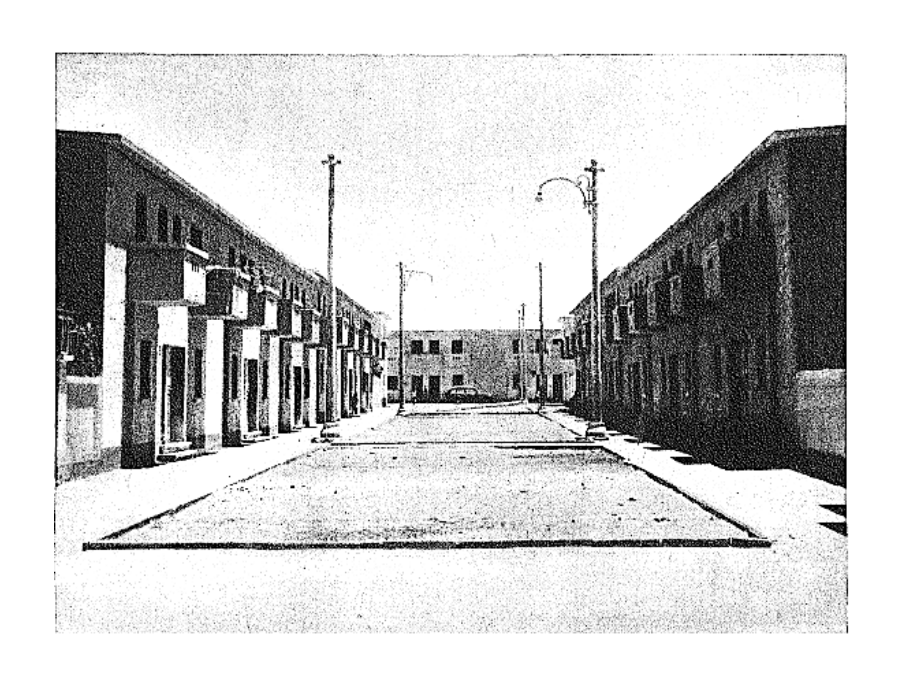
ولن تأتي سنة ٢٠٠٠ م إلا وستكون القاهرة قد تضاعفت مساحتها، فامتدت ناحية الشرق، وتوغلت في الصحراء مسافات بعيدة، فتتصل العباسية بمصر الجديدة، ثم تمتد الأخيرة شرقا في طريق السويس وغربا لتتصل بالزيتون والمطرية، وتتصل الأخيرة بعين شمس وأبي زعبل.

كذلك يحدث نفس الشيء في القرى المقابلة للقاهرة على الشاطئ الغربي للنيل، ابتداء من إمبابة حتى الأهرام حيث تتصل بعضها ببعض، يدخل ضمن ذلك مدينة العمال والعجوزة وعزبة الحوعية والدقي، ومدينة الأوقاف وبولاق الدكرور والجيزة ومنطقة الهرم. وسيزداد توغلها غربا حتى تتصل بالطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية.

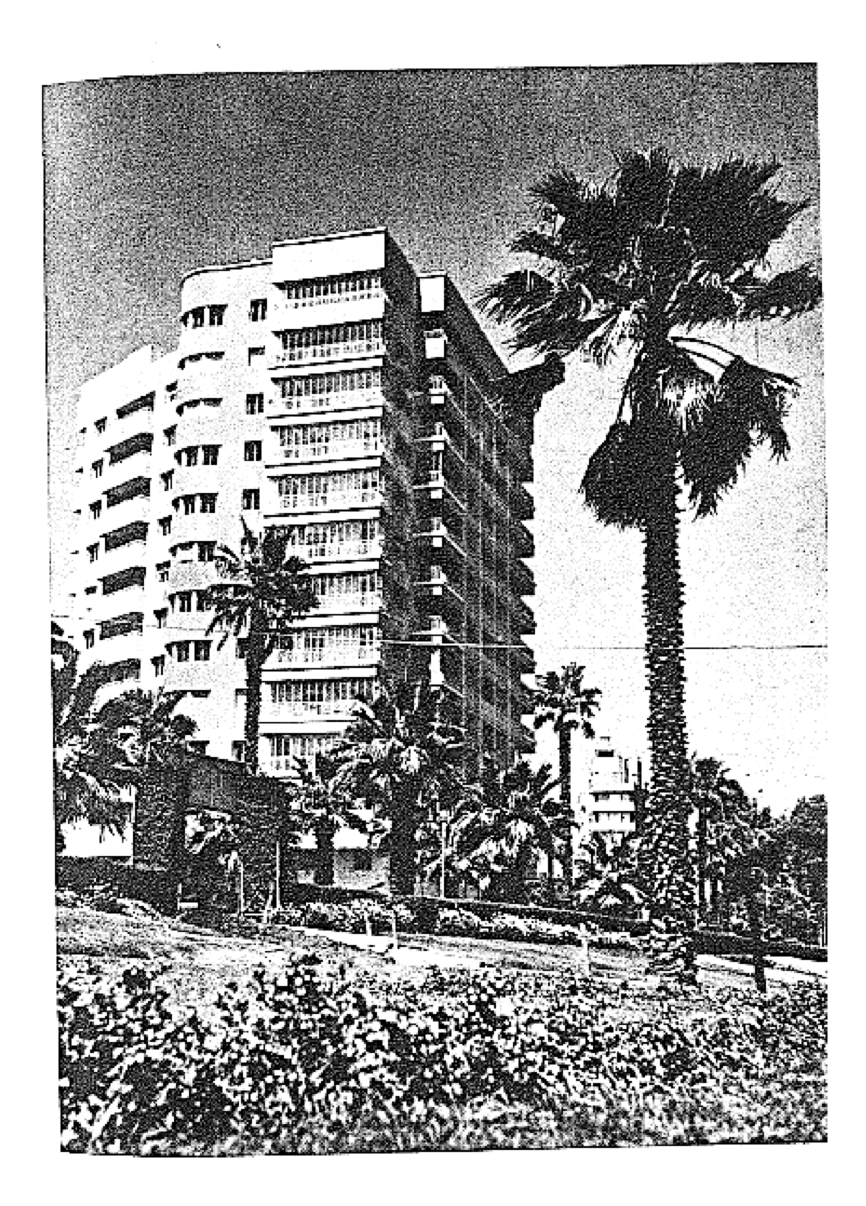
ولا جدال في أنها ستكون حينئذ أعظم مدن الشرق قاطبة، ومن أعظم مدن العالم الحديث.

---

(١) المعتاد أن تجرى عملية إحصاء السكان في الجمهورية المصرية كل عشرة أعوام، وقد أجل الإحصاء الذي كان سيجري سنة ١٩٥٧ إلى عام ١٩٦٠.



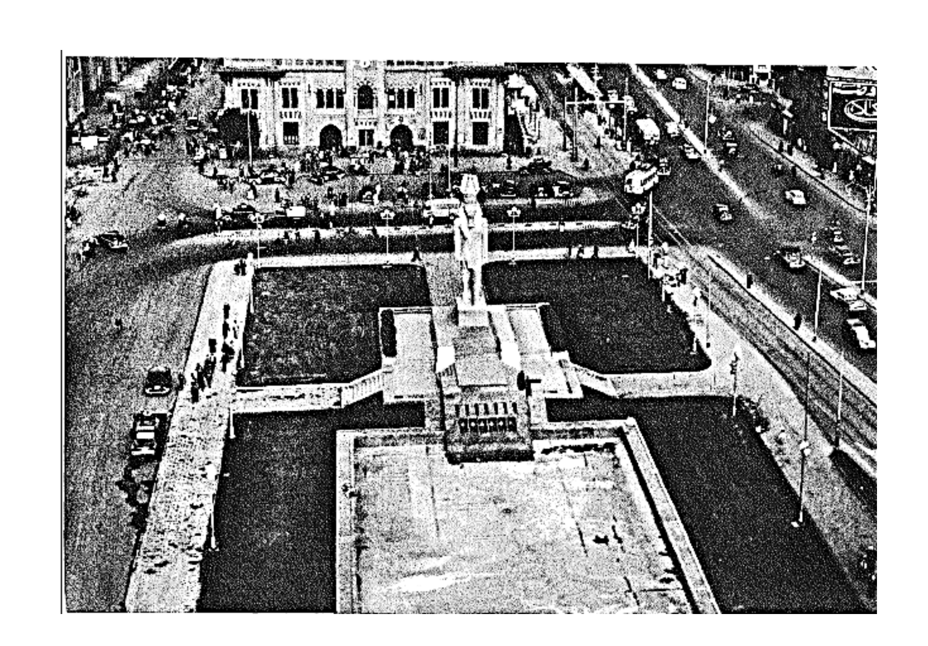
بعض المساكن الشعبية بمدينة العمال في حلوان



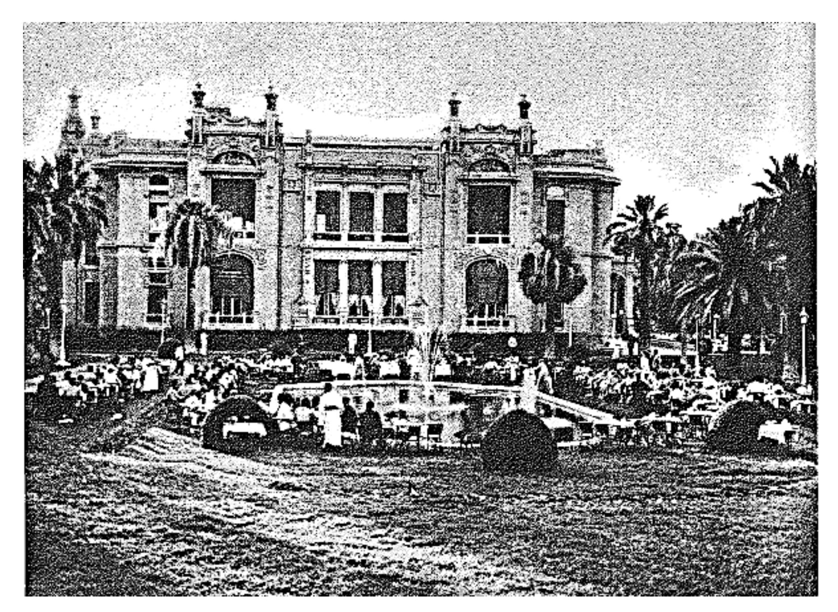
إحدى العمارات الشاهقة بالقاهرة، الواقعة على النيل، والتي أنشئت حديثا وفق الهندسة الأوروبية، وتمتاز بمتانة الأساس، وإحكام البناء، وعلو الارتفاع.



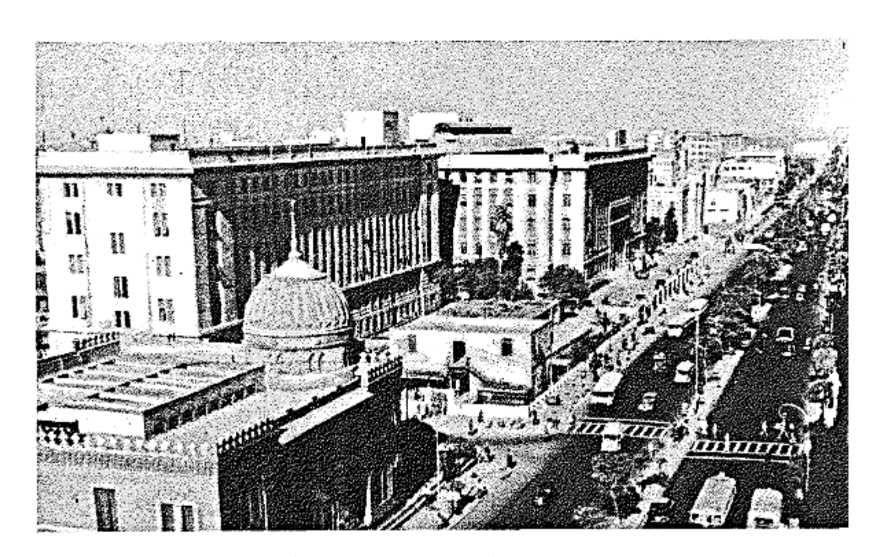
متحف القطن بأرض الجمعية الزراعية بالقاهرة



ميدان رمسيس (ميدان المحطة) بعد إعادة تنظيمه. ويرى في وسطه تمثال رمسيس الذي نقل إليه من البدرشين.



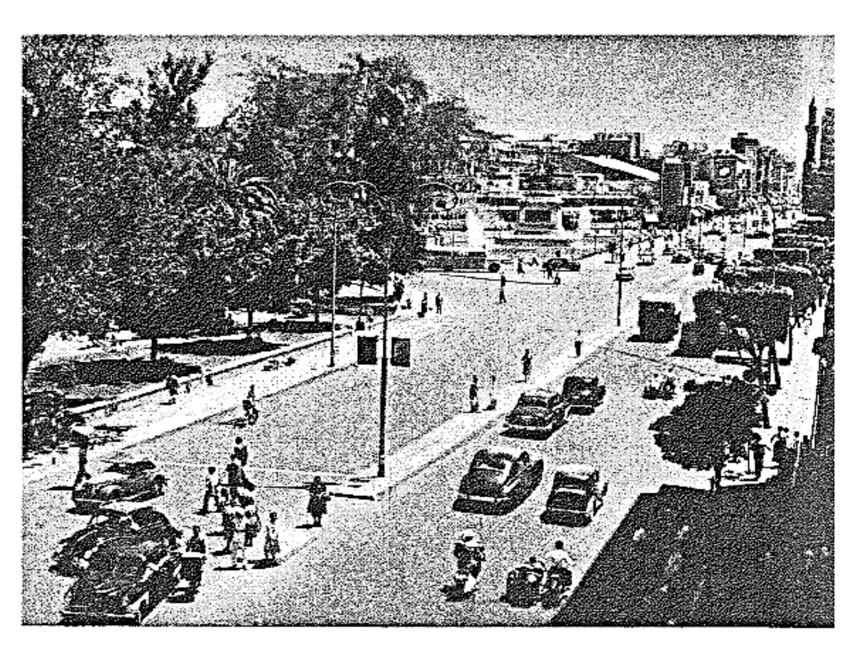
قصر الزعفران بالعباسية، وقد تحول إلى مبنى إدارة جامعة عين شمس.



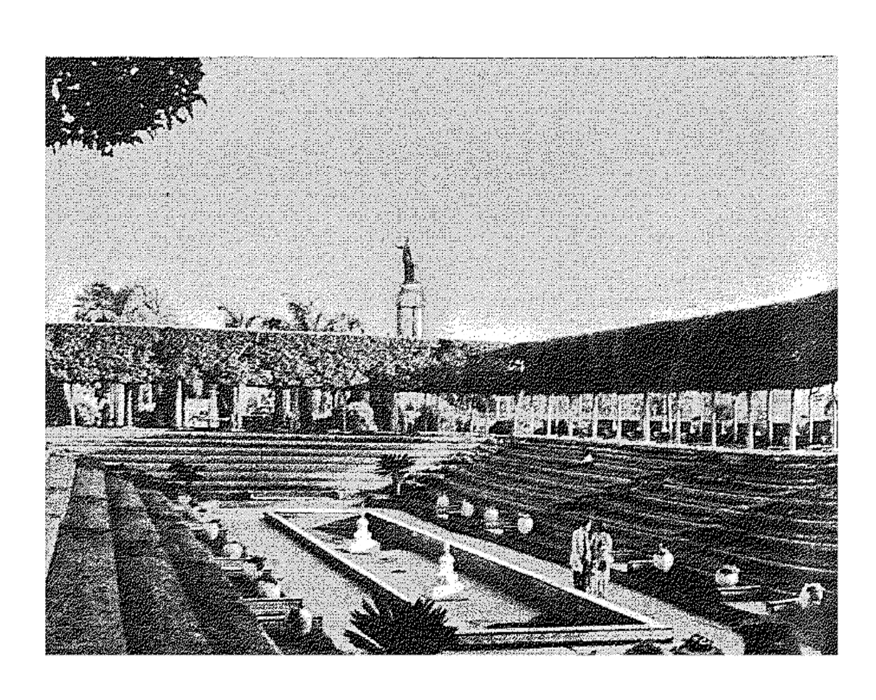
جزء من شارع رمسيس، ويرى به معهد الموسيقى الشرقي، يليه المركز الرئيسي للتليفونات، فمبنى إدارة مصلحة المواصلات السلكية واللاسلكية.



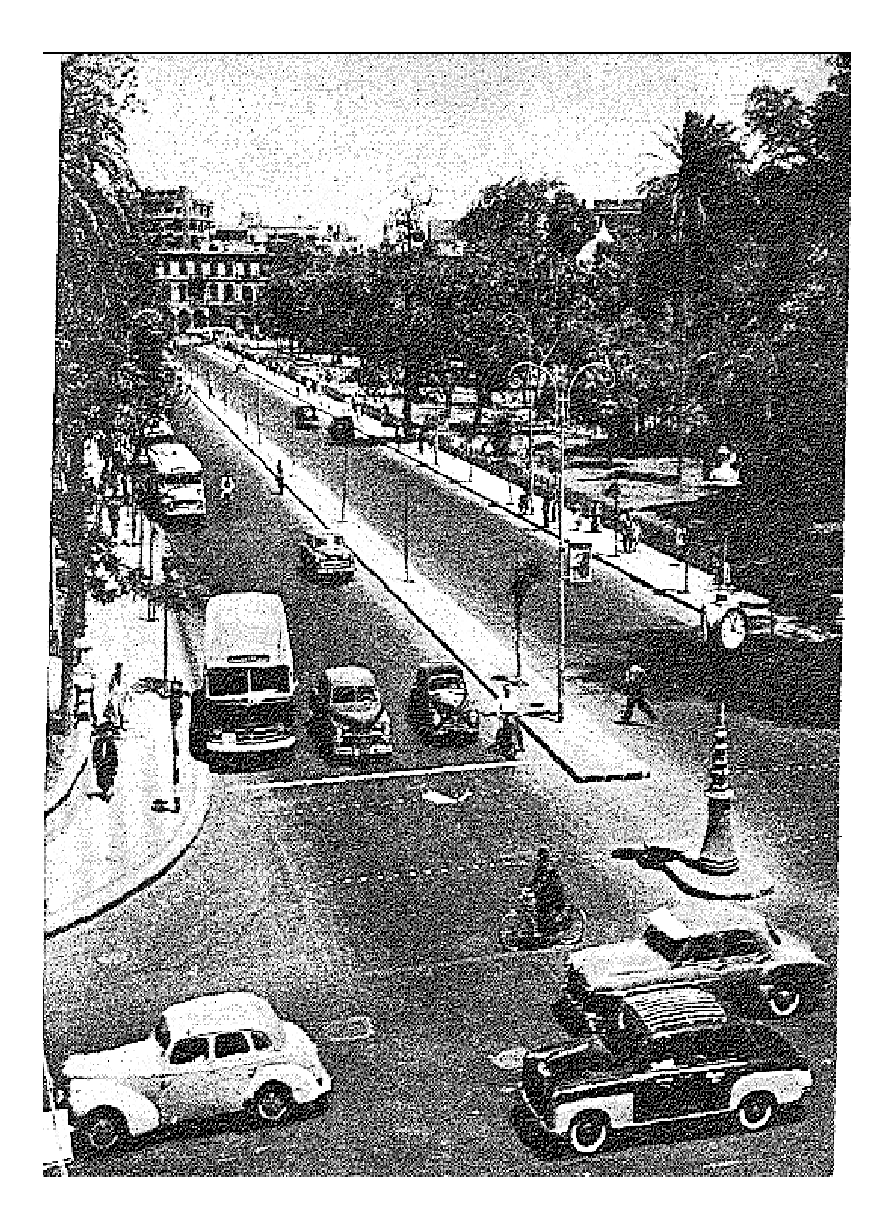
شارع ٢٦ يوليو وتقاطعه مع شارع محمد فريد وترى المباني الشامخة، والمحال التجارية العامرة وحركة المواصلات الدائبة، والمبنى المستعرض في نهاية الشارع من جهة الغرب وهو مبنى القضاء العالي.



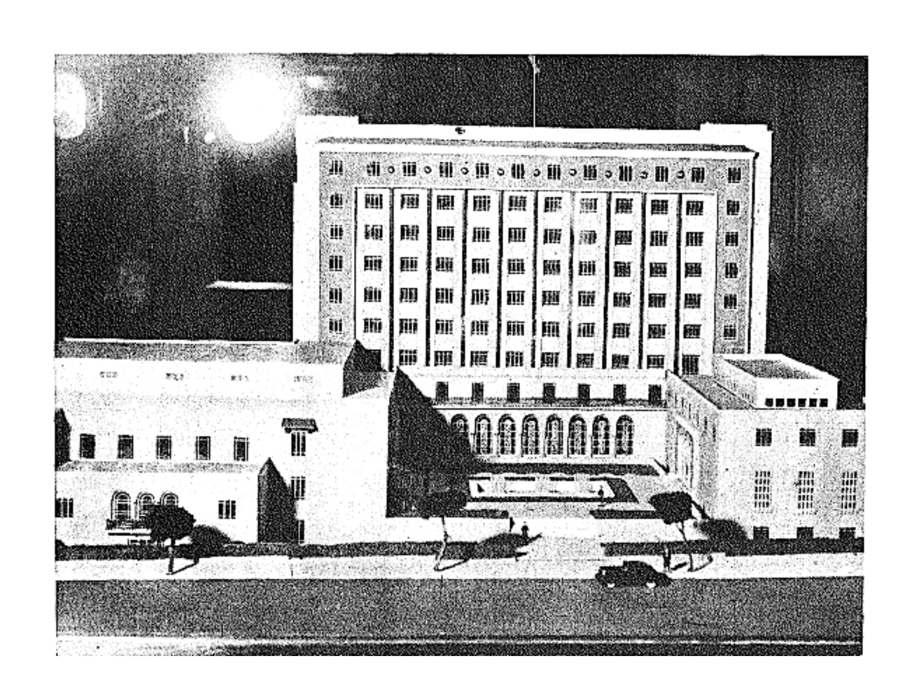
شارع الأوبرا: ويرى في وسطه تمثال إبراهيم، ومبنى الأوبرا وحديقة الأزبكية هو من أكثر شوارع القاهرة حركة، وينتهي من جهته البحرية بميدان رمسيس.



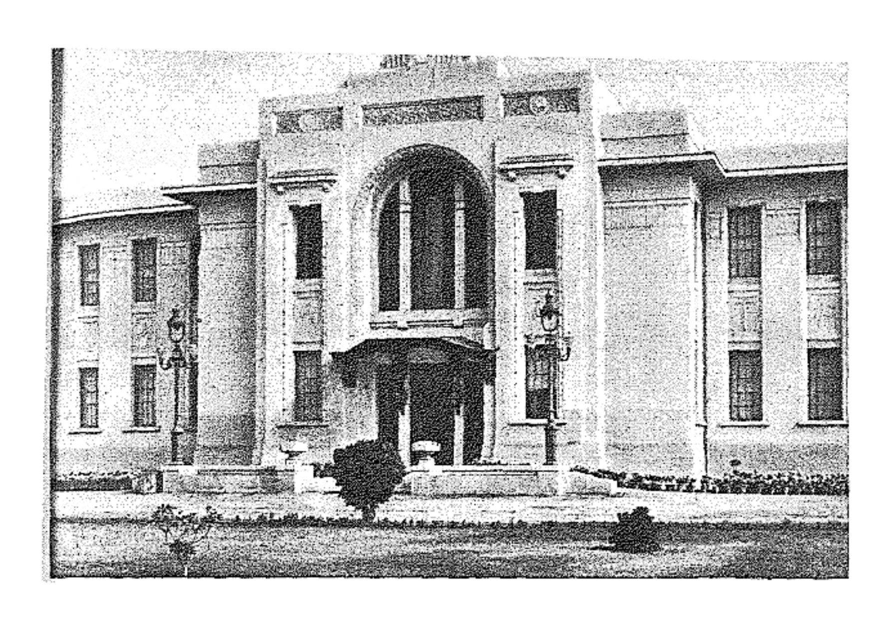
حديقة الأندلس بالجزيرة، وهي من أجمل حدائق القاهرة وترى الفسقية يحيط بها المدرجات السندسية، وصفوف الأشجار التي تشكل سياجا أخضر حولها.



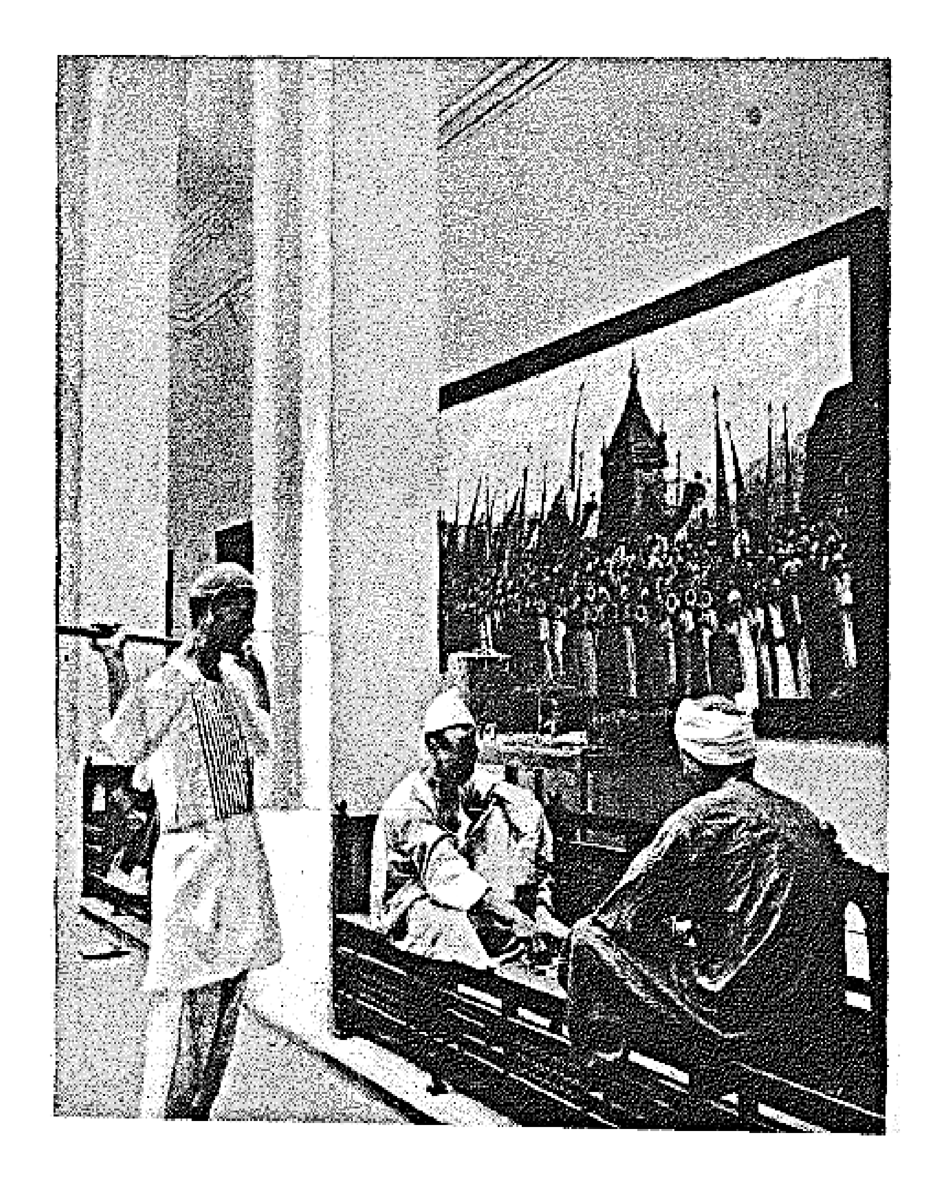
حديقة الأزبكية يخترقها شارع ٢٦ يوليو، ويعتبر هذا الشارع من أعمال الثورة الجليلة إذ سهل الانتقال إلى منطقة العتبة والشوارع المتفرعة منها.



مبنى جامعة الدول العربية على النيل أمام وزارة الخارجية، ويتكون من ثلاثة أجنحة تتوسطها نافورة.



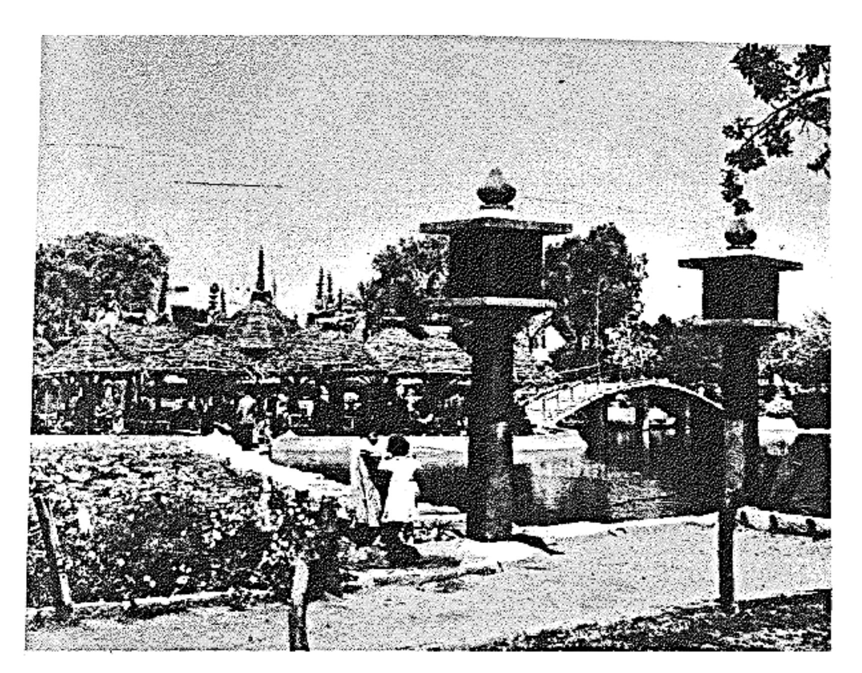
واجهة المتحف الزراعي.



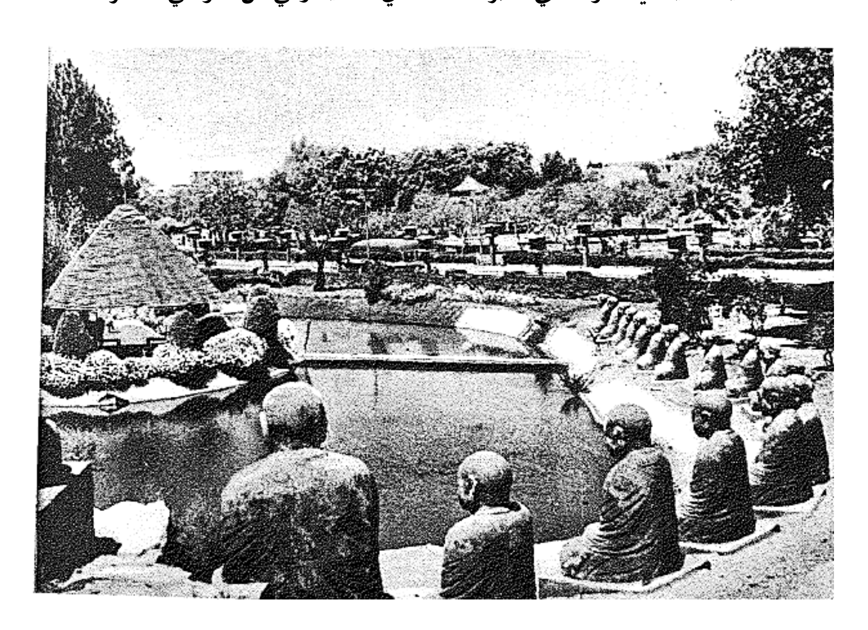
صالة حياة الفلاح في المتحف الزراعي بالدقي. ويرى فلاحان يلعبان النرد، وآخر يشاهدهما، وما ثلاثتهما سوى تماثيل أتقن الفنان صنعها، وعلى الحائط توجد صور تمثل الاحتفال بالمحمل.



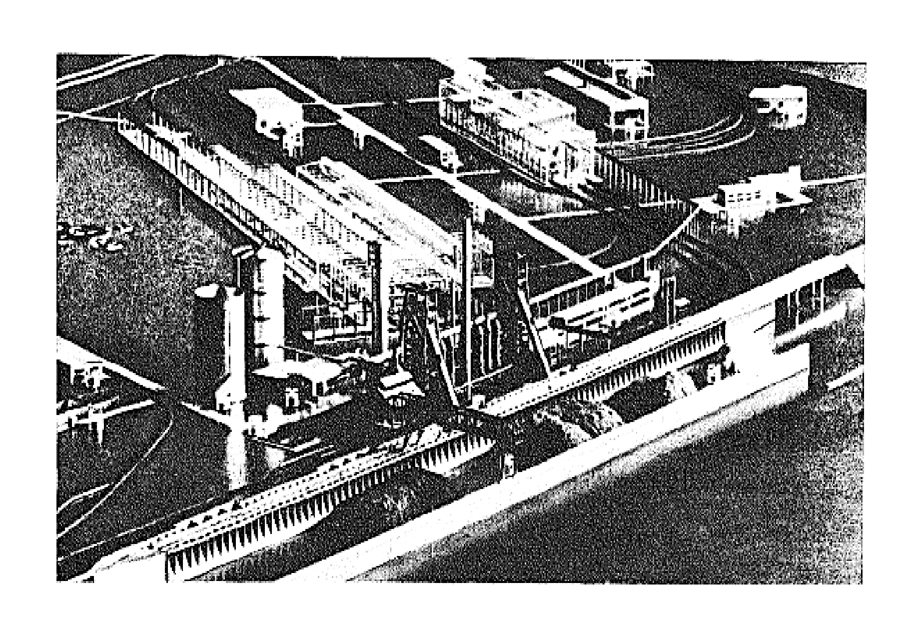
بعض أجنحة المستشفى الجامعي بالمنيل وهو من أعظم مستشفيات العالم.



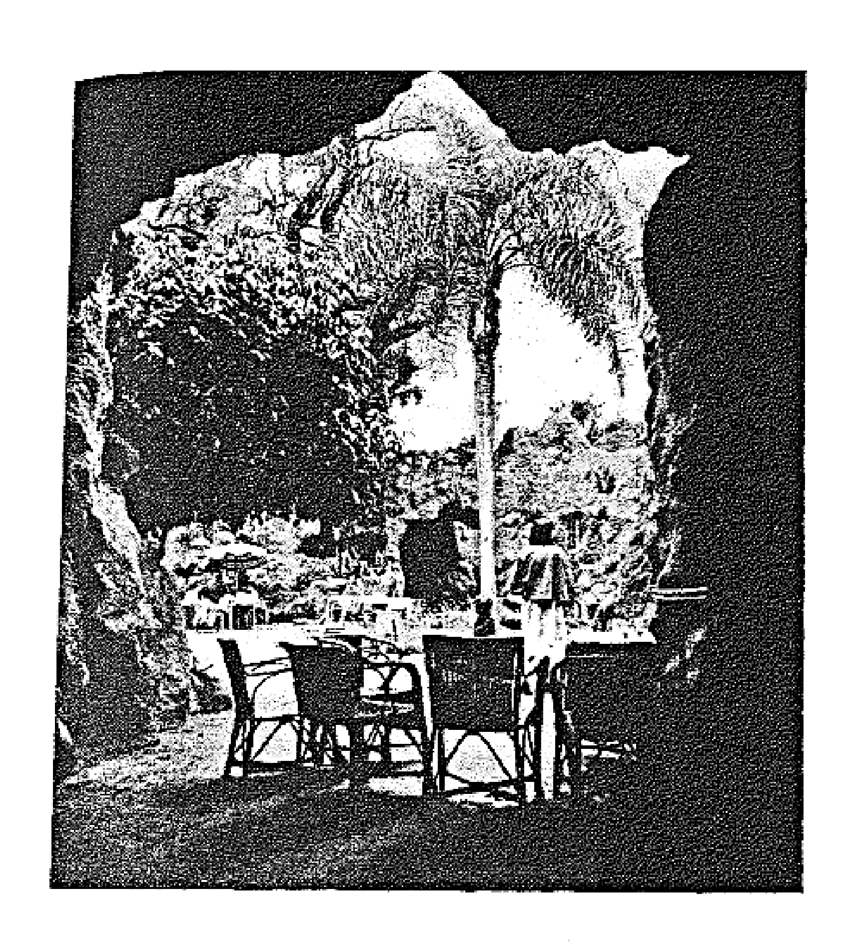
حديقة الحياة في حلوان التي تعتبر أحد المشاتي العالمية وهي من ضواحي القاهرة.



الحديقة اليابانية في حلوان، وقد جمعت بين المنظر الجميل والهواء العليل.

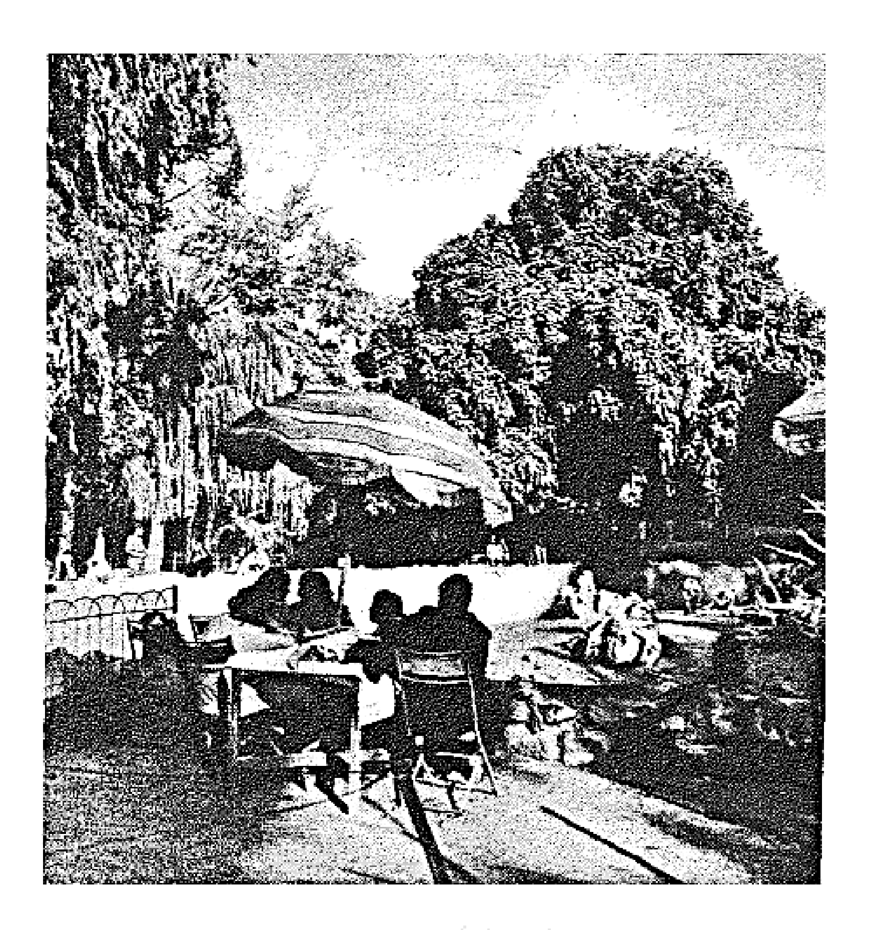


مصنع الحديد والصلب في حلوان، أحد المنشآت المجيدة التي أنجزتها الثورة المباركة كأساس لحركة التصنيع في مصر، ويقوم المصنع على مساحة قدرها ألف فدان.

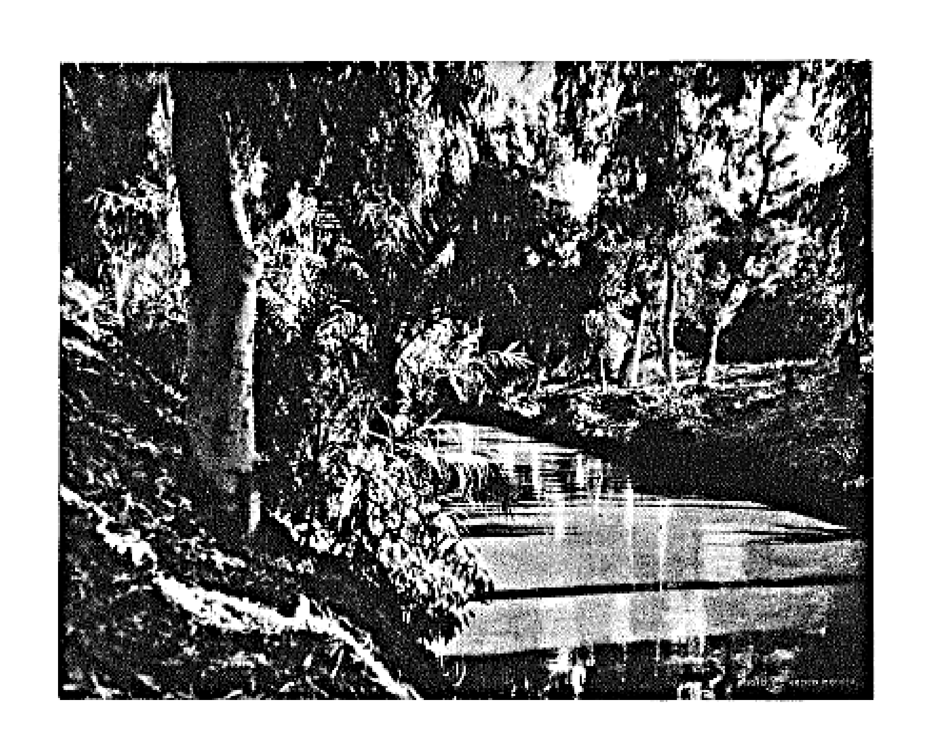




إحدى المغارات بحديقة الأسماك بالجزيرة. وفضلا عما تحتوي عليه من أسماك نادرة، فهي إحدى متع الطبيعة وروائع الفن بالقاهرة.

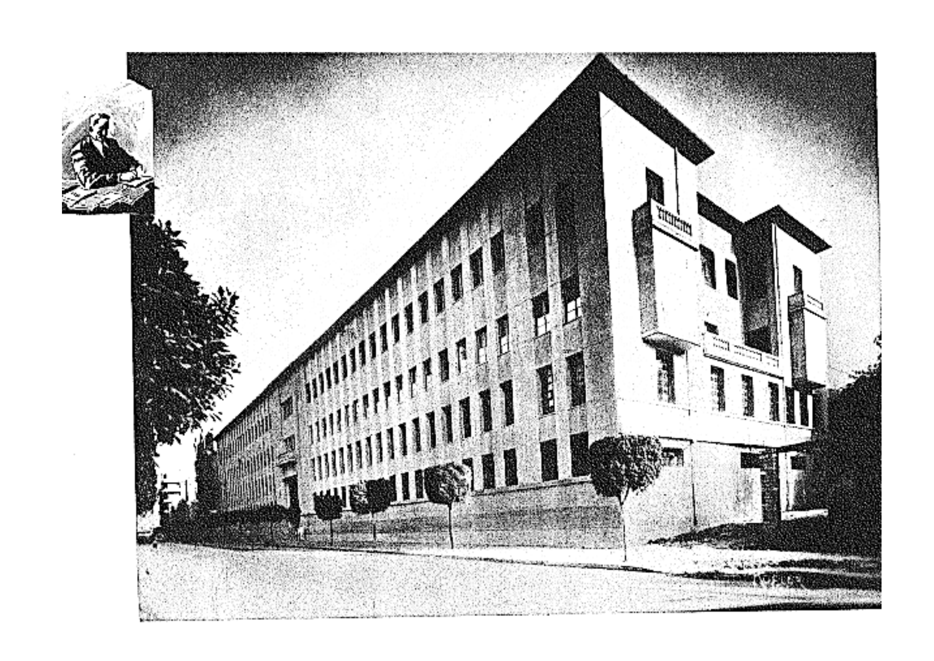








جبلاية القرود الصناعية بحديقة الحيوان بالجيزة، وهي إحدى المنشآت الحديثة بالحديقة.



مبنى دار الهلال بشارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) وهي من أكبر دور النشر والطباعة في العالم العربي وأقدمها، وتصدر عنها كثير من المجلات الشهرية والأسبوعية والمؤلفات العلمية والأدبية القصصية. وقد أسهمت بنصيب وافر في النهضة العلمية والأدبية الحديثة.

مصادر الكتاب

المراجع العربية

١– ابن الإخوة: معالم القربة في طلب الحسبة – نشر ليفي، لندن سنة ١٩٣٩.

٢– ابن إياس، محمد بن حمد: كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور، أربعة أجزاء.

٣– أبو المحاسن، جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي: كتاب النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة: ١١ جزءًا مطبوعة. دار الكتب المصرية.

٤– أحمد أمين: كتاب ظهر الإسلام. القاهرة سنة ١٩٥٥.

٥– أرنولد وكريستي وبرجز: تراث الإسلام جـ ٢ تعريب وشرح زكي محمد حسن.

٦– إسرائيل ولفنسون: موسى بن ميمون.

٧– الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار. أربعة أجزاء.

٨– السيوطي، جلال الدين: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.

٩– الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة. نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦.

١٠– القلقشندي، أبو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، من مطبوعات دار الكتب المصرية.

١١– المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أربعة أجزاء طبعة أحمد علي المليجي.

١٢– المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة: نشر الأستاذين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال.

١٣– النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، من مطبوعات دار الكتب المصرية.

١٤– بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبي حديد.

١٥– جاستون فييت: ألبوم دار الآثار العربية بالقاهرة تعريب حسن الهواري.

١٦ -جاستون فييت: دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية ترجمة زكي محمد حسن.

١٧– جاستون فييت: مقال عن جامع السلطان حسن بمجلة المقتطف ترجمة محمد وهبي.

١٨ -جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث.
١٩- جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي.
٢٠ -جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية.
٢١- حسن إبراهيم حسن، الدكتور: تاريخ مصر السياسي.
٢٢- حسن إبراهيم حسن: تاريخ عمرو بن العاص.
٢٣- حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر.
٢٤- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية: جزءان. القاهرة ١٩٤٦.
٢٥- حسن عبد الوهاب: العمارة في عصر مُحَمَّد علي. مقال بمجلة العمارة العدد ٣- ٤.
٢٦- خطاب عطية علي: التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول.
٢٧- زكي مُحَمَّد حسن، الدكتور: الفن الإسلامي في مصر، جزء أول. مطبوعات دار الآثار العربية.
٢٨- زكي مُحَمَّد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى.
٢٩- زكي مُحَمَّد حسن: كنوز الفاطميين. من مطبوعات دار الآثار العربية ١٩٣٧.
٣٠- زكي مُحَمَّد حسن: في الفنون الإسلامية. من مطبوعات اتحاد أساتذة الرسم بالقاهرة ١٩٣٨.
٣١- زكي مُحَمَّد حسن: في مصر الإسلامية، واشترك في الكتابة فيه آخرون.
٣٢- ستانلي لين بول: سيرة القاهرة. ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين.
٣٣- سيدة إسماعيل كاشف: مصر في فجر الإسلام. القاهرة ١٩٤٧.
٣٤- سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الإخشيديين. القاهرة سنة ١٩٥٠.
٣٥- عبد الرحمن الرافعي: الحركات القومية من عصر الحملة الفرنسية إلى الوقت الحاضر.
٣٦- عبد الرحمن زكي، الدكتور: القاهرة، في جزءين.
٣٧- عبد الرحمن زكي: دور التحف والجمعيات العلمية في مصر.
٣٨- علي إبراهيم حسن، الدكتور: جوهر الصقلي.
٣٩- علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى. القاهرة ١٩٥٤.
٤٠- علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية. القاهرة ١٩٤٤.
٤١- علي بهجت والبير جبرييل: كتاب حفائر الفسطاط. القاهرة ١٩٢٨.
٤٢- علي مبارك «باشا»: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ٢٠ جزءًا.
٤٣- فيليب حتي: تاريخ العرب. ترجمة المرحوم مُحَمَّد مبروك نافع.

٤٤- متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.
٤٥- مُحَمَّد أمين حسونة: جمهورية مصر في عامها الأول.
٤٦- مُحَمَّد أمين حسونة: جمهورية مصر في عامها الثاني.
٤٧- مُحَمَّد جمال الدين سرور: الظاهر بيبرس.
٤٨- مُحَمَّد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة : ١٩٤٧
٤٩- مُحَمَّد رفعت: تاريخ مصر السياسي، جزءان القاهرة.
٥٠- مُحَمَّد «بك» رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ جزءان طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
٥١- مُحَمَّد «بك» رمزي: تعليقات على كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي.
٥٢- مُحَمَّد «بك» رمزي: الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة، مقال بمجلة العلوم، السنة التاسعة، المجلد الخامس.
٥٣- مُحَمَّد عبد العزيز مرزوق: مساجد القاهرة قبل عصر المماليك، القاهرة ١٩٤٢.
٥٤- مُحَمَّد فريد أبو حديد: صلاح الدين الأيوبي.
٥٥ -مُحَمَّد مبروك نافع: تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٣٩.
٥٦- محمود «بك» أحمد: دليل موجز لأشهر الآثار العربية. القاهرة ١٩٣٨.
٥٧- محمود عكوش: تاريخ ووصف الجامع الطولوني. القاهرة ١٩٣٧.
٥٨- محمود عكوش: مصر في عهد الإسلام. القاهرة ١٩٤١.
٥٩- هرتس «بك»: فهرس مقتنيات دار الآثار العربية تعريب علي «بك» بهجت. القاهرة سنة ١٣٢٧هـ.
٦٠- وليم موير: دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن القاهرة ١٩٢٤.

المراجع الأجنبية

1- Briggs, M.S: Muhammedan Architecture in Egypt and Palestine, Oxford, 1924

2- Creswell: Early Muslim Architecture, Oxford, 1932.

3- Devonshire, Mme R.L: LEgypte Musulmane et les fondateures de ses monuments, Paris, 1926.

4- Devonshire,Rambles in Cairo. Cairo. 1917.

5- Lane Poole, S. History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925.

6- Lane Poole, S. History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925.

7- Lane Poole, The Art of the Saracens in Egypt, London, 1886.

8- Lane Poole, Cairo, Sketches on its History, Monuments, and Social Life, London, 1892.

9- Migeon, G: Manuel dart Musulmam, 2 vols. Paris, 1927.

10- Richmond, Moslem Architecture, London, 1920.

11- Wiel, G: Album du Musee Arabe du Caire, 1930

12- Zaky Mommded Huassan, Les Julunides, etude de lEgypte musulmone la fin du IXe siecle, Paris, 1933.

13- Marcel Clergel, Le Caire, 2 vole**.**

الفهرس